قضايا يمنية

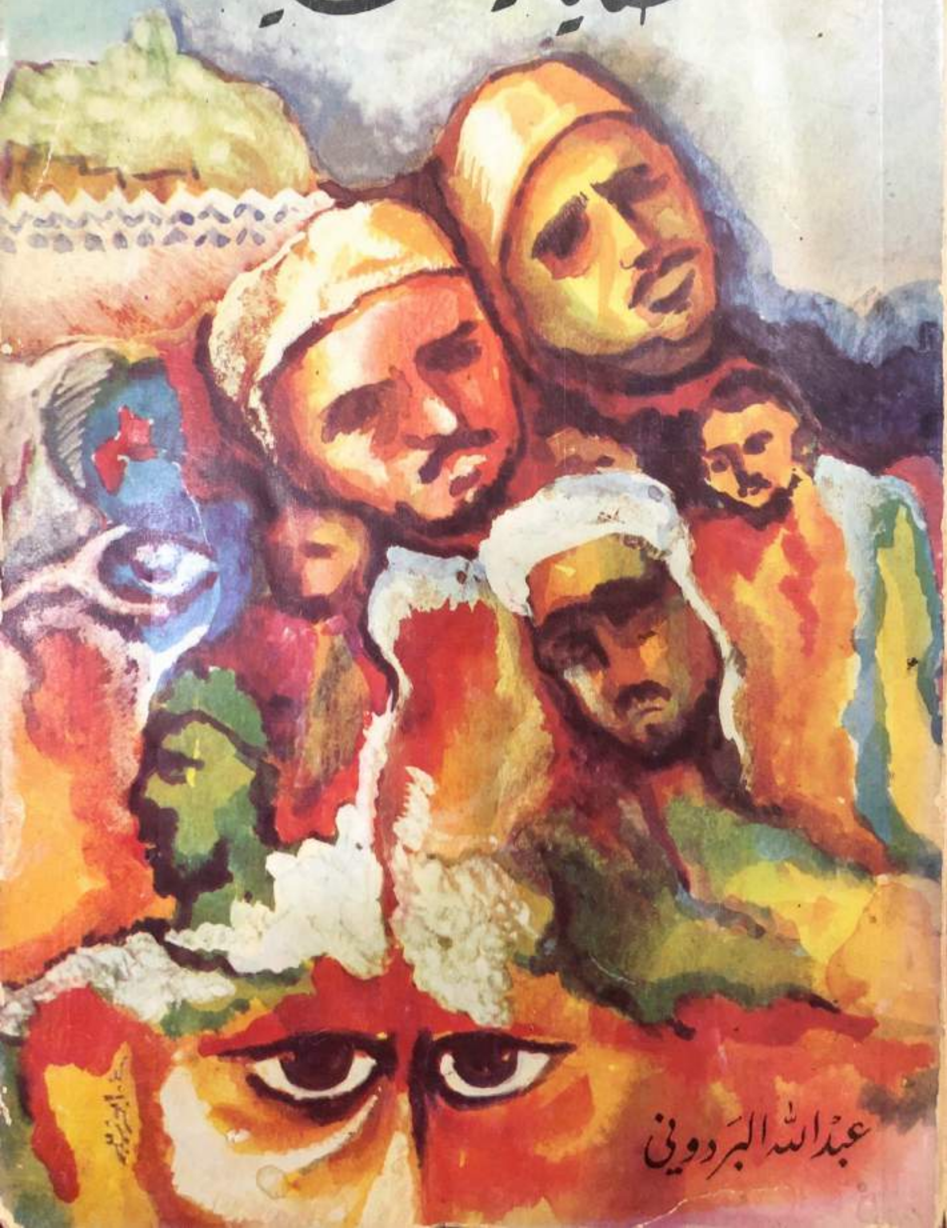

عبدالله البردوني

عبدالله البردوني

قضايا يمنية

المقدمة في قبضة التساؤل

تعال يا هـذا فقد أصبحت كتاباً تقدر على المشي كالأطفال ، وعلى الطيران كالعصافير ، ولكن هل تمشي وتطير بدون حساب يسير أو عسير ؟ اننا في زمن حساب النفس وحساب القيادات ، ولا أعنف حساب من حساب الكلمة المطبوعة ، وانت الآن في « قبضة التساؤل » ، هل تظن أن ماتسمى عاطفة الأبوة تمنعني من وضعك في محك الاختبار ؟. أعرف أن أبوة الكتب غير أبوة البشر ، لا تخلو الأبوة الكتبية من عاطفة ولكنها تنهض على أرومة عقلية ، أو هي عقل ترتكز على أساس عاطفي ، لا فرق بين عاطفة على أساس عقلي ، أو عقلية على أساس عاطفي ، المهم صحة الاساس .

صديقي لقد كنت مني كالجنين وأصبحت الآن وليدا تنتسب إلي وتنتمي الى نفسك لأنك مني منفصل عني ، وعلى هذا المفهوم أقف معك موقف التساؤل الفني والفكري ..

لماذا جمعت أشلاءك المنحوسة من أوراق المجلات المهملة والصحف المرمية ؟ أتظن أنك أعدت خلقك وتبديت أحسن مما كنت ؟

انا يا كاتبي مثلك أحد عناصر الحياة ، والحياة تعلمنا كيف نعيد خلقها حتى نعلو عليها لكي نبدع ما هو اجمل منها ، كما تعلمنا أن نكون أفضل مما كنا . خرجتَ من الصحف والمجلات كما تخرج البراعم الربيعية من أرحام الغصون الذابلة ، أتدري يا كاتبي ان البراعم التي يخرجها هذا الربيع هي نفس البراعم التي أخرجها الربيع الماضي ،

وهي في نفس الوقت غيرها ؟ لان شكلها يختلف وعبيرها يختلف حتى بمجرد اختلاف النظرة اليها ، واختلاف حاسة الشم من روائحها ؟

اذن هل اختبأت في أوراقك كاختباء الربيع ؟ هذا مجرد تشبيه وليس المشبه كالمشبه بـه في كـل الوجوه كمـا تعلمت يا صاحبي وتعلمت منك .

أتريد أن تقول أنك بزغت بزوغ الربيع من الاصفرار والذبول ؟ ولم تقلد أحدا من اخوتك الكتب ؟.

لا أبرىء نفسي من التقليد لان التقليد الاصيل منبع الاصالة .. ومن ذا يولد فناناً أو مفكراً ، انه لا يجدد أي أحد الا بعد تقليد..أعترف انني حاكيت الكثير من اخوتي الكتب ، فأنت تعرف أن « الدكتور طه حسين » قلد في كتابه « حديث الاربعاء » ، « سنت بيف » في كتابه « أحاديث الاثنين » وكلا الكتابين مجموعة مقالات كان الاول ينشر مقالاته يوم الاثنين وكان الثاني ينشر مقالاته يوم الاربعاء ، وكان في امكاني أن أسمّي نفسي « أحاديث الاربعاء » لان بعض موضوعاتي كانت « تذاع كل ليلة أربعاء من اذاعة صنعاء » وبعضها كان ينشر في آحاد الايام، لكني لاحظت غياب الدقة عن هذه التسمية، لأن بعض موضوعاتي كانت من ثمرات الصحف والمجلات الى جانب الاذاعة وفي أيام مختلفة ولكن في فترة متصلة من منتصف عام ١٩٦٣ الى الشهر الثامن من عـام ١٩٧٧ .

اذن على محياك غبار الفترة وشروقها ؟ نعم ان على كل بحث من أبحاثي سمات اسبوعها وشهرها وعليها بصمات كل الاحداث ..

هل تسمح أن أبسط السؤال الاول ؟ هل تجترىء على تسمية نفسك « كتاباً » ؟ قد مثلت لك بأحاديث الاثنين وحديث الاربعاء ويمكن أن أضرب مزيدا من الامثلة ، فأغلب كتب «سلامة موسى» مجموعة مقالات وأغلب كتب « مارون عبود » مجموعة مقالات وأشهر كتب « محمود أمين العالم » مجموعة مقالات .

هل هناك فروق او فرق بين الكتاب المصمم ككتاب وبين الكتاب المجموع من أشتات ؟.

نعم هناك فرق ، وأحيانا يختفي الفرق ، فأنت تجد فروقاً محسوسة بين كتاب « طه حسين ، حديث الأربعاء » وبين كتابه « مع المتنبي » وبين كتابه « ألوان » وكتابه « الفتنة الكبرى » .

ولكن هناك كتب تنشــر مفرقة وتجتمــع في نسق كتاب مثل « الشمس والعنقاء » لـ « خلدون الشمعة » ومثل كتاب « الشعر في اطار العصر الثوري » « للدكتور عز الدين اسماعيل » و « مثل قضايا جديدة » « للدكتور محمد مندور » ومثل « مسرحنا المعاصر بين الوجه والقناع » « لمحمود أمين العالم » ، وعلى إحكام النسق بين فصول هذه الكتب فان طابع المقالة يتراءى من فصل الى فصل ، لان اختلاف الحالة النفسية والمؤثرات الخارجية تزمّن العمل أو تكاد رغم الروابط بين الفصول المتعددة الاوقات والعناوين .

السؤال أين تضع نفسك بين هذه الكتب ؟.

لقد كان في مقدوري أن اسمي كل مجموعة فصلا فأضع فصلا للفكر الثوري ، وثانيا للفكر السياسي ، وثالثا لثقافة الثورة ، ورابعا للأدب الثائر،وخامسا للأدب الثوري .. الخ ، ولكني لاأريد أن أعقد مايصعب عقده أو مالاحاجة الى افتعال انعقاده فجاورت بين الموضوعات المتقاربة حفاظا على الجو العام ، وعلى التساوق الفكري فماذا يمنع من عقد الفصل بدلا عن التجاور ؟ . لان كل مقالة كانت تسطر نفسها بمقدمة تشكل ستارا رقيقا بينها وبين سابقتها أو تاليتها ، وهذا الجمع في هذا التجاور الحميم تنطبق عليه تسمية الكتاب أو المجموع كما تريد .

ولكن لماذا طالت مقدمة كل مقالة ؟.

هــذا يرجع الى أكثر مــن سبب : منها فلسفتي عن المقالة أو اعتباري للمقالة .

عندي أن المقالة الحقيقية هي ما تشكل نواة كتاب ، أو مشروع كتاب ، وكلما يكتبها هو المزيد من التفاصيل على اساسها ، والاكثار من بسط الإجمال .

أتريد أن تقول أنك كتاب تنطوي على كتب ؟.

لا أدعي هذا ولكن لكل مكتوب وجهان : النص المكتوب ، والانسان القارىء . القارىء المستبصر يقرأ من الكلمة المكتوبة فصولا غير مكتوبة باعتبار المكتوب اشارة ضوئية الى كتب تظمأ الى « المحابر » وتحن الى « الورق » .

يعتبر البعض أن مقدمات المقالات لامبرر لها ؟

هذا صحيح وغير صحيح لان هذه المقالات عنـدما كانت تخرج متوالية كانت تحاول أن تختصر الأزمنة الى زمانها .

ولماذا ياصديقي الكتاب أطلت المقدمات وهي دليل على سقم النتائج ؟

ان الحكم للفترة لأن زمان العمل من صميم العمل ، وفترة كتاباتي فترة البحث عن طريق ، ولهاث الطريق الى طريق ، والطريق جسر الوصول يختلف عنه ولكنه يؤدي اليه فهو جزء منه لان امكانية الوسيلة وجود الغاية .

كان قارىء كل مقالة يعرف ماسوف تفصح به من خلال المقدمة ؟

هذا جيد كوضوح طريق،وغير جيد لأنه يعطي الاسرار بلا أتعاب .

أغلب مقدمات المقـالات ياسيدي الكتاب رجوع الى الماضي .أو انجرار له .

تعرف ياكاتبي أن اليوم وليد الامس،والغد وليد اليوم،اذا كان الامس من صنع غيرنا فان اليوم من صنع أمسنا الذي نحن بعض صنائعه أما الغد فهو من ابداعنا بشرط واحد أن نقتل الماضي بالدراسة والتفهم حتى نكسر قبضته عن رقابنا ، أو نلينها على الاقل لكي نطوع أنقى عناصره لصنع اليوم من أجل أن نمتلكه لكي نمتلك الغد من قاعدة اختيار ، ولا يمكن أن نختار الا ونحن احرار من كل العوائق .

حسنا : تنطوي يا سيدي الكتاب على ظواهر قد تبدو مكررة أو متشابهة أو قريبة الى التشابه والتكرار ؟

ان الفترة الزمنية المتصلة الحلقات متداخلة الجوانب ، ولابد أن تتشابه واقعية الموضوع الكتابي ، ولكن مع اختلاف في نوع المعالجة الفكرية التعبيرية وهذا هو الاهم .

طيب . الاحظ كقارئ ان كل هذه الاوراق تمحورت احداثا معاصرة معدودة كالنضال اليمني ضد الاحتلالين « التركي والانجليزي » وكانقلاب عام ١٩٤٨ وكحركة ١٩٥٥ وثورة ٢٦ سبتمبر وحركة نوفمبر ، ومأساة أغسطس وحركة ١٣ يونيه الى جانب حروب الثورة ؟

هذا صحيح لان هذه أحداث رئيسية تفجرت عن تمخض وفجرت تمخضات ، ويمكن أي كاتب أن يكتب عن كل حدث من هذه الاحداث أكثر من كتاب لاني تناولت هذه الاحداث : مرة في سياق تاريخها ومرة في سياق التاريخ ، ومرة في سياق التاريخ الفكري ، ومرة في سياق التاريخ الاجتماعي ، هذا تبرير كاف ، ولا أحد ينكر عليك هذا النهج لان كل قضية تملك تاريخها ولها في التاريخ مكان ، لكن السؤال لماذا اختلف رأيك الى حد التناقض في تقويم كل حدث ؟

أروي حكاية من التاريخ : « ورد الزبرقان بن بدر الى رسول الله (ص) وكان بجانب الرسول اعرابي فقال أتعرف هذا ؟ فقال الاعرابي انه الزبرقان بن بدر : قال النبي ماذا تعرف عنه ؟ فقال الاعرابي انه لزكي المعشر كريم الكف ، شجاع القلب ، يآوي المستجير ويكرم الضيف فقال النبي للزبرقان لقد قال الرجل فيك خيرا ، فقال الزبرقان : انه ليعلم عني أكثر مما قال ولكنه أبدى مابدا له فالتفت النبي الى الاعرابي وقال اتكتم ماتعلم ؟ فقال الاعرابي انه لسيء المعشر بخيل الكف لئيم الطبع فقال النبي أتسبه بعد أن مدحته ؟ فقال الاعرابي لقد قلت عنه في الحالين ما أعلم ، ولقد صدقت في الاولى وما كذبت في الثانية » ومثل ذلك أكثر الكتابة فمن مهمة الكاتب تسجيل الحدث بأمانة واستخلاص الافكار عنه بأختبار ويمكنه أن يرجع عن بعض الافكار ويستحدث مكانها أفكارا بحكم جدة الرؤية الثانية ، وبفعل المراجعة على ضوء ثقافة ، وبفعل تقدم الكاتب سنا وذهنا .

يمكنك أن تكتب عن حادث ١٩٤٨ عشرات الكتب تختلف وتتفاوت آراؤك التقويمية على واحدية المادة ، وقد قلت لك ياكاتبي في بداية هذا الحديث إنا نتعلم من الحياة لكي نعيد صياغتها وأنت تلاحظ أن الطبيعة تقدم المادة شجرة مثلا فيعيد الانسان صياغة المادة الى عشرات الاشكال . يصنعها كرسيا ، بابا ، سقفا ، جفنة ، عصيا ..الخ ، ومثل ذلك الاطعمة فيمكنك أن تصنع من المادة أكثر من لون وأكثر من شكل ، وقد قلت

اني تناولت الاحداث في تواريخها وفي التاريخ ، وفي فكرياتها وفي الفكر ، والجأتني الضرورة الى قياس الحدث في بلادنا بنظائره في بلاد الآخرين وفي الزمن القريب والبعيد والاقرب والابعد لفائدة المقارنة علميا ، فاذا كانت مادتي هي الاحداث اليمنية فان الرؤية الفكرية والخط البياني وأدبية التعبير تجعل الحدث المكرر غير مكرر .

ألا ترى أن في امكانك لو زرت « لندن » في كل عام أن تضع في كل سنة كتابا يختلف عن سابقه مع أنها نفس المشاهد ولكن الجديد اختلاف الشهادة .

من الجائز أن أعتبرك كتابا من ناحية شكلية اذا كان بالضرورة تقسيم الكتاب الى أبواب وفصول فأين أبوابك وأين فصولك ؟.

وهل تسأل عن الابواب في عهد الانفتاح ؟ اني أرفع مبدأ سياسة الانفتاح أو مبدأ لا ابواب اذا كانت لا تؤدي وظائفها .

هذا مزاح دبلوماسي : اذا لم تضبطك أبواب فهل تقيدك روابط فصول؟

نعم وليس بالضرورة أن أقول فصل كذا وفصل كذا لأن قارىء اليوم أذكى مني وغاية الغباء تجاهل المعلوم .

هل أسمي ردك أذكى غباء أو أغبى ذكاء ؟.

لقد قلت ياصديقي الكتاب أن كل مقالة فيك نواة كتاب وعلى زعمك فأنت على بؤسك ثمانية وخمسون كتابا ولكن ياصديقي أين اشاراتك الى المراجع ؟ وأين ذيولك اللغوية والتاريخية ؟

حكاية المراجع تستدعي وقفة ، هل علمية الكتاب تنبع من اسلوبه وصحة عرضه ورهافة رؤيته ؟ أم ترجع الى مئات الهوامش ؟

مد يدك الى الرف فهذه ثلاثة كتب لسياسي محترف متهم بالخيانة على طول عمره السياسي ، والآن يكتب في الوطنية من قاعدة خيانية مفضوحة فهذا كتاب لايتجاوز المئتي صفحة وهو يعتمد على مئة مرجع ، وثانيه لا يتجاوز مئة وخمسين صفحة ويعتمد على مئتي مرجع .

ألا ترى أن العلم مادة تقتل وتحيي ؟ وتهدي الى الاضواء وتجر الى المهالك ؟

علمية الكتاب لا تأتي من المراجع وحدها ، لأن المرجع الخاطىء يجعل تبنيه أكثر خطأً ، وأنا لاأدعي علما لدنيّا فأنا عصير قراءة وثمرات ملاحظة ولم أتشكل من لاشكل وانما أنا أوراق اخضرّيت من أشجار وتعنقدت من أكثر من كأس وانبثقت في آثار القراءة والملاحظة كما تنبت آثار المواسم في خصور الاغصان وكؤوس الزهور وحبات الاثمار .

صحيح لم أثقل أوراقي بالهوامش ولكني تضمنت الروايات وذكرت المراجع بالاسم في ثنايا البحوث ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فأنا سجلت أحداث عصري على مختلف عقوده وهذا العصر أنا وأمثالي شهادة ميلاده وسجل وقائعه فاذا لم أشر الى مراجع فلأنني وأمثالي مرجع المراجع . لم يلمح الجاحظ الى مرجع وكتبه اليوم أهم المراجع عن أدب عصره وثقافة جيله أو أجياله وأدبيات طائفته ((المعتزلة)) .

قد تقول إن الكتب القديمة وبالاخص الادبية كانت لا تعتمد على مراجع مكتوبة لأنها تتكىء على الرواية ؟ ولكن ذلك في الاخبار، أما التفسير والنقد والهزات السياسية فقد كان كل كاتب مرجع عصره لانه شهادة ميلاده ، وهل لي أن أمثل بالمعاصرين ؟ فمنذ ا يكتب من السبعينات الى ماشاء الله دون أن يكون ((العقاد ومارون عبود وميخائيل نعمة)) أخصب مراجعه مع أن كتبهم لا تشير الى المراجع في الهوامش ولاتسحب أذيالاً ، لان علمية الكتاب تتلألأ من عرض الكاتب ومنهجه التحليلي ، فمن ينكر أن ((العقاد)) يمتلك أضخم رصيد ثقافي ، وأنه كان يمتلك أغنى مكتبة ومع هذا لم يهمش لأنه أحسن هضم الافكار فقدم أشهى الفكريات وأصبحت مؤلفاته تشكل مكتبة عامرة مع أنه تناول أعلام السياسة والحروب والاديان والفلسفة والآداب والتاريخ ، فهل أنت في حاجة الى مرجع وأمامك ملتقى المراجع كلها ؟. لا أنكر أهمية المراجع ولكن للتوسع، اما للعلمية ولأعظم الفوائد فان أكثر ما يهمني هو الكتاب الذي بين يدي بغض النظر عن الحواشي والذيول ، فكل كتاب يأتي من كتب وكل مؤلف يبزغ من مؤلفين هذا في الاغلب ، على أن هناك من هو كثير القراءة قليل التأليف أو قليل المقروء كثير الكتابة ، مثلك يا صاحبي فأنت لا تقرأ

متى تريد وما تريد ولا تكتب في وقت حس الكتابة لأن الغير من ضرورياتك ، وأنت مواطن صغير لاتنسق لك سكرتارية ، فاذا قدمت جهد المقل فهو منك فوق المنتظر .

أرجو الا ترشوني بهذه المسكنة الحقيقية فقد قام بالمهمة سواك فأما ان أكتب ما يثير ويغير ويضيف الى الادب والفكر والعلم ، والا فالألتقم الحجر ، وعلى الحجر اجلس معك لكي أرميك الى الشوارع والبيوت ولا تنتظر أن أحميك من السكاكين والانياب العلنية والسرية فأنت أشد مني قوة لأنك مسلح باستغنائك عن كل سلاح ، أما أنا فأطلق النار وظهري مكشوف من كل الجهات ولكل الطلقات .

صنعاء في ١٩٧٧/٨/١٢

عبدالله البردوني

* * *

حين يحكمون وحين لايحكمون

الانسان مخلوق متوتر بفضل تركيبه الجسماني المنتصب في وجه الشمس وبين معترك الرياح الاربع كشجرة تحركها ارادة ثم بفعل الحياة من حوله ككائن متأثر مؤثر .

فقد ولد وهو يحتج على ميلاده بصرخات البكاء وكأنه يقول : لماذا جئت ؟.. أو يقول أين مكاني في هذا الوجود الذي جئت اليه برغمي ؟ ونشأ التوتر معه من ميلاده وتزايد بتزايد جسمه وسنوات عمره وبكثرة المؤثرات فيه من ظواهر المجتمع وامتداد الوراثة وعوامل البيئة وبفضل هذا التوتر بحث الانسان عن مخرج لهذه الكبوت الكامنة فيه فكان الفن من شعر وأغنية ونحت ورقص..ونقش واعمار ارحب متنفس للتوتر الابداعي .. وكان أكثر الناس توترا أرهفهم حسا وأرسخهم أصالة في الفن ، لان الفن اصدق تعبير عن التوتر الدخيل في النفس .. لكن ليس كل الناس فنانين . لهذا تنوع التعبير عن التوتر فكانت الشجاعة القتالية تعبيرا عن التوتر .. وكان العشق تعبيراً عن التوتر وكانت المهارة في الألعاب تعبيراً عن التوتر،لأن التعقيد النفسي وسائل ابداعية في مجمل الفنون كمُنفس وكتدليل على عنصر الخلق في المخلوق ، ولما زاد ركام التوتر بفعل التكاثف الاجتماعي المنعكس على النفس والتعقد الحضاري بالتدريج نشأ الحس بالسلطة كإشباع لجوع التوتر ، لأن السلطة هي المسيطرة على ملتقى الفنون من

شعر وغناء وشجاعة ومهارة وتفكه •• فبعد أن حاول الفنان التفوق على فنان مثله وبعد أن حاول الشجاع غلبة شجاع مثله تزايد الحس بالسيطرة على شجعان أكثر وبالغلبة على فنانين أكثر لهذا نمت نزعة التسلط في الانسان كحس فني من نوع آخر ، لأنه بطبيعته يحب أن يأمر فيطاع أو ينفعل فيلفت اليه الإنتباه كتدليل على وجوده ، كما كان في طفولته يسيطر على أهله بالبكاء والانفعال • وليس الانسان الكبير الا امتداداً من ذلك الطفل المخبوء فيه • وكانت السلطة أرقى مظهر اجتماعي ، لان الملك والامير يسأل الناس عن كل شيء ولا يسأله أحد عن شيىء ، لأنه وصل الى مكانه بوسائل لا يعرف الكثير عنها أو بخصائص يجهل الكثير مصدرها فكان الملك في العصور القديمة « إلهاً » ثم في ظل الأديان ظلاً للإله ولما تعاقب الملوك والأمراء عرفت الأسرار أو بعضها فإذا الملك أو الامير واحد من الأشراف وقبيله واحد من القبائل •• والقبيلة الاكثر عصبية أكثر طموحاً الى الحكم أو تمسكاً به ، لانها أقوى شوكة فكانت القبيلة تحكم بفضل واحد هو أكثرها نباهة،وعندما يتكاثر الآحاد ويصبح للآباء بنون وحفدة تنقسم القبيلة الى بطون وأفخاذ ثم الى قبائل متصارعة كل ترى نفسها الأجدر وتتمادى في هذا الصراع حتى تضعف شوكتها فتطمح الى الحكم قبيلة أخرى فتبدأ قوية بقوة العصبية حتى يتكاثر أعدادها فتنقسم العشيرة الى عشائر يعمل بعضها في بعض حتى تصل الى الضعف فتطمح قبيلة أخرى يصيبها في النهاية ما أصاب مَن قبلها ، ويمكن أن تكون قبيلة (هاشم) و (أمية) و (القرشيتان) أصدق مثل على الصراع بين قبيل واحد انقسم الى معسكرين ثم معسكرات حتى ولدت النبوة من (هاشم) استكانت (أمية) مؤقتاً لتستفيق (ليلة الدار) على ثأر

(عثمان) ولم تكن القضية ثأراً في ذلك الحين وانما ذريعة لوصول (أمية) الى الحكم ومن ذلك الحين عرف مايسمى (بقميص عثمان) وأصبحت للحكم دعاية موجهة ودعاية معاكسة ، فحين حكم (الامويون) كان (الهاشميون) وأتباعهم يندّدون بجور آل مروان ، لانهم وصلوا الى الملك (العضوض) بحيلة السياسة وقوة السيف ونخوة الجاهلية •• وكان (آل مروان) يدعون عراقتهم في العرب وينشرون الدعاة عن حزمهم وكرمهم ، وانتهى (بنو امية) على أيدي (بني العباس) وأتباعهم بعد انقسام قريش الى (سفيانية) و (علوية) ثم (مروانية) و (حسينية) ثم (زبيرية) و (مختارية) وكل هذه نخرت في كيان أمية حتى سقط علم دمشق ، وعندما حكم العباسيون لم يتخلصوا من عيوب (آل مروان) ، لان المهم عندهم انتقال الملك لاتغيير أشكاله وأساسياته •• بل كان العباسيون أكثر ترفاً •• وأكثر افحاشاً في الثراء ، لأن الحكم ألهاهم عن استماع نقد الآخرين وان كانوا يلاحظون ظواهره من بادرة الى أخرى ، فقد قامت دولة (بني العباس) على أساس الثأر « لآل علي » كما قامت دولة « بني مروان » على ادعاء الثأر لدم « عثمان » ، لهذا كان « العلويون » أول المعارضين لبني عمهم «العباس» ، لأنهم قاموا باسمهم ووصلوا الى الحكم عن خديعتهم •• وكان « آل علي » يقولون في العباسيين من التجريح نفس ماقالوه في « الأمويين » من وصفهم بالطغيان وتضييع مال الشعب في مصالحهم ورغائبهم ، لكن لم تكن « للعلويين » شوكة قوية يغلبون بها « بني العباس » المؤزرين بالفرس • وكان الصوت الآخر صوت الشعب مكبوتاً عن الإرتفاع أيام « الامويين » و « العباسيين » معا ، فقد استمر الصراع بين « الهاشميين » و « الأمويين » ثم بين « الهاشميين » من « علويين » و « عباسيين » •

أما الشعب فكان تابعاً للمنتصر لاعنا للمنهزم دون أن يكون له رأي عام في الحكم ، لان المحكوم كانت عليه الطاعة وليس له حق السؤال ، الا أن الشعب كان يعبر عن توتره في شعر أو نكته •• أو أغنية أو غضبة صارخة تنقطع أنفاسها مع رقبة صاحبها كما حكي :

خطب « أبو جعفر المنصور » فقال : أيها الناس : لقد كفاكم الله الطاعون الذي اجتاح البلاد ببركتنا : فبرز له رجل من أقصى المسجد وقال :

« ليس من عدل الله أن يجمع بين الطاعون والمنصور » •

وهذه صرخة فردية ــ وان دلت على الجماعية ــ انتهت بموت صاحبها وانطوت اصوات الشعب فلا تتنفس الا في سرية •• ولا تعبر الا في خفوت •• لهذا كان (العلويون) في ذلك الحين أكثر شعبية لسبب واحد ، لانهم المعارضون والمحكومون الاحق بالحكم ، وكان (آل علي) يصمون بني عمهم بالاغراق في اللهو والعبث بالاموال والغفلة عن العدل ، وبعد مرور قرن على الحكم العباسي أصبح (العلويون) حكام القيروان وبعد قرن آخر حكام (مصر) ثم قامت لهم سلطة في اليمن أواخر القرن الثالث الهجري واذا بالمعارضين (للعلويين) في تلك البلدان يصمونهم بنفس ماوصموا (بني العباس) به ، الاغراق في الترف والتهاون بالعدل • وهكذا حين يحكمون يبتعدون عن العدل وحين لايحكمون ينادون بالعدل ويصمون الحاكمين بالجور ، ذلك لأن السلطة بطبيعتها تغلق سمع المتسلط عن الصوت الآخر الا أن المعارض والحاكم كانا من قبيلتين معيّنتين ومن يتصل بهما من أنصار وأشياع • أما الصوت الآخر صوت الشعب فلم تتهيأ له النوازع

النفسية ولم يتهيأ له المجال العام ، واستمرت الاحوال على هذا الشكل أو مثله حتى تفجر عصر الشعوب فأصبحت الجماهير مصدر السلطة وارادة الحكم ومبعث التغيرات والارادات ، فبعد أن كانت الجماهير اتباع المنتصر أصبحت هي المقررة صلاحية هذا اللون من الحكم أو عدم صلاحيته وان كان للجماهير في أول التجربة اخطاؤها في التمييز والممارسة تبعاً لفهمها السياسي ومقدار تجاربها • ويمكن أن جماهير بلادنا أقل الجماهير تجربة لكنها لاتقل عن جماهير الشعوب ادراكا للخطر وتداركا لوقوعه كما دلت كثير من الاحداث كمظاهرة ٣ اكتوبر عام١٩٦٧ بصنعاء وكما دلت مؤتمرات (عمران وخمر والجند وحرض) وأحداث نوفمبر١٩٦٧ وأغسطس١٩٦٨م، وكل هذه الظواهر والأحداث دلت على طموح شعبنا الى حكم نفسه واستقلاله التام ، ونزعة الحكم تؤدي الى الانتصارات كما تؤدي الى النكسات تبعاً لتوقيت الاحداث ووفرة دواعيها وقدرة امتلاك واقعها • كما أن الطموح نفسه مشروع وغير مشروع على حسب كثرة القدرات أو قلتها أو غيابها •• والذي أدى الى هذا الطموح وهذه التجارب هو انتقال العهد السياسي من حكم الواحد الى حكم المجاميع أو الجماعات •• ولقد تعاقبت المجاميع على التجربة الناجحة والفاشلة في الحكم •• وكان الماضي مايزال ممتداً في صميم تجربتنا المعاصرة وماحدث من التطور لايتجاوز الاسماء والعناوين أو سطوح القضايا •• فحين تتحكم جماعة تتهم المعارضين « بالتخريب » و « العمالة » وطلب المستحيل تعويقا للسكن ، وحين تنزل عن الحكم تمارس نفس عملية المعارضة السابقة وتتلقى نفس الاتهامات وتعطيها •• وقد لاحظنا أن المجاميع المحترفة للسياسة في بلادنا تناوبت السلطة والمعارضة مدة عشر سنوات من قيام الثورة الى الآن ، فحين

يحكم هؤلاء يتهمون المعارضين •• وحين يحكم المعارضون يتهمهم من كانوا حاكمين بنفس التهم وبنفس الكيل والوزن • وتسمية المعارضة هنا لاتعدو أن تكون تجوزاً •• كما لايعدو تسمية الحاكمين بالمجمع أو التنظيم أن يكون تجوزاً لسبب واحد هو انعدام البرنامج المكتوب في يد الجماعة المعارضة أو في يد الجماعة الحاكمة •• فليس للفريقين أي نظريات مكتوبة أو أي ورقة عمل يمارس الحاكم عمله على ضوءها أو يعارض المعارض أو المقاوم على مقتضاها ، لهذا يمكن تسمية الفئات أو الخلايا بالمجاميع أو الجماعات أكثر دقة من تسميتها بالتنظيمات •• ولعل الحضر السياسي للنشاط العلني للتنظيمات جعلها أقرب الى العصابات منها الى التنظيمات ، نتيجة لأعمال السرية وخوف الظهور في ظل الحضر •• لكن كل هذا لايمنع من تقصي حركة هذه الجماعات حين يحكمون وحين لايحكمون •

في يوم الـ ٢٦ من سبتمبر تقدمت اسماء تعلن تأييدها للثورة نيابة عن تنظيماتها وقدمت اقتراحاتها • وقد لوحظ يوم الثورة أن تسمى الحكم (باسمين) « الجمهورية اليمنية » من الساعة السادسة حتى الثامنة « والجمهورية العربية اليمنية » من ثامنة يوم الثورة الى اليوم • وكان وراء هذه الظاهرة الصغيرة زحام تنظيمي على التسمية بمقدار ماكان الصراع على كيفية المسمى بعد اربع سنوات من قيام الثورة •• وقد تأخر هذا الصراع على كيفية المسمى بفعل الحروب التي تكاثرت فيها الاطراف وتزايدت فيها الاهواء •• وبعد أن ألفنا قصف المدافع وحركة الكتائب بدأت المجاميع تتحرك في ظل الدخان فاذا بأصوات الاتهام بين الحاكمين والمعارضين تتعالى كأصوات المدافع ، ونتج عن كل هذا مؤتمر «عمران» الذي دعت اليه كل المجاميع وظهرت فيه جماعات على

المجاميع فاذا بها تحاول أن تحكم ، ولما وصلت بعض المراكز الهامة تلقت من التهم ما كانت تصبه على الآخرين ونتيجة للتراشق بالتهم تغلب الطرف الهام والمرفوض من كل المجاميع حتى انعقد مؤتمر « خمر » عام ١٩٦٥ م • واذا كان مؤتمر « عمران » يدعو الى تقارب اليمنيين والاعتماد على الشعب وتحديد العلاقات مع مساعدة الاخوة فان مؤتمر « خمر » قد دعى مباشرة الى السلام مع الاهل والجيران بغض النظر عن مبررات هذه الدعوة وعن نجاحها وتقبل الطرف الآخر لها •• وكما كان الظهور في مؤتمر عمران لجماعة معينة فقد كانت الكفه أرجح الى مجموعة أخرى في مؤتمر خمر ، فقد كانت دعوة هذا المؤتمر تركز على أصحاب الثقل لسبب واحد هو : أن هذه الجماعة تريد استغلال القوى العشائرية لكي تنفذ الاسلوب التقدمي من خلالها وبواسطة ممارسة الحكم من فوقها •• وكلا المؤتمرين أثارا مئات الاسئلة •• الا ان مؤتمر خمر كان اكثر تساؤلا •• كيف يمكن ان يحكم شبه تنظيم تقدمي على قاعدة من الثقل الشبه الاقطاعي ؟ وقد تمخضت تجربة المؤتمرين عن فشل جماعة عمران وجماعة خمر •• وبقيت قوة أصحاب الثقل هي الرأس للقاعدة التي حاولت أن تكون رأسا ، واذا بالتقدمية تصبح قاعدة للثقل الذي أريد له أن يكون قاعدة •• ثم كان مؤتمر (الجند) وكان مجرد تجمع يعيد ماقيل في المؤتمرين السابقين او يركز اكثر على مؤتمر (عمران) أو يتشبث بجانبيات لاتقف تحت راية • برغم وقائع الفشل أو النجاح النسبيين فقد ظلت الجماعات تتناوب الحكم والمعارضة اما بشكل فردي واما بشكل جبهوي برغم السرية والغموض ، الا ان الصفة القديمة العامة ماتزال منطبقة على كل المجاميع •• فكلهم حين يحكمون يتهمون المعارضين « بالتخريب وطلب المستحيل تعويقا للممكن » ويتهمهم

المعارضون : « بالاستغلال •• ومؤامرة القرابة •• وخدمة الشللية » ، « كلهم حين يحكمون يذكرون الحكم وينسون المحكومين •• وكلهم حين لايحكمون يذكرون الشعب ويتذمرون باسم قطاعاته •• وحين يحكمون لايسمعون الا أصواتهم •• وحين لايحكمون يسمعون أصوات الآخرين ويرفعون أصواتهم معهم •• وكل هذا بحثا عن الشعبية ـ شعبيتهم •• وشعبية أهواءهم ، لكن هل هناك من يبحث عن شعبية الشعب نفسه ؟ •• أو هل هناك من يستجيب لوطنية الوطن نفســه ؟ ••

ان شعبية الشعب ووطنية الوطن اكبر منهم حين يحكمون وحين لا يحكمون وإن أصح طريق الى الحكم هي عن طريق تحقيق شعبية الشعب وتحقيق وطنيــة الوطن ، لانه لايمكن ان يستوعب الشعب (مجمّع كذا) أو (مجمّع كذا) ولقد جربنا •• فلنفهم •

المسؤوليّة وَالسّؤال

لعل كلمة المسئولية والشعور بالمسئولية .. وأمانة المسئولية من معجم هذا العصر ، لانه عصر حساب المسئول عن ما أنجز ..والتساؤل لماذا لم ينجز .. وهل يرجع تعطل الانجاز الى خيانة أو استغلال .. أو الى أمن من الرقابة والسؤال .. ؟؟؟

اذا كانت هذه الاصطلاحات من معجم هذا العصر .. فانها قديمة المدلول بقدم الحاكم والمحكوم وان كانت هذه الكلمات لم ترتفع بصوتها الدال .. فقد كان اصلها في النفس البشرية ، كما كان مفعولها مؤثرا على الحاكمين قبل الحساب الشعبي وقبل مانسميه بالرأي العام ، فقد كانت تطول فترة الحكم أو تقصر بمقدار كثرة الانجازات الاجتماعية ، أو قلتها ، جرى هذا في حكم (كسرى) و (قيصر) كما جرى في حكم (اليونان) و (الهنود) و (الرومان) : فلم تكن ثورات (المرازبه) على أكاسرة فارس الا بدعوى سوء استغلال السلطة واحتكار منافعها ، وكان (المرازبة) واشباههم قادة القوات ومهيجي الجماهير ، وفي اليونان كان الاعتماد على الرأي العام في المدينة .لأنها كانت مجمع المفكرين وأهل الرأي، لهذا نشأ فيها أول برلمان عن انتخاب صحيح.. وكان هذا البرلمان هو الذي يسقط ويرفع على حسب صلاحية الحكم او عدم صلاحيته .. وكان البرلمان ينفذ هذه المهمة .. لانه كان يمثل مايسمى بالصفوة الطبقية والصفوة

الفكرية •• ولو لم يشرف على تسيير السلطة لقامت الغوغائية ــ كما كانت تسمي بالمهمة • لكن مــع هذه الديمقراطية لــم نسمع بكلمة المسئولية الا في العصر الحديث لكنها كانت قائمة في النفس ومؤثرة على كل سلطة ، وفي العهد الجاهلي قامت (بنو أسد) بأول ثورة على الملك (حجر) بعد اذل خضوع خضعت له حتى انه أمر بنقل القبيلة الى (نجد) ثم الى (تهامة) كما قال شاعرهم « عبيد بن الأبرص » :

أحللتهم نجدا •• وقد سكنوا على وجل تهامــه
أنت المليــك عليهمو وهمو العبيد الى القيامة

ولكن هؤلاء العبيد ضحوا بجلادهم في غضبة ثار وفي سخط على التسلط المجنون ، وكما فعل (بنو أسد) فعل بنو (تغلب) بملك الجزيرة (عمرو بن هند) على يد فارسهم وشاعرهم (عمرو ابن كلثوم) •

فالتهاون بالمسئولية قد كان يؤدي الى سقوط المسئول قبل أن يتحرك حس المسئولية في شعور عن منظور سياسي •• أو يتقولب في تعبير ، ولما اهل الاســلام توالت كلمة المسئوليــة والتساؤل •• والسؤال في مثل :

« ويسألونك عن الأهلة » •• « ويسألونك عن المحيض » •• « ويسألونك عن الروح » •• « لايُسأل عما يفعل وهم يُسألون » ، ثم شملت العبارة وتحددت مدلولاتها في مسئولية الراعي عن رعاياه اجتماعيا او عائليا او على أي صعيد •• كما في قول رسول الله صلى الله عليــه وسلم :

« كلكم راع •• وكل راع مسئول عن رعيته »

وهذا أول تعبير يسمِّي متولي أي شيء مسئولا وإن كانت

دلالتها ضميريا او تأجيليا الى يوم الحساب • لكن (عمر) رضي الله عنه قد نفذ هذا الامر وحدد أهمية المسئولية وثقل اماتتها حين قيل له ان يعهد الى أحد بنيه فقال : « يكفي آل الخطاب ماتحمل عمر » وحين استقدم (عمرو بن العاص) من مصر لكي يستقص منه المواطن المصري وقال في هذا كلمته الشهيرة والخالدة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا » وكان يقول عمر : « والله لو ضاعت عنزة في سهول العراق أو جبال اليمن لرأيتني مسئولا عنها » ومن هنا بدأت كلمة المسئولية تؤدي معنى سياسيا واجتماعيا كواجب من واجبات الحكم وحق من حقوق المحكومين ، ولما اصبحت الخلافة ملكا توارت كلمة المسئولية كما لم يبدأ السؤال ، لكن صمت السؤال وتعطل المسئولية قد أشعلا التذمر وجندا الفرق كل منها فرحة بما لديها ثائرة على من يقابلها او ينازعها الامر ، لهذا كان العصر الاموي احفل بالنزاع على السلطة واملأ بالفرق الخارجة ، ولم تستطع السلطة ــ شأنها في أي وقت ــ أن تستأصل أي جماعة مهما امتلكت من قوى لسبب واحد هو : توفر وجود الخارجين وامتناع الجماعة عن الفناء ، فقد اعمل الامويون والمروانيون السلاح في آل علي والخوارج وعجزوا عن استئصال هاتين الفئتين رغم وفرة سيوف الدولة وفرسانها واموالها وقلة سيوف الخارجين وفرسانهم واموالهم لان السلاح والمال أضعف العوامل اذا لم يتوفر الانسان الاكثر حسما • فما تزال الشيعة الى اليوم •• وما تزال الخوارج الى اليوم وإن تغيرت المفاهيم وتلونت الدعوات ، ومثل ذلك في العصر العباسي توالت الانتفاضات من خراشية وراوندية واسماعيلية بالاضافة الى الاعداء الوراثيين حتى اصبحت الدولة دويلات ثم سقطت كلها •• فأين المسئولية •• وأين السؤال عن انجازاتها •• ؟

لم يكن الشعب يومئذ يرى للسلطة عليه حقا غير الامن والانصاف بين المتشاجرين ، وقد كانت الحكومات توفر الامن وتنصف الضعيف من القوي في احايين كثيرة وعلى مختلف الاشخاص والمواقف ، اما المسئولية أو السؤال فقد تبديا بطريقة غير مباشرة •• وربما غير مقصودة . فاذا رجعنا الى تواريخ (ابن الاثير والمسعودي والطبري) فسوف نلاحظ أنهم كانوا ينسبون الكوارث والأحداث الى المسئولين في ازمانها •• بغض النظر عن المبررات والاعذار . فاذا ارخوا مجاعة (عام الرمادة) لايكتفون بتحديده بالتاريخ الهجري وانما يحددونها بزمن (عمر) كاشارة الى مسئوليته عما حدث . ومثل ذلك فيضان (الجزيرة) الذي اغرق المئات •• فهم ينسبون وقوعه الى ايام (مروان) كاشارة الى مسئوليته عما حدث. ومثل ذلك مرض الطاعون آخر ايام (مروان) واول ايام (المنصور) فهم ينسبونه الى ايام الخليفتين برغم عجزهما في ذلك الحين عن الوقاية او الدفع بالعلاج •

وعلى هذا فالمؤرخون القدامى لا يعتذرون لأي حاكم حدث في زمنه ما يضر بالمواطنين ولا يقبلون له عذرا بدليل نسبة المضار الاجتماعية الى زمن كل حاكم ، فعندما تؤدي الحكومة افضل الخدمات الى المجتمعات فهذا واجبها نحو نفسها كمسئولة •• ونحو مواطنيها كمسئولة عنهم ، اما عندما تحدث مجاعة او كوارث او غزو اجنبي فقد كان الدفاع عن أطراف البلاد من مسئولية الحاكم اجتماعيا وسياسيا تؤدي الى بقائه او اسقاطه فليس هناك من يعتذر للحاكم او يقبل منه عذرا ، وعلى هذا فالمسئولية قديمة بقدم الحكم والحاكمين الا انها اليوم أجهر صوتا واسرع حسابا ، وقد اعترف بها المسئولون كعبء •• والتزمها المواطنون كواجب وطني •• وكحق للمواطنة ، لأن المواطن يسأل ماذا حقق المسئول فلان وماذا حقق

فلان . فلا يهم أن يترأس فلان او يتوزر فلان وانما يهم ماذا حقق فلان برئاسته لوطنه .. وماذا حقق الوزير فلان بوزارته .. ؟

ان هذا هو سؤال اليوم ومسئولية اليوم .. وكلما تقدمنا في العصر تزايد عبء المسئولية وتكاثر المزيد من الامل ، فهناك حكومات لاتتوقف عن الانجازات .. ومع هذا تزداد آمال المواطنين اتساعا ، لان المنتظر يبدو اكبر مما وقع ونتيجة لرقابة الشعب وتساؤله تكاثرت اهمية المسئوليـة وتشعبت وسائلها وغاياتهـا ، فلا يكفي أن يحقق المسئول رخاء الوطن وانما يتحتم ان يحقق كرامته الى جانب رخاءه.. وسيادته الى جانب أمنه ، لأن المواطن أصبح خطيرا مهما كانت درجة فهمه وتعليمه ، ومن هنا تتساءل عن استغلال تذمرات اليوم ، هناك عدة جوانب للواقع .. وكل يراه من الجانب الذي يليه .. ومن زاوية الجماعة التي يتصل بها ، ممكن ان نلاحظ ان هناك من يشيد بالعهد البائد ، لانه كان اكثر انضباطا ، والسؤال : هل كان انضباط العهد البائد يرجع الى قوة الحاكم او الى ضعف المحكومين بدليل توالي انهيار الحكم حتى سقط ، ولم يسقط الا بعد أن فقد مبررات بقائه ، واذا فقد صلاحية البقاء قبل احدى عشر عاما فقد فقد صلاحيةالرجوع بعد ان مارس الشعب وجوده ، وعلى هذا فلا يصلح التذمر وسيلة دعوة الى رجوع العهد البائد او مثيله الى الشعب ، او الى رجوع الشعب الى العهد البـائد او مثيله ، لان الشعب حين يرفض بعض الظواهر القائمة يتبنى واقعا أفضل ، وليس فيما مضى ما يدعو الى الاسف عليه لان صلاحية الحكم تأتي من اقتناع الشعب به لما يخدم من مصالحه ويحقق من غاياته .. وإذاً فالأساس الوطني والواقع الافضل انجح لكل دعوة ، لان ليس هناك من يحب أن يسـير على ظهره ، واذا كان هناك من لايحب ان يتقدم فليس هناك من يحب ان

يتأخر •• بل ان التقدم والازدهار هموم الكل للكل وان اختلفت الآراء على الوسائل •• او في استخدام الوسائل ، واذا ظرنا الى الواقع بشمول فسوف نلاحظ أنه كأعظم نهر وانه يمكن ان يتحول قليلا الى اليمين •• او قليلا الى اليسار •• ولكن المستحيل رجوعه الى المنبع او توقفه • لكن برغم القدرة على التحولات يمينا وشمالا فان نهر الواقع او الشعب سوف ينساق الى مصبه •• وفي كل احوال التحول والانصباب سوف تزداد المسئولية ضخامة •• كما سوف يتصاعد ويتسع ويتنوع السؤال : ماذا حققنا •• ومن أين والى أين •• واين وصلنا ؟ •• لان الحكم دائما مسئولية •• والوطن دائما سؤال •

مجلة اليمن الجديد ـ العدد (١٤) ـ أكتوبر سنة ١٩٧٣

* * *

أحمد حسين الطرماح :

شخصية تبحث عن مؤلف

من عيوب التأريخ اليمني والتأريخ العربي القديم عامة أنه تاريخ ملوكي لا يُعنى بغير الملوك وقوادهم ووزرائهم،وماتفجرت في عهودهم من أحداث وما أخمدوا من انتفاضات،وقد يتصل تاريخ الملوك بتاريخ الادباء ، لكن على اساس العلاقة بين الادباء والحكام سـواء كانت العلاقة عدائية أو ولائية وقلما نزل التاريخ الى مناطق الفنانين واذا نزل الى مناطق الفنانين فعلى اساس ان فلانا كـان يلاعب الوزير فلان الشطرنج أو ان الفكاهي الفلاني كان يضاحك الخليفة أو ان الفنان فلان كان يغني من شعر فلان للخليفة فلان وهكذا. كان التأريخ رسميا كما كان الادب او اكثره رسميا ونتيجة لهذه الرسمية المتزمتة ، تشأ الادب الشعبي كرد فعل على رسمية التاريخ والآداب والفنون فانتشرت الاشعار الشعبية والاسمار الشعبية وتكونت من لغة الشعب وتفكيره آداب وفنون من ذلك « ألف ليلة وليلة » وسيرة عنترة ، وسيف بن ذي يزن ، وابو زيد الهلالي والظاهر بيبرس . واختار ادباء القرن الرابع والخامس لمقاماتهم ابطالا من الشعب كأبي الفتح الاسكندري في مقامات بديع الزمان ، والحارث بن همّام وأبي زيد السروجي في مقامات الحريري .

إذن فقد بدأ الأدب المقامي والاقاصيصي يتصل بالشعب وأبطاله فيفكر بتفكير البسطاء ويعبر عن تفكير الملايين واشواقهم رغم رسمية

لغته وبالأخص في المقامات • لكن التأريخ التقليدي بقي رسميا لسبب واحد ، هو ان المؤرخين اهتموا بالاعمال الكبيرة التي لايقدر عليها الا سادة القصور،هذا من جهة•ومن جهة ثانية أن أعمال أبطال الشعب كانت تتصل بالرسميات فالطبيب لايمارس حرفته الا في القصور القادرة على مكافأته ماديا ورفعه معنويا ، والمكتشف لا يفخر بسكتشفاته الا امام السلطان او حاشية السلطان ، والشجاع لا تتجلى بطولته الا في معسكر الامير،لهذا ارتبطت الاعمال بالرسميات فاقترن التأريخ بكل ما هو رسمي وبهذا بعد التأريخ عن الشعوب بمقدار ما بعدت الشعوب عن الاعمال التأريخية •

ولما أهل العصر الحديث وانتقلت الخصوصيات الى عموميات الجماهير واصبحت الحكومات من ابناء الشعوب المغمورة بدأ البحث عن مواهب الشعب وسِيَر أبطاله على أي مستوى من مستويات البطولة• لكن بلادنا لم تصل الى هذا المستوى الى الآن ، فعلى رغم ازدهار أدبنا الشعبي ما يزال تأريخنا رسميا أو شبه رسمي ، حتى التواريخ التي وضعت في العصر الحديث كالمقتطف « لعبد الله الجرافي » وتأريخ اليمن « لعبد الواسع الواسعي » وكتب « محمد زبارة » واشباهها لم تهتم ببطولة الشعب مع أن هذه الكتب ومؤلفيها عاصروا وعاصرت أهم الاحداث الشعبية كصراع التحرر بين اليمنيين والاتراك وحرب تهامة وحرب قعطبة بين الشعب اليمني والاستعمار الانجليزي•

واذا رجعنا الى تواريخ تلك الفترة فلا نجدها تتألق ببطولة الشعب ولا تحلي صفحاتها بذكر شهداء الشعب لهذا بقيت مئات الشخصيات المناضلة تبحث عن مؤلف •

ويمكن ان المع شخصية تلألأت في النصف الاول من هذا العصر هي شخصية « سيدنا أحمد حسين الطرمّاح » • نشأ هذا الرجل

العظيم في (بني مطر) واصيب بالعمى وهو في العاشرة ، ويرى محمد الحجري انه ولد كفيفا لكن الذين عرفوه كأحمد الواسعي ومحمد اليريمي وعلي فضه ، يقررون أنه عمي من أثر الجدري بدليل آثار حباته على صفحة وجهه • ويقول الذين عرفوه أن عينيه كانتا ملأ جفنيه ولا يعرف انه كفيف الا من اقترب منه • وبمقدار ما اختلف معاصروه في اسباب عماه اختلفوا في ميلاده واوائل دراسته •

يرى محمد الحجري في كراساته نوابغ اليمن ان احمد الطرماح ولد عام ١٨٥٦م لكن الاجازة العلمية التي كتبت لزيد الديلمي ـ وكان الطرماح من الذين أجازوه ـ تعطي عن الطرماح إشارة مغايرة لرواية الحجري فقد جاء فيها ما يلي :

وشهد له بالتحصيل سيدنا أحمد الطرماح المولود بصنعاء والمتخرج من جامع شهاره والشيخ حاليا بجامع صنعاء •

المهم ان الطرماح من مواليد عشرينات النصف الاخير من القرن التاسع عشر ولعل الاصح انه تعلم في شهاره • بدليل ان العلماء الافذاذ في تلك الفترة تخرجوا من هناك لان « شهاره وثلاء وزبيد وذمار » كانت بيئة العلماء لما فيها من المدارس العامرة ذلك لان التعليم في صنعاء كان يقع تحت سيطرة الاتراك وقد عرفوا بجهلهم ومحاربتهم للثقافة وبالاخص ثقافة التشيع والثقافة السياسية ، وقد عرفنا الذين قويت صلتهم بالاتراك وكانوا يمتازون بالظرف وبعض المعارف الادارية وكانوا يغطون نقصهم العلمي بالفكاهات واصطناع الأبهة ، أما العلماء الحقيقيون فقد كانوا من ثمار المدائن النائية عن صنعاء كذمار وصعده وشهاره وزبيد والمراوعه وثلاء ومناخه وحوث•

وقد كان سيدنا احمد الطرماح من ازكى ثمار تلك المدارس لما تمتع به من جرأة الارادة وقوة الشخصية ودقة التحقيق •

كان رجلا ربعه لا بالطويل ولا بالقصير وكان على تجهم وجهه ضحوكاً ألوفاً ، كان عريض الكتفين كبير الرأس دقيق الساقين ضامر البطن عريض الصدر في انتفاخ وكان يبدو مهيبا من بُعد أنيساً من قرب كما وصفه عارفوه كأحمد حسين المروني جار داره وعبد الكريم الحرازي،وقد عرف بالمواقف المناسبة لجرأته ومهابته وهي التي صنعت شخصيته المعنوية الى جانب شخصه الجسمي ، لأن تركيبه كان يبدو صالحا للعراك ولما انعدم المجال على العراك الجسمي انتقلت طبيعة المصارع القوي الى نفسيته وفكره لهذا كان عنيدا في آرائه قوي التمسك بما يرى صوابه . قال للامام المنصور وهو يبايعه اننا نبايعك حاكماً لليمن لا نائباً للاتراك حتى لا تشغلك النيابة بجمع الاموال وترك الزمام للباشوات .

وبعد فترة من مبايعته أعلن بعد صلاة الجمعة انه قد رجع عن بيعته لان المنصور مجرد قباض زكاة يجمعها للاتراك دون ان يعمل على جلاء القوات الغازية .

ومن تلك الفترة دخل سيدنا احمد الطرماح ميدان الصراع السياسي بكتفيه العريضين وبصيرته النيرة ومواقفه الصلبة فكان عدو المحاباة والمداجاة في مسائل العلم والقضايا الوطنية على حين كانت المجاملة الاجتماعية اغلب صفات معاصريه .

لكنه كان يرفض المجاملة مهما ألبت عليه من اعداء ، وعلى رغم قوة أعدائه فقد كان يقف في أكثر المواقف وحده بلا دليل ولا صاحب لكنه كان محترما عند اعدائه لأن مزاياه اكبر من ان تخفى . ولما قيل له أنك تَعْنف في جدالك حتى تعادي زملاءك ، قال لقد قال عمر من قبل « آه منك أيها الحق لم تدع لي صاحبا ولكن تكفيني صحبتك » .

ولم يكن استشهاده بهذه المقولة الا زيادة في تمسكه بما يرى

فقد كان علماء عصره قسمين : قسما لايرى لعمر فضيلة لاستئثاره بالخلافة دون علي .

وقسما يرى فضائله ويتكتم بها مجاراة لاصحاب التشيع لان مذهب التشيع كان اساس الحكم .

ومن هنا يمكن ان تلتقط الوان الصورة الثقافية التي تأثر بها الطرماح واثر فيها واتصل بها رفضا او قبولا .

كانت العلوم حينذاك تتكون من القرآن الكريم وتفسيره والفقه واصوله وهيئة المنطق النحوي والاشتقاق الصرفي ، وعلوم البلاغة تتكون من معان تتصل بالنحو والصرف ، وبيان يتصل بحسن تركيب الكلام وصحة نظامه ، « وبديع » يتكون من الذكاء الاجتماعي زينة التركيب ومجانسة الانغام . فقد يبدو هذا الصنف من العلم وهو كل ألوان الثقافة في عصر الطرماح ، مذاهب متقاربة وجداول من منبع واحد ، وهو لم يكن هناك أي خلاف في علوم اللغة والبلاغة لأنهم كانوا يتلقونها على اختلاف مذاهب أصحابها ويعنون بتفسير كل مذهب . لكن الطرماح كان يؤثر في اللغة المذهب الكوفي على البصري بحجة أن كل سكان الكوفة من العرب ويؤثر في المسائل النحوية المذهب التميمي على الحجازي بحجة كثرة الشعراء من تميم فلغاتهم حية في أشعارهم لأن الآداب تجدد اللغات،أما ثقافة الفقه وأصوله رغم واحدية المشرب ، فقد اختلفوا كثيرا في المفهوم والتأويل فانقسم مثقفو تلك الفترة الى شيعة من عدة فرق والى سنة لايختلف رجالها لانه لا رأي لأحد مادام النص هو الحكم والحكم .وهذه المذاهب لم تكن جديدة على مثقفي اليمن وانما كانت امتدادا لمدارس بغداد والقيروان والقاهرة والبصرة والكوفة .

والذي يلفت الانتباه الى الطرماح هو التزامه المذهب المعتزلي عقليا على سنيته ، مع أن المقبلي وهو أثير الطرماح كان ألد أعداء المعتزلة والصوفية كما في كتابه « العلَم الشامخ » .

إذن فقد كان الطرماح وزملاؤه امتدادا لمدارس يمانية وعراقية ومصرية ، كانوا امتدادا لعهد حضارة بغداد ولازدهار العهود العلمية التي تبلورت في اليمن من أواخر القرن التاسع الى أربعينات هذا القرن وكان الاختلاف في المفهوم العلمي يؤدي الى التهمة بالكفر أو الفسق أو الزندقة وكان الطرماح متهمـا بعدة تهم تنوعها مواقفه وآراؤه في المسائل .

كان علماء الهَدويّة يرون أن الموت على أي صفة أجل محتوم، وكان الطرماح يرى كالمعتزلة والزيدية أن هناك فرقا بين الموت الاعتباطي والموت الطبيعي فالقتيل مخروم الأجل أو مقطوع العمر لان القتل سبب في موته اما الموت الطبيعي فهو الناتج عن تعطيل القوى في الانسان اما بالهرم واما بالاسباب الموهنة للجسم . وكان الطرماح يدعم آراءه في كل مناسبة فاذا سقط على أحدٍ جدار قال لو لم يسقط عليه الجدار لما مات . « ومما روي عنه أنها سقطت على رأسه قطرات ماء فقال ماهذا ، قالوا انه «المدل» المعلق في شرفة منزل عبد العزيز الروني فنادى يا عبد العزيز ابعد المدل حتى لايقع على رأس احد وبعد ذلك تقولون قتله الله وانما قتله المدل » .

وعلى شيوع مذهبه بين المذاهب القديمة فقد كان يراه معاصروه ضربا من الزندقة او من الاستنباط العقلي .

ولقد قال له سيدنا حسين العمري ما تفعل بقول الله « اذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون » . فقال « من الناس من يستعجلهم الموت بعوارض الاسباب ولما يأت الاجل لان الاجل في

اللغة العربية ، هو المدة المعينة • ومحددة للرجل بتسعين عاما او ثمانين وللمرأة بتسعين الى مائة » •

وبهذا يكون الطرماح أول من فطن في جيله الى ان المرأة أطول عمرا من الرجل • وقد كانت له مقاييس علمية في مدة الاعمار استخلصها من التجربة ، قال محمد الحجري جربت مقاييس الطرماح فوجدتها غالبة على أكثر الناس مع أن فقهاء الهدوية يرون العمر الطبيعي للانسان ١٢٠ سنة ، فقد قال الطرماح : ان الانسان الذي يعيش والده ثمانين عاما ووالدته تسعين عاما يكون عمره سبعين عاما •

ومن هنا نستدل على ان الطرماح على تمكنه في القرآن وعلومه كان دقيق الملاحظة في الحياة والاحياء ، وعلى اشتغاله بتدريس الفقه واللغة كان مشبوب الوطنية ، سمع احد الجنود يقص اخبار الغارة الجوية الانجليزية على (قعطبه) عام ١٩٢٨ وعندما وصل الجندي الى قوله واسقطنا طائرة بالبنادق عند دخولها حدود بلاد الامـــام قطع الطرماح سياق الحديث وصاح في وجه الجندي « هي بلادك وبلاد الامام وبلاد كل راعٍ في شِعب وكل حارث في حقل ، هي بلاد كل مواطن » فقد أنكر الطرماح نسبة البلاد الى الحاكم لانها بلد الجميع ولم يكن أحد يعترض على تسمية بلاد الامام قبل الطرماح •

وكان على مشاغل عصره يطبق علوم السلف على حياة الخلف لهذا كان معادي لجدة آرائه أو لحسد زملائه على تفوقه •

قال : « احمد عبد الوهاب الوريث » في « كتابه الاسود » وفي الفصل الخاص بالحسد : من علامة هذا البيت ، أي البيت المالك الحسد على نعمة العلم أو على نعمة المال ، فاذا لبس أحدنا قميصا جديدا ظهر السؤال والغضب في عين الامام يحيى ، ولا يتحرج ان يسأل من أين لك هذا

القميص ؟ ولما كان الشيخ الطرماح لايملك مالا فقد حسده الامام وبنوه على سعة علمه وكثرة مريديه فكان لايذكره الا بالاعمى الشرير ولقد علم الطرماح تهكم يحيى به فاتتهز فرصة مذاكرة يوم انعقاد أهل الرأي في حرب الانسحاب ، فعندما قال الامام ان من أهم أسباب هزيمة جيشنا في تهامة هو حرارة الجو التي لايألفها الجبليون حتى ان اكثر العساكر اصيبوا بالعمى قال الطرماح : يامولاي لو وفرت لهم الخيام والماء والزاد لما اصيبوا بالعمى على إن العمى لايزيد من عظمة الرجال ولا ينقص لأن الفأر احد نظرا من الاسد ، والغراب أقوى رؤية من النسر فقال الامام لقد كذب الواشي بيني وبينك فقال الطرماح : ما اردت الا ابلاغك ان التعيير بالعاهات سلفية بدائية ومن طبيعة اطفال الشوارع غير المهذبين فقد كان الترمذي اعمى وابن عباس اصيب بالعمى وازداد علما . واستشهاد الطرماح بالترمذي وابن عباس يدلنا على مصادر ثقافته فلم يستشهد بالمعري ولا ببشار وانما استشهد بابن عباس المفتي في الدين وبالترمذي احد جامعي الامهات الست في الاحاديث النبوية .

وهنا يقوم سؤال لماذا كان الطرماح مستنيرا الى درجة التفرد على تقارب ثقافته مع زملائه ؟ ربما كان السبب ان ثقافة زملائه كانت ثقافة معيشية يتلقونها مسائل جاهزة ويمارسونها مسائل جاهزة بلا تجربة أو استنتاج لان مثقفي ذلك العصر كانوا يتعلمون اللغة لفهم الفقه ويفهمون الفقه لممارسة القضاء بين المتخاصمين او القسمة بين الورثة ، لان تعليم الفقه والفقه الهدوي خاصة كان المؤهل الوحيد لمحكمة القضاء أو لادارة المحافظة .

لهذا كان يجدّ الكثير في تحصيل هذا العلم كوسيلة لمنصب القضاء أو المحافظة فمن اين يستنير ذهن المثقف بهذه الثقافات مادامت

تلقائيا آليا وتطبيقا آليا ، لكن لم يكن الطرماح هكذا وانما كـــان يعتصر ما تلقى بالتأمل والمراجعة وكان أشد خلاف بينه وبين معاصريه على زواج المتعة ، فقد رأى زملاؤه رأي السلف المقلد : انزواج المتعة قد منع واصبح فاحشة فقال الطرماح : الحالة التي احلت المتعة تحللها كل حالة مماثلة او مشابهة فاذا قامت حالة مثل الحالة التي رخصت فيها المتعة أصبحت مشروعة لان للتحليل والتحريم اسبابا ، وكل الامور مرهونة بأوانها وما يماثل اوانها •

اذن فقد كان الطرماح يتثقف بتفكير ويفكر بعقل مثقف ، على أن رأيه في مسألة المتعة نفس رأي المعتزلـــة لكن العجيب كيف تفرغ لفلسفة المعتزلة في بيئة تكفرها أو تخطؤها على الاقل ، ولا تورد آراءها في كتبها الا لكي تخطئها وترجح عليها الزيدية •

ولقد استغل رجال السلطة مابينه وبين زملائه من تنافر فألبوا عليه أشد العدوان من اقدر الرجال كما هي عادة السلطات دائما في تشكيل التجمعات ضد كل شريف،وكان من أشد أعدائه الامام يحيى ، عبد الله العمري ، قاسم العزيّ ، عبد الله الوزير • وكان هؤلاء الثلاثة بطانة الامام ووزراء دولته ، ولكن قاسم العزي كان يعادي في شرف ، فقد كان ناظرا للاوقاف بمقدوره أن يحول بين الطرماح وبين الخبز والملح الا أنه له يمنعه حقا وان كان عنيف الجدال معه • وكان أكثر العلماء يجتنبون مجادلته خوفا من تأثيره لقدرته على الاقناع ، أما الامام يحيى فقد كان يريد الهاءه بجدال امثاله عن صلته برجال القبائل •

فالى جانب ان الطرماح اكبر عالم وطني فقد كان اجمل النـــاس صوتا وانشادا فكان يحضر الاعراس والمآتم لانشاد الافراح والعزاء وكان في هذه الصلة كريم القلب حسن المواساة ، لأنه كان يآثر مناسبات

للفقراء فيقيم مآتمهم وافراحهم بالمجان • وهذه الناحية الصغيرة من جوانب شخصيته ترينا الجانب الأدبي ، من ثقافته فكما قرأ الفقه بتأمل روى قصائد الانشاد بتأمل وذوق أدبي ، فكان يروي وينشد عشرات القصائد لشعراء اليمن من ابن هتيمل الى البرعي الى ابن بهران الى ابن اسحاق وكانت من قصائده المفضلة في الاعراس دالية ابن بهران :

بات سميري والـبرايا هجـود
بدر تجـلى في سـماءالسـعود
ما كان احلى سمري عنـدهم
حتى كـأني في جنـان الخلود

روى محمد الحجري عن عبد الله العمري انه كان في بيت محمد حميد الدين ثلاثة ايام كان اجمل ما فيها انشاد الطرماح وكان صاحب ذوق يميز بين اناشيد الافراح واناشيد المآتم ، وكان دقيق الملاحظة في جلاّسه يعرف ماذا يفضلون من الانشاد • وقد قال له عبد الله العمري : لو كنت في مجالس العلم والسياسة مثلك في أسمار الأعراس والمآتم ! فقال : (هذه حالات ترضي جماعات اما قضايا الوطن ففوق العداوات والصداقات لانها للكل وعلى الكل ولا تهاون في كبار الأمور) وعندما انسحب عبد الله العرشي ـ عاملنافيعدن ـ جمعالامام اصحاب الرأي للمشاورة في عقد الاتفاقية مع الانجليز ، فقال الطرماح « اذا كنا حاربنا الاتراك في شهارة ولحج فهل نهادن الانجليز ، اذا كان صراع الاتراك واجبا فصراع الانجليز أوجب ، ولسنا يامولاي في قلة من المال حتى تنقصك الرجال » وكان الطرماح الوحيد الذي سطع بهذا الرأي من بين سبعين عمامة •

ومن انصع مواقفه يوم سقوط ثلاثة طيارين يمانيين فوق صنعاء

وهم يتدربون على أول طـائرة ايطالية ملكتها اليمن عـام ١٩٣٢ م فبذلك اليوم ضجت المجامع الصنعائية بالتشاؤم ونادت بترك تجربة الطيران لأنه من عمل الشيطان ، وعقابه شديد .

اما الطرماح فقد رد القضية الى قلة الخبرة في صنع الطـائرة أو تسييرها وقال : « كم رأينا بيوتا تتهدم بأهلها فهل هذا من عمل الشيطان . ان لكل تجربة تضحية وما دام الناس يركبون الجو بالطائرة فينجون ويسقطون فعلينا أن نجرب فنسقط قليلا وننجو كثيرا وكم الذين سقطوا من ظهور الرواحل والجبال » . وقد أساء بهذا الموقف الى الكثير من الاصدقاء والاعداء فكاد ان يعيش وحده لكنه كان يتقبل كل مرارة برضاء وكان شعاره لكل اول آخر ولكل شدة فرج وأفضل الصبر عن رضاء أما الصبر عن ألم فلا صبر فيه ، ولقد قل اصدقاؤه حتى القطيعة ولكنه اصر على صدق الوطنية وصواب الرأي حتى تكاثر اصدقاؤه من الجيل الناشيء فالتف حوله المريدون من الطلائع الناهضة .

فاذا تساءلنا اليوم من انشأ جيل الوريث والعزب فسوف نعرف أن سيدنا احمد الطرماح هو ابو هذه المدرسة بفضل التفافهم حوله واخلاصه لهم ، وقد كان يقول الامام يحيى مشيرا الى الوريث ورفاقه انهم اصحاب « داود » رمزا للمنطقة التي يقوم فيها بيت الطرماح .

اذن فقد نشأ من آثار الطرماح جيل أكثر استنارة وأحر حماسة ، على حين نشأ الطرماح بلا رائد لكنه كان رائد المدرسة الحرة . وعلى رغم ثقافته السلفية فقد خلق مدرسة جمعت بين ثقافة السلف وتيارات العصر ووصلت فقه « الازهار » بأشعار شوقي كما مزجت مسائل « السيل الجرار بمقالات الكواكبي والمنفلوطي » ، ويرجع الفضل في رفع هـذه الشعلة الى الشرارة الاولى وهو سيدنا احمد الطرمـاح

ـ شخصية جيله وصانع جيل ثمانية وأربعين ـ لأن حياة الرجل التي امتدت من عام ١٨٦٦ م الى عام ١٩٤٤ م أثمرت عقولا ونسجت خيوط أول الفجر •

فاذا كان العظماء من ثمرات المدارس المنهجية أو من ثمرات البيئة الخلاقة فان الطرماح قد اوجد نفسه من تأمله الشخصي ومن عراكه الى جانب القضايا الوطنية والعملية فكان لعصرنا اول الطريق وكانت خطوته اول السير وكانت حياته اخصب منبت اعرقت فيها ـ جذور تلاميذه ومريديه من الوريث الى الزبيري ، على حين كان الطرماح جذور نفسه ومنبتها لانه كان معاصرا في بلد لم يقرع بابه العصر ، وطنيا في بلد لم يتنبه فيها الحس الوطني، لهذا استلهم عصريته من روح الشعب واقتبس وطنيته من حرارة حرمان الجماهير واشواقها المكبوتة فعلى هداه اهتدى جيل واختط طريقا كان فيها الهادي والرائد • فهو شخصية تبحث عن مؤلف •

فهذه الصفحات العجلى مجرد علامات على حياته الممتلئة ومجرد عناوين لتاريخه الكبير •

فالطرماح تاريخ يبحث عن كاتب أو كتاب يبحث عن قراء وما دام قد أُلهمَ فلن يعدم من يستلهم منه •

مجلة اليمن الجديد ـ العدد الرابع ـ يوليو سنة ١٩٧٢

بين المنطلق والهدف :

الفرسان الثلاثة

يرى البعض أنه يعرف نفسه •• ويرى البعض الآخر أن كل الناس يعرفونه ، فيمكنك أن تكتب اليه بدون عنوان •• وليس هناك من يعرف نفسه كما هي وانما كما يهوى ، وليس هناك من يعرف كل احد وانما يتوهم هذا •• والمعرفة عن طريق وهم الآخرين بنفوسهم تدلنا على حقيقة تمنيهم ، ومن الجميل أن نعرف أين وصل العظيم فلان •• ومن الاجمل ان نعرف ماذا يتمنى ، لأن التمني هو الوجه الآخر من الواقع الغائب •• والذي سيصبح بالتمني اكثر حضورا ، واذا كنا نعرف نفوسنا ونجهلها ويعرفنا الآخرون ويجهلوننا فاننا نعرف الواقع العام ونجهله في نفس الوقت ، نعرفه كما تريد أهواؤنا ونجهله كما هو ، اذا لم يتفق مع رغباتنا •

واذن فما هو الواقع كمنطلق وهدف •• هو هذا العالم الذي نفهمه ونحاول الاكثار من فهمه ، لاننا كلما فهمنا صفحةمنه قَلَبَ الصفحة الاخرى بسرعة النظرة والخاطر ، ذلك لان الواقع من صنع الحماقات بجنونها ومن صنع العبقريات بخبرتها وشذوذها ، والتسمية لأي شيء تعطي عنه مدلولا ولو جزئيا ، لأن اللغة أحد المقاييس••فهي تسمي الغراب الذي نزل على غصن ــ واقعا ــ ويقابله طائر ، وحياة كل الاجنحة بين وقوع وطيران تقع لكي تطير وتطير لكي تقع •• كحركة الواقع بين الاتجاه والتحول والانعكاس بقدرة الحماقات،

والعبقريات ، هذا من ناحية اللغة .. أما من ناحية الاصطلاح ، كما يقول النحاة ، فالمسألة فيها نظر على حد فلسفة الفقهاء ..

ولعل (احمد عبد الوهــاب الوريث) و (عبــد الله العزب) و (أحمد المطاع) قد فهموا واقعهم كمنطلق لمسيرتهم الإصلاحية ، الثورية بمفهوم ذلك الحين ، فقد التقى الثلاثة الفرسان في ميــدان واحد .. وانطلقوا من موقع واحد الى ثلاثة اهداف تشكل في النهاية هدفا واحدا هو : ازدهار اليمن .. وتوحيد عقيدته ووفرة حســه بجذوره وامتداده .. التقى الثلاثة في فكرة انشاء مجلة ثقافية تجمع بين الادب والدين والثقافة والسياسة والثورية والوطنية وفكروا في تسمية هذه المجــلة ليتناسب الاسم مع المسمى .. فعنونوهــا : (الحكمة اليمانية) لتوحي كلمة الحكمة بالمعرفة والفكرة ، والفن كمعبر .. والتوجيه والتعليم كوظيفة فنية فكرية .. فقد دللوا بهذا العنوان على معهد يتنقل على الورق ، وهذا يدل على دراية بوظيفة الاديب كاتبا وشاعرا .. فقد اعتبروا الاديب معلما في شعره وفي كتاباته لان الشعر في حقيقته هو الذي يجعلك تفكر وتكتشف ما لم يكتب على ضوء ما كُتب .. والنثر الفني والعلمي هو الذي يجلي لك الحقائق ويخلق فيك القدرة على معرفة حقائق أخرى ، فأنت تقرأ لكي تكتب أو تستنير او تعرف مجهولا .

لقد كان عنوان الحكمة أصدق دليل على صحة تفكير الفرسان الثلاثة .. ولكي يفندوا تهمة التفكير في عصر خنق التفكير ، كتبوا فوق العنوان هذه الآية :

« يؤتي الحكمة من يشاء .. ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا .. » .

وبعد العنوان كتبوا الحديث الشريف « الايمان يمان والحكمة

يمانية .. » ومن الآية والحديث والعنوان تتبين ان منطلقهم يمني .. والمجلة بموضوعاتها تنطبق كثيرا مع العنوان .

فقد أراد الفرسان ان يؤكدوا يمنية الايمان حتى لايظن احد انه يتطوع بارشادهم اذ لاجدوى من ارشاد الرشيد ، ولقد اشتركت كل الاقلام النابهة في أواخر الثلاثينات وبداية أربعينات هذا القرن في ابراز فكرة المجلة عنوانا وموضوعا ، وقد كان اهم الاهداف من المجلة هو التثقف اليمني واستقلال القلم اليمني ، ولقد حققت الكلمة صنع البيئة.وعلى مستوى أشعة تلك البيئة أضاء المنطلق الفكري وأومأت اشارة الاهداف البعيدة والقريبة .. فالتقى الفرسان الثلاثة على انجاز مخطط ثقافي ينطلق من الواقع اليمني القائم ويستهدف خلق الواقع الافضل من خلال الظروف وعن طريق تجاوزها الى ما هو أصح وأنقى.

يمكن لفتة الى الواقع الذي انطلقوا منه ان تبصرنا بمزيج ذلك الواقع وتداخله وسلفيته ومعاصرته وتعدد بيئاته كما تدل الآثار الفنية عليها . فقد كان شعر (الموشكي) و (العزب) و (الزبيري) صورة لخير ما في القديم وبشائر واعدة بجديد ، وكان شعر (السالمي) و (عبد الرحمن كوكبان) مجرد امتداد لادب القرن التاسع عشر وما قبله من أدب التصنع اللفظي .. وكان شعر (اسماعيل اسحق) و (سعيد السحولي) بواكير المعاصرة الخالصة كما سوف يفصل في غير هذا المكان ...

وكان الواقع اليمني في ذلك الحين يمد الماضي التركي سياسيا ويمد ما قبل التركي ثقافيا ، وكانت الاحداث المعاصرة تدل على شيخوخة ذلك الواقع .. ومن هنا انطلق الفرسان لوصل خير ما في الماضي وتنقية الحاضر لغاية الوصول الى المستقبل الموعود .. فأتفق الثلاثة على حسب الميول شبه التخصصي ان يضع كل واحد منهم

كتابا في فن معين لكي يعرف مواطن تلك الفترة ماضيه على حقيقته ليستبقي ما يكون ذخيرة اليوم والغد ويتجاوز الغثاء والركـــام .. فتصدى (احمد الوريث) لكتابة التاريخ الاسلامي ، وتحمل (عبدالله العزب) مسؤولية تأريخ الادب اليمني ، وتولى (احمد المطاع) تأريخ الحضارة اليمنية القديمة وأثرها وتأثرها بسائر الحضارات ، وبدأ الثلاثة أعمالهم وظهرت أوائلها في مجلة (الحكمة اليمانية) فوالى (الوريث) مقالاته الاسلامية بعنوان (الاصلاح) تناولت حياة العرب قبل الاسلام .. أثر الاسلام في انتعاش العلم وازدهار الحضارة ، المقارنة بين ماضي المسلمين وحاضرهم ، وتتوقف قليلا عند (الوريث) لكي تتجلى المنبع الذي صدر عنه ... وارتباط كتـــابته الاسلامية بالاصلاح الاجتماعي والثورية السياسية .

سبقت الاشارة الى واقع الفرسان الثلاثة بأنه كان امتدادا للسلف التركي وما قبله ، ولعل الوريث أراد تفكيرا اسلاميا واحدا تلتقي فيه كل المذاهب التي تنازعت اليمن من اوائل القرن التاسع الميلادي الى عصره القرن العشرين ، باعتبار أن تلك المذاهب كانت سياسية تنهض على الدين أو دينية تقتاد تيار السياسة .

لقد كانت العواصم الاسلاميـــة تلتزم اربعة مذاهب فقهيـــة : المالكي : الشافعي : الحنفي : الحنبلي ، وقد امتد المذهب الشافعي الى اليمن والتزمت به جماعات كبيرة في مناطق كثيرة ومتجاورة . وفي اوائل القرن التاسع جد على اليمن المذهب الزيدي فلاقى تقبلا اكثر وجماعات أحمس وأقلاما قادرة على نشره والتأليف حوله ، باعتبار الزيدية وأتباعها مدرسة نضالية فكرية .وكان سبب أغلبية هذا المذهب لالتقاء العلويين واليمنيين في الحرمان من الحكم وكراهية الحاكمين .. كما اوضح (عبـــد الله الشماحي) في كتابه : (اليمن الحضـــارة

والانسان) • وان تغاضى الشماحي عن قيمة الثروة الفكرية التي اغدقها هذا الصراع على التراث اليمني ، ولم يكد المذهب الزيدي يتيمن ويصبح أصول الحكم وسر الدين حتى جد مذهب ثان يحمل دعوته ويختلف عنه وهو المذهب الاسماعيلي،الذي لاقى أخصب قابلية وتيمن بدوره •• وعلى واحدية المنبع بين المذهبين •• فان الخلاف اكبر من ان يخفى وبالاخص عندما امتد من المذهب الزيدي المـذهب (الهدوي) • كان المذهب الاسماعيلي يرى أحقية الامامة في اثني عشر اماما أولهم (الامام علي بن أبي طالب) وآخرهـم (ابو الحسـن العسكري) وعند موت الاخير يحل مكانه امام محجوب يرشحه داعي الدعاة •• وكان هذا المذهب كثير الظهور •• كثير البطون، لكل شعار أكثر من سر •• ولكل قضية أكثر من تأويل وأكثر من « بناء » ، وقد تعزز هذا المذهب بدولة الصليحيين من أواخر القرن الرابع الى منتصف القرن السادس الهجري ، وان كانت معاملاتها الظاهرة على مقتضى الشرع أو على مذهب الجمهور •• فان دعاتها كانوا ينشرون الاسرار الخفية ويحشدون لها الانصار والاتباع ، وقد نبغ في هذا المذهب شعراء مرموقون يشيدون به ويندون بخصومه (كالحسين بن علي ابن القم) و (الخطابي بن أبي الحفاظ) سلطان حجور •• و (عمارة اليمني) السني تدينا والصليحي شعرا وسياسة ، ويقابله المذهب الزيدي بشعراء ومؤلفين لايقلون عن الجبهة المقابلة ان لم يفوقوها •

كـ «ابن هتيمل» و «الهبل» و «ابن بهران» والى جانب المذهبين الاسماعيلي والزيدي كان مذهب السنة المحايد بين المذهبين والمعتمد على حرفية الشرع ، وقد نبغ فيه مؤلفون عظام ومشاركون في الشعر (كمحمد بن ابراهيم الوزير) و (الحسن الجلال) و (محمد بن علي الشوكاني) و (صالح بن مهدي المقبلي) و (محمد بن اسماعيل الامير) ، وكان هؤلاء وأغلبهم من الهاشميين يلتقون مع المذهب

الشافعي تدينا لا سياسة ، ولا بد هنا من الاشارة الى نقط الالتقاء بين هذه المذاهب وسواها •

كان المذهب الزيدي يؤمن بالعقل كالمعتزلة •• ويدعو الى الثورة على الظَّلمة كالخوارج ويستدل بالقياس كالمالكية وبالاجماع كالشافعية ، اما الاسماعيلي فينتهج الثورة للتغيير الاشتراكي الجذري كما اتضح من حكم القرامطة في (البحرين) و (حضرموت) وفي جنوب الشمال اليمني بقيادة « علي بن الفضل » حتى نفاهم الاسماعيليون ظاهريا من مذهبهم •• وان كان الاسماعيليون لم يجاهروا بسر اعتقادهم السياسي فانهم يتفقون مع القرامطة كما يتفقون مع الزيدية في امامة (علي والحسنين) ويختلفون مع الزيود في امامة (محمد بن الحنفية) باعتباره علوي غير فاطمي •

وفي توارث العتُرة على الحكم لانه يحدده في اثني عشر اماما •

أما رجال السنة فمذهبهم الديني : قال الله •• قال رسوله : (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها) حتى انهم يخطئون الحسين « لخروجه » على (يزيد) ، (لأن الله قد يؤيد الدين ولو برَجلٍ فاجر) فرجال السنة متفقون وإن اختلفوا الى مجتهدين ومقلدين « لاشافعي » • كل هذه المذاهب تعاقبت على اليمن حتى وصلت عهد (الوريث) فكانت من مزاج واقعه ومن ظواهر ثقافة عصره ، على تعدد بيئاته الأدبية •• فانها تلتقي في ظواهر الواقع العام •• فانطلق (الوريث) من هذه الخلفية يفند الشبهات برفق ويحاول توحيد التفكير على ضوء نار الوطنية وقداسة الايمان بالاضافة الى ما جد في عصره من دعوات اصلاحية حمل رايتها (جمال الدين الافغاني) و (محمد عبده) و (الكواكبي) واراد (الوريث) الاستفادة منها لا محاكاتها لاختلاف الواقعين وتباين الجذور للواقعين •• فليس من خلفيات (الافغاني) و (محمد عبده)

ذلك الصراع بين الزيدية والاسماعيلية •• وانما كان ميدان المذهبين هي أرض اليمن ، صحيح أن للاسماعيلية خلايا في (الشام) و (العراق) و (فارس) •• وللفاطمية واقعاً في (مصر) و (المغرب) الا انها لم تشتبك مع معارضة كالزيدية ، وتتيجة لاختلاف جذور الواقعية اختلفت جذور اصلاحية (الوريث) عن نهج غيره ، لانه كان يستهدف واحدية التفكير لنجاح دعوة الثورة الوطنية على الامام (يحيى) :

« لايفرق الاسلام بين الضعيف والقوى والصغير والكبير في أداء الواجب وأخذ الحق •• وفي فضائل الاخلاق ، فان الصدق والامانة وحسن الجوار من صفات المؤمن القوي والمؤمن الضعيف •• وما حدث من فساد وما انتشر من رذائل انما يرجع الى الامراء والملوك الذين غلبت عليهم الشهوات حتى كانت تحكم أحدهم الجارية ، والغلام والنزوة والمدام ، غافلا عن واجب الرعية وحقوق حمايتهم من الغزو وأمن بعضهم من شر بعض » •

وكان من رأي الوريث أن توحيد العقائد أخصب لتقبل الدعوة حتى لاينهج كل فريق في الثورة نهجا مغايرا فيتحول الاجماع الثوري الى تناحر طائفي •

صحيح أن مقالات (الوريث) لاتقول هذا بصريح العبارة ولو قالته لوقع ما كان يخشاه ، لان حملة تلك المذاهب كانوا مقسوعين بالسلطة القاسمية فاضطرت الى التستر ، والخلايا المتسترة تستغل كل بادرة جديدة لقيادة الواقع اليها ، لهذا عمل (الوريث) على طرح أصح المفاهيم الاسلامية دون أن يتحدى بها أحد أو يفند مذهب أحد ، لان المجاراة والنفوذ من خلالها أنجح من الهجومية والتحدي ، لان التحدي والهجوم يخلقان التحدي والهجوم المعاكسين بحكم ردود الفعل على كل فعل وانبثاق النقيض من النقيض •

فقد انطلق (الوريث) من صميم الواقع الموروث والماثل ، لمحاولة تصحيحه والخروج منه الى امتداده المتجدد لا الى ضده .. وان كانت هذه الدعوة على صحة منطلقها ورشد قصدها لم تبلغ هدفها لعنف السلطة ولقصر عمر (الوريث) الذي لم يتجاوز سبعة وعشرين عاما .. الا انه واصل هذا الشوط من أول العقد الثالث لهذا القرن حتى وفاته في مطلع الاربعينات..فانقطع شوط الفارس قبل الوصول.

ويمكن أن يخص الوريث بحث مستفيض يفصل ريادته ودعوته وفنه الكتابي والشعري وأثره وتأثره .. اما الآن فالمنطلق الثـاني في الانتظـار .

يمكن ان منطلق الفارس الثاني جانب من منطلق (الوريث) .. فكما انتهج الوريث يمنية الايمان انتهج (العزب) يمنية الادب .. فنشر في الحكمة أربعة فصول، الفصل الأول والثانيبعنوان : (الادب وكيف يكتب) وكان كمقدمـة لبحث طويل في الادب التوجيهي ، الفصل الثالث والرابع (نظرة في الادب العربي وحظ اليمن منه) .

ولعل مبعث هذه الفكرة هو كتاب (في الأدب الجاهلي) (لطه حسين) الذي صدر عام ١٩٢٦ وشكك في صحة نسبة الشعر الجاهلي الى بعض الشعراء اليمانيين لاختلاف لغة الشمال عن الجنوب في ذلك الحين .. وقد رد (العزب) هذا التشكك الى غياب المكتبة اليمنية عن (طه حسين) فأراد أن يضع كتابا عن أدب اليمن يحتوي تراثه ويدل الباحثين عليه .. هذا من ناحية أدبية .. أما من وجهـة سياسية فقد كان (العزب) يلح على القومية اليمنية وعلى الاعتزاز اليمني شعرا ونثرا .

لو لم أكن يمني •• كانت مُنيتي
انـــي يمـــاني أبـا وجـــدودا

نحن الــذين بنوا حضـــارة حمير
وبنـــوا أمـــام المطرات ســـدودا

وعلى تفوق (العزب) في الشعر فان كتابته الادبية والسياسية ضائعة الموضوع في كثافة الانشاء الخطابي ويمكن تفصيل هذا عند تناول (العزب) كاتبا •

أما الفارس الثالث (احمد المطاع) فقد انطلق من جانب ثالث من نفس المنطاق العـــام لزميله •

فنشر مقالتين في تاريخ الحضارة السبئية والحميرية •• وفضلها على معاصراتها من الحضارات دون أرقام ومقارنة ، فقد كانت كتابته أقرب الى قصائد الوصف منها الى بحث المؤرخ ومنطقية الكاتب •• الا أنه كان يستهدف لفت اليمنيين الى ما حقق جدودهم ليجددوا ما غبر •• أو يبتكروا ما هو أبقى وأعم نفعا •• وألمع مزاياه الكتابية انتقاء اللفظة البراقة •

« شمخت حضارة اليمن كأطوادها الراسية مشرقة كشمس صيفها •• عباقة كربيـــع أزهارها •• فامتدت ذوائبها الى السماء ولامست أنامل فروعها سور الصين •• وجدران (ايوان كسرى) وغابات الهند •• فيالها من حضارة فاضت بالفنون المدهشة والعلوم المنتجة •• والبنيان العامر والفن الزاهر والمجد الاثيل والشرف الذي يطاول السماك ويسير مسار الافلاك » •

ويمكن تقصي خصائص المطاع الفنية في بحث منفرد ، لان المهم هنا هو : منطلق الفرسان الثلاثة التي توحدت على اختلاف أهدافها ،

لان العمل العظيم لا يؤدى بأسلوب واحد وعمل واحد ولا يؤدي اليه طريق واحد .

فقد استهدف الفرسان الثلاثة انعاش الروح الوطنية وايقاظ الجيل النائم على الرفات . والملفوت الى الوراء .

لقد اختط الفرسان الثلاثة أصعب طريق من أصح منطلق وان لم يبلغوا الهدف ، فيكفي أنهم حاولوا فكانوا جواب النداء .

ومن المؤسف أن محاولة هؤلاء الفرسان وبواكير أعمالهم ضاعت في دخان أحداث عام ١٩٤٨ ، لأن من بقي من زملائهم سجن أو مات ، وعندما انجلت غاشية ١٩٤٨ م و ١٩٥٥ م ولدت أفكار جديدة ولمعت معالم عشرات الطرق .. فانقطت معرفة الجيل الآخر بالجيل الأول نتيجة تعدد الطرق وتلون المنظورات مع أن الفرسان الثلاثة جاءوا من أصح منطلق .. فكانوا أخصب الجذور .. لو لم تعنف القطيعة بين الجيلين لتلاحق الاحداث وزحمة المؤثرات .. وانبثاق واقع جديد من المحلية والعالمية .

ولعل هذا الواقع الجديد باتصاله وانفصاله يتجلى لفهمنا ويغمض أمام رؤيتنا .. فندعي معرفته لأننا نجهله .. ونجهله لأننا نتهم نفوسنا بمعرفته .. وما كل من عرف نفسه عرفه الآخرون .

اليمن الجديد العدد الثاني السنة الثالثة مارس ١٩٧٤ .

الحركات الوطنيّة : مالها وما عليها

عندما أفاقت أمتنا على ضوضاء العصر تجلت في أول صحوتها أنها لم تدخل الى العصر وانما أدخلها اليه صناع العصر من المستعمرين، فاذا كانت قد قضت على الاحتلال العثماني فان ذلك العمل تم بسلاح الانجليز وعمل جيوشه .. على ضوء من الميعاد بتحرر الامة ، فاذا هذا الميعاد ينقلب الى احتلال جديد من قبل الاستعمار الذي أراد أن يكون وريثا للرجل الذي « مرض ثم مات » ومن هنا زادت الصحوة تأججا على المحتل الذي استعار ملامح المنقذ ، وتشبه الأمور بعضها بعضا : فكما أراد الاستعمار المباشر أن يلبس أقنعة الوطنية والقومية العربية لكي يحل محل الطربوش التركي يأتي الاستعمار الجديد اليوم بوجه مختلف فيستعمر الأوطان بالأوطان أو بعض الأشقاء ببعضهم ، لأن صانعي التطور أقدر على استغلال التطور لمصالحهم وضد الشعوب ، وسوف تتكشف خفايا الاستعمار الجديد كما افتضحت سوءات الاستعمار القديم تحت أفواج اللهب الشعبي ، وقبل أن تتحرك الجماهير الشعبية لمناجزة الاستعمار سبقت عمل الايدي ثمرات الأقلام،فتوالت الكتب من أول العشرينات الى منتصف الخمسينات في فلسفة الثورات ودلالتها على الجماهيرية . من تلك الكتب (ثورة العبيد) بقيادة سبرتاكوس الروماني، « ثورة الراوندية » في أوائل العهد العباسي ، « الثورات في التاريخ » ويعالج هذا الكتاب

الأخير ثورة الزنج في (البصرة) بقيادة « علي بن أحمد العلوي » ، وما شابهها من الانتفاضات العباسية ، ثم كتاب « الثائر الأحمر » عن ثورة « القرامطة » في « واسـط » ولم تحسب هـذه الكتب ما على تلك الثورات من أخطاء . وانما تقصت ما لها من مزايا ، لأن القصد من ذلك التسجيل والتحليل هو ايقاظ الجماهير العربية واستفزازها الى حريتها مع أن تلك الحركات لم تنبع من ايديولوجية ثورية ولا من تنظيم اجتماعي وانما كانت تعبيرا عن غضب طارىء أو طموح الى العرش .

صحيح أن ثورة (سبرتاكوس) كانت تملك قدرا من التنظيم ولونا من الفلسفة التحررية ، أما الثورات « الراوندية .. والبابكية والزنجية » فلم يكن لهن أي هدف الا أن يملك قادتها ما يتمتع بـه (خليفة بغداد) ، ويكفي أن « علي بن أحمد العلوي » أباح مواطني « البصرة » لأتباعه دون أن يعتبر لهم حق المواطنة .. كأن القضية ـ خذوا ما لديهم ولكم قصورهم ونساءهم .. وهذه أقرب الى الفوضوية منها الى التنظيم لأنها ضد مواطنين وليست ضد سلطة .. وبالتالي فان السلطة الزنجية لا تملك البديل المغاير والأفضل .. وانما أردات اباحية الثروات من أموال وجـَوار بلا تنظيم .

ومثلها الحركة (القرمطية) وان كانت تملك النظام الاجتماعي الا أنها فقدت امتلاك البعد الزمني لصنع التطورات ومواجهتها .. فتجمدت على البداية حتى تخثرت .

لم يكن القصد من التأليف حول تلك الحركات هو كشف مزاياها ونقائصها وانما كان القصد منها التدليل على عراقة الثورية في تاريخنا وتاريخ سوانا لأن مجتمعنا أكثر اجلالا للماضي وأكثر اقتداء بما حدث فيه ، وقد توالت الحركات بفعل اثارة الماضي وعوامل

الحاضر على الاستعمار الانجليزي والفرنسي بعد انهاء الخلافة التركية.

وقد كان بلدنا بعيدا عن تلك التيارات الثقافية لأنه لا يحتاج قراءة الحركات في الكتب .. لأنه دائم التحرك ودائم الصراع : فلا تكاد تنقضي فترة دون أن يشتبك فيها إمام بإمام ، أو قبيلة بقبيلة أو منطقة بمنطقة أو كل المناطق بوال (أموي) أو (عباسي) أو (أيوبي) أو (عثماني) . وبهذا تمادت الحيوية وامتدت ، لأن الهدوء لم يمسح معالم الجرأة من النفسية اليمنية فتلاحقت التفجرات من جيل الى جيل . ويدل كتاب (غاية الاماني في أحداث القطر اليماني) (ليحيى بن الحسين بن القاسم) وكتاب (اليمن ـ الحضارة والانسان) (لعبد الله الشماحي) على أن اليمن صرع بأيدي بنيه كل قائد غزو إما على تربته وإما خارج حدوده اذا نجى من المعركة من أمثال (بسر بن أرطه .. ومعن بن زائدة الشيباني) وكل قائد من هذا القبيل، إذن فلم يحتج شعبنا أن يتثقف الاحداث من أوراق الكتب لأنه منغمس فيها ، بغض النظر عما لهذه الحركات من المحامد والمذام .

والمهم في هذا الصدد الحركات المعاصرة ، وقد كتبتُ في غير هذا المكان كثيراً عن الأحداث وتجارب الأحداث ، الا أن كل كتابة من منظور مختلف وان اتحدت المادة ، ومن جهة أخرى فان الأحداث الكبار متعددة الجوانب كثيرة الأسباب والنتائج وغزيرة الايحاء .. ولا بد أن تتنوع اليها النظرة من فترة الى فترة .

ويمكن هذا البحث أن يتناول كل الحركات بالحساب لما لها وما عليها ، لقوة صلتها بأحداثنا الراهنة .

وأول حدث وطني صحيح النسبة الى الوطن وصحيح التسمية هو الصراع اليمني العثماني ، فبماذا تمتاز هذه الحركة .؟ وبماذا توصم هذه الحركة ؟.

لعل ألمع مزايا هذه الحركة أنها جاءت من دوافع يمنية وقاتلت بالسلاح اليمني والزند اليمني ، قاتلت بالرماح والبنادق البارودية ، على حين الأيدي الانجليزية كانت تلوح بأحدث سلاح للمقاتلين اليمنيين .. الا أن الثورة اليمنية قيادة وأتباعا رفضت العروض الانجليزية التي امتدت الى (الشريف حسين) في « الحجـاز » والشريف « الادريسي » في « صبيا » .

وقال (الإمام يحيى) إن (الترك) أقرب الينا من « الانجليز » ولن نقاتلهم من أجل « بريطانيا » وانما من أجل بلدنا .

لقد استعانت الثورة العربية بالجيوش الانجليزية ، حتى كـان الاستعمار البريطاني قائد الحرب وسيد الموقف ، على حين اختلف وجه القضية في اليمن فلم تستمد الحركة اليمنية سلاحا .. ولا عسكرية بريطانية وانما قاتلت وحدها لوجه تحررها ، ولكي لاتستبدل دخيلاً بدخيل أعتى ، صحيح أن الحروب العربية الانجليزية أضعفت دولة « الآستانة » وحالت بين جيوشها في اليمن وبين أي مدد لاشتغالها بمعارك (فلسطين وسورية والحجاز) حتى (المدينة) . فكان قتال اليمنيين أسهل لعدم إمداد العدو ولقلة درايته بطبيعة الارض والسكان، لهذا كانت حركة التحرر يمنية الوجه والروح واليد والسلاح وهذه ميزتهـا .

أما عيوبها فهي أن الحركة مدت العهد التركي بعد تخطيه أوضاعا ونظاما وشكلا ومضمونا ، فلم تدخل على البلد ومضات العصر .. ولا دخانه ولا حتى بعض شكلياته .. ولا استجدت الحركة خصائص محلية حتى أسماء الرتب والمعاملات بقيت تركية . لقد امتد التجمد التركي في ظل الإمامة المستقلة ، ولهذا العيب في ذاته مزايا تحررية

خوفا من دخيل ينتظر الفرصة •• فلعل الذي أدى الى التجمد هو الخوف من الاجنبي في أي صورة • وهذا حس وطني على ما فيه من جبن ولعل أسباب التجمد هو الخوف من استثارة الشعب وعلى السلطة، وهذا سوء ثقة بين الحاكم والمواطنين •• وهو أفظع العيوب لأن شدة الخوف على السلطة أحد أسباب زوالها لما يؤدي الخوف •• من سوء التصرف وكثرة الضحايا ، فقد كان في مقدور (الامام) أن يحرك الشعب بالشعب وللشعب ويزيد من تعليم المواطنين ، حتى تتعصرن نفوسهم ويشاركوا في صنع العصر ، على رغم ما في هذا العمل من مناقضة وقار الخلافة • لكن الوقار في ذلك الحين بعد عن الحياة •• وان كنا نلاحظ أن التقدم أو التأخر يختلف في مفهوميهما عند المواطن الغيور وعند المحتل ، فالتقدمية عند المواطن الغيور : هو تقدم المجتمع في الحياة ، في زيادة الانتاج وزيادة تطويره ، وعدالة توزيعه وأمانة تكافؤ الفرص وتهيئة المجال لكل القدرات والمواهب ، لكن مفهوم التقدم عند المحتل في مستعمراته هو في استعمال الظواهر الزائفة أو لمعان القشور الخادعة :

كسهر الرجال في المشارب •• وألعاب الاوراق في المقاهي •• واصطحاب الشباب الشابات الى دور السينما ، والمسارح واستبدال اللبس المحلى بالبنطلون ، هذا هو التقدم في الحياة في نظر الاستعمار القديم •• وفي نظر الاستعمار الحديث ، لكن عندما يتهيأ شعب للتقدم الحقيقي في القضاء على البطالة •• وتوفير الرخاء لكل انسان •• والكرامة الانسانية لكل مواطن ، فسوف نلاحظ الاستعمار يقضي على هذا التقدم بسلاحه أو بسلاح مأجور من أي وطن ، لا يرى الاستعمار بأسا في أن تفتح مائة ماخور •• ومائة حانة في اليوم ولكنه لا يسلك أعصابه حين تبني مصنعا أو تشكل نقابة وطنية •• أو تصدر نشرة واعية أو تبني مدرسة صحيحة المنهج والمنهجين •

أليس خوف قيادة ثورة العشرينات وجيه التبرير ؟•• ما دام التقدم يختلف في حقيقته وفي شكلية الاستعمار ••

مهما يكن فان المع مزايا الحركة اليمنية ضد الاحتلال التركي هي هذه اليمنية الخالصة •• وان كان الجمود عن التقدم أبرز عيوبها ، وليس بالضرورة أن تصنع التقدم على الصفة التي يراها الاستعمار ، وانما كان عليها أن تصنع تقدمها الذي تتطلبه حياة الانسان صحيا ومعيشيا •• ورقيا ذهنيا حتى يلمس المواطن الفرق بين الحكم الاحتلالي والحكم الوطني ، لان هذا الجمود قد برر الاستعمار لبعض الشعوب واعطاه مزايا العلمية •• مع أن الاستعمار لم يخدم غير نفسه •• وان كانت الشعوب استفادت فهو بفضل نباهتها •• وبفضل طموحها الى أن تصنع مايصنع الآخرون حتى تملك التفوق الذي يملكه مستعمرها، وهل كان يمكن أن تبقى الشعوب على حالها لو لم تستعمر ؟ سوف يستدعي هذا السؤال عن تقدم المحتل سؤالاً آخراً : هل جاء عن طريق مستعمر له •؟ من استعمر (بريطانيا) مثلا •• أو من استعمر من قبلها « اسبانيا » أو « البرتغال » ؟•

اذا كان في الاستعمار أي خير فهو اثارة ردود الافعال عليه ، لأن وجوده ينبه الوطنية الغافية في النفوس ويستفز الصراع ، ويحلي طعم الاستشهاد ، حتى يصبح الموت من أجل الحياة أعظم من الحياة •

لكن ماذا كانت ستخسر الشعوب لو وفرت فترات صراع المحتل لصراع التخلف وقتال العدو الدائم وهو ضرورات الحياة، حتى تنطلق من قيود الضرورة الى ملكوت الحرية والتسيير الذاتي الذي حققته اليوم بعض الشعوب الاسكندنافية •

فهل كان من صالح شعبنا ان يقع تحت الاستعمار لكي يتحضر ••؟

كان من الضروري أن يتحضر •• ومـن الافضل نجاته مـن الاستعمار ، لقد احتل الاستعمار الشطر الجنوبي من الوطن •• فماذا استفاد ••؟

لقد بنى في « عدن » المسارح والمسابح والمراقص والبارات ولم يبتن مدرسة تخرج تلاميذا قادرين على حمل راية الوطن •

لقد شق المستعمر طرقات وشوارع في « عدن » لمرور سياراته وسيارات اتباعه •• فماذا عمل للمواطن الحقيقي ، للصياد والعامل ، والبائع الصغير ، والفلاح ؟ لم يحقق له أي شيء •• وكل الملهيات والقشور اللامعة اقتصرت على « عدن » ودور السلاطين في(المحميات) أما بقية المناطق فلا فرق بين « صعدة » و « يافع » الا أن « صعدة » مستقلة تمد ثقافة الاجداد ، ولا فرق بين « لحج » و « تعز » الا أن « تعز » مستقلة ، ولا فـرق بين « الضالع » و « يريـم » الا أن « يريم » مستقلة •

لقد كانت ميزة الثورة اليمنية على الاتراك أنها حققت الاستقلال ، وكانت نقيصة الاستقلال أنه سهر على حراسة التخلف وحاول الاقناع به •• وان أدت هـذه المحاولة الى حركات أخـرى لها مزاياهـا وعليها نقائصها •

لم يكد وضع « الامام يحيى » يستقر من « صعدة » الى « قعطبة » حتى أطلت رؤوس أحداث تحاول أن تحول بينه وبين تحرير « تهامة » مـن « الادريسيين » الذين رفض (الامام يحي) التعاون معهم ضد « الاتراك » باعتبارهم طارئين كالاتراك وبحكم انجرارهم وراء الانجليز ، فقد حاول جماعة من قرية « جدر » قتل الامام « يحي » في داره عام ١٩٢٨ م والطائرات الانجليزية تقصف (ذمار وقعطبة وتعز) • فهذه الحادثة بتوقيتها تحمل لوناً من الشبهة

نظراً لحدوثها في ذلك الحين ، وقد فشلت الحادثة لانها اطلقت رصاص البنادق على « دار السعادة » وقبض على الرماة ونسفت القريةكمامات الرماة في قيودهم بعد سنوات ، وكانتهذه الضربة ساطعة في الرؤوس والاذان . ومن هناك بدأت مخاوف الامام من المواطنين أو من بعض القادة بصفة خاصة إلا أنه لم يتردد عن تحرير « تهامة » حتى أجلى « الادارسة » بعد موت عميدهم « السيد محمد » نتيجة قوة « الامام يحيى » وضعف الوارث « الافريقي » ، وكان « الإمام يحيى » يعاني أشد مرارة من (الادريسي) الأفريقي فقد كان « الامام يحيى » يدعي على الأتراك أنهم (مرتشون ، بغاة ، مدمنو خمر ، جاهلو شريعة) فأثار الحس الزيدي ضد القوانين التركية •• والحس اليمني ضد المتدخل •• فماذا يقول عن الادريسيين ؟ .

انهم مثله هاشميون •• ينتسبون الى « زيد بن علي » وان تمذهبوا التصوف ، ولهم نفس التدين ونفس العلم اللذان يمتلكهما « الامام يحي » اذاً فلم يبق الا حس اليمنية باعتبار (الادارسة) أفريقيين لفظتهم « القيروان » الى « تهامة » •• ويكفي تهييج هذا الحس لحربهم ، وبعد حروب عامين بين الشدة واللين امتدت الرقعة الإمامية على ما هي عليه الآن « مبتورة الساعدين » •• وقد أدى هذا الى استثارة الحس على الامام نفسه لانفراده بالسلطاة وتهاونه عن الجنوب وامثالها ، فقد كان له عامل في (الضالع)هو «محمد الشامي» وعامل في « عدن » هو (عبد الله العرشي) تم سحب عامليه بمجرد تحليق بعض الطائرات واسقاط بعض القنابل ، ومن هنا تركز الحس الثوري على « الامام يحي » من مطلع الثلاثينات فوصل الى تشكيل حزب عام ١٩٤١ •• وكان أول تنظيم حقيقي يتكون من خلايا،كل خلية لاتقل عن خمسة ولا تزيد على عشرة ، ولا يعرف بعض الخلايا بعضا

خوفاً من السلطة وحرصاً على تنفيذ الخطة ، وقد أدى هذا الى سجن (المطاع) و « العزب » و « الدعيس » ثم « الزبيري » و (أبي طالب) و (الأكوع الحوالي) الا أن التنظيم بقي سليماً حتى لجأ أغلب قادته الى « عدن » عام ١٩٤٤ فأصدروا صحيفة (صوت اليمن) من أوائل عام ١٩٤٧ الى اول ١٩٤٨ م وبالتحديد شهر « شباط » الذي سقط فيه « الامام يحيى » على تربة « حِزْيَزْ » ، كان هذا الحادث وليد حركة ١٨ سنة ، ولهذه الحركة مزاياها الرائعة وعيوبها المشئومة ..

فمن ألمع مزاياهـا أولا انها نبعت من تنظيم يمني مهمـا استقى الاستفادة من تنظيمات خارجية . ثانياً انها استهدفت عصرنة الشعب ورخائه – ولو نظرياً – كما يحكي (الميثاق المقدس) الذي ينص على امانة الزكاة وزيادة المرتبات للموظفين والجنود حتى تختفي الرشوة.. وحرية التجارة ، وشوروية الحكم ، وتقييد الامامه بدستور .. وتشكيل مجلس وزراء ومجلس شورى .

كل هذه كانت ضروريات المرحلة التي بدت تشم روائح العصر وتحاول الدخول فيه من أضوء أبوابه . وعلى وفرة مزايا هذه الحركة فان عليها مآخذ يعترف بها حتى صناعهـا ويحتم الواجب الوطني تمحيصها ، لانها اصبحت تجربة يملكها الشعب ليعرف الابناء مـاذا فعل الآباء ، ولعل الح المآخذ هو لجوء الاحرار الى « عدن » تحت السلطة الاستعمارية مهما كانت الضرورة الى ذلك الالتجاء ، لان المستعمر لايحرر احداً .. وان لوح بالعبودية الجميلة .

المأخذ الثاني : اعتبار اليمن عندهم هو الشمال نزولا عند تسمية الاستعمار الذي كان يسمي تلك المناطق الجنوب العربي ، المـأخذ الثالث على وفرة مبرراته هو الابتعاد عن الشعب وحصر دعوة الثورة في كبار البيوت وكبار الموظفين ، صحيح ان السلطة كـانت عنيفة

ومقدسة عند الشعب •• وان الصدق عليها مرفوض والكذب منهـا مقبول •• لكن كيف يمكن ان تنشأ حركة في غير تربتها ؟

وهل ينجح عمل عظيم بلا تضحية أعظم •• ؟ ان الجبن من عقاب السجن يحفر سجوناً أعظم داخل النفس ، إلا أن السجين داخل السجن يملك حرية الارادة او التصور ، اما الطليق داخل سجن نفسه فهو السجين الحقيقي ، لانه ليس في سجن •• وانما في داخله سجن ويمكن الاطلاق من الاول ويستحيل الاطلاق من سجن النفس •

ان الشجاع حر ولو في اعتى السجون •• والجبان حبيس في أبهج الامكنة طلاقة وجواً ، ان اشنع مآخذ حركة ١٩٤٨ هو التخوف من اعلان بشاعة الاستبداد على الشعب ودعوته الى المشاركة في الثورة وصنع المصير •

لقد انتهت تلك الحركة ، وبلا تعصب لها ولا عليها نقومها من خلال عملها ومن خلال عامليها ، فلعل اكثر المشتركين فيها كانوا اكثر تأخراً من الذي ثاروا عليه وما يزال من ذلك الجيل اشخاص لاتؤدي مقارنتهم بالامام يحيى الا الى الضحك العريض لكن ليست القضية اشخاصا وانما عمل وميدان ، وقد كـان ينبغي أن يكون العمل في الشطر الشمالي من اليمن ، وميدانه مقر الخليفة المستبد حتى يكون للحركة اطار اجتماعي وتجذر في أرض الفكرة ومدد من الشعب الذي لايقهر ، قد يرى بعضنا ان الشعب كان جاهلا ولجهله لايقبل بالامام يحيى بديلا ، ولكن أليس كل جاهل قابلا للتعليم •• ؟ وكل شعب يتغير بفضل قادته الواعين ؟•

فكيف تكرست ١٨ سنة ضد الامام ولم تتجه الى الشعب ؟ • واذا كـان الشعب لايرتضي الانقـلاب الدستوري بديلا •• فان الاستبداد هو الحكم الشعبي المشروع مادام مقبولا عند الاغلبية ،

لافضل للمثقفين الا بمقدار التأثير على الاغلبية لتقبل التغيير لافي ارغامها بسلطة تجهلها بديلا عن السلطة التي تعرفها ، على ان شعبنا لم يقتنع بنظام الامام يحيى مخيراً بين نظامين ، وانما كان هـو النظام الوحيد الذي وجد فتعامل معه، ولو كان ثم نظام معارض لعرفنا حسن اختيار الشعب او سوء اختياره •

لم تعد حركة ١٩٤٨ ملك حجة أو القلعة لقد اصبحت ملك التاريخ اليمني وملك أجياله ، لكل واحد حق الرأي فيها والكتابة عنها •• وكل واحـد مسؤول عن رأيه ، ومشروعيـة الرأي تقوم على عمق الاختبار وصحة الاستدلال ، ومجرد مناقشة هذه الحركة وتبين مالها وما عليها يدل على الاهتمام بها وتقدير صانعيها ، لان اثارتها احياء لها • واستخلاص من تجربتها يمكن ان ننتقل الى الحركة التالية وهي حركة مارس عام ١٩٥٥ ، على كثرة ما بدأت وأعدت في الحركات فان حركة ١٩٥٥ مدانة قبل السؤال وقبل الجواب ، صحيح انها نبعت من حس يمني وانها أول حركة عسكرية لكن هل كانت اسبابها كافية وهل كان الآتي أفضل من القائم ؟

بالقطع لا : ولا بد من طرح القضية حتى تتساءل من هو الوطني في هذا الموقف بالذات الحاكم أو الثورة ؟

اذا رجعنا الى التعابير الساخطة فسوف نلاحظ ان أغلبها انصب على الجيش كأداة قمع في يد الامام من مثل قول الزبيري :

(العسكري بليد بالاذى فطن   كأن ابليس للطغيان رباه)

وفي هذه الحالة انعكست القضية ، اجاب الامام شكوى أهل (الحوبان) الذين ذبح الجنود مواشيهم •• واطلقوا على بيوتهم النار ، واراد الامام ان يضبط المتمردين بحزم وينصف الفلاحين من

جنوده او من أدوات قمعه ، وعندما عرف « عبد الله » شقيق الامام ، ردود الافعال عند الجنود اراد ان يركب تذمرهم الى السلطة •• فغرر « بأحمد الثلايا » وضباطه من القادة •• فاطلقوا النار على قصر الامام بعرضى (تعز) حتى كتب تنازله ، وبعد خمسة ايام أنزل من ارغموه على التنحي وعاد الى عرشه اكثر مهابة وأوسع صدى ، فما ميزة هذه الحركة • : ؟ خير مالها انها حركة شعبية ، دللت على وجود جيش وان أخطأت التعبير على الدلالــة وعلى ضعف الجيش امام سيف « الباهوت » • لقد كان ينبغي ان يكون الجيش ــ وهو من ابنــاء الفلاحين ــ اكثر وطنية وحباً للفلاحين أنبياء الارض وسادة العرق والعذاب ، لكن القضية هنا انعكست فكانت المآخذ على الحركة اكثر من مزاياها ، لانها لم تدل على شعبية في عصر الشعوب ، وفي ظروف التفجر الشعبي في كل مكــان ، لان هذه الحــادثة انفجرت و (القاهرة) تتفجر تحرراً وحريقاً في كيان الاستعمار ، وفي كل مكان ، والعالم الثالث يغلي ثورة ويتوج النضــال بأغلى الدمــاء •• وأعلى الجباه ، ولأن هذه الحادثة أطلت في عهد النقاوة الثوريــة للشعــوب وقبل أن تتوالى المبادرات الامبريالية لصنع الحركات المعاكسة على الثورات الوطنية المتحررة •• فقد انقصتها الشعبية من أهم جوانبها لان اسبابها غير مبررة ، ولان البديل امام آخر كان لايملك الشعبية ولا يدل على صحة زعامته بأي بموقف بطولي أو وطني (فالامــام احمد) بالقياس اليه اكثر وطنية وأحس على المستعمر وعلى الثقافة الاستعمارية ، الا ان هذا الحادث كما سبق أن أشرت قد أدى الى آثار عكسية ، فنتيجة اشتعال الدم في الاسرة الحاكمة أخذت تتداعى من كل أركانها وان حاولت في بعض الصحوات تلفيق سطوعها ، الا ان السطع كان أوسع والانحلال كان أشد سرعة ، وقد حاول الامــام

(احمد) أن يرمم الوضع بترميم صحته فاستشفى في روما آخر عام ١٩٥٩ •• وفي ذلك العام تفجرت الحركات الممهدة لسبتمبر ، فتحرك الجيش للثورة وفقد القيادة فتحولت الى فوضى سقط بشظاياها آل الجبري وأثاث « بيت العمري » وعاد الامام « من روما » بعد أن كادت الفتنة تخضب أظفارها ، لوجود الثورة ، ونقص الثوار ، وتوفر الجنود ، وانعدام القيادة ، وهنا استنجد (البدر) بشيوخ القبائل ؛ ومضى التدبير في تشكيل وضع جديد طالت في تدبيره المحادثات والجلسات حتى أسقط كل صوت رجوع الامام من (روما) وهو يعطس لهباً ويقول في أعلى صوت « هذا الفرس وهذا الميدان ومن كذب جرب » وهدأت العاصفة •• أو انحبست في قماقمها حتى اشتعل التمرد في « حاشد وبرط وخولان » وفي ستة شهور خمدت كل النار •• أو أختبأت تحت الرماد ، وكانت كل تلك الحركات تعبيراً عن الوجود وبحثاً عن انسان الشعب ، الا أن بعض القادة شوه وجه الحركة بالالتجاء الى المحميات والسلاطين العملاء ، وان كانت يمنية الحركة لم تتأثر بلجوء بعض قادتها الى المشبوهين ، لكن تلك الحركة زكت يمنيتها باستشهاد رجال عظماء شرفاء من أمثال :

الشيخ حسين بن ناصر الاحمر • ونجله العظيم حميد ، والنقيب عبد اللطيف بن راجح لقد كانت تلك الحركة نجمة سحر أيلول •• ولكي يسرع الفجر الراكض في احشاء الظلام اشتعلت ثلاثة نجوم اغمدت السيف المسلول •• وأسكنت (الباهوت) وعقدته الى سرير مرضه حتى مات ، متأثراً بجراحه •• بعد عام ونصف •

والسؤال : من كان وراء النجوم الثلاثة (اللقيه العلفي الهندوانه •• ؟) لقد دلت التقصيات والتحريات ان عملهم لم ينبع من تنظيم ولا من تدبير عسكري ، وانما كان من نزعة طارئة صحيحة

الوطنية . وقد أخذ الثلاثة في اعتبارهم امرأ واحدا هو انهاء (الامام احمد) وفي غيابه يمكن قيام أي وضع •• وفي وجوده لايمكن ان يتحرك تفكير او يستنيز تدبير الى عمل ، فقد اعتبروا مصرع الامام اصح البدايات ، وان كانوا قد اغفلوا ردود الافعال وتجاهلوا التجارب السابقة اعتماداً على السخط السائد في ذلك الحين عام ١٩٦٠ • ولقد كان عمل النجوم الثلاثة أشبه بالاسطورة لانه محى أكبر اسطورة •• الا ان المجازفة واضحة المعالم في هذا العمل •• واطراح الاحتمال من الحساب يدل على زيادة في الشجاعة وعلى نقص في الخبرة السياسية وفي الدراية بابدال وضع بوضع جديد ، فقد تجاهل الابطال الاطماع النائمة والصراعات على السلطة التي عرفناها بعد سبتمبر ، ان تضحية « اللقيه » ورفيقيـــه هي السَّحْر الابلج الذي اطلع يوم السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ الذي نستعيد اليوم ذكراه • ونحتفل بعودة عيده ، لانه يحشد أعظم ذكرى ويرينا أين كنا وأين نحن الآن •

العدد ٥٥ ــ اكتوبر سنة ١٩٧٤ ــ مجلة الجيش

❋ ❋ ❋

العظيمُ المتهم

اذا فقدت حاسة الذائقة فهل تتعطل حلاوة السكر لانك فقدت حاسة ذائقته ؟ واذا تعطلت حاسة أنفك فهل تفقد العطور روائحها ..؟

قد يكون هذا بالنسبة اليك . ولكن ليس بالنسبة الى الطعوم والروائح لانها لم تفقدها في ذاتها وانما فقدتها أنت .. فحكمك عليها لاينفي ما في واقعها .. مثل ذلك كل الحقائق .. فان نجاهلهـا او عدم رؤيتها لايمحوها .. الا أن الاحكام على كل الحقائق والوقائع لايخلو دائما من حس شخصي حتى أصبح لكل القضايا ثلاثة وجوه :

ـ كما هي في واقعها ، كما هي من وجهة الاهواء ، كما تبدو من ذاتها ، واستخلاص الرؤية للحكم عليها من داخلهـا ومن نفوذ الرؤية اليهـا .

ولعل أصح الاحكام مايستخلص الحكم من داخل القضية مهما امتزج بحس شخصي ، فإن هذا يعطي مشروعية الرأي أو يبرر صحة الحكم ، ومن ذلك الحكم على الافراد والجماعات ، على صعوبة أو استحالة معرفة الفرد نفسيا أو فهم المجتمع نفسيا ، فلو تم لك معرفة شخص معرفة حقيقية لامكن أن تعرف أشخاصاً وجماعات لكن لكل شخص عدة وجوه ، كما هو في واقعه .. وكما هو في رؤية هواك.. وكما هو بين صحة الرؤية وحقيقة الواقع ، وبهذا تصعب المعرفة التامة

للفرد أو المجتمع •• بل ربما تستحيـــل • وبالاخص اذا تراكمت الملابسات وتعددت الدواعي وتلون الواقع والرؤية اليه •

ولعل شعبنا من أصعب الشعوب على الفهم لباطنيته التاريخية •• أو لعل الأفهام التي اتجهت اليه حملت عيون الهواء وأرادت أن ترى الواقع لهذا الشعب من مناظير الذات لموضعتها ذاتياً •

وهنا يمكن رصد الرؤية الى الشعب من وجهة رسمية •• ومن وجهة شعبية نحو الشعب •• ولنعد الى الخط الاول :

بعد أن فقـد اليمن اسباب حضارتـه •• وقدرة تجديدها أو الاحتفاظ بها اصبح شريدا أو مكابدا لحياة الداخل •• ثم أصبح تابعاً للعواصم التي تحضرت ، فتـآزرت في نفسه عوامل الطموح وعوامل مركب النقص ، أمام المهما تالتي تستدعي الوسائل الاكثر • والمكان والانسان الاقدر على المواجهة ، فجمع بين نقص الوسائل وقوة وسائل الغير ، فلم يخضع لقوة العواصم التي حكمته •• ولا ظفر بالقوة الذاتية التي تدل عليه وتحميه ، فكان عظيماً في طموحه النفسي •• عاجزاً عن الوصول الى غاية أو عن تحديد غاية ، لهذا اختار الخلفاء أكفأ القادة لاخضاع اليمن•• من (معاويه) الى (محمد رشاد) وكان يفشل كل قائد •• بل يموت على أيد يمنية كما سبقت الاشارة في البحث السابق ، لهذا كـان اليمن من المنظور الرسمي ملعوناً ، لانه لا يهدأ ، قال (أبو جعفر المنصور) لـ (معن بن زائده) وهو يراوغه لولاية اليمن : « لقد كبرت يامعن •• فقال : في طاعتك يا أمير المؤمنين • قال : وفيك بقية ، قال : هي لك يا أمير المؤمنين ، قال الخليفـة ، في اليمن قوم إن ضُربوا غـدروا •• وان اعطُوا استزادوا •• فهل تكفيني إياهم ؟•

قال معن : أذهب الى اليمن والحق بمن سبقوا • » يشير الى نهاية كل من يحاول إخضاع اليمنيين بالقهر • وقد لاقى (معن) نفس المصير في فارس بعد خروجه من اليمن بشهور •

وفي العهد العباسي الثاني حاول الوالي أن يستعمل الجيب بدل السيف ، فأعطى لكي يطاع طلباً للسلامة وحباً في النجاح •• إلا ان كل عطاياه في مستوى فشل سيفه لو استعمله ، فسجل اختباره في هذين البيتـــين :

اذا نحـــن زدنـــا من عطـــاء قبيـــلة
لنُكْفى أذاهـــا زاد فينـــا انتقـــامها

فأطماعهـــا نـــار •• وإن عطـــاءنـــا
لهـــــا حطب إن زاد زاد ضرامهـــا

لأن المسألة هنا ليست عطاء ولا تَقبُّل عطاء وإنما هي حساسية يمنية لشعب تعثر بين الطموح والعجز ، وتردد بين مايريد وما يستطيع، فلم يكن المال بكاف لاخضاعه ولا القوة بقادرة على قيادة ، لانه يريد تحقيق الوجود ولم يجد الطريق الى اثبات هذا الوجود ، وبعد الحكم العباسي قام الحكم المحلي في ظل تمزق دامٍ الى أن جاء الحكم التركي فجرب القوة والخزائن وكان الامل في الخزائن اقوى لفقر الايدي•• إلا ان كل وال تركي ردد اختبار القائد العباسي في غير شعر ، فكانت تقارير كل وال تركي هكذا : (يمن حرامي •• أمه أدب سيس) •
وجاء عهد الاستقلال فخضع الشعب طوعاً واختياراً وعن أمل ، لانه جد جديد هو :

الحكم المحلي المعتمد على الذات والمناوىء كـــل دخيل •• بل والرافض كل تفاوض مع دخيل •• فاستقرت أوضاع الامام يحيى

لتوفر الحس بقيادة وطنية مهما كان جمودها ، ولما تزايد التطلع وبدأت عوامل التغيير بدأ التساؤل عن الحكم الوطني ، وهل يكفي وطنية الحكم النسبية دون الوطنية العملية التي تحقق الرخاء والتقدم .. أو التي تحاول حتى مجرد محاولة .. ؟

لهذا بدأ التذمر يتجاوز الهمس فقيل (للامام يحيى) : (لو خففت من الضغط على الواجبات والبواقي والتنفيذات) فقال نفس الفكرة ــ ولو بخبرة أكثر : ــ (غبر الشَمِيل اذا لم يُظلموا) (بضم الياء) ظَلموا (بفتح الظاء) .

فالشعب هنا لايستكين إلا بالقهر المتواصل ، وقد كان الامام (يحيى) لاينقطع عن قرية أو منطقة الا مدة قصيرة ، فقد كان مأموروه وجنوده يمسحون البلاد طولاً وعرضاً .. يتحسسون مايجري ويتحصلون ثمرة ما ينبت وما يتحرك ، يأتي المخمن عند بزوغ الثمرة .. يليه القباض عند حصادها .. يليه الكاشف على القباض .. يليه العسكري لتحصيل البواقي ، يليه العسكري لتحصيل بقية البواقي ، يتبعه عداد المواشي ثم (مثمِّر) الخضر والفواكه . فيدوم اتصال الإمام بالشعب على طيلة العام .. ويزيد اتصاله أعنف اذا نجمت أحداث واحتدم شجار ، وكان أمناء القرى يبلغون الجهات بكل ما جد كبيراً أو صغيراً ، وعن طريق هذا الاتصال المتحسس والممتص عرف الامام بداية التذمر ــ وامكان الانفجار لو اتيحت الفرصة ــ فأبدى ذلك الرأي : (غبر الشميل اذا لم يظلموا ظلموا) .

تتصل بهذه النظرة نظرة أخرى في حروب الثلاثينات ، عندما اضطر الامام الى تسليح بعض الشعب ، شم بوادر التمرد قبل حدوثه فعندما قيل له (إن سلاح المحاربين في تهامه لايكفي) قال : (ولمن نسلحهم).. ؟ (إن هذا السلاح الذي اعطيه بيدي سيرتد الى ظهري) . وبدأ

يعمل على اطفاء الحرب وانتزاع السلاح ، وأرَّخ الشعب ذلك العام (١٩٣٤) بعام الانسحاب ، وبقي أكبر العناوين لتاريخ الامام يحيى حتى لاح عنوان اكبر هو مصرعه عام (١٩٤٨) •• فابتدأ التاريخ به ، لأن هذا الشعب اغبر الثياب والجلود اذا لم يظلمه حاكمه ظلم حاكمه •• وهذه الرؤية الرسمية الى الشعب تدل على الجهل ، لان الارتزاق واحتراف الحروب ليس قَدراً حتمياً على هذا الشعب ، وانما هو الفرصة الذهبية النادرة في أزمة الحرمان من الحقوق الشرعية ، وأزمة الطموح المشروع ، ولما عجز الشعب عن تحقيق طموحه الحقيقي استغل كل بادرة لاثبات وجوده وشعور الكبار بالضرورة اليه ، قال القاضي (عبد الله الشماحي) في كتابه (اليمن •• الحضارة والانسان) بدأت بعد الانقلاب الدستوري المفاوضات مع بعض زعماء القبائل للاقناع بالوضع الدستوري •• وكان ــ أي الشماحي ــ من المفاوضين خارج صنعاء ••

فعلى ما تدل تلك المفاوضة •• ؟ كانت تدل على مهارة يمنية موروثة لاستغلال الإمامين : الذي أعلن نفسه في (صنعاء) •• والذي أعلن قيامه في (حَجّه) •• فهل هذا تمرد ؟•• إنها فكرة استغلال المستغل وإثبات الوجود قبل أن تتحقق الغلبة لأحد الجانبين ، وقد لمح (الإمام أحمد) هذه البوادر فلم يكتف بالضغط على صنعاء بالحصار من خارجها وانما سبق فكرة التلاعب على الحبلين•• فعمل على اشعال النار من داخل (قصر السلاح) مقر امام الدستور ، ولما سقط القصر بأيدي جنوده ومدفعيته ، نامت فكرة استغلال المستغلين حتى يحين وقتها ، ولو لم ينفجر القصر بإمامه لحدث في ١٩٤٨ ما حدث أيام الحروب مع (الادريسي) أو ما حدث ايام حروب الجمهورية والملكية.

فهل الشعب ملعون ، لانه يريد أن يستغل المستغلين أو يفرض وجوده على متجاهليه ؟

لقد قال عنه الدستوريون إنه غبي •• وإنه عبد المألوف لأنه لم يتقبل الجديد قبل أن يراه أو قبل أن يتوسم نفعه منه :

ورأيت الشعب الذي حطم القيد وأبقى جذوره في الإمامه

ربما كان هذا صحيحا •• ولكن هل رأى اليد التي حطمت القيد ؟•• أو هل أبدى رأيه في أفضلية البديل ؟• ربما •• لا ••

لقد تلاحقت عدة أفكار في تلك الفترة تتهم الشعب بالجهل والعبودية للمعتاد •• لكن هل كان الآتي غير الذي كان ؟

لقد اقتحمت جماهير القبائل صنعاء ، فرأت المخالب التي كانت تمتصها للامام هي التي اصبحت مكان الامام ، لانها حركة الموظفين والمخمنين والقباضين ومحافظي المناطق وحكامها أو بعضهم •• وكل الايادي التي تُخضع الشعب للمقام ، فهل كان صنيع الشعب دليل العظمة أو الدليل على البلادة •• ؟

بعد أن استتب الأمن للامام أحمد بدأ الامل في الشعب ، وبدأ التذمر من الشعب لتقاعسه •• فكنت تسمع من فترة الى فترة (هذا شعب ميت •• صلوا صلاة الغايب عاى الشعب في اذاعة كذا) وكل هذا يدل على الامل والاستنفار معاً ، وعندما انفجر انقلاب ١٩٥٥ اختلفت فيه النظرات بين الزعامات في ذلك الحين •• فرأى البعض أو الآملين في النفع ان (عبد الله) أخا الامام احمد بطل تلك المرحلة •• وعللوا هذا بقولهم : (هذا رجل تقدمي عرف أمريكا •• لا يتسم بقسوة الحسن وبخله •• ولا بضعف البدر وانقياده) وانقسم بقية رجال ٤٨ الى قسمين : قسم شايع البدر وانضم اليه •• وهم الذين

كانوا في الداخل وفي سجن حجه ، وقسم رفض إمامة عبد الله دون أن يرى البدر بديلا وهم الاحرار اليمنيون في المهاجر العربية (••كالزبيري) ورفاقه ، ولأن المدة لم تتجاوز خمسة أيام ، لم تحدد غالبية الشعب موقفها ، وإن كانت تستعد لعمل لم يلح وجهه نتيجة خروج الإمام احمد والقضاء الخاطف على الحركة ، ولعل الشعب لم يكن محددا فكرة ، لمفاجأة الحدث من جهة •• وغموض المرحلة من جهة أخرى ، فقد كانت اخبار الثورات العربية والعالمية تصل الى قطاعات كبيرة من الشعب •• وكانت الهجرة الى الخارج قد تكاثرت •• الا ان الاستعداد المحلي غير منظور •• ومع هذا فلم يعد انزال الامام احمد غريباً كمصرع والده الذي لم يستشر فيه الشعب •

كانت امكانية الثورة الشعبية آخذة في التزايد عن حس محلي غير منظم وعن تأثر عالمي ، لهذا بدأ الشعب عام ١٩٥٦ يجاهر بالسخط بعد الهمس •• وبدأ اليقين بالثورة يتأجج في الاشعار والخطب كقول الشاعر (علي صبره) :

آمنت بالشعب والأحرار إيمانا
لو لامس الصخر •• أضحى الصخر إنسانا

آمنت بالشعب إيماني بخالقه
وبالشباب الذي في الحق ما لانا

لأن الشعب بدأ يعبر عن وجوده ، توفر الإحساس بقدرته •• ولم يعد (الملعون المتمرد) ولا (أدب سيس) ولا مطالبا بعطايا الوالي العباسي •• وانما أصبح اصفى منابع الامل : فتفجرت الحركات القبلية آخر الخمسينات وأول الستينات •• الا أنها اخمدت مثل كل ثورات الفلاحين في التاريخ •• وفي العالم ، فبدى الجيش للشعب أفضل أدوات تحقيق الأمل •• وكانت الثورة •

ولأن الثورة أول تجربة في مكان لم يجرب الحكم الشعبي ولم يستعد للاحتمالات ، فقد انقسم الشعب بعد شهور الى معسكرين : ثوري •• يعزز الوضع الجديد ويضحي دونه•ملكي يحاول استرجاع الامس •• ومعسكر ثالث هو مزيج من المعسكرين يمد نفس السيرة لكي يستغل المستغلين •• الا ان المعسكرين تحولا الى حرب مبدئية في ما بعد •

فقاتل الجانب الجمهوري لتجذير حكم الثورة •• وقاتل المعسكر الملكي للقضاء على الثورة ولاجلاء التدخل الذي اقتضته ظروف الحرب ، وتشابك المصالح السياسية ، ولما انجلى التدخل بدأت تتأكد ذاتية الشعب ويمنية الحكم ، فلم يتجاوز عمر الحرب سبعين يوما بعد سبع سنوات ، وجاء السلام التصالحي كبديل عن النصر •• والسلام المفروض حرب في ميادين غير دموية ، لهذا تكاثرت حساسية الشعب نحو التغيير واستيقظت رقابته على المسؤولين واتباع المسؤولين وأتباعهم ، لأنه ينتظر أكثر مما يتبدى تحقيقه••إلا أن النظرة الرسمية الى الشعب لم تتطور •• فما يزال المنظور الرسمي يداري بالبذل ويشتري السخط أو افتعاله بالمناصب والهبات على اعتبار أنه شعب مرتزق ، وقد اثرت هذه النظرة على الشعب نفسه •• فكما ترددت في الخمسينات تهمة الشعب بالجهل أو بالعجز ، ترددت في الستينات والى اليوم تهمة الشعب بالفوضوية •• ومخالفة النظام ، والغريب أن هذه التهم تأتي من مواطنين حقيقيين مثلا :

سيارة واقفة فيميدان التحرير للإيجار يراهامواطن أو أكثر واقفة او متحركة فيقول : ــ (باب اليمن ــ القاع) فيصبح قائد السيارة (انجيز) شعب فوضوي •• يشوف الراكب دفع ويشتى يركب) •• هل هناك مـا يدل على البلادة •• لانـه رأى سيارة في موقف

الإيجار ؟ ثم ما معنى (الانجيزات) لكل راكب قادر سيارة وهناك مواطنون يريدون سرعة المواصلة الى اعمالهم •

فيفترة أزمة مواصلة في بريطانيا رفعت التاكسيات ايجارها •• فاضطر المواطنون الىمقاطعة التاكسيات يومينأو أكثر كوسيلة ضغط ، فماذا فعل أصحاب السيارات الخاصة ؟

لقد وقفوا الى جانب المواطنين فكانت كل سيارة خاصة تحمل طاقتها ممن تجد على طريقها ، بينما لايمكن ان يحدث لسيارة خاصة في بلادنا إلا عن معرفة شخصية ، فهل اتهم سائقو (لندن) الشعب البريطاني بالفوضوية رغم المقاطعة ؟

قبل سنوات كان للنساء ايام معينة للسينما فصدر قرار بالمنع•• فكانت جماهير النساء تطلب بالحاح التذاكر وكان كثير من الرجال يناصرون هذا الطلب •• فردد بائع التذاكر (شعب فوضوي) دون أن يسأل عن اقتناع النساء بالقرار •• وعن مشروعية ذلك القرار بعد ان اصبحت السينما للنساء معتادة ••

ليس هناك فوضوية •• ان كل شعب يتجاوب مع كل قرار يعرف فيه مصلحته وصحة غايته الوطنية ••

ولم يقف هذا الاتهام عند السائقين وباعة التذاكر واشباههم وانما يمكن أن تسمع من مثقفين نفس النغمة ، إما عن تقليد أو عن سوء فهم أو دعوى تدليل على الامتياز على الشعب •

إن شعبنا عظيم يمكنه أن يحقق أكبر المنجزات ويتجاوب مع كل من يحققمصالحه العليا وكل مايدل علىتمرده أو فوضويته ، يدلعلى سوء الزعامة أو على نقص في الدراية بأحوال الشعب وأصول حكمه باعتباره مصدر السلطات وسيد الأرض وصاحب الموقف دائما ••

مجلة الحراس العدد (٨) مايو ١٩٧٥

بين الثورة والمشاكل الثورية

اذا كان الانسان قد استقبل الوجود بالدهشة ،فان الاندهاش قد نبه فيه حس الملاحظة وملكة الصراع ، فكان صراع العواصف والأمطار والكواسر أولى صفحات عراكه الطويل ، ثم انتقل الى الزراعة والعمران وابتدع اللغة لكي يقول ويسمع وينقل مايحس ويستقبل ماعند الآخرين ، واكتشاف اللغة أعظم اكتشاف في التاريخ البدائي لانها كونت العلاقات الاجتماعية ، ثم استخرجت مكنونات الانسان كأسرار القلب وتأملات العقل وتقلب العواطف بين حب وكره .

وبفضل هذا تكون التآزر بين المجتمعات فأصبحت الأحداث اجتماعية بدلا من فردية مهما كانت صفة الاجتماعية .. ولما شعر الإنسان أنه قوة فاعلة ومنفعلة ابتدع أهم اكتشاف وهو التاريخ ، فان كتابة التاريخ أهم من مواده المكتوبة من اعمال الانسان وتغيرات الأحوال ، لأن التاريخ أنضج ثمار الفن الكتابي لأنه يسجل الحدث ويضيف اليه الحدث فأصبح التاريخ معرضا للنقائص والمزاياء . وكل هذا بفضل التاريخ الذي هو عمل الإنسان ومادته الإنسان ، صحيح أن الإنسان ابتدع خوارق من الفلسفات والنبوءات والعمارات ، ووضع الكثير من القوانين والتشريعات ، ولولا التاريخ لما تجاوزت أي عظمة مكانها الزمني ولا تجاوزت الحضارات عصور تشييدها ، فاذا كانت ميزة الانسان انه مخلوق مكتشف ، فان أعجب ما اكتشف

هو التاريخ ، لأنه ابتدع هذا الفن الخالد المخلّد على غير نموذج مسبوق ، وكل ما ابتدعه الانسان غير التاريخ كان له مثالا من الحياة اهتدى به وزاد عليه ، رأى الانسان اسماك البحر فصنع القوارب والسفن الشراعية ثم البواخر والبوارج . ولكن لهذا الصنع على عظمته نموذج من حياة البحار دلت عليه مهارة الصيد واستخراج كنوز البحر ، فللسمك فضل الدلالة والسبق لامكانية عبور المحيطات والانهار ، ورأى الانسان اسراب النسور والعقبان فاخترع الطائرة بمختلف انواعها ، ولكن هذا الاختراع على ضخامته مسبوق بتحليق ذات الاجنحة ، اذن فالتاريخ أعظم مكتشفات الانسان لانه عرّف كل زمن بنفسه وعرّفه بما قبله فشكل القدوة بكل عظيم والنفور من كل حقير ، على توالي الأزمنة ، فأرخ حتى أدواته كالخيول والسيوف وما مارست من أحدث وتطورات ، فاتصلت التجربة بالتجربة وامتدت الفكرة من الفكرة ، فأمكن قياس ما يحدث على ضوء ما حدث لأن التاريخ قد عرض لنا ما تفجرت من أحداث وما توالت من تغيرات فعرفنا إمكان الآتي من خلال معرفة الماضي ، وإذا لاحظنا هذا الامتداد التاريخي الذي جدد ما بلي ووصل ما انقطع ، فسوف نجد في تاريخنا اليمني كثيرا من الثغرات والفراغ ومئات من الحلقات المفقودة وشبه المفقودة . ونحن تتجلى هذا من قراءة تاريخنا ومن قراءة تاريخ غيرنا ، فإذا لاحظنا شعوب البحر الأبيض المتوسط فسوف نجد أن هذه الشعوب متصلة الحلقات متمازجة الحضارات ، فقد تمازجت الحضارة الفرعونية بالحضارة المسيحية بالحضارة الاسلامية في مصر، وتمازجت الحضارة البابلية بالحضارة الاسلامية في العراق ، وتداخلت الحضارة الفينيقية باليونانية بالاسلامية في الشام . فلماذا انقطعت الحضارة السبائية المعينية عن مدد الحضارة الاسلامية في اليمن ؟ لعل السبب

ان تلك البلدان نهرية لم يؤثر الجفاف على سكانها حتى تنقطع حلقات تاريخها ، أما اليمن فقد كان انهيار سد مأرب حدا فاصلا بين حضارة ولا حضارة بل بين استقرار وهجرة ، اذن فبين الحضارة اليمنية وبين اللاحضارة عشرات الحلقات المفقودة من التاريخ اليمني ، لغياب الاحداث التي تفرض نفسها على الكتابة ، ولغياب الكتابة التي تسجل الكارثة كحادثة مشئومة كغيرها من أسوأ الاحداث التي أرخها التأريخ ، فقد جمعت الشعوب العربية بين حضاراتها وحضارات اليونان التي حملتها فتوحات « الاسكندر » ، واضافت اليها حضارة الاسلام. وامتد تسجيل هذا وتفسيره حتى في عصور الانحطاط ، فكان هذا التسجيل لما حدث من خير وشر أهم جذور لعهد النهضة ، الذي تشكل من أعز ما في القديم ومن روائح الثورة الفرنسية والامريكية والتركية .

أما اليمن فقد انقطعت من القرن الثالث بعد الميلاد عن تاريخها ، بل كادت أن تَنْبت عن جذور تربتها لولا تلك الصفحات المجيدة المتباعدة من صراع الغزاة من روم وأحباش وفرس ، لأن الفتوحات الاسكندريه لم تصل اليها ولأن عمرانها أصبح خاويا لانعدام الانهار بعد انهيار السد ، وعندما أشرقت دعوة الاسلام كانت اليمن بلا خلفية من حضارة الثقافة أو ثقافة الحضارة ، باستثناء مجموعة قصائد وامثال ودعوات دينية من مسيحية وموسوية ، وهاتان الدياتنان لم تتركا أثرا في كل ارجاء الجزيرة لانعدام الفرق في الاخلاق العامة بين الوثنيين من جهة والمسيحيين والموسويين من جهة اخرى ، لهذا لم تخلف هاتان الدياتنان أي أثر ثقافي بالقياس الى ما اضافت الثقافة اليونانية الى الفرعونية والبابلية والفينيقية ، وعندما استوعب الاسلام في شباب حضارته كل أفكار الحضارات وثقافاتها ، كان اليمن في شبه معزل عن هذه

التيارات لبعده عن العواصم التي اصطرعت فيها المذاهب السياسية والفكرية والأدبية والدينية ، من أمثال بغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة والقيروان ، ولم يبتدء اليمن تاريخه الفكري الا من بداية القرن التاسع الميلادي ، عندما أخذت الخلافة تتراخى ، هناك بدأ تسجيل تاريخ الحضارة اليمنية ولكن كانت هناك قطيعة بين ما في الواقع الماثل وبين ما في كتاب الاكليل للهمداني ، لهذا يمكن ان نعتبر اليمن بلا تاريخ حضاري او بلا حضارة تاريخية حتى بداية القرن العاشر الميلادي ، وكانت تلك البداية تحمل كثيرا من السمات الجاهلية كالاصطراع القبلي ولو بشكل سياسي ، إلا أنها جدت مذاهب دينية كالتي تشابكت في بغداد والقاهرة ، حيث كان أتباع كل مذهب يقاتلون اتباع المذهب الآخر بالاقلام والهراوات ، وقد وصل الى اليمن مدد من هذه المذاهب أو امتداد من تلك المذاهب ، فكانت الشافعية امتداداً للشافعية في مصر وبغداد ، وكانت الزيدية امتداداً غير تام للحنفية العراقية ، ثم امتد المذهب الاسماعيلي من قاهرة المعز الذي زحف اليها من أفريقيا ، فتشابكت المذاهب الثلاثة على الساحة اليمنية وكانت لها قابلية ، فتشكلت من هذا الاصطراع ثقافة حضارية في مجتمع منقطع عن حضارته القديمة وغير قادر على تجديد أو جديد ، إلا أن هذه المذاهب تصارعت جدلياً ، فكانت المدائن اليمنية تتناوش بالنقاش بين التسنن والتشيع، وبين التشيع الاسماعيلي والتشيع الهدوي، وبين التسنن الاجتهادي وبين التسنن التقليدي للامام الشافعي ، ولو تعاركت هذه المذاهب في مجتمع ممتد الحضارة أو جديد التحضر لاحدثت هذه التيارات تغييراً هاماً . الا انها كانت قليلة الاثر وان كونت خلفية متأخرة للثلاثينات من القرن العشرين ، بالإضافة إلى غياب المد الحضاري . طرأ على بلادنا ما طرأ على سواها من جهل

الغزو العثماني مرتين الا ان هذا الغزو الجاهل لم يعطل الثقافة الحديثة في اليمن كغيرها ، لأن هذه الثقافة كانت جديدة بالنسبة الى اليمن ، ولان وعورة ارض اليمن اعجزت العثمانيين في الغزوين عن بسط نفوذ الكرباج ، فتنامت المذاهب الفكرية والفقهية حتى في ظل الاحتلال ، وكان لهذه المذاهب جذور ضئيلة من الافلاطونية والفيثاغورية ، إلا أن الأئمة سيسوها ونقلوها من أفكار الى مذهب حكم واجتهادات أئمة ، لهذا انحرف الصراع الثقافي عن غايته الاجتماعية ، وتمحور هذا الصراع حول الماضوية كأساس لحاضر تلك الفترة ، وعلى تناقض هذه الخلفية وماضويتها وجانبيتها فقد شكلت أساسا ضعيفا للفكر السياسي .. ثم للعمل السياسي المنبثق عن ذلك الفكر .. لهذا قام الجدل السياسي في الاربعينات على اساس من التراث الديني وعلى صدى الدعوات الاصلاحية الدينية ، الا ان ميزة هذا التفكير وما أنتج من أعمال ، إنه حاول نقل الخلافة من الفرد المستبد الى إمامة شوروية دستورية ، كما سبق ، وحاول ثانية تجربة انقلابية فشلت كأمها . وهذان الحدثان بتمخضاتهما كانت المشاكل الثورية فيهما أكثر من السر الثوري ، واخشى ان هذه المشاكل قد انسحبت على كل الحركات من مطلع الستينات الى السبعينات ، الا أن ألوان المشاكل اختلفت بمقدار اختلاف التفكير الثوري والعمل الثوري ، فمن ٥٦ الى ٦٢ انتقلت الافكار السياسية الى العمل السياسي وبدأ التفكير في ثورة تستبدل الملكية بجمهورية وقامت في وجه هذا التفكير عدة مشاكل .

هل يمكن أن تتطور الملكية بولي عهد أحمد ؟ هل ينجي اقتلاع الامامة من تدخل الآخرين ؟ هل ينتفع الثوار برجال دولة الامام باعتبارهم ثمرة وضع لا اعمدته ؟

لقد كان التفكير في الثورة يتحرك في ارحـام المشاكل ، الا ان هناك قاسم مشترك التقت فيه اكثر الآراء هو الطموح الى التغيير على أي شكل • وتأكد للجانب الأقدر ، أن الثورة على الملكية وإبدالها بجمهورية هو الحل الحاسم ، وفاز هـذا الحل بمؤازرة السلاح ، وهتاف الشعب كصدى لطلقات السلاح ، فلم تحظ أي حركة بالتأييد الجماهيري الكاسح كما حظيت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ • إلا أنها تكاثفت على الثورة المشاكل الثورية نتيجة الخليط حتى كاد يغيب الأساس الجامع بين الثوار من قدماء وجدد ومشردين وغير مشردين ، ولعل السبب وجود نموذج ثوري سبق ثورة سبتمبر في اليمن ، وحاولت الثورة اليمنية العمل على غراره فقد عرف ثوار سبتمبر ثورة مصر واحسنوا القياس عليها ولم يتكشف لهم الفارق بين المجتمعين من حيث اختـلاف الخلفيـات ، ومن حيث الواقـع الاجتماعي ، ومن حيث الحجم العسكري ، فلأن عبد النـاصر حل مكان محمد نجيب انتخب الثوار السلال رئيسا مؤقتاً واختلفوا في البديل ، واذا كان الاختلاف ظاهرة فكرية فان وجود قاسم مشترك ولو بحد أدنى ضروري جداً لجماعة عبرت عن ارادة شعب طـال انتظاره للثورة ، لهذا تغلبت المشاكل الثورية على بهاء الوجه الثوري • وزاد هذه المشاكل تعقيداً محاولة الملكية لاسترجاع سلطتها ودفع الآخرين لها ، ومن جهة ثانية آزر الجمهوريين اليمنيين غـير يمنيين يملكون الموقف الثوري ولا يملكون سر امتلاك الواقع اليمني ، فاصطرع المجتمع سبع سنوات بين الثورة والمشاكل الثورية ، وبين الثوار على تعقد مشاكلهم وبين الملكية المهزومة الحالمة ، ولما وصل المجتمع الى شاطىء السلام احتدم النزاع بين الثورة والمشاكل الثورية• ولوجود العنصر الغير يمني وغيابه بحكم احداث معروفة ، تعقدت

المشاكل اكثر واستمرت المعركة في النفوس بعد ان كانت في الجبال وكانت هذه المرة بين الذات اليمنية وبين البديل عن الراحل •

هنا تحول السلام الى أدمى من الحرب وأعنف من تناغم القذائف بين ذات تريد وبين فراغ يريد الامتلاء ، وبين عدة أبدال للراحل ، فتعملقت المشاكل الثورية ، وكاد وجه الثورة أن ينطفىء في مهب عواصف المشاكل الثورية ، وتآزرت عبقرية الاستعمار ، والتمسك بالسلطة ، والطموح اليها • على غياب الانسان اليمني عن نفسه بسلاح أفتك من الطائرات والمدافع ، ذلك هو سلاح الإلهاء والافساد وتركيب التناقضات ، وامتدت هذه المرحلة الفاسدة المفسدة حتى حركة يونيو ، فثارت السلطة على السلطة ، وأعلنت حركة يونيو مد النبع السبتمبري والرجوع اليه والامتداد منه ، الا ان قيادة يونيو كانت متناقضة التركيب لانها ثورة حكم على حكم أو حركة حاكمين على بعضهم ، الا ان الشعارات السبتمبرية والثقة الخاصة بالحركة وما رفعت من شعارات أحيت ميت الآمال ، وأنبأت عن تغير ثوري برغم الركام الذي سمي مجلس قيادة ، وبعد شهور تخلصت القيادة من بعض تناقضاتها • وبدأت تنتقل الى شوط آخر وتحت ضوء جديد ، إلا أنها ستظل فترة انتقال لوقت • ولعل أعقد مشاكلنا الثورية هو استمرار هذا الانتقال أو وهم الانتقال •

تسمت فترة سبتمبر ٦٢ الى نوفمبر ٦٧ فترة انتقال ومن ٦٧ الى حزيران ٧٤ فترة انتقال ومن حزيران الى الآن فترة انتقال ، الا أن الانتقال الأخير أجمل تلويح بالوعد ، وسيظل السؤال هل نحن ننتقل ؟ وهل انتقالنا الى أين ؟ أو انه الى غير أين ؟ لكن ما هو السبب في امتداد الانتقال بلا انتقال ؟ السبب أن المشاكل الثورية

أكبر من الثورة وان المشاكل تحققت بقدر كاف ، على حين لم تتحقق الثورة بقدر كاف .

ولعل هذه النقائص والمزايا نابعة من واقعنا المختلط التركيب ، إلا أننا لم تتفرد بهذه السمات كلها وحدنا .. فكل الشعوب العربية تصارعت فيها الثورات والمشاكل الثورية ، اختلفت مصر عبد الناصر عن مصر محمد نجيب بمقدار ما اختلفت مصر أنور السادات عن مصر عبد الناصر ، واختلفت عراق عبد السلام عارف عن العهد الثاني للبكر واختلفت ١٧ تموز عن ١٤ تموز بمقدار ما اختلفت جزائر بن بيلا عن جزائر هواري بومدين ، لهذا فان كل الوطن العربي يعاني مشاكل ثورية أكثرمما حقق من ابداع ثوري، وإنكان اليمن بمشاكله وثورته يختلف كثيرا أو قليلا عن أقطار أمته ، فأين تكمن الفروق ؟ تكمن في ثلاثة مكامن .

أولا : انه ليس وراءنا خلفية خصبة متينة كما عبرت مقدمة البحث ، ثانيا : ان الاقتصاد الضعيف لا ينتج فكرا ثوريا قويا أو مجتمعا قويا ، واقتصادنا كما نرى ، ثالثا : ان الثورات في الأقطار العربية الأخرى تغير قمم السلطة ولا تمس القواعد الادارية ، فتستمر الأجهزة ذات الكفاءة في ممارسة واجباتها في ظل أي اسم وعلى أي وضع ، وان حدث ما يسمى بالتطهير أو التصفية فلا يصل الى الصميم ولا الى التعطيل . وعلى العكس عندنا فان تغيير القمة يغير أغلب القواعد أو كلها أو يخلط العجز بالعجز لكي يتمخض عجز قادر على الشلل .

لقد قلت أن التاريخ أهم ما أبدع ابتكار فن الكتابة ، لأنه يمكننا من رصد الأحداث وكشف المزايا والعيوب حتى لا يمتد الخطأ

من الخطأ . وما كان ينبغي أن أستقبل ذكرى سبتمبر بهذا الحساب المستقصي الا لأنه علمني وعلم كل اليمنيين كيف يتجاوزون النقائص وكيف ينبغي أن تثور الثورة .

فهل غنيت لسبتمبر في عيده الرابع عشر ؟ وهل احتفيت ببلوغه سن الرشد ؟ وهل لاقيته بأزكى تحية ؟.

نعم لقد تغنيت له واحتفيت به ولكن على طريقته النارية ، وعلى مبدئه العظيم العنيف .

مجلة الجيش ــ العدد ٧٨ ــ سبتمبر ١٩٧٦

* * *

مُجَـرّبون بلا تجـربة

كل الأحداث التي تنجم •• وكل آثارها التي تسفر عن وجهها تأتي قبل حدوثها إمكاناً •• وتسفر قبل سفورها الفعلي ، إلا أن الرؤيا قصيرة عن تجليها •• أو ذاهلة عنها بغيرها ، فثورة سبتمبر ١٩٦٢ م تبرعمت للسفور من عام ١٩٥٥ م •• وألقت عنها الستار عام ١٩٦٢ ، لأن كل حادثة تبدأ امكاناً •• ثم تحدث فعلا •

وهكذا كل الأحداث الكبار : هزيمة عام ١٩٦٧ حدثت في عام ١٩٦٢ !• عندما فشلت أكبر تجربة هي وحدة مصر وسورية ، لقد كان ذلك الحدث الذي أفشل أول تجربة عظيمة منبئاً بأحداث أفدح •• فلم تأت هزيمة ٦٧ الا وليداً شرعياً لخلل في التركيب الاجتماعي كانت الهزيمة ذروتها العالية •

كذلك انتصار أكتوبر ١٩٧٣ •• فلم يحدث في أكتوبر ١٩٧٣ وانما توفرت امكانياته من هزيمة ٦٧ •• فقد أدى الخلل التركيبي الى الهزيمة •• وأدت الهزيمة بمرارتها الى بلورة الارادة القتالية في أكتوبر ١٩٧٣ ، فكل الاحداث الفاجعة والاحداث السارة تأتي كنتيجة لعوامل سابقة أو رد فعل لأحداث واقعة ، فالظروف تتمخض عن أحداث يوفر التحرك الزمني إمكانها وعندما تحدث تثير الدهشة أو السؤال •• مع أنها كانت منتظرة بتوفر إمكانها •• هذا بالنسبة الى

الأحداث .. وبالنسبة للظواهر التي تنشأ مع الأحداث كأصل لها وكظل يمتد عن ذلك الأصل ، لأن الثورات رد فعل طبيعي على فساد اجتماعي وسياسي يبرر وجودها ويهيىء المجتمع لحسن تقبلها كبديل أفضل ، والتبرير والتقبل هو تحقق الحدث امكاناً قبل حدوثه بالفعل ، فاذا كانت ثورة سبتمبر ١٩٦٢ حدثت بالامكان قبل سبع سنوات من ميلادها العملي .. فان ما واكب الثورة من ظواهر كان قائما بالامكان منذ توافرت عوامل الثورة .

كان بين (الامام أحمد) وبين الجيران كثير من الخصومات ، لأنه استورد السلاح السوفيتي والخبرة الصينية ، وقوّى اتصالاته بالثورات التحررية من عام ١٩٥٧ الى ١٩٦٠ .. فكانت هذه أسباب كافية للتربص به .. الا أن المصالحات كانت تتدخل من فترة الى فترة، فما حدث من حروب بعد قيام ثورة سبتمبر كانت أصولها قائمة ونامية قبل ثورة سبتمبر وإن كانت تزايدت من جانب وتناقصت من جانب آخر ، ومثل ذلك المصالحة بعد حروب الثورة ، فقد كانت امتداداً للمصالحات التي دارت بين الإمام وبين جيرانه في مطلع الستينات .

ونتيجة لجمع الإمام بين الاتصال بالتقدميين والتحرريين وبين إغضائه أو إرادته عن الفساد المالي والاجتماعي ، فقد حدثت الثورة كرد فعل على الفساد الذي برر وجود الثورة ، فاذا كانت الثورة نشأت قبل حدوثها بسنوات .. واذا كانت الحرب التي واكبتها نشأت قبل سنوات من اعلانها عن نفسها بلغة النار والدم .. فان العبث المالي والفساد الاجتماعي قد استطاعا أن يمتدا وينموا مع عوامل الثورة لكي يسترا وجهيهما تحت أضواء الثورة .. ولكنهما لم ينتهيا وإنما قنعا وجهيهما عن النور وانحنيا ريثما تمر العاصفة ، فقد

بدأت الرشوة كأمر شبه مألوف من عهد الاتراك ، واستطاع الامام يحيى أن يقلم أظفارها الا أنه لم يقتلع عروقها ، فكانت تمارس وجودها من جانب وتتعطل من جانب آخر ، كان الارتشاء من المواطن يحتمي بالسرية •• وكان المسئول يعف الى أقصى مدى عن أموال الدولة •• وبهذا يستطيع أن ينال الثقة من الامام والكسب ولو قليلا من المواطن ، وعندما انتهى الامام يحيى عام ٤٨ بدأ العبث بأموال الدولة بقدر قليل تتيجة الانتقال السريع •• إلا أنه ممكن النمو ، وبالأخص عندما تفاقم الصراع على الحكم بعد الامام يحيى بين الامام أحمد واخوته على ولاية العهد لابنه البدر من عام ١٩٥٤ حتى قيام الثورة •

كانت هذه الفترة فرصة المرتشي من المواطن وفرصة المستغلين لأموال الدولة ، لأن اشتغال القمة بنفسها أتاح لأعضائها مجالا لاستغلال المواطن وسرقة أموال الدولة ، فالعبث المالي والاداري الذي امتد من ١٩٦٢ الى اليوم نشأ من بداية الخمسينات ، وكان يختفي تحت أضواء كل حدث لكي يمارس نشاطه عندما تبرد نار الحدث وتسكت ضوضائه •

لقد أراد ثوار ٦٢ و ٦٧ و ١٩٧٤ أن يقضوا على ظواهر هذا الفساد ، إلا أنه قد تأصل وأصبح اقتلاعه يستدعي اقتلاع كثير من الجذور أو كل الجذور ، وهذا كان أصعب على كل محاولة ، القمم كانت تتساقط وكانت أذرعها وأكتافها وأقدامها غير قابلة للسقوط لرسوخها في تربة الواقع ، فمن أين لكل حركة القدرة على ايجاد موظفين أنقياء ••؟ من الممكن الظفر بالأنقياء • لكن أين تجربتهم •• والتوظيف تنيجة ممارسة ومران حتى على الفساد والافساد ••؟

لقد فكر ثوار ١٩٦٢ طويلا في استبقاء رجال حكم الامام لكي ينتفعوا من خبرتهم •• ولكنهم قضوا على البعض واستبقوا البعض

لكي ينتفعوا بخبرتهم •• لكن ما هي خبرتهم ••؟ انها خبرة الانتفاع لنفوسهم وليست خبرة الانتفاع بهم،ومن هنا لم يتحقق للثورة القضاء على الفساد ، لأن موظفي العهد الفاسد يملكون تجربة الانتفاع لهم ولا يملكون تجربة الانتفاع منهم ، والعادة أن كل عهد يمضي يزيد الحنين عليه لا لشيء إلا لأنه مضى ، فبعد قيام الثورة ترددت كلمات وكلمات تتهم الثوار بالقضاء على المجربين واقصائهم عن مجال الخدمة •• ولكن ماذا كانوا سيحققون •• وهل لديهم تجارب لتعزيز الوضع الجديد ••؟

يبدو أنه ليس لرجال العهد البائد أية تجربة حتى في تهدئة الغاضبين على العهد الجديد •• وقد كان أهم ما تحتاج اليه الثورة ، فهل أعدمت الثورة وأقصت كل المجربين ••؟ بالعكس : إن الغالبية من موظفي العهد البائد كانوا موجودين في المعسكرين • ولم تنتفع بوجودهم الجمهورية الوليدة ولا الملكية التي تحاول البقاء ، لقد انقسم رجال العهد البائد الى قسمين •• أحدهما للجمهورية ومعها •• وأحدهما للملكية ومعها • وكان أهم رجال الامام الى جانب الملكية•• إلا أن الملكية لم تنتفع بخبرتهم إطلاقاً ، كما لم تنتفع الثورة بالتالي •• فما هو السبب ••؟ السبب أن ثلاثة أجيال بلا تجربة •• كان الامام يحيى بلا وزراء •• فهو المسئول عن كل شيء ، لأن في يديه السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية •• والتوظيف خاضع لرغبة الامام وكل مؤهلاته الغفلة والإخلاص معاً ، وكان (عمال المناطق وحكامها) يقضون وينفذون على ضوء الفقه الموروث وعلى الاختيارات الامامية ، وعندما ابتدأ عهد الامام أحمد أصبحت الوزارات التي شكلها والده في آخر سنة من عمره تبدو شكلياً كوزارات •• تولاها أبناء البيوتات التي من طبقة الامام أو القريب منها •• الى جانب بعض إخوة الامام

الذين تعودوا الوزارات ولسكرتاريتهم كل التنفيذ لجهلهم بالعمل الوزاري وشكلية توزيرهم ، ومنذ عام ١٩٥٣ أقصى الامام أحمد إخوته نهائياً عن الوزارات واستبدل بهم أشباههم من أبناء الطبقة الإمامية أو القريبة منها •• فهل كان لهؤلاء على طيلة مدتهم أية خبرة ••؟

إن اكتساب الخبرة يأتي من ممارسة العمل على ضوء نظريات•• ولم تكن لموظفي الامامين •• ولا وزراء الامام أحمد أية نظرية أو أية خبرة يكسبها العمل •• إلا أنه كانت لهم مكانة اجتماعية ومهابة سياسية لسبب واحد هو : ثقة الامام •• والمظهر الذي تقتضيه الوظيفة فكان الوزير موضع الاعتبار الاجتماعي لكن لا لشخصه ، ولا لطبقته ، وإنما لأنه وزير الامام ، ومثل الوزير : المدير • وكلما كانت الوظيفة أضخم بمقياس ذلك الحين كانت المكانة الاجتماعية أرسخ وأعلى •• فهذا الرجل مطاع في الناس لأنه وزير الامام •• أو حاكم الامام •• أو عامل الامام •• أو مفتش بأمر الامام ، أما أولئك الرجال فلا شخصية لهم ذاتية أو اختبارية وإنما كانت شخصياتهم تتحرك في هالة من روائح الامام وتتلألأ ببريق الامامة ، وكلما تضاءلت روائح الامامة وخفت بريق الامام تضاءلت أهمية الوزراء والموظفين والقادة والجنود ، لأن شخصيتهم مستعارة من بريق آخذ في الخفوت ومن روائح متمادية في التناقص ، لهذا انتهت مكانتهم بنهاية الامام الذي بدأت نهايته من بداية خفوت بريقه من منتصف الخمسينات •

فكيف يمكن أن يمكلك أولئك المجربون إسمياً أية تجربة وهم يستمدون بريقهم وروائحهم من (دار السعادة) بصنعاء •• أو من « صالة » بتعز ؟•

كان الوزير يأتي الوزارة وله مهابة عطف الإمام •• ولكن ليس فضله أكثر علي أحد الموظفين ، لأنه عاجز عن توظيف أحد الا بموافقة الإمام •• أو عزل أحد إلا بموافقة الإمام •• بدا لبعض الوزراء في أول الخمسينات أن يعزل موزع بريد •• فقال للوزير « من يقولو لك تعزلني •• أنت وزير بأمر الامام وأنا موزع بأمر الامام » •

وفي عهد الامام يحي أراد بعض الحكام أن يعزل كاتب المحكمة كمسئول فوقه • فاتجه الكاتب الى الامام يحي شاكيا • فولاه المحكمة وعزل الحاكم •• فلم يكن للوزير أو شبيهه حق التوظيف أو العزل لصالح العمل فمن أين تأتي خبرة الموظف وهو لم يصل الوظيفة عن مؤهل وإنما عن الوراثة أو الشفاعة أو الحاح الطلب أو الطالع السعيد؟

فلم يكن للوزير حق إضافة شيء الى الوزارة بل ان كل الوزراء لم يكن لهم اهتمام بتحسين سير العمل أو تحريك الاجهزة لأن هذا يهم « النظر الشريف » وحده • واذا أراد أي وزير توظيف أحد فليس الدافع تحسين العمل وإنما نفع أحد الأقارب بمرتب الوظيفة ، وكان الوزير اذا أراد هذا فلا يفعله الا برفع الى الامام وكانت المرفوعات تأخذ هذا الشكل :

« نحتاج الى فلان لعمل كذا لمولانا شريف النظر خادمكم فلان »•

وكان الامام اذا أراد الموافقة أجاب (لابأس) واذا لم يرغب سكت عن الجواب وسكت الوزير عن اعادة الطلب •

فهل يستطيع مثل هؤلاء الوزراء امتلاك أية خبرة (وتوظيفهم على نظركم والعزل نظركم) بل لايستطيع أي وزير أن يعزل من

شمله العطف الامامي بالتوظيف لأن الوزير موظف كأحد فراشي وازرته ••؟

فكل الموظفين من كبار ومن صغار لم يمارسوا عن نهج نظري ، حتى يمتلكوا الخبرة وإنما كل منهم كان يعرف عمله مسبقا ، لايفكر في تحسينه ولا يمهه أن يفكر لأن لامجال للتفكير مادام في أحد القصرين الكمال المطلق،ولم يكن هناك أي روتين وظيفي لاموروث ولامستحدث سوى شكليات تخضع للاوامر الامامية كقوانين فوق القوانين •

وعندما قامت الثورة قامت على هذا الركام وانقسم الموظفون الى المعسكرين ، كان يبعث الثوار الى عواصم الاقاليم من سبق له فيهن عمل ، فلا يقتدر على صنع شيء لأن الذي كان يستمد منه القدرة والهالة قد انتهى ، وحتى في المعسكر الملكي بطلت التجربة والمجربون، لأن الامامة قد انتهت أو انتقلت من أبهات القصور الى بساطة الكهوف•

أراد الجنود تفجير ثورة في أول الستينات وأحدثوا الخراب في بعض البيوت ، ولم يظفروا بقيادة تحسن توجيه ذلك الغضب والتمرد الى ثورة••وكان الامام أحمد في ذلك الحين يستطب في روما،والبدر يشغل مكانه في صنعاء ، وعندما اضطر الى اطفاء ذلك الغضب وإيقاف ذلك التمرد ، لجأ الى رجال أبيه وجده ، فولى محمد عبد الله الشامي الذي إفتتح لواء البيضاء في الثلاثينات مهمة قمع التمرد ، وولى (أحمد السياغي) مهمة تدبير الملك تنفيذياً فنجح (الشامي والسياغي) في المهمتين • لكن هل نجحا بخبرتهما الخاصة وتجربتهما الطويلة ••؟ ربما لا • وإنما نجحا بالبقية الضئيلة من بريق الامامة وبما تبقى من روائحها •• بدليل أن نفس الرجلين عجزا عن ممارسة أي مهمة في المعسكر الملكي بعد سقوط الملك ، فقد تولي قيادة القبائل (أحمد

السياغي) أقدر الرجال على ادارتها وقيادتها أيام الامام •• وكان قتله على يد من يقودهم بعد الثورة • أما (الشامي) فقد أقعده اليأس والكبر عن ممارسة أي مهمة ، لأن الذي كان يمده بالمهابةقد أصبح أحوج الى مدد • ومن هنا نعرف أن ثلاثة أجيال من رجال الاعمال الحكومية ، بمختلف مراتبها بلا تجربة عملية وبلا قدرة خاصة منواقع نفسي وواقع عملي •

وعندما تم التصالح بين المعسكرين : الملكي والجمهوري آخر الستينات ، التقى رجال العهدين لتسيير الحكم • واذا الهوة الكبيرة تحول بينهم وبين المراد ، لأن المجتمع قد تغير ، ولا يسلكون خبرة مواجهة التغيير ، والذي كان يسدهم بالمكانة والهالة قد أصبح بلا هالة وبلا مكانة ، فهم لم يمارسوا تجارب يستفيدون من أخطائها وصوابها وإنما كانوا بلا خطأ ولا صواب، لأنهم بلا نظرية وبلا ممارسةشخصية على ضوء نظرية ، فكان فشل سبع سنوات من المصالحة الى ١٩٧٤ إمتداداً لعدم الممارسة من قبلها أو امتداداً للفشل الذي كان غير منظور ، فكشفت زواياه عيون الشعب المراقب ويقظة المجتمع الذي تغير ، ولم تملك قمته وسائل التغيير ، لأنها كانت تعمل بلا تجربة أو تمارس تجربة النظر الشريف الذي كانت تعليماته شكلية،وكانت أوامره فوق التعليمات كما قال الامام « أحمد » عندما كان يقول له أمير الجيش اذا وظف الامام أحداً في دوائر الجيش • هذا يامولانا يخالف التعليمات،فكان الجواب دائماً أوامرنا هي التعليمات،فقدكانت الأوامر عن رغبة خاصة وتلقيها عن رغبة في الاخلاص رغم التعليمات التركية ، لهذا كله كانت وظائفنا وموظفونا الى اليوم مجربين إسمياً بحكم المدة•• وبلا تجربة لعدم الممارسة ، وعدم التفكير في طبيعة العمل ، وتعطل النظريات أو التفكير في نظريات وممارسة •

فكل مايلاحظ المرء من ظواهر رشوة وفساد وعجز واستغلال لأموال الدولة كان حادثاً من قبل الثورة ومن بعدها ، إلا أنه كان قبل الثورة محجوباً عن النظر ، إلا القليل الذين وقعوا في أشد العقوبات لانتهاب صناديق الدولة ، وبعد الثورة ألقت الوجوه كل أقنعتها تحت نار العيون وتحت ضوء الشمس . فكلنا الى الآن بلا تجربة..لأننا لم نعمل عن فهم وعن واقع يعطي الفهم ..

مجلة الجيش العدد (٦٠) مارس ١٩٧٥

* * *

صنع التجربة ونقل التجارب

رأيت العقــل عقلــينِ فمطبــوع ومصنــوعُ
ولايــوجد مصنــوعٌ اذا لــم يك مطبــوعُ

« شاعر قديم »

إن من لايملك العقل المطبوع عاجز عن الاستفادة من العقل العام •• أو من ثمرات العقل العام ، لأن العقل الأصيل الذي يملكه المرء هو الذي يهديه إلى مواطن الاستفادة والاستزادة •• وليس هذا في العقل وحده •• وإنما في كل الكائنات : يولد الفرد وهو يملك كياناً صغيراً مزوداً بامكانيات التقبل •• ثم ينمو هذا الصغير بفضل الطاقة القابلة للنمو •• وبفضل طاقة التقبل من ما في خارج الكيان ، فالطعام والشراب والهواء من معطيات الحياة يتلقاها ذلك الكيان فينمو •• ثم يتحرك بطاقة فيداخله •• تتعلم من ما حولها حركة اللسان بالحديث•• وحركة الاعضاء بالتقليد والاندفاع •• وحركة الدماغ بالتفكير ، والذي لايملك في كيانه طاقة تقبل النمو يستحيل عليه أن ينمو •

ومثل الانسان •• الشجرة •• فهي تبزغ من صميم التراب وتستمد عوامل نموها من خصائص التربة والهواء •• ومن قطرات المطر ولعاب الارض ، فكل شيء لايملك الطاقــة يعجز عن استقبالها وصهرها الى طاقته •

هذه من البديهيات •• ومن ما لاضرورة للاستدلال بها لافتراض أنها مفروغ منها،إلا أن هذه البديهية قد توصلنا الى النقاش العام الذي يدور في بلادنا من اثني عشر عاماً •• فكل المهتمين هنا من مسئولين ومواطنين يكابدون الحس بالتخلف الاجتماعي بشقيه الاقتصادي والثقافي ، ويعترفون بهذا التخلف في كل ما تصدر عنهم من خطابات ومحاضرات وندوات ونقاشات عامة وخاصة وبرامج وتصريحات •

ولوطأة الحس بالتخلف تزايد حوله الحديث في أول الأمر •• ثم تلى هذا الحديث مناقشات أخرى تبرر هذا التخلف ، ثم جاءت مرحلة ثالثة تقيس تخلفنا بتخلف آخرين ، ثم مرحلة رابعة تنسب تخلفنا الى استحالة نقل التجارب من الآخرين ، وكل ما دار من أحاديث ، وكتب من مشاريع برامج لايتسآءل عن أسباب التخلف ، ولعل أهم هــذا التخلف هو عدم المحاولة في التخلص منه أو التقليل منه بأي وسيلة من الوسائل ؛ ولعل عدم المحاولة يرجع الى سبب واحد : هو حماية السلطة أو الطموح الى السلطة ، فكل من يصل الى الحكم يشتغل به عن المحكومين ، وكل الطامحين اليــه لايسألون عن المحكومين وتخلفهم إلا بمقدار ما يؤدي الى الوصول الى الحكم ، مع أن امتلاك البرامج التقدمية للسلطة أو للطامح اليها أهم الأسباب المشروعــة للوصول أو الاحتفاظ ، فقد أصبح الابقاء على التخلف سبباً من أسباب البقاء على السلطة أو وسيلة من وسائل الوصول اليها ، أما صنع التجارب أو نقلها فليست مشكلة لأن الذي لا يملك تجارب خاصة لا يستفيد من نقل التجارب الجاهزة ، لأن التجارب الجاهزة تحتاج لكي تتوطن الى تجارب محلية توطنها وتقويها وتفرغها في قنوات محلية ، وليس من الصعب ولا المستحيل نقل التجارب بحذافيرها ، لكن

الصعب أو المستحيل هو الاستفادة من هذه التجارب ، اذا لم تتلقاها تجارب محلية تملك قيادها وتقدر على صهرها .

وقد سبق لبلدنا أن مارس عدة تجارب كانت كلها منقولة ، إلا أنها تيمنت بفضل التجارب الخاصة .

عنـدما قامت دولة (سبأ) كانت تملك التجربة المحلية كصنع السدود ونحت التماثيل .. ونقش المراسم ، ولأنها تملك تجربة فنية استفادت من قوانين « حمو رابي » البابلي .. فنقلت تلك القوانين وطبقتها واستفادت منها لأنها تمثلتها قبل النقل وامتلكت قولبتها بعد النقل ، ثم استطاعت دولة « سبأ » أن تصبح دولة تجارية ، ودعتها التجارة الى أن تصبح دولة حربية ، فتكاملت بنيتها السياسية ، لأن بعضها استدعى بعض ، السياسة تستدعي التجارة..والتجارة تستدعي العسكرية ، والجهاز المتكامل يستدعي العمران والحضارة . وعندما بلغت دولة سبأ المكان المرموق توقفت عند ذلك القدر كعادة كل حكم وراثي ، فتقدمت الدنيا وهي لا تبرح مكانها حتى انهارت السدود ثم « تفرقوا أيدي سبأ » .

ولعل السبب في انهيار تلك الدولة وما تلاها من دول ودويلات ، يرجع الى تجمدها على ما عندها فاذا بالدنيا تتحرك وهي واقفة ، فلم تضف دولتا « سبأ وحمير » طبيعة التقبل الفلسفي التي امتازت بها معاصرتها « أثينا » بينما استفادت منه كل معاصرات « أثينـا » « كروما وبابل » ثم مصر والشام وفارس فلأنها توقفت عن الاستقبال توقفت عن الارسال ، وهذه أول تجربة مارستها أعظم دولة قامت على هذا التراب ، لقد أصبحت قوانين « حمور ابي » البابلية يمنية بفضل الاستعداد لتلقيها والقدرة على تسييرها ، هذه تجربة .

عندما أحس اليمنيون تداعي سلطان بغداد وضياعهم في الحروب القبلية ، أرادوا أن يكونوا دولة تنتظم اليمن شماله وجنوبه ، ولوفرة الحس بضرورة دولة تأخذ وتعطي تلقت بلادنا النظام « الزيدي » والنظام « الاسماعيلي » ، فتوطن (الزيدي) من « صعدة » الى « صنعاء » وتوطن « الاسماعيلي » من « الجَنَد » الى « جبلة » الى « حَرَاز » وعلى استقدام « الزيدي » من جبل « الرَّس » ومن « الدَيْلَم » تقولب في قوالب يمنية بفضل ما فيه من فلسفة سياسية وبفضل ما في متلقيه من تمثل وتطويع ، وعلى استيفاد (الاسماعيلي) من « القيروان والقاهرة » تيمن في قوالب يمنية وأصبح سياسة « الجند » و « جبلة » على شافعية المنطقتين دينيا .. وهذه هي التجربة الثانية .

عندما بدأت أشعة العصر تتسلل من شقوق جدران العزلة عرفت بلادنا ما في العالم من أنباء وأحداث ، وكانت بلادنا إحدى التوابع « للباب العالي » في « الآستانة » ولعل أول حدث معاصر هز التفكير هو : سقوط « عبد الحميد » عام ١٩٠٩ ، ومن ذلك العام أو من بعده بأعوام بدأ التفكير اليمني يرنو الى صنع حكم دستوري كذلك الذي صنعته « تركيا » .

وبرغم فشل الحكم الدستوري في « تركيا » وهزيمتها الشنيعة في الحرب العالمية الاولى . فإن فكرة الدستور العثماني كانت تتزايد في بلادنا من فترة الى أخرى ، حتى أقامت بلدنا حكما دستورياً في شباط عام ١٩٤٨ بعد قيام الحكم الجمهوري في « تركيا » بـ ٢٥ عاماً ، وقد دل على نقل التجربة « الميثاق المقدس » الذي نشر بصنعاء باعتماده أهم النصوص التركية من مثل : (حريات عدالات ديمقراطيات شورويات) فقد كان انقلاب ١٩٤٨ مستوحى من انقلاب (محمد

رشاد) خليفة « عبد الحميد التركي » وعلى غراره في شكله العام ، وان كانت الافكار المحلية قد أحسنت تمثله وعرفت قولبته في القوالب اليمنية •• ولا يرجع فشل الانقلاب الى نقل التجربة وإنما الى قــدرة توطين ذلك النقل والاعداد له شعبياً لاختلاف الزمنين والمكانين •

وهذه تجربة ثالثة •

عندما أهلت الخمسينات تزايدت التغيرات العالمية نتيجة الحــرب العالمية الثانية •• ونتيجة تغير الانسان نفسياً وظروفاً •• وتزايدت معرفة شعبنا بهذه التغيرات، كما تكاثر حسه بالعجز عن أي تغيير، نتيجة نكبة ١٩٤٨ التي خلفت الحس الانهزامي ، حتى كان حادث ١٩٥٥ بقيادة « الثلايا » وإمامة (عبد الله) مفاجأة عارضة ، لم تتهيأ لتقبلها النفوس لأنها لم تتمثلها من قبل حدوثها • •وانما جاءت كمصادفة عجلى لا ينتظرها أحد ، فكأنها كانت غريبة على تجارب شعبنا •

صحيح أن زيادة الاخوة من الأئمة سبب الصراع على السلطة كما يعرف تاريخنا •• إلا أنه لم يخطر ببال أحد أن أحد اخوة « الامام احمد » يطمح الى مكانه وهو حي•• لأنه لم يصل الى الملك عن طريق الارث وحده وإنما عن طريق السيف أولا •• والوراثية ثانياً •• فقد أصبح أخوة الامام مدانين له ، لأن انتصاره في ١٩٤٨ هو الذي أخرجهم من السجون وأعادهم الى « سيوف » ، لهذا كان قيام « عبد الله حميد الدين » مفاجئاً متهماً بالعمالة •• وكانت حادثة الانقلاب سابقة للتمثل •• وحقيقة لقد كانت غريبة الوجه والاسباب ولا أمل تكرار هذا الحدث لزيادة الاعتصار منه • ضرب مجموعة من العساكر « قرية الحوبان » بتعز •• وذبحوا مواشيها ، فشكت القرية وأراد الامام إنصافها ، فاستغل (عبد الله) مرارة الجنود بأبله طريقة •• فكيف يمكن إرغام الامام على التنازل••وبقاءه في القصر حياً مطاعاً •

لقد سقط الانقلاب بعد خمسة أيام •• وكما لم يأت عن تجربة •• لم يترك تجربة •• إلا أنه أدى الى تجربة •• فقد أصبح هذا الحدث أول نقطة تحول في حياة النظام والشعب •• فلم يعد القادة والساسة يفكرون في ابدال إمام بإمام • وإنما بدأوا يفكرون في ماهو أكثر من هذا •

وهنا تزاحمت مؤثرات العصر ، فامتدت طريق « الحديدة » الى « صنعاء » بأيدي الفنيين الصينيين ، وقام ميناء « الحديدة » بأيدي سوفيتية •• كرد فعل على انقلاب ١٩٥٥ الذي إمامه كان أحد نزلاء « نيويورك » لعدة سنوات •• فإذا لم يكن انقلاب ١٩٥٥ عن تجربة ، فقد أدى الى تحول ، وهذه تجربة رابعة بآثارها لا بصنعها •

من عام ١٩٥٦ عرف شعبنا انهيار الاستعمار تحت أقدام الجيوش الشعبية •• وانفجار الثورات العسكرية في أكثر من مكان من العالم الثالث ، فبدأ التفكير في قيام جمهورية على غرار جمهورية (مصر •• أو سورية •• أو تونس ••) ومضى الإعداد •• ومضت السنوات ، فانفجرت ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ ، على طريق ماحدث في أي مكان ، وصدرت المبادىء الستة للثورة على عدد بنود الثورة المصرية ، وتسمى النظام « الجمهورية العربية اليمنية » على تسمية « الجمهورية العربية المتحدة » أو على تسمية « الجمهورية العربية السورية » بعد الانفصال، وكانت هذه أعظم تجربة صنعها ونقلها شعبنا : صنعها من ضروريات واقعه •• ونقلها عن طريق الاستفادة ممن سبقوه في الطريق ، ونجحت التجربة • وتلك هي التجربة الخامسة من رصيد شعبنا التجريبي ، فلم يستفد شعبنا من نقل التجارب إلا لأنه يملك تجارب تطوع المنقول فتجعل المطبوع مصنوعاً والمصنوع مطبوعاً ، فمن الممكن أن ننقل التجارب من أي مكان كغيرنا ، بشرط أن نملك تجارب خاصة تتمثل

المنقول قبل نقله .. وتملك تسييره بعد نقله ، والدليل الأكبر على هذا التحول : هو انتقال شعبنا من « المملكة المتوكلية » الى « الجمهورية العربية اليمنية » ، هل كنا متخلفين قبل الثورة .؟

كنا أكثر تخلفاً ، إلا أن شعبنا لم يكن يملك الحس بهذا التخلف ، والأمر الهام هو توفر احساسنا اليوم بالتخلف والحديث بالخروج منه، بيد أن الخروج من هذا التخلف مثار جدل بين المهتمين من جميع فئات المجتمع ، لأن الثورة التي أوقدت الحس بالتخلف أوقدت الحس باليمنية كأرض وسياسة ومجتمع ، فهل التقدم يمنع من اليمنية ؟ انه الدليل على حيويتها ، ولا يدل اليمن على يمنيته الحية إلا بما يصنع من تجارب تقدمية ، وما يستفيد من تجارب التقدم .

فهل عاداتنا وتقاليدنا تمنع من صنع التجارب ونقلها ؟.

أظن لا ، لأن العادات والتقاليد مشتركة ومتشابهة بين كل الشعوب، ولان العادات والتقاليد مواسم اجتماعية لاخصائص نفسية ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان العادات والتقاليد تختلف من منطقة الى أخرى في البلد الواحد : عادات « الحديدة » تختلف عن عادات (صنعاء) تقاليد (الحجرية) تختلف عن تقاليد (صعدة) عادات « يريم » تختلف عن عادات « خولان » بل عادات « صنعاء » القديمة تختلف عن عادات حي « بير العزب » وهو من نفس المدينة .

إذن فلن تشكل العادات والتقاليد مانعاً من التجارب أو تمثل التجارب وهضمها .. فما هي أسباب التخلف ؟.

لا ترجع اليوم الى سبب واحد ، هي ترجع الى أسباب جغرافية لوقوع هذا المكان حيث هو .. والى أسباب سياسية ، فالذين أصبحوا كباراً يريدون إبقاء الصغير صبياً يستجدي اللبن .

وإلى أسباب أشرت اليها هي الحفاظ على السلطة والطموح اليها ، والاحتفاظ والطموح يستدعيان علاقة بالكبار واتْبـاع الكبار • ومع كل هذا فان الخروج من التخلف الى التقدم ممكن مادمنا نفكر في صنع تجارب أو نقل تجارب ، واذا كان الصنع عسيراً فان النقل لايقل عسراً،إلا أن قدرة شعبنا ممكنة ، والتغيرات العالمية متوالية،وقد توفرت لشعبنا قدرة رصد التغيرات •• وكما بدأ الحياة بصنع التجارب ونقلها ، فلا بد أن يتلقى ويعطي ويستوفد ويرسل •

مجلة الجيش العدد ٥٤ سبتمبر سنة ١٩٧٤ •

* * *

نهاية البين بين ..

لا يزول الضدان بثالث ..

ولا يزول أحدهما إلا بزوال الآخر .. فلا ظلام بوجود النور ولا نور بوجود الظلام ولو انحصرت منطقة النور ، فليس الزمان إلا ليل أو نهار وليس هناك (بين بين) .. وليس هناك من هو مريض وصحيح ، أو ذكي وبليد معا ، فاما مرض واما صحة .. واما ذكاء واما غبـاء .

والتوسط بين شيئين أو أمرين ضياع بين الشيئين أو الأمرين أو انجرار لأحدهما ، وليس هناك وطنية وخيانة ، فاما الوطنية بتعقلها أو تطرفها واما الخيانة بتعقلها أو تطرفها ، وليس بين الوطنية والخيانة موقف ثالث .. فاما وطنية صادقة مهما تطرفت أو تعقلت .. واما خيانة حقيقية مهما ارتدت من الأقنعة والأزياء ، ونحن في زمن تحديد المواقف .. فاما الوطنية والثورة واما التراجع والخيانة .. والظفر في الصراع للأفضل ، وقد جربت بلادنا وعرفت من بلاد الآخرين أن الساقطين بين الموقفين هم (البين .. بين) ولعل هذا قديم بقدم الانسان ومواقفه .

كان العربي الجاهلي خيطا من نسيج القبيلة يحترق معها في صراعها فيلهب ويلتهب..وكان الشعب مجتمع الخيمة،والوطن مضارب القبيلة ، ولما أضاءت الدعوة المحمدية تحولت المعسكرات القبلية الى

معسكرين : معسكر (محمد) وأصحابه الفقراء ، ومعسكر (أبي سفيان) وقومه المترفين ، ولم يعد للمعسكرين ثالث الا معسكر (منافقي المدينة) الذين تساقطوا بين الجيشين وضاعوا بين الزوبعتين ، فقد انتهى (البين بين) عندما تحدد موقف الفريقين •• فليس إلا الظلال وإلا الهدى •• وليس إلا الحق وإلا الباطل ، ولا ثالث غير النفاق المنهار بين الزحامين ، وبعد ارتفا ع النبي الى ربه لم يكن هناك إلا موقفان :

- موقف أتبـاع النبوة ••
- وموقف الردة ••

ولما انتصرت تبعية النبوة لم يبق موقف ثالث بين الارتداد وبين الخلافة المنتصرة ، ولما انتهت الخلافة بنهاية (عثمان) نشأ موقفان :

- معسكر (علي) ••
- ومعسكر (معاوية) ••

أي : موقف الشام ، وموقف العراق •• ولا ثالث للموقفين ، فاما « علي » وإيمانه وفقر معسكره •• واما (معاوية) وربح الدنيا على خسران الأخلاق والآخرة • وسقط (علي) ولم يسقط موقفه بل تجدد وتبلور أكثر ، فليس هناك إلا موقف (الحسين) الثائر على الطغيان •• أو (يزيد) الغارق في الطغيان •• ولا ثالث للموقفين •• فإما (يزيد) ، وإما (الحسين) •• اما الثورة واما التراجع •• اما موقف المستشهدين أو التبعية للقتلة والسجانين ، وتوالت الأزمان والأجيال ولم ينشأ موقف ثالث بين الحاكمين والثائرين ، ومن أراد موقف الوسط كان بلا موقف ، لأن ليس هناك (بين •• بين) •• فاما التراجع واما الثورة •• ومن أراد الرقص على الحبلين ، سقط

بين الحبلين .. ومن علق مصيره بأحد شخصين أو بالشخصين انهزم مع المنهزم وانتصر وهميا مع المنتصر .. ولا نصيب له في النصر وان توفر حظه من الهزيمة ، وفي بلادنا لم يكن غير موقفين اما (الزيدية) أو (الاسماعيلية) . أما غير المعسكرين فكان الضياع بين غبارين ، ولا حظ للمتفرج من النصر ولا الغنيمة ، فقد كان السقوط بين الغالب والمغلوب هو كل حظه المتواضع ، وعندما دهم اليمن الغزو التركي مرتين كان هناك موقف الغازي بإغرائه ، وموقف الثورة بمرارتها العظيمة ، والموقف المتوسط هو الضائع بين الموقفين فلا خطورة له ، لأن لا تحديد لموقفه ، صحيح أن زيادة أبطال الصراع استكثر من تعداد المواقف والأبطال..لكن كل المواقف كانت تتلخص في موقفين :

- موقف شعبي ..
- وموقف تسلطي ..

فالذين يقفون الى جانب الامام القائم كانوا الى جانب سلطة تنتظر اقتلاعها على يد سلطة آتية، والذين يقفون الى جانب الامام المرشح يقفون موقف الثوار على القائم تحت علم من قبيل الامام القائم والطامحين الى مكانه .

فاذا كل المواقف موقفان لا أكثر .. اما موقف السلطة .. واما موقف الثورة ..

وعندما توحدت البلاد على يد الامام (يحيى) لم ينشأ ثالث للموقفين ..

فاما موقف السلطة ..

واما موقف الشعب ، المصر على جماعية الحكم وعلى استرداد كل الارض . وسيادة الشعب على كل شبر من أرضه الطبيعية ، ولما وقع الامام (يحيى) بين الموقفين كان ضحية (البين .. بين) فقد

أراد أن يراوغ الأعداء والأصدقاء ويرتدي زي الموقفين وهو بلا موقف ، فقد كان الامام (يحيى) ينتهج موقف الثورة على الاتراك وعلى أشباه الاتراك . ولما ألهاه الحكم عن الشعب وعن أرضه ، بعد أن أحس قدرته على السيطرة ، تخلى عن الموقف الأول لثوار الشعب .. وكان تنازله عن (الضالع) وأمثالها هو بدء تخليه عن موقف الوطنية .. وبدء انتقاله الى موقف (البين .. بين) الذي سقط على تربته الميتة .

وبعد هذا أراد الامام (أحمد) أن يحكم بلا موقف ، وان تزيا ببعض ألوان العصر ، كتشكيل الوزارة .. واقامة العلاقات مع الدول .. إلا أن مواقف العالم تصارعت واشتبكت وليس له تأثير على موقف و لاالموقف ، حتى أنذرته بنادق الجيش عام ١٩٥٥ فأيقظت فيه حس الموقف ــ وان كان مفتعلا ، فقد اعتبر دعوة تنازله عن الحكم مؤامرة أمريكية .. فانتهج الموقف الثاني بتوثيق علاقاته مع المعسكر الاشتراكي ..

لكن مجرد علاقات .. فعرف شعبنا الدبابات والسيارات والميناء الحديث .. والطريق المرصوف .. لكنه امتطى الدبابات والسيارات بعقلية (ناقة صالح) ، لأن حداثة الاشياء تُحدِّث الظواهر ولاتعصرن النفس ، ما لم تكن المستحدثات من صنع مستخدميها أو وسائل لصنعها كما فعل (اليابان) . وان فرضت المرحلة على الامام (أحمد) أن يستعير وجه الثوار .. فقد تبنى مناهضة الاستعمار في الجنوب ، ولكن بعقلية الفتح (التتري) ، وتبنى الوحدة مع الدول العربية المتحررة ولكن لتهدئة الداخل لا عن حس بثورية الأمة ، فقد اشتعل الشعب بالثورة فاضطر الحكم أن يتحلى بشعاراتها قبل أن يحملها سواه .. وثبت زيف هذا الموقف بعد عام وشهور .. فبعد أن انضم

الامام الى (الجمهورية العربية المتحدة) عام ١٩٥٨ ، أخذ يهاجم الاشتراكية العربية في عام ١٩٦٠ في أرجوزة شعرية تشبه (ألفية بن مالك) وتختلف عنها •

ومن هنا عاد حكم (الناصر) الى مكانه بين الموقفين •• ولم يكد يمارس لعبة (البين •• بين) حتى سقط ضحيتها بعد شهور •

وفي عام ١٩٦٢ انتهى (البين •• بين) وابتدأ موقف الثورة •• وموقف مقاومة الثورة •• واختفى الموقف الثالث أو أكذوبة الموقف الثالث مدة أربع سنوات • فليس هناك إلا موقف ثورة سبتمبر ، بكل طفولتها وبراءتها •• وجموحها وتكاليفها •• وموقف مقاومة الثورة بكل تهافته وبكل عدميته••إلا أنه موقف مهما كان بلا زمن•• ومهما كان منجراً الى موقف الاستعمار ، ومن عام ١٩٦٥ ابتدأ خط (البين••البين) ، فنشأ موقف المعتدلين••بين الثائرين والمقاومين، إلا أن هذا الموقف لم يتحدد ولم يتبلور لطغيان موقف الثائرين والمقاومين على الموقف الثالث •• بل لقد أدى ما سمي موقف الاعتدال الى موقف رابع هو موقف (الدولة) كبديل عن الجمهورية والملكية •• وكان هذا أغرب موقف ، لأن الشعب اليمني يقاتل تحت رايتين لاثالث لهما •• فمهما تعددت المواقف فهي في آخر اعتبارها (جمهورية أو ملكية) ، إلا أن المعتدلين قد اختاروا (البين •• بين) أو الاعتدال •• فكانوا شيئا ساعدت على نموه الرياح الغريبة وان أعوزته أصالة التربة والجذور ،وقد عبر الموقف المعتدل عن نفسه مستغلا خلو الساحة بحادثة ٥ نوفمبر ١٩٦٧ •• ولقد كان هذا الحادث ممكن الحدوث كحركة تصحيحية ، لأن الطفرات أو الموقف الثوري سبق الوقت ، ولأن الأخطاء طبيعة العمل الكبير • فقد تكاثرت أخطاء سبتمبر •• لكنها أخطاء الطفولة القابلة للخبرة •• وليست أخطاء

القادرين على الخيانة ، لكن الحركة التصحيحية في نوفمبر ١٩٦٧ ، وقعت في الأخطاء الأكثر وعن خبرة •• حتى أفاق الشعب من صدماته •• خاب أمله في الحركة التصحيحية وشاهدها وهي تتساقط جزءا فجزءا تحت أقدام الباذلين •• وارتفع صوت التذمر من كل جهة حتى اضطر صناع حركة نوفمبر أن يتخلوا عن احيائها وسموا يومها (يوم الجيش) ، وليس العيب في الحركة •• فقد كانت منتظرة لأن ما سبقها من أخطاء نتيجة الانتها زوالوجود غير اليمني حتم قيامها •• لكن صناعها كانوا بلا موقف يمني حقيقي رغم الشعارات العالية بوطنية الوطن ويمنية اليمن •• والدليل على زيف هذه الشعارات أن الوطنية اعتبرت جريمة بعد سنة من قيام الحركة •• فكان الحماس الوطني نقيصة عند (الفُتاتيّين) ، وجريمة عند (السجانين) ، فقد كاد الانسان اليمني لا يحس أنه يمني ولا يتاح له الاعلان عن يمنيته إلا وهو مجازف بالحياة •• ولكن الوطن غالي والمجازفة بالحياة في سبيله أقل ما يبذل الباذلون •• فتكاثر ت الاشتباكات والانفجارات وتصاعد السخط من بداية السبعينات بشكل لم يسبق له مثيل •• وكان يقابل هذا السخط بالاستهانة أحيانا • وعنف الاجراء أحيانا •• وسياسة الإلهاء أحيانا •• وإفساد الضمائر أحيانا كثيرة ، حتى أصبحت الجيوب وطن الكثير •• وأصبح السباق على العمارة والسيارة غاية الطموح وغاية الهموم •• وبرغم القدرة على الإفساد ، وبرغم ركام الفساد لم يتخل الثوار عن موقف الثورة والوطنية من عدة مواقع نازحة وقريبة ، أما التهافتيون فقد اتخذوا موقف (البين •• بين) موقف دعوى وطنية •• وموقف عداوة الوطن وهذان لا يجتمعان ، فليس هناك إلا الوطنية وإلا الخيانة •• لا يهم أن تكون الوطنية معتدلة أو طافرة وإنما الأهم من ذلك أن تكون صادقة اذا اعتدلت ••

وصادقة إن تطرفت •• بل إن التطرف الوطني عن صدق أكثر ما يحتاج اليه الوطن •• اذ لا وطنية بلا حماس متعصب لأن الحماس أدل على حرارة الاعتقاد الوطني •• وكل ما حاوله أصحاب (البين •• بين) هو إطفاء هذا الحماس الذي لا ينطفىء أو تبريد هذه الجذوة التي تشعل الجليد • ولقد استمر موقف (البين •• بين) يلعب بين الموقفين :

- موقف أعداء الوطن ••
- وموقف أدعياء الوطنية ••

حتى تداعى هذا الموقف على نفسه وتساقط من داخله بلا عامل خارجي ، وان كانت العوامل غير المنظورة كثيرة • فلم يتداع من الداخل الا لأنه فتح على نفسه أبواباً كثيرة الرياح فسقط الذي لا يسقط وان كان لا يدري ••

ومن هنا نستخلص أنه ليس هناك (بين •• بين) ، وليس هناك غير موقف الوطنية والثورة ، فقد ظفرت حركة الثالث عشر من حزيران ــ سنة ١٩٧٤ بأكبر تأييد شعبي •• ولكن لماذا تجمهر حولها أبناء الشعب ، واندفعت اليها مؤازرة الجماهير ••؟ لم يكن هذا التأييد والاندفاع عن عفوية وإنما عن موقف وطني ثوري ، لأن الحركة رفعت أول ما رفعت شعارات سبتمبر •• وشعارات التصحيح •• وشعارات محو الاستغلال والانتزاف والرشوة ، وكلها كانت يوميات موقف (البين •• بين) •

لقد استجاب الشعب للحركة ، لأنها عبرت عن مطالبه الثورية التي عبر عنها يوم سبتمبر •• فان نجاح حركة خميس حزيران يرجع الى صحة انتمائها الى فجر خميس سبتمبر •• ومن هنا يبدو أن

الحركة اتخذت موقفها الوطني الصحيح ، لأن سبب انهيار الأوضاع السابقة انتهاج موقف (البين •• بين) الذي لا مكان له في زمن تحديد المواقف •• ولا بد لكل حركة من موقف صحيح ووطني منبثق من الواقع ، وصادر عن الحس الشعبي الغالب ، قد يمكن أن يكون هذا الموقف عريضا وعميقا لكن الخروج عنه خروج عن الحياة •

صحيح أن السياسة ليست شارعا مرصوفا •• وإنما هي كثيرة الملتويات •• وكثيرة المنحنيات •• ولكن لا يمكن الخروج عن نفس المساحة المحددة للموقف الذي ينبغي أن يكون طريقه عريضا يسمح بالالتفات والتحول النسبي •• أما الضياع فهو الخروج عن دائرة مساحة الموقف ، لأننا في زمن المواقف العريضة •• وفي زمن نهاية (البين •• بين) ••

مجلة الجيش ــ العدد (٥٢) ــ يوليو ١٩٧٤

* * *

اللغة المشتركة
بين التأسيس والتصحيح

كلما لاح تحرك تغييري •• تحركت الأسئلة تستكنه أسبابه ، وتتلمس مشروعيته عن طريق معرفة بذراته واكتشاف التربة التي أنبتته . والعوامل التي ساعدت على تبرجه لوجه الشمس ، وكل حركة مهما كانت مصادرها فهي أدل على الحيوية الشعبية وأدل على أن هناك شعبا يريد ••

والحدث الأهم والأعظم الذي أنجبه وطننا ، هو ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ فقد أصبح هذا الحدث أرسخ أساس وطني للبناء عليه وللانطلاق منه ، فقد تكاملت مبررات ذلك الحدث زمنياً وانسانياً وارضية ، وقد دلت الاختبارات المتلاحقة على اصالة ذلك الحدث كحدث ، وعلى اصالة وطنيته كأضخم عمل وطني أدت إليه مرحلة الإنهيار •• وشكلت وجوده محاولة الخلاص من كل عوائق الماضي •

ولعل أصدق شاهد على صحة ذلك الحدث واصالته صموده أمام المقاومة العدائية ، حتى أثر على معاديه عن طريق مقاومته • وحتى أصبح كل عمل يتخذ ازياءه أو يعبر عنه حقيقة ، فقد تألبت أخطر قوة لوأد ثورة سبتمبر في مهدها • أو في طفولتها أو في شبابها ، وكانت الأحداث تزيدها قوة وصلابة ، لأنها ولدت ومعها عوامل نمائها

وقوانين امتداد أزمانها •• حتى أثرت على اعدائها رغم ما حشدوا من قوة وما بعثروا من أموال •• إلى أن وقعوا تحت تأثيرها • واكتشفوا تحت نارها عقم محاولاتهم ، فلأن الثورة اطلقت الأناشيد المعبرة عن حماس الجماهير حاول إعلام الملكية المنهـارة أن يقلد ذلك الصوت الحقيقي بأناشيد مضادة وحماس معاكس ـ وان كان صدى لذلك الصوت ـ وكـان هذا أول تأثير الثورة على اعدائها ، ولما احس المعادون أن الشعب بدأ يميز بين حماس وحماس •• وبين دعـاية ودعاية : أخذت القوى المعـادية تحبك خططاً جديدة لاحساسـها بتجدد الزمن وانقطاعها عن ذلك الجديد ، فشكلت الملكية عدة لجان تمسح الماضي من حياتها وتبدو بوجوه جديدة : فادعت أنها لاتقاوم الجمهورية وإنما تقاوم الوافدين باسم حماية الجمهورية •• كمـا طرحت عدة اطروحات لعهد جديد يضمن الديمقراطية والحرية والكرامة الشعبية •• واعترفت باخطاء « الثلاثة الأئمة » في حق الشعب وانها ستفتح صفحة جديدة •• وان الغالبية هي التي ستحكم ، وكان هذا تأثير الثورة الثاني على اعدائها ، إلا أن شعبية الثورة زادت امتداداً وتجذراً ، فتوهم مقاومو الثورة أن المسألة تحتاج الى تجديد شكلي •• فحولت الملكية الامام الفرد الى مجلس امـامة كبديل من جمهورية بملكية ، وتوالت الشواهد على تأثير الثورة على كل أعدائها لسبب واحد هو : أنها أتت في حينها وان عواملها متكاملة ، من هنا استحال على المقاومين تجاوز الثورة كحدث ثم تجاوز نظامهـا كثمرة لذلك الحدث ، وبعد خمس سنوات من نضال الثورة وتجذير أوضاعها وقع اعداؤها في أشق امتحان : فقد انسحب الوافدون باسم حماية الثورة وتعطل مبرر القتـال ، لانه لم يبق في البلد غير البلد ، الا أن اعداء الثورة أخـذوا بإغراء الفراغ المزعوم، وهنا جدت عوامل في الطرفين ••

أو في كل الأطراف ، فقد أدى انسحاب القوات المصريـة الى اغراء جميع الطامحين إلى قمة السلطة ، فكان انقلاب ٥ نوفمبر ١٩٦٧ وبهذا الانقلاب انتهت الجمهورية الاولى لكي تقوم الجمهورية الثـانية ، وقد استغل الاعداء نهاية الجمهوريةالاولى فأشاعوا في جماهير الشعب آنية الحدث بدليل سقوط قادته • أو غياب أكثر قادته فشن الأعداء أعنف هجوم في أول عهد الجمهورية الثانية ، وبرغم أن الجمهورية الثانية ١٩٦٧ جاءت من شدة اعتماد الجمهورية الاولى على القوى الوافدة ، إلا أن الجمهورية الثانية لم تستطع تجاوز حدث سبتمبر رغم ميولها الى السلامةوالهدوء••أو الى الحكم بلامتاعب ثورية،إلاأن الحدث كان أرسخ في النفوس وأأصل فيصميم الوطن : لهذا رفعتالجمهورية الثانية شعار سبتمبر •• بل أكدته بشعار الجمهورية أو الموت حتى حاصرت الجماهير الثائرة جميع القوى التي حاصرت صنعاء ، ولأن الجمهورية الثانية جاءت من تناقضات وتشابك مصالح ، فقد دخلت في تناقضات جديدة بين سيطرة حدث سبتمبر •• وبين الاعتدال المؤدي الى التصالح ، وبرغم كل الضغوط فلم يبرد حدث سبتمبر وإنما كان راية الحـاكم والمحكوم واللون الحقيقي للمنـاضل ، والرداء المستعار لمن يريد المصالحباسمه ، لأن تجاوز حدث سبتمبر غيرممكن ، لأن ذلك الحدث قد تجذر •• فلأنه أتى من صميم الوطنية أصبح له تاريخ من دم الشهداء وعرق المناضلين ، ولما انتهت معركة السبعين يوماً،بردتأحداث ١٩٦٧ عاد التناقض بشقيه بينالمحكومينوالحاكمين، وبين الحاكمين نفوسهم على واحدية الوجهة ، لأن الوجهة العامة لاتتماسك إلا إذا جاءت من مجتمع غير متناقض• أو غير حاد التناقض، فبعد كسر الحصار فبراير ١٩٦٧ جمع كل الاطراف (أصحاب الثقل) كراهية المناضلين أو المتهورين في النضال على حد تعبير الجمهورية الثـانية ••

إلا أن مجرد الكراهية لجماعة ، أو نزوع جماعة لايكفي كرابطة وثيقة بين الأطراف المتباينة ، لهذا انفجر التناقض بعد تصفية القوى المتهمة بالتهور •

من هنـا خلى الميدان (للاطراف المعنيـة) فتلاقى الملكيـون والجمهوريون في مجلس جمهوري •• وفي مجلس شورى وفي مجلس وزراء ، على تباعد النزعات والنوايا ، فحاول طرف" الرجوع الى العهد الأمامي باسم الجمهورية وحاول طرف آخر الرجوع الى عهد دستور ١٩٤٨ تحت علم جمهوري ، وأراد طرف ثالث الاستفادة من اللونين فحلت المحافظة محل التراجع : وقام ما سمي بالحكم الجماعي محل الحكم الثوري •• إلا أن سبتمبر بواقعيه حدثه ومشروعيته ، كان شديد السيطرة على النفوس أكبر من أن يتجاوزه طرف ، لأن ذلك الحدث جاء في حينه وعن ارادة شعبية وحتمية تاريخية : لانه كـان ذروة التمخضات العديدة على امتداد عشرين عاماً : فاعتدل المعتدلون الى حد الارتماء •• وتراجع المتراجعون الى ما قبل عهد الامامة أي زمن السلطنات •• لكن كل هذا باسم ثورة سبتمبر •• وباسم الدفاع عن مكاسب سبتمبر •

صحيح أن الأحداث تُستغل • لكن حتى استغلالها أو التمويه بها يدل على أصالتها •• إلا أن المموهين أول من يخسر بدليل أن الجمهورية الثانية على وفرة الاستقرار وغزارة المساعدات ، والدعم وتصالح كل الأطراف ضد (المتهورين) لم تعش أكثر من سبعة أعوام •• فلماذا ؟ لانها بنت على الدخان الجبهة العريضة الحاكمة : ــ القمة والقاعدة ، فكانت هذه الجبهة العريضة الحكومة والشعب •• والقائد والمنقاد ــ ــ وإن كانت السيطرة العليا لم تتجاوز خمسة من الاطراف الملتقية أو المتحدة آنيا ــ وتتيجة لهذا العرض والطول في السلطة بلا تنظيم

تكاثر اتباع كل طرف ، وكان الاعضاء في أي مجلس لايبدون كجهاز متماسك ، وإنما كأشلاء معلقة في مشجب واحد .

فاهتم الحكم بالحكم دون المحكومين ، فشاع الفساد وراج بيع الضمائر حتى أصبحت الوطنية تهمة وأصبحت النزاهة بلاهة وأصبح الإخلاص خيالا أو خرافة ، لأن الفترة أرادت أن تحكم بهدوء .. ولكي تنام بارتياح كانت المداراة والمجاراة والبذل للوصوليين أنجح المسكنات : فمن طلب المنصب ناله بمجرد طلبه بغض النظر عن مشروعية الطلب ، من أراد الاستغلال مارسه بلا سؤال ، ومن عصمه الحس الوطني عن الوقوع تتبعته وسائل الاغراء ورفاهية الانداد حتى يقع ، لهذا تساقط الكثير من المنتفعين في هذه المرحلة ولم يبق إلا أكثر العناصر نقاوة أو الذين حماهم الابعاد من السقوط ، لهذا كانت أحاديث الجمهورية الثانية « فلان لم يعمر داراً.. يتعين لقيادة كذا .. فلان لم يملك إلا داراً واحدة يعين محافظ كذا... فلان متعب يصرف له مائة ألف ، فلان يسافر يتنزه فقد تعب من طول الراحة في الداخل ، فلان يعوض لانه حارب الشعب .. »

ولكي يحكم الحكام أقتصر اهتمامهم ببعضهم حتى وصل إليهم التناقض الذي خلقوه بينهم .. وبين القيادة والجماهير ، فسقطت الجمهورية الثانية كأوراق الشتاء دون أن يحس أحد ، لأنها أتت من الهواء ولم تأت من الصميم الشعبي .. فتعلقت جذورها دون أن تعرف . وزرعت في البحر ولم تتبين أنها معلقة إلا عند هبوب أول ريح ، ولم يكن لها كأي حكم أي نوع من الجماهير ، لأنها اقصت الجماهير .. أو أفسدتهم .. أو علقتهم بجذورها المعلقة .

لهذا اقتلعتها أول هبة ريح دون أن تتحرك ذرة غبار لأنها بلا جذور ، وبلا تربة تمتد اليها الجذور المعلقة، ومن ذلك الركام المتهاوي

جاءت الجمهورية الثالثة يوم ١٣ يونية ١٩٧٤ م فماذا امامها الآن ؟ وبمن تُغير ؟ •

وكيف تغير •• ؟ وهل تؤسس أو تصحيح •• ؟

إن التغيير في حاجة الى كوادر متطورة تصنع التطور •• فهل هذه الكوادر موفورة ؟ نعم !! الفترة تحتاج الى اخلاص أكثر من قدرة لان القدرة تنبع من المزاولة العملية ، ولعل اولئك المنبوذين لانهم انقياء يشكلون حيزاً كبيراً من كادر التغيير ، فاولئك الذين لم يعمروا دوراً ، لانهم « خوشان » هم احدى نواة الكادر ، واولئك الذين لم يتنزهوا لانهم لم يتعبوا من الراحة •• يكوّنون نواة ، إن الانقياء كثير •• والمهم هو اكتشافهم ، لان عدم الوصولية لاتوصلهم •• لكن مهمة الحكم الوطني أن يبحث عن المواهب القادرة في مظانها فشعبنا لم يبلغ البؤس إلى أزمة من البشر •• فبهؤلاء يمكن التغيير ،أما كيف التغيير ؟ : فثورة سبتمبر أمتن أساس ، وخرارة حدثها العظيم اقدر على انضاج العمل الوطني والتغيير ، فالتأسيس أو التصحيح يلتقيان في لغة واحدة (ثورة سبتمبر الوطنية) ، لافرق بين أن تؤسس أو تصحح لانه ممكن تلمس الأساس لتجلي أثر الاحداث عليه ، لأن الافساد يمكن أن يصل الى الجذور ، وإذا كانت جذور سبتمبر قد فسدت أو أكثرها، فان كل تربته ما تزال حية خصبة ، وارومته ما تزال قادرة على الاخصاب •

التأسيس أو التصحيح يلتقيان في لغة واحدة (النقاوة الثورية •• الوطنية ، أو وطنية النقاوة) ولعل ماحدث يبصر بتجنب ما يحدث ،لان واحدية القيادة لاتسلم من التناقضات المحتملة ، مادام التناقض ضاربا في صميم المجتمع ، فلكي ترسخ القيادة لابد أن تنقّي التربة من

التناقضات ، عن طريق ما يلي :

أولاً : تغطية العجز المالي حتى نصرف من دخلنا لكي « لا تتعدد الولاءات » .

ثانياً : القضاء على التضخم لكي تستقر الاسعار .

ثالثاً : فتح مجال تكافؤ الفرص .

وهذا أعصم من التناقضات .

لأن الافرازات الاجتماعية ـ صالحة أو فاسد ـ تؤثر على أقدام المجتمع ورؤوسه ، فلكي يمكن التغلب على التناقض يصبح العلم الوطني سيد الكلمة ، وتصبح الغالبية سيدة الأرض ومنبع السلطات . وتصبح المصلحة العليا للغالبية قبلة كل الأنظار .

مجلة الجيش (٦٣) يونيو ١٩٧٥

* * *

المؤتمرات والمؤامرات حتى التصحيح

في كل تاريخ من تواريخ الامم أكثر من حلقة مفقودة ، لأن لكل أمة تاريخاً مكتوباً وتاريخاً غير مكتوب ، والمكتوب من كل تاريخ هي ظواهر الاحداث معللة كما يراها حكم الفترة •• أو غير معللة •

أما الحلقات المفقودة فلم تنقطع عما قبلها وعما بعدها •• وإنما نامت أخبارها في داخلها لكي تشكل تربة ما يليها من الحلقات •

نأخذ مثلا فترة من منتصف الثلاثينات الى منتصف الاربعينات في بلادنا • فكأن هذه السنوات معلقة بذيول الريح •• لاحس عنها لأن دخائلها مليئة بالحس •• بدليل أن هذه الحلقة المفقودة كانت آخر العُقم وأول التمخض ، كذلك فترة من ٤٩ الى ١٩٥٥ فهي مطموسة الملامح لا حس عنها ، لأن لاحس لها في صفحات الظواهر ، لكن هذه الحلقة المفقودة أو شبه المفقودة ، كانت آية الحلقة الموجودة التي امتدت من عام ٥٥ الى الآن •• بالاضافة الى حلقة أخرى أقدم تنتسب الى العشرينات من هذا القرن والتي كان يسميها آباؤنا بين الدولتين : دولة الاحتلال العثماني . ودولة الاستقلال الوطني •• فهل يُخمل بعض الزمان بعضه الآخر كما تخمل بعض الاجيال سابقها أو لاحقها ؟

إن الزمان كالناس • بل هو الناس ، لأن حركتهم تنجم فيه وتتأطر بشموسه وأقماره فتُخمل الفترةُ النابهة بالاحداث الفترة النائمة حتى تستيقظ ، فيسجل التأريخ الشجرة ويجهل البذرة ، لأنها اختمرت في

التربة ، والناس يهتمون بما يرون ولا يتساءلون عما يرسب في الاعماق، إلا الغواصون منهم ، لأن احداث الزمن كأحداث المسرح يشتغل النظّارة بالممثلين عن المنتج والمخرج ،حتى تتلاحق المسرحيات فيتمسرح الداخل،لكي يلتحم المنتج والمخرج والمتفرج ، وهذا ما حدث في بلادنا منذ توالي الاحـداث أو من منتصف الخمسينات بالتحديد ، زمن الاحداث ووفرة الحس بها ، من تلك الفترة تركز الاهتمام على الحلقات المنظورة •• وأحس كل ملاحظ أن هناك حلقات مفقودة ، إلا أنها غير منظورة لغيابها تحت الارومات المكونة للجذوع ، ذلك لأن احداث الخمسينات المتوالية الى الآن ، كانت تنتسب الى مصادر بعضها ملء العيون •• وبعضها لا تلمحها إلا العيون الذهنية الثاقبة ، فهل نعتبر الخمسينات وبداية الستينات فترة تمخض ؟

إن التمخض آت من بذرة لقحت من بذرة حتى انفجرت كل السحب المتراكمة عند وصولها ذروة التصاعد ، فجاءت ثورة ٢٦ سبتمبر ٦٢ وعلى وجهها كل ملامح الحلقات المنظورات والمحجوبات ، تلاقت تحت نار الثورة كل الوجوه ، الضابط الشاب ، الضابط الاربعيني ، الشيخ ، نصف الشيخ ، المفكرون الثوار ، والساسة المحترفون يدفعون حركة هذا التجمع ، فمن أين تلاقت هذه الملامح ؟

لقد تجمعت من كل غبـار المراحل ، من مطلع العشرينات الى منتصف الثلاثينات ، تبدى الحس السلاطيني من مكان الى آخر ومن سنة الى أخرى •• وذلك من منتصف العشرينات ، وكان الحافز لتنامي هذا الحس قيام سلطنات محميات في الشطر الجنوبي •• فترددت في الفترة عدة أخبار عن تمرد (الرّصاص) في البيضاء ، « ناصر مبخوت » في حاشد (مناع) في صعدة « الدباغ » في حريب « القردعي » في (مراد) « الزرانيق » في تهامة « الحسانيين » في المقاطرة •

وكانت تلي أخبار هذا التمرد أخبار اخماده أو القضاء عليه ، واستطاعت القيادة الامامية أن تبسط سلطانها وتقضي على كل تمرد ، وكان المؤرخون يسجلون هذا التمرد على التوالي من منظور هجائي ديني : « لقد خذل الله الباغي فلان » و « أحاط بالمفسد فلان » ، وكانت عبارة (المفسد) أكثر شيوعاً ، ولشهرة رجالها بالشجاعة رادفت البطولة ، حتى كان يجهر الغضبان على من يريد قهره : « أنا مفسد » ، لأن هذا العمل خطير يقتحمه الاخطر ، لكن كل هذه التمردات كانت تفشل لثلاثة أسباب :

أولاً : انعدام المدد لعجز سلاطين المحميات وغيرهم .

الثاني : ضعف الشيخ المتسلط في قبيلته ، لأن منافسه سيتقرب الى الامام بصنعاء ويجد العون على أخيه .

السبب الثالث : إن هذه الساطنات بلا خلفية وبلا نظرية وطنية .. فنامت ولكنها لم تمت ، بل ظلت من حين الى ثان . وواكبتها من مطلع الأربعينات جماعات الاصلاحيين ، ثم أطلت عام ٤٨ في شخص خمسة من شيوخ القبائل باشروا قتل الامام يحيى ، ولما سقط الوضع الذي كانوا من جذوره وبعض ثماره ، نام هذا الحس حتى غاب الامام أحمد للاستشفاء آخر الخمسينات بروما ، وفي هذه الفترة أفاق الحس السلاطيني لسببين :

الاول : أن ولي العهد استنجد بالشيوخ ضد الجنود المتمردين

الثاني : غياب الامام ذي الرهبة المعروفة وقد كانت هذه اليقظة السلاطينية أكثر وعياً ، فقد أرادوا أن يكونوا اتحاد شيوخ على غرار الاسلوب الانجليزي الاتحادي في (عدن) ، وكادت الفرصة أن تعطي سوانحها ، حتى فاجأ الامام أحمد ساحة الحالمين بعودته الرهيبة في صحة أقوى .. وفي تخطيط متقن لقمع الحركة عام ١٩٦٠ ، من هنا

اتخذت السلاطينية شكلا آخر ، هو الاقتراب من ضباط الجيش بعد أن استماتوا دون قيام حركةعسكرية آخر الخمسينات ، لكن الضرورة التي الجأتهم الى تنظيم حزب الاحرار الاصلاحي اضطرت بعضهم فيما بعد الى التخطيط مع الجيش لتفجير الثورة ، ظل هـذا الملمح الشيوخي يخبو ويشع من مطلع العشرينات حتى ثورة سبتمبر ، فاختلط بالغمار لكي يتبدى في أشكال أخرى أكثر معاصرة •

وقبل تتبع هذا الخيط أمسك خيطاً آخر هو خيط الاربعينين من المثقفـين :

لقدكانت حركة ١٩٤٨ تخطيط مجموعة من المثقفين، نفذها خمسة شيوخ بقيادة (القردعي) ونحو أربعين ضابطا بقيادة « جمال جميل العراقي » وكان هؤلاء المثقفون ثلاث مستويات ثقافية :

أولا : فقهاء هاشميون وقحطانيون •• وكلهم موظفون من عدة درجات •

المستوى الثاني : مثقفون عصريون أغلب مادتهم الثقافية ما يصل من قليل الصحف والكتب الادبية ، ومن المذاكرة عن الأحداث العالمية، وكانوا أدنى دنرجة وظيفية •

المستوى الثالث : كانوا مزيجا من ثقـافتين سلفية اصلاحية معاصرة سياسياً وأدبياً ، وكل هؤلاء كانتتجمعهم عدة رغبات : وظيفة أعلى ، نية صادقة في الاصلاح ، طموح الى القمة ، وعندمـا فشل الانقلاب كان الامام المنتصر على أدق معرفة بتفاوت هؤلاء الرجال ، فأعدم كل خطير في أقرب مدة مـن سجنـه ، وبعد شهـور توالت الافراجات على السجناء مدة سبعة أعوام ، وكلها راجعة الى الشفاعة والالحاح في الطلب ، وبعد خروج الاحياء من السجون أصبحوا مجرد موظفين كقبل سجنهم ، مبدين الاخلاص للوضع ••حرصا علىالمكاسب الجديدة وعن تجربة خوف ، حتى أن هؤلاء انقسموا الى أقسام في

حادث عام ١٩٥٥ م فبعضهم التزم المناصرة البدرية ، وبعضهم تورط في الانقلاب، وبعضهم احتفظ برأيه حتى يلمح كفة الميزان ، وتغيب دور الشيوخ لقصر مدة الحركة ، حتى سقطت حركة ١٩٥٥ . عن عمر خمسة أيام نجى أكثر هؤلاء .. وأغرتهم السلامة بالمزيد من طلب العافية ، حتى فاجأتهم ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ تبدوا كثوار سابقين ، فكونوا الملمح الثاني ، أما الوجــه العريض للثورة فقد ترعرع في منتصف الخمسينات على منبت طري ، وعن نزوع معاصر ، وتحت أضواء جديدة ، فكان هذا الوجه أملك للعيون والنفوس لمجيئه من صميم الشعب وغمار ملايينه ، إلا أن الحدث وصناع الحدث أعلنوا الشعبية بدون استثناء ، فبدت كل الملامح شبه متجانسة، مهما اختلفت وراء الاقنعة من نوايا ، ولان الثورة أخطر عمل فجرته بلادنا .. فلا بد أن تلاقي مؤامرة على نفس المســتوى من الخطورة ، فتوالــت الهجمات الخارجية في شكل قوى منظمة تستهدف اسقاط الثورة ، واحتلال البلد معاً ، فكانت الثورة تجابه طيلة عام ٦٣ جيوشاً نظامية من الخارج .. توغلت الى حرض وميدي من تهامة ، والى (سنوان) من منطقة صعدة ، والى « حريب » أتية من (بيجان) إلا أن الثورة تغلبت على كل هذه الهجمات النظامية ، وبعد ذلك استطاعت المؤامرات أن تجعل من القوى المحلية في أطراف البلاد بديلاً عن قوتها النظامية لمرارة يأسها من النصر على الثورة ، فركزت على تشكيل عائق لمسيرة الثورة من الداخل ، هنا بدأت الخيوط التي انقطعت مرحلة الترابط ، وآفاق النزوع السلاطيني القديم ، ولكن في خوف ، إلا أنه حاول امتداد المسيرة تحت أزياء مغايرة وفي شكل دولة سلطانية ، لاسلطنات متفرقة تقبل الاقتلاع في أول هبوب ، ومن بداية عام ٦٤ أخــذت السلطنات في الشطر الجنوبي تتساقط على التوالي وبلا أي أثر ، فماتت

الامنيات السلاطينية في الشمال في ميلادها الثالث ، فأرادت أن تشكل من مجموعها قواعد الدولة المركزية وقمتها أو جبهة عريضة تملأ القمة وتمتد الى القاعدة ، وكانت الحرارة الثورية تحرك الجماهير فتحبط كل النوايا قبل أن تبوح بأطراف أسرارها ، ولأن الميدان قد استدعى وجود قوى غير يمنية ، مختلفة التجربة ومختلفة الميدان ، فبدأت تركز على التنظيمات السياسية كما حدث في موطنها بدون تمييز بين المكانين والزمانين بالنسبة للثورة ، فقد كان من الأفضل أن توضع الثورة اليمنية في مكان ثورة الدستور بمصر ، لاتسأل عن هويات الجماهير ، لأنها في فرحة الميلاد أو في عنفوان المراهقة ، غير أن قيادة « شعوب » لم تفرق بين هناك وهنا فأضافت الى الملكيين المعاديين جمهوريين ساخطين ، فأدى هذا الظرف الحربي الى الرجوع الى الشعب في بهجة يقظته ، فتعالت الدعوات الى أول مؤتمر ، وبعد تمهيد واتصالات انعقد مؤتمر (عمران) عام ١٩٦٤ بعد مؤتمرات سرية في الخارج عقدها وشارك فيها زعماء الاربعينات ، فكان لمؤتمر عمران وجه (أبي ذر) وقلب (أبي جهل) لأنه في ظاهرة مؤتمر يقرر الشعب من خلاله مصيره ، ولكنه في باطنه مؤامرة شكلتها مختلف الجبهات كل لغرضها، فجبهة تريد خلخلة الصف الجمهوري وتلمس العناصر لمعرفة لينها وصلابتها ووزنها ، وجبهة ثانية تحاول الكشف عن البطاقات لكي تتأكد من ملفاتها وتعدل فيها أو تضيف ، أما الجبهات الاخرى البعيدة فكانت تكتشف كل هذا كذخيرة للسبعينات أو آخر الستينات ، وقد انكشفت المؤامرة بعد اعلان قرارات المؤتمر .. فنزل البعض ضيوفاً على السجون ، ولعب البعض على كل الحبال في الداخل والخارج ، ووالى البعض مواصلة الخط في تحول وتعديل حتى انعقد مؤتمر « خمر » عام ٦٥ ، فاتضحت مؤامرة « عمران » الى جانب مؤامرة

المؤتمر الجديد ، فقد لجأ البعض الى الدول المجاورة المحاربة ، ومد البعض معارضة .. صورية ، وانقسم الجمهوريون الى متطرف ، ومعتدل ، وبين الطرفين ، وانقسم الملكيون الى دعاة دولة بدون صفة والى إماميين بدون تنازل ، كما دلت مؤامرات مؤتمر (حرض) باعتباره ذروة المؤامرات ، وقد تساءل الأنقياء الشعبيون ما سر هذه المؤتمرات والمـؤامرات ؟

وقد أهاج هذا التساؤل الخوف على الوطن وعلى الثورة أو الخوف على الوطن حتى بدون ثورة ، لأن الأمور وصلت نقطة الخطر، وبالأخص إن بعض الثوار رفعوا راية السلام أمام المعتدين المسلحين بدلاً من البندقية المدافعة عن وطن المبدأ ووطن القلب ، لأن المسألة ذات طرفين لا ثالث لهما : اما نصر واما هزيمة ، أما فرض الصلح بعد اهدار الدماء ، فهو ينقل الحرب من هضاب الجبال الى تحت الجلود ، ولكن الاصابع الاستعمارية كـانت تملك أمرها ، فواصلت عقـد مؤتمرات الصلح وتسليح المعتدي حتى يدرك الانهاك كل الجبهات ، وكانت القضيتان على طرفي نقيض . كان الجمهوريون يسيطرون بالفعل على المدن الكبرى وعلى الشواطىء والمطارات والطرق العامة ، فلهم كل صفات الدولة وكل شرعيتها .

وللطرف الآخر كل صفات التمرد لأنهم لا يديرون حتى قرية .. فأي مبرر للصلح ؟ المبرر هو الحل الوسط، جمهورية بلا ثورة، ملكية بلا إمام والناس كلهم (يمن) بغض النظر عن مئات الشهداء تحت أقدس مبدأ، ولكي ينجح هذا التوسط كان العدوان على مصر والضغط على (صنعاء) في وقت واحد ، لا لكي يسقط الحاكمون وإنما لكي يبرد المتحمسون ، غير أن الذي حدث هو العكس تماماً ، فقد كانت هذه الهجمة آخر أنفاس الامامة ، حتى لم تعد تحسب كقوة إلا للتحدث باسمها دعائيا .

صحيح أن تحت اقدامها أرض واسعة •• ولكنهـا مجرد طرق لا تستقر لقدم تريد الثبوت ، لكن الاستعمار لم يفقد كل الحيل ، لأن المؤتمرات قد وضعت أطراف الخيوط في يده ، فتسلل الى القوة الثورية عن طريق الهويات ، فاقتتلت القوة التي قاتلت معاً أفواج المعتدين، فانفجرت احداث (اغسطس١٩٦٧) بتدبير القيادة السياسية نتيجة الصدام السابق بين الثوريين السياسيين وبين السياسيين الثوار، لأن الثورة اعتبرت حركة سلاح وكتائب ، بغض النظر عن الفكر ، وكان السياسيون المحترفون يملكون أمرهم ، فيرسلون الوفود الى المعسكرات كاستجابة لمطالبهم ، ويحشدون القوى لضرب المجاميع المتوترة التي تملك ارادة العمل وخطأ المنظّرين ، فأصبحت (صنعاء) المحاصرة من الخارج متقاتلة من الداخل ، جيش يثور •• وجيش يصد الثورة ، حتى انتصرت الثورة السياسية التقليدية ، فأطلت الوجوه التي احتجبت بدعوات المؤتمرات ودعوى الوطنية وتسموا (أصحاب الثقل) ، فخلى الميدان من كل الجماهير الموصوفة بالتطرف لكي ينفسح المجال لحلف متشابه متنافر ، فتعاقدت هذه القوى من عدة أشكال ، السياسيون المحترفون ، كبار الضباط ، كبار التجار ، كبار الشيوخ ، في محاولة تشكيل طبقي ، إلا أن العلم الطبقي كان غائباً عن كل العناصر لغياب القوة الاخرى ، العمالية والفلاحية ، لهذا تعلقت هذه الطبقة في الهواء تجمعها مصـالح وتفرقها طرق الوصول الى المصالح •• ولا يجمعها إلا شبح مخيف يلوح من بعيد ، وهو الخيط الواهي الذي يجمع بين هذه الاشتات المجتمعات ، والتجمع دليـل الفشل ، لأن عوامله خارجية وأرضيته غير شعبية ، ومع هذا أفقدهم القلق من الشعب كل حس شعبي ، فلم يعودوا يفرقون بين الثورية والوطنية ، لأن من يخـافونهم وطنيون ، فأصبحت الوطنيـة ترادف

الخوف واسرع المركبات الى السجون • ولما كان العنصر الهام في هذا التحالف من تجار الحروب ، كرسوا تفكيرهم على افتعال حرب على أي شيء ومع أي أحد ، ولما كانت هذه الحلقة مفقودة في تاريخ الشعب لغوصها في ضمير التخمر ، كانت هذه الظواهر الشكلية هي غبـار الفترة لامداد التاريخ •• مع أن هذه الفترة ارتدت عدة ازياء . كانت أول حلقاتها عمل انقلابي في ٥ نوفمبر ١٩٦٧م كعملية جراحية للثورة أو كوثيقة براءة من الثورة ، ولكي يتنفس هذا الوضع الحياة استكثر من حجم القمة وقلل من حجم القاعدة ، بل كان كله جبهة عريضة بلا سيقان ، لهذا ارتمى على وجهه يوم ١٣ يونيو ١٩٧٤ ، وكان سقوطه لا يثير انتباه لأنه سقط بعضه على بعض ، وكان منتظر السقوط••لأن عروقه كانت معلقة بالرياح ، لهذا تبرعمت بواكر التصحيح الحقيقي ، وقد دل هذا التصحيح يوم ميلاده على شعبيته بثلاث سمات رئيسية : الأولى الانتماء الى ثورة ٢٦ سبتمبر ، الثانية إشعال الوطنية الخامدة ، الثالثة الاعتماد على الشعب بروائحه الوطنية ويمنيته الحقيقية ، ولأن هذه الحركة ميلاد طبيعي تزايد نموها وافسحت الطبيعة لها مجـال التحرك والتجذر ، فكانت ثورة من الثورة رغم الصعوبات ، إلا أنها قد أصبحت محكاً لخبرة طال مراسها ، والآن وقـد أتمت الحركة عامها الثالث أين نضعها في قائمة الحركات ؟

هل هي طموح الى السلطة ؟

لقد تراخت السلطة السابقة حتى وصلت نقطة اللاحياة ، فلم يعد اقتلاعها يكلف حركة سلاح ؟

إذن فهل هي حركة تصحيح ؟

الجواب على السؤال سؤال آخر •• هل كان في الوضع السابق جانب صالح ؟ لقد شمل الفساد كل شيء فيه ••

إذن فهل هي انقلاب عسكري ؟

لقد أصبحت الانقلابات العسكرية أدوات للقضاء على الازدهار الاقتصادي والثقافي في العالم الثالث من منتصف الستينات الى الآن ، ولم تسبق حركة يونيو أي لمحة ازدهار اقتصادي أو اجتماعي .. إذن فحركة يونيو ثورة من الثورة تنتمي الى ثورة سبتمبر وتختلف عنها ، لأنها تنمو في مناخ نقي من الحروب .

ولكن هل تسير بلا عوائق ؟ إن من يتحرك بدون عوائق يفقد خبرة المواجهة والاجتياز ، ولقد كانت الحروب تقوية لثورة سبتمبر وخبرة لحركة يونيو ، حتى تتجاوز الصعوبات عن قدرة ، وحتى تتصاعد المد الثوري بلا ضحايا ، وهذه انصع مزايا حركة يونيو كثورة وكنمو ثـوري .

صحيح إن المكان الذي تتدفق فيه نفس المكان الذي اشتجرت عليه حروب الثورة ، إلا أن المحيطات البعيدة قد تغيرتوسوف تتمادى في تغيرها ، لكي تمتلك حركة يونيو كل اعنة المجالات لأن الذين كانوا عقبات قد فقدوا أنيابهم ، واشتغلوا بهم عن غيرهم لكي يتسع المجال لثورة اليمن الأخضر .

مجلة الجيش العدد ٨٦ يونيو ١٩٧٧

حتميّة التقدم

إذا كان البعض يمر بالظواهر الحياتية دون أن يسبر لها سراً •• أو يستطلع لها كنها •• فان هذه الظواهر قادرة على إعطاء أسرارها لكل متأمل ، ولو كان كل إنسان متأملا لتعطلت مهمة الفكر المتميز ، ولما تحركت دواليب المطابع ، لأن الحياة بطبيعتها كتاب مفتوح ، لكن كتاب الحياة ليس لكل ناظر وإنما لكل قارىء حصيف ، فكل إنسان بأدنى تأمل يرى أسرار التقدم تشع من وراء كل ظاهرة ، ويرى حتميتها تدل على وجودها في كل لحظة من حياة البشر والأشياء والكائنات ، لأن حياة البشر أجنة يركضون الى الميلاد ، ومواليد يركضون الى الشباب ، وعجائز ينجرون الى الموت ، وأعراس تهيء مواليد جديدة •

إذن •• فالحياة طفل يصبح رجلا •• ورجلا يصبح قبراً ، وقبراً يصبح مهداً للميلاد ، لأن الحياة ليست مجرد مقبرة تبتلع وإنما هي الى جانب ابتلاعها •• طفولة تنمو وأمومة تحبل لكي تلد •

مثل الانسان •• النبات : البذرة جاءت من الشجرة التي انتهت أو أوشكت •• فكل شجرة تنقرض تحمل بذور غابات من الاشجار تلد ، ومثل ذلك الكائنات الاخرى : تفرغ السحائب اثداءها على الارض لكي تلد سحائب جديدة تنمو اثداؤها •• وهكذا •

إذن • فالواقع الانساني يأتي من منابت لكي يثمر •• ويثمر لكي

ينبت ثمراً موعوداً ، فهو صيرورة دائمة .. وحركة لاتقف ، وقد يتبادر سؤال : ما هو الواقع .. ؟

إن كلمة الواقع أكثر الكلمات تردداً على الشفاه والآذان والأقلام، إلا أن أكثر ما يقال لايعبر عن الواقع العام وإنما عن واقع القائلين .. أو عن تصورهم للواقع .. أو ايهام الآخرين بأفكارهم عن الواقع ومهما كانت الكلمات عن الواقع .. فانها لاتستطيع أن توقفه حيث هو .. أو تتجاوز به طاقة انطلاقه .

إذن .. ما هو الواقع ..؟

إنه العالم الذي نفهمه . أو نحاول فهمه ، وهو يتكون من ثلاثة عناصر :

- امتداد الماضي .
- ركام الحاضر .
- بوادر المستقبل .

كالانسان والغابات تماماً ، أليس الوليد يأتي من أم .. ثم يمضي الى عالم منفصل عن الامومة متصل بها ، فهو مرتبط الى العالم الذي جاء منه .. منطلق الى العالم الذي أتى اليه .

ومثل ذلك الأشجار : رؤوسها تعانق الاهوية والأشعة، وجذورها تنبض في صميم التربة التحتية .

ومثل ذلك السلطات السياسية : تأتي من تربة المجتمع لكي تعلو عليه لكنها كالشجرة ، إذا انقطعت جذورها من تربتها تساقطت الى مهبات الرياح .

ومن امتزاج الواقع من هذا الركام الماضوي اليومي المستقبلي

تكونت حتمية التقدم ، لأن الماضي ليس مجرد ساعات أعلنت دقاتها نهايتها •• وإنما هو امومة منتجة تكون اليوم والغد •

الأنبياء ولدوا في الجاهليات كامتداد من الماضي لتغييره وخلق بديل عنه منه ، الثوار يولدون في زمن الفساد كامتداد لذلك الزمن لانهاء أسوأ ما فيه ، وتأسيس بديل عنه من أنقى عناصر ما مضى لخلق أفضل ما يأتي ، ومن هنا يستمر التقدم ، لأن الفساد ادعى الى الثورة عليه ، لأنه مرض لاموت •• بل انه ضروري لخلق البديل الأفضل ، لأن السلطة الفاسدة مهما كانت لاتستطيع أن تحجز تفاعل الركام بل ولا تستطيع أن تفسد كل شيء ، قد تفسد المستعد لتقبل الفساد لقربه منها •• لكن غالبية الشعب تعتصم بالبعد ، بل إن البعض يملكون حصانة ضد الفساد ولو كانوا على قرب من السلطة الفاسدة، فيفجرون الثورة عليها من داخلها ، فيصبح الانفجار الفوقي سبباً لانفجار البنية التحتية•• فتلتقي السلطة المريدة للتغيير بالشعب الطامح الى التغيير،باعتبار الشعب بطل الحلم •• والسلطة بطل الممارسة ، فالتقدم الانساني والكوني متتابع الموجات ، حتى وإن اشتدت النكسات التي تعترض فإنها تكوّن عنصر تجمع لانطلاق جديد •

ومعطيات الأحداث في بلدنا وخارجه تؤكد هذا المفهوم ، إلا أن التقدم ذو حدين :

ـ تقدم الشعب ، والتقدم ضد الشعب •

فاذا كانت السلطة شعبية النوايا والهدف •• فهي جناحا الشعب الى التقدم ، أما اذا كانت السلطة غير شعبية النزوع فقد تستغل التقدم لقمع الشعب ، لان التقدم ينتج وسائل القمع الأقدر ، اذا لم يكن من انجاز الشعب •• وفي يدي قيادته ، فهناك تقدم الاحتكار والقمع والتسلط •• وهناك تقدم الشعب •• لكن تقدم القمع مؤقت العمر ،

لان حتمية التقدم الشعبي تملك قدرة التجاوز ، لأنها مكونات الواقع ووسيلة تغييره ، وإذا لاحظنا الوقائع التاريخية في بلدنا فسوف تسفر أهم حقيقة متجددة ، ذلك انها لم تقم أي سلطة على هذا الوطن أقوى من الشعب .. أو أقدر منه . قد يمكن لأية سلطة أن تغرر مؤقتاً .. إلا أن ارادة الشعب هي الغالبة دائماً ، لقد كان محمد بن يحيى .. والد (الامام يحيى) راضياً عن نفسه لأنه كان شبه سلطان محلي في ظل الاحتلال العثماني : كان يمارس سلطات ملك متوج لأن الزكاة كانت تجيء اليه .. والاوقاف تحت نظارته . والقضاء تحت مسؤليته، وكل التذمر الشعبي منصب على الوالي العثماني .. إلا أن الشعب أذكى من أن يصارع المحتل ويهمل مطاياه ، لهذا حاول (المنصور) أن يبدي معارضته للاتراك .. إلا أن تلك المعارضة لمزيد من سلطته المحلية ، ولما مات (محمد بن يحيى المنصور) رفض المبايعون أن يعطوا ابنه «يحيى» البيعة إلا على شرط ، تحرير البلاد من « الاروام » كما كان يسمي الشعب .. الاتراك ، ومن هنا فرض الشعب على الإمام يحيى من أول أيام زعامته مقاومة الاحتلال ، بغض النظر عن استغلال الميدان والاستفادة من غنائمه في آخر الأمر .

فمن أين تكون ذلك الواقع النضالي .. ؟

تكوّن كالعادة من امتداد الماضي ، وركام الحاضر .. ولوائح المستقبل ، فقد كان وراء جيل العشرينات طريق وردى من حربه العثمانيين في غزوهم الأول ١٥١٦ ، فقد أراد الطاهريون بزعامة (عامر عبد الوهاب) حماية البحر الاحمر من الغزو (البرتغالي) الذي أثر على مصالح اليمن التجارية ، ولأن اليمن لم تملك في ذلك الحين قوة بحرية .. فقد تعاونت مع المماليك بمصر على دحر المطامع البرتغالية.. إلا أن مماليك مصر استغلوا هذا التعاون ، فكانوا على اليمنيين أكثر

عداء من البرتغاليين ، لأنهم اعتبروا الانتصار على البرتغاليين آت من السيطرة على الشواطىء اليمنية بدون اليمنيين ، ولا تتم هذه السيطرة إلا بالاستيلاء على الجبال،فصارع اليمنيون هذا التدخل المملوكي الذي انتهى بصرع الزعيم اليمني (عـامر عبد الوهـاب) وبهذا سيطر المماليك على بعض الأجزاء في أوائل القرن السادس عشر ، وبالأخص (تهامة وتعز وعدن) •

وبدلا من أن يدحروا البرتغاليين كونوا جسراً للغزو العثماني الاول الذي قضى على سلطتهم •• وعجز عن القضاء على المقاومة اليمنية التي امتدت قرابة قرن ، انتهت بانتصار اليمنيين ، وهذا هو اللون الذي امتد الى العشرينات من هذا القرن • أما اللون الاني لذلك الحين فهو التحرر من نفس الدخيل لكي يحل الشعب محل المحتل ، أما اللوائح المستقبلية فتتكون من بطولـة الحكم الشعبي في ممارسـة الحياة العصريـة • والمشاركة في صنعه عن طريق عصرنـة داخل البيئـة الاجتماعية •• لكن الذي تم هو جانبان من الواقع :

ـ امتداد الماضي •• أو خير ما فيه •

ـ والنزوع الى التحرر من الدخيل •

لهذا كانت بطولة الامام يحيى مستمدة من بطولة الشعب ، بل مدفوع بتيار الشعب •• وإذا كان أساء استغلال هذا المجال لنفسه ، فان بطولة الأرض والانسان لم تدع له نعمة الربح بلا خسارة ، لهذا سقط قائد النضال عام ١٩٤٨ لأنه أساء استغلاله ، ولم تكن سنواته الطويلة إلا لأنه بطل تحرير •• ولانه أخرج الغزاة ، ولكنه لم يحقق الغاية • وهو البديل الافضل للشعب بكل بنية ، إذ لم يكن خروج المحتل إلا وسيلة لغاية عظيمة تتحول وسيلة أعظم • فاستمرت حركـة

الواقع تمد الأمس أو أنقى ما فيه ، وتحرك كوامن اليوم • وتستولد جنين الغـد •

وبعد سقوط الدستور تكون واقـع الخمسينات من الامتداد وتأثير ما استجد ، لهذا اختلف شكل الخمسينات عن شكل الأربعينات وما قبلها ، فبدأت تتشقق جدران العزلة ، وارتدت الأشكال السياسية بعض الوان المعاصرة كتشكيل وزارات •• ولكن من البيوت التقليدية •• وافتتاح سفارات وارسال سفراء •• وتكوين علاقات مع مختلف الانظمة ، إلا أن هذا كان إيهاماً بالتقدم •• وليس جوهر التقدم ، لأن البنية الاجتماعية بقيت كما هي ، وإن تلونت ظواهرها الخارجية بأشكال معاصرة : كاستيراد السيارات والاذاعات ، والطائرات ، وارسال البعثات واستقدامها ، إلا أنها كلها مجرد لمحات على السطوح ، غير أنه بامكان الظواهر الخارجية الوصول الى الداخل استجـابة للاستعداد على تفاوت مقاديره •

لهذا كان عام ١٩٥٦ تقريباً أخصب حقل للتفاعلات ، فقد انتهى تنظيم ١٩٤٨ بانتهاء رؤوسه ، وبدأت بذور جديدة تشق جلود التربة ، فنشأت من ذلك الحين التنظيمات الجديدة بأسمائها المتعددة ونظرياتها المختلفة ، والمتفقة في نفس الوقت على يمن جديد ،فكانت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ذروة التمخض الجديد الذي تكون من امتداد الماضي وحيوية الحاضر وحلم المستقبل ، وعلى تفرد هذا الحدث بأنقى المزايا ، فان التجربة كانت في سن المراهقة لا لقلة في شعبيتها أو نقص في واقعيتها •• إنما لتراكم الفساد في منابعها ، وللواقع الجغرافي الذي تتململ فيه جوانب الواقع اليمني •

على رغم السنوات الدامية التي تحركت فيها ثورة سبتمبر ، فقد بدأ الواقع الجديد يتجذر من أقل امتداد الماضي •• ومن طفولة الحاضر

ومن جنينة الغد ، فعلى رغم الركام المتناقض في السلطة الفوقية ، فقد تكونت معالم اليمن الجمهوري وأنبتت تربة الواقع أخصب جذور المستقبل •• برغم أن هذا العهد جاء من فراغ أو شبه فراغ •• إلا أنه قد وضع اللبنات الأولى لليمن الجديد عن طريق الوعي الاجتماعي والحماس الثوري وحتمية التغيير، لهذا تكونت أسس الدولة الحديثة، وعندما ننظر الى سمات مميزة لفترة من الفترات ، تتجلاها على ضوء ما كان ، فقد كان رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء يتغيب عن البلد أو عن العاصمة دون انتشار فوضى •• على عكس ما كان يحدث قبل سنوات فقد كان الإمام يحيى لا يغادر صنعاء إلا الى إحدى ضواحيها « الروضة •• أو الوادي » ، ولم ينتقل الى « دمت » عام ١٩٤٦ إلا في سرية تامة وفي أقصر مدة خوفاً من انتشار الفوضى في غيابه ، مع أن منطقة « دمت » لاتبعد عن صنعاء إلا بحوالي ٢٠٠ كم ، حتى أن بعض رجال الدين استنكر إهمال الإمام لفريضة الحج على استطاعته •

ألا يدل هذا على أن السلطة كانت أضعف من الشعب •• لخوفها منه ؟ ومثل الإمام يحيى •• الإمام أحمد ، فقد خرج أول مرة الى جدة عام ١٩٥٨ لمدة يومين فقط ، وعندما سافر الى روما آخر ١٩٥٩ للاستشفاء وأطال المدة أسابيع تفجر البلد •• وكادت الأوضاع أن تنهار نهائياً حتى أخمدها مؤقتاً عند رجوعه عام ١٩٦٠ •

أليس هذا دليل على أن دولة حديثة قد تكونت بعـد ١٩٦٢ ؟ فنشأت أجهزة الأمن •• وتآلفت الروح الاجتماعية •• وتوافر الحس العسكري بأمن المواطن •• وحماية اليمني من أخيه •• بمقدار حماية الوطن من أي عدوان ، وتكونت الاجهزة الادارية ، وبهـذا تمكن الشعب أن يدير نفسه من خلال المؤسسات الطفلة ، فكم سافر رئيس الجمهورية وغاب عن البلد ، وكم قام رئيس المجلس الجمهوري برحلات

واستشفاءات ، وكم تنقل رئيس مجلس القيادة في عواصم عربية وأجنبية ، دون أن يختل الأمن ودون أن تتوقف الأجهزة عن ممارسة سلطـاتها .

كل هذا قد تكون ولكن مجرد تكوين ، وبما أن الأساس ليس كل البناء فهو أصل في وجوده ، فكل هذه الأجهزة للدولة المعاصرة قد وجدت ، ومجرد وجودها يتيح لها فرصة النموّ والتوسع والامتداد .

هذا في المجال الرسمي .. ومثله المجال الشعبي

فقد كان أخوف مايخاف اليمني أن يلتحق بالجندية..وكان الآباء يخافون على أبنائهم من المدارس ، الآن أصبحت الجندية مطلباً ، كما أصبحت المدارس مطلباً أهم ، وكان اليمني واليمنية لايشعران بجدوى الطبيب ، وكان الرقود في إحدى المستشفيات كالسجن أو القبر .. والآن تزايد الوعي الصحي تزايد الالحاح في طاب المستشفيات ، لهذا نشأت هذه الأصول الأولى للدولة الحديثة ، كاستجابة لرغبة الشعب وكحتمية من حتمية التقدم الاجتماعي الذي تكون واقعه من بذور الماضي ، وحس الحاضر وأمل الآتي .

فكيف يمكن أن نلمح للماضي أي امتداد في غمرة هذه الظواهر المعاكسة له .. ؟ لم يكن شعبنا يرفض الصحة والتعليم والتجنيـد والدولة العصرية ، وإنما كان لا يجد هذه الظواهر كخادمة له ، وعندما وجدها كأمل طلب المزيد منها لأنها كانت حنيناً كامناً في النفوس ، لأن الانسان لايقبل إلا ما ينزع اليه عن وضوح أو غموض .

وقد كان حكام العهد البائد يعللون تخلفهم برغبة الشعب ، ولكن من أرى الشعب بديلا عن ذلك الحكم حتى نمتحن اختياره . ؟

كان الشعب يقبل ذلك الوضـع في مرارة .. وهو يبحث عن البديل في حمرة الجراح وعرق الجباه ، والدليل على ارادة الشعب

البديل الأفضل تلاحق هذه التمخضات من عام ١٩٣٦ الى عام ١٩٦٢ ، ومن ٦٢ الى الآن أحس الشعب أنه يقف على أول الطريق ، ونشأت مع أول الطريق فكرة تصحيح السير واضاءة الرؤية أمام القافلة .

لهذا تلاقت المؤتمرات بحثاً عن الطريق الأصح ..

لكن بفضل وجود الطريق ، وبفضل إرادة المسير ، وعلى رغم الصعوبات التي اجتازتها الثورة من ٦٢ الى ٦٧ فقد ترسخت الأصول الأولى .. كما ترسخت قابلية النمو والتوسع والامتداد ، غير أن بداية التجربة كطفولة الانسان لاتخلو من نكسات وعناد ، ولكن كلها علامة صحة لأن فوضوية الطفل دليل على تكامل تكوينــه .. فاستمرت التكوينات في نمو ولو قليل رغم كل الطواريء ورغم كل الزوائد من الأحداث .. وإن كانت بعض المجاميع قد انتهزت هذه النواقص الطبيعية للوصول الى السلطة كما أفصح عن هذا انقلاب نوفمبر ١٩٦٧

لقد كانت الاصلاحات ضرورية لكن لم يكن الوصول اليهـا ضرورياً عن طريق انقلاب ، لأن تلك النواقص والنكسات جاءت عن طريق عوامل مغايرة وغير يمنية ، وعن طريق فتوة التجربة ومغامرتها في عالم السياسات الكبرى .. ومع هذا فقد تبنى انقلاب نوفمبر يمنية الحكم . وأوهم بالمجماعية .. وأعلن عن تحقيق الذات اليمنية .. وبهذا ارتدى الشرعية . وإن لم يصل الى « الشعب » تنيجة لغيــاب الشعبية ، فقد ركن العهد النوفمبري الى ثلاثة أسس كانت سبب بقاءه .. وسبب انهياره :

الأساس الأول : اهتمامه بالرؤوس القبلية .. متناسياً القبيلة التي جاء منها الرأس ، هل هو يعبر عنها عن صدق ، وهل يخدم مصالحها حقيقية .. ؟

أظن أن العهـد تناسى القبيلة كعنصر شعبي هـام •• وركن الى الرأس •

الأساس الثاني : تجاوز سبتمبر الى الخلف : فلم يعد ذلك العهد امتداداً صحيحاً لسبتمبر إلا في شعار المناسبات ، كأن الوطنية قميص عيد •• والثورية خطبة حفل ، أما الجوهر للعهد النوفمبري فيتبدى في الرجوع الى عهد ١٩٤٨ كما دلت الوقائع :

فأول مادعى اليه : هو مجلس الشورى الذي تكون في الميثـاق عـام ١٩٤٦

ثانياً : اعتمد العهد على البقية الفاشلة من ٤٨

ثالثاً : حاولت تلك الفترة أن تقمع كل حس وطني •

وتسكت كل صوت يرفع اسم اليمن •

فتبدى واقع السبع السنوات من ١٩٦٧ م الى عام ١٩٧٤ أغرب تركيب لامتزاجه من النقائض لأنه لم يعتمد على امتداد المـاضي أو امتداد الأصلح للبقاء •• وإنما رجع الى الماضي نفسه •• الى شعارات ٤٨ والى ما قبل الامامة ، تتيجة لسنوات الحروب •

ومن العجيب أن شيوخ القبائل كانوا في أعلى السلطة ، ومع هذا كانت القبائل اليمنية تحترق عطشاً ، وتتساقط جوعاً دون أن يذكرها ممثلوها في مجلس الشورى ، والمجلس الجمهوري وغيرهما من أعلى المراكز، لأن اولئك الرؤوس شغلوا بضخامة الأرصدة في بنوك العالم •• وبناء العمارات في أكبر العواصم •• وشراء أحدث الموديلات لتأثيث قصورهم الفخمة •• مع أن قبائلنا العظيمة هي التي أوصلت هؤلاء الرؤوس الى السلطة بشجاعتها اليمنية وحسها الثوري •

الأساس الثالث الذي ارتكز عليه ذلك العهد ،

افساد الضمائر •• وإفساح المجال للسباق الرخيص على المحافظة الدسمة والقيادة الأدسم حتى اشتغل الرؤوس بالرؤوس عن قواعدهم، وغرقت القيادات في ملذاتها واطماعها عن معسكراتها ومناطقها •

لهذا تآكل هذا العهد من تلقاء نفسه •• وسقط بمجرد بيان تصحيحي دون أن تطلق رصاصة بندقية ، وذهب هذا العهد وكأنه لم يأت ، ذلك لأن تلك الفترة قامت على أعمدة دخانية • تتصارع فيما بينها متناسية السلّم القبلي والمدني الذي أوصلها الى القمة الخطيرة التي لا تقبل بطبيعتها الزحام لكثرة عواصفها •

ومن هنا نشأت ضرورة التصحيح كحتمية لصحة التقدم وكحتمية لرد الفعل على فعل الفساد ، لهذا تكون واقع ما بعد ١٣ حزيران من أصح الأصول التي تكون الواقع النظيف •

فقد تكون من امتداد سبتمبر بكل نقاوته ومن ركام الحاضر الذي يريد التخلص من فساده ، ومن ملامح المستقبل الذي يريد أن يكون مستقبل اليمن لا حاضر غيره •

لهذا اعتمدت قيادة التصحيح على الشعب كمصدر سلطة ، وعلى الشعب كصانع مصير ، وعلى الشعب كصانع تقدمه الخاص من امتداد ماضيه •• أو أنقى ما فيه •• ومن نوايا حاضره •• ومن أزهى أماني آتية •

ويمكن تجلي هذه الفترة الاخيرة على ضوء ما سبق :

فقد كانت الفترة السابقة تهتم برأس القبيلة •• بينما يهتم العهد الجديد بالقبيلة رؤوساً وقواعداً كطاقة حيوية وأغلبية من فئات الشعب، ويهتم بالفكر كمعبر عن المجموع •• وكثروة قومية لليمن ، ويهتم بالأدب كزاد روحي ، ويهتم بالفن كصوت انساني يعبر عن المواقف

اليومية للانسان والتجارب المتجددة للمجموع،ويهتم بالقوى السياسية كصاحبة رأي وحاملة برنامج •• ويأمل في هذه القوى أن تيمن نظرياتها لأن حامليها من نبت هذه التربة ، ولأن هذه التربة مختبر الممارسة ، من كل هذا تثق أن الشعب قوة الارادة وارادة التنفيذ ، وانه اليوم يمارس ارادته ولا يمارسها أحد بالوكالة عنه ، وقد تجلت بعض الملامح الدالة كالانتخاب الحر للتعاونيات وكاطلاق أفواج من السجناء ، وكرفع مرتبات المعلمين لتكوين يمنية البرنامج والمدرسة ، وكالغاء الالتزامات عن الصيادين التي طالما أرهقتهم • وكفتح المجال لكل الطاقات تحت الشمس البيضاء وعلى أرض اليمن الخضراء ، لأن حتمية التقدم متواصلة الخطوات ولم تقف إلا لكي تندفع ولم تنتكس إلا لكي تستجمع نشاطاً أكثر ، كل ما طرأ على مسيرة واقعنا لايعدو كونه مجرد كسوف قمري أو خسوف شمسي لكي ينهمر الضوء أبهى وأندى •

بورك هذا الشعب الذي لايتوقف •• إلا لكي ينير الطريق ويصحح قوائم القافلة للمسير الأخصب والأسرع • وبدون تعرج • والمأمول أن توالي حركة يونيو خطواتها مع الشعب وبالشعب ، مهما كانت الصعوبات ، لأن الماضي الذي لم يصلح لسلطة غيرها لم يعد صالحاً لها ، وقد دلّت بدايتها على ثقابة نظر وفي امكانها تحقيق ارادة الشعب عن موقف ورؤية • وسوف يضطر الآخرون على قبول ما تريد لصدور ارادتها عن موقف شعبي ، وبهذا يضطرد التقدم ويعزّز الخطوة بالخطوة الأكثر جدوى •

الإدراك المأسوي في شعرنا اليمني

إذا لم يكن الانسان مطبوعاً على الصراع فهو مرغم عليه ، ما دام يؤمّل ويخيب وما دام يريد ويعجز ، وما دام يحس أن أمام رغباته قوات أكبر منه ومن رغباته ، ومن هنا نشأ الصراع بين الانسان وبين القوى العائقة ، ومن هذا الصراع تكون الحس المأسوي لقوة طموح الحياة في الانسان ، وضعفه أمام القوات الكونية ، وتنوع التعبير عن هذا الحس المأسوي . وقد يقال إن الشعر العربي مفلس من الحس المأسوي بالقياس الى الأدب اليوناني : من شعر ، ورواية ، ومسرح ، وهنا نبحث عن تعابير الحس المأسوي في الأدب اليوناني وفي الأدب العربي واليمني بصفة خاصة . كشعب عانى مرارة التبعية السياسية بعد أن كان متبوعاً .

لما كان المجتمع اليوناني متحركاً في ظل نظام سياسي ، وفي ظل انتخابات ديمقراطية ، تكوّنت مدينته على أصول فكرية ، وكان يطلق اسم المدينة على الشعب ، لأنها ملتقى المفكرين والشعراء والساسة والآلهة ، وتكاثرت الجموع في هذه المدينة ، وتتيجة للتجمع والحروب نشأت الملحمة الاسطورية في الشعر ، والرواية والمسرحية في النثر ، وتتيجة لكثرة الالهة في اليونان وكثرة الصراع بين الانسان وبينها تزايد الحس المأسوي وتوالي التعبير التمثيلي والانشادي عنه ، وقد نشأ الحس المأسوي من ضعف الانسان كإنسان ومن قوته كمخلوق

مريد ، وكان هذا المزيج من الضعف والقوة يتلاشى أمام جبروت الآلهة مهما كان المرء قوياً •

(فأخْيَل) البطل الأسطوري في (الألياذة) يستمد قوته الأسطورية من الآلهة وضعفه من حيث هو إنسان ، والحكاية كما يلي :

عندما ولد أخْيَل غسسته أمه في مياه الألهه ، فتكونت فيه المناعة ضد السيوف والسهام فاشتهر بالبطولة الاسطورية ، حتى أصابه سهمان في كعبي رجليه : وهناك سقط قتيلاً : والسبب أن ، (أم أخيل) عندما غسسته في الماء المقدس قبضت بكعبي رجليه فلم يصل اليهما الماء ، فكان هذان الموضعان نقطة الضعف في البطل القوي ، هذه قصة (أخيل) الاسطورية ولها دلالة رمزية •• فالكعبان في (أخيل) رمز لنقط الضعف في كل قوي ، لأن من القوة والضعف تكون الانسان ، من القوة نشأت الارادة ، ومن الضعف نشأ الفشل ، ومنهما نشأت المأساة المتكونة من الصراع بين الانسان اليوناني والآلهة ، فقد كان هناك آلهة شبه متخصصة لكل فن وعمل : فهناك إله للحرب ، وإله للحب ، وإله للخصب ، واله للجمال ، واله للفنون • ولتعدد الآلهة كثرت الأساطير وتعددت ميادين الصراع وتكاثرت جوانب المأساة لحدّ الحس بها ، فكان الانسان اليوناني في صراع دائم مع هذه الآلهة العاجزة ، ومن هذا الصراع تفاقمت المأساة وتلونت وجوهها ، وعبرت عنها الملاحم والروايات ، وليست قصة « أوديب » ملكاً إلا ذروة المأسوية كما في رواية « سوفوكليس » :

كان الملك « لايوس » لاجئاً في قصر أحد الملوك فأختطف أحد بنيه ، ولما عاد ملكاً على « طيبه » تزوج من الاميرة « جوكستا » وعقاباً له على اختطاف وليد حامية حرمته الالهة من الذرية ، ولكي

تتصاعد المأساة حملت زوجته بعد طول عقم : وفي آخر الحمل أنبأته الالهة في نومه أن ولده سيقتله ، ولما حانت ساعة الميلاد أسلم الوليد الى أحد الجنود ليقتله بعيداً ، فأطاع الجندي بحمل الوليد وامتنع عن قتله ، وتركه مربوطاً في سفح جبل لكي يواجه مصيره : فتأكله الوحوش ، أو يحميه القدر • وجاء أحد الرعاة فأخذ الوليد وباعه الى الملك « بوليب » ملك « كورنثه » الذي لم يحض بالولد ، فتبنى هذا الوليد وسماه « أوديب » أي متورم القدمين » وعندما أصبح الطفل غلاماً سمع الهمس من حوله أن الملك ليس أباه ، وخرج ذات يوم فلاقى عربة ملك وهو لا يعرف أن الملك « أبوه » الحقيقي ، فمنعه الحرس من عبور الطريق فانقض على الملك العجوز وضربه ضربة مميتة ، وهو لا يدري أنه قتل أباه ، وصادف أنه وقف بباب مدينة « طيبه » حيوان صخري يسمى « أبو الهول » وكان يلقي على المارة هذا السؤال :

ما هو الحيوان الذي يمشي في الصباح على أربع ، وفي منتصف النهار على اثنتين ، وفي آخر النهار على ثلاث ؟••

وكان سكان المدينة يعجزون عن الجواب ، فكان (أبو الهول) يقتل من عجز عن الجواب ، فأعلن أهل المدينة أن من يحل هذه الالغاز التي يلقيها (أبو الهول) في صورة أسئلة سيعطى مُلك المدينة ، ويتزوج أرملة الملك الفقيد ، وأقبل « أوديب » على المدينة وهو لايدري أن الذي قتله كان ملكها وأباه ، ولما ألقى عليه « أبو الهول » الأسئلة ، أجاب : إنه الانسان يحبو في طفولته على يديه ورجليه ، وفي شبيبته يسير على رجليه ، وفي شيخوخته يستعين بالعصا ، فهو الحيوان الذي يسير على أربع ، ثم اثنتين ، ثم ثلاث) ولما سمع « أبو الهول » الاجابة الصحيحة سقط بصخرته قتيلاً • فتولى

« أوديب » ملك « طيبة » وهو لا يدري أنه محل أبيه القتيل بيده • وانه تزوج أمه ، وبعد سنين أصيبت المدينة بوباء شديد وكشف الالهة السر، وعرف أهل المدينة عن الحكيم الضرير « ترزياس » سر الكارثة ، وذلك أن ابن الملك لم يقتل يوم ميلاده وأنه الذي قتل أباه وورث العرش وتزوج أمه ، وان كان قد خلص المدينة من « أبي الهول » فيجب أن تتخلص منه المدينة • وعندما عرف « أوديب » الحقيقة فقأ عينيه وأخذ ابنته التي هي في الحقيقة أخته • وهام على وجهه في الغابات • هذه هي مأساة « أوديب » في رواية (سوفوكليس) وهي عقدة « أوديب » عند علماء النفس • وهي رمز أدبي غني الى اليوم • ومن هنا نعرف أن الحس المأسوي عند اليونان كان أوفر وأرهف أو أن التعبير عنه كان منوع الشكل غني الفن • لكن هذا لايمنع من وفرة الحس المأسوي عند العربي ، بدليل مئات النصوص في شكوى الدهر وظلم القدر وسوء الحظ والشعور بالهشاشة أمام الأحداث • ومن وفرة المأساة في حياتهم ، فقد حكي أن امرأة كانت تصارع على حماية عفتها ومواشيها ، وكان زوجها ضعيف الشخصية والعشيرة ، فنذرت إن رزقت ولداً لتربطنه الى ركن البيت مدة ثلاثة أيام بلا زاد ولا ماء قرباناً للبيت لكي يعيش ، ولكي يتعلم الصبر والمجاهدة • وعندما رزقت أول مولود حملته وهو غلام الى البيت وربطته بحبل جلد ، فكان يتضور جوعاً وعطشاً وهي تبكي بالقرب منه حتى أتم أيام النذر ، فكت وثاقه وأخذت تردد : « لقد أصبح صوفة » ويقال أن اسم الصوفية اشتق من هذا الاسم : بمعنى المجاهدة في صبر •

وهناك حكاية أخرى مؤداها :

أن (عبد المطلب بن هاشم) تلقى وحي المنام يدعوه بحفر (بئر زمزم) ، ولما ألح عليه الدعوة أراد أن يبدأ الحفر فمنعته قريش،

فعرف أنها استضعفته لقلة ولده • فنذر إن رزق عشرة أولاد ليضحين بالعاشر منهم للكعبة ، ولما اكتمل العدد كان العاشر (عبد الله) أبو النبي عليه السلام ، ولما حمله أبوه للذبح واختار الآلهة قبل الخيار ، ولما كاد يفعل أفدته قريش بمائة ناقة تذبح بدلا عنه ، فلو تم ذلك النذر ونفذ الذبح لما ولد (محمد عليه السلام) ، هذه الحكاية تقرب من المآسي اليونانية ، وذلك أن الحياة بطبيعتها مأساة يولد الانسان فيها باكياً ، ويموت مبكياً عليه ، وبين بكاء الميلاد والممات مئات المآسي ، لأن الافراح قليلة المواتاه في الحياة وضعيفة الانطباع في النفس إن واتت ، فالألم ألصق بالنفس وأبقى أثراً فيها ، فإذا كانت للأفراح أصابع وردية ، فللمآسي أظفار وأنياب ، وما يجرح أبقى مما يسر ، فمأسوية الحياة كأفراحها مشتركة بين العربي وسواه ، إلا أن الحس المآسوي عند العربي يختلف تعبيراً عن الشكل المسرحي والتقاطيع الملحمية عند اليونان ، فقد كان الشعر هو الشكل الفني الوحيد الذي ينطق المآساة، وطبيعي أن هذا يرجع الى الحياة الاجتماعية ، فقد كان الشاعر العربي يعيش في مجتمع خال من النظام والاجتماع المدني ، بعد انقراض الممالك اليمنية التي سادت الجزيرة وملأتها حضارة رخيّة ، فتنقلت حياة العربي بين الأسفار خلف الإبل وخلف قطعان الأغنام والأبقار طلباً للري والمرعى ، أو سعياً وراء الحبُ والثأر ، وكانت تحيط به بحار من الرمال الصحراوية على حين كان اليوناني يعيش في جزيرة ملهمة يحيط بها البحر ويسيرها نظام اجتماعي وسياسي ويشكل نفسيتها فن موروث وممتد ، وفلسفة أصيلة مستقاة من تقلب الكون وأحداثه ومدهشاته ، فكان اليوناني رغم صراعه المأسوي يتمتع باستقرار في العيش وبظل بيئة فنية اجتماعية ، لهذا كانت الملحمة والتمثيلية التعبير الملائم لتلك الحياة ، كما كان الشعر المركّب والموقع بالانشاد ملائماً

لحياة العربي ، لأن الشعر الانشادي كان يصور بصوته المديد وأبياته المقطعة امتداد الصحراء وخطوات أسراب الإبل والأغنام ، كما كان الخيال الفني يشبه لمعان البروق وبريق السيوف : وتتيجة لتلك الحياة المركبة البسيطة الشقية ، كانت القصيدة بأبياتهـا وقوافيها الاصل الأصيل للشعر العربي ، ولما كان الشعر الجاهلي أساساً للشعر العربي إلى عهـد النهضة خلت آدابنا من المسرحية والرواية وان توفرت لهـا أهم العناصر في الحـوار والمناضلات والمناظرات . ولو أنشأ الجاهليون هذا النوع من الأدب لامتد وتطور ، فالسبب لانعدام المسرحية والرواية في شعرنا ، يرجع الى الحياة الجاهلية التي استغنت عن هذا النوع من الفن،لكن شعراء الجاهلية استغنوا بالتعبير عن المأساة بالقصائد والمقطوعات . ولا يرجع انعدام المسرحية الى انعدام الحس المأسوي فيهم ، فقد عبروا عن إدراكهم المأسوي في مئات المقاطع والأبيات . وكان (النابغة الذبياني) أو فر حساً بالمأساة وأدق تعبيراً عنها . فعندما أحس ضعفه أمام قوة (النعمان بن المنذر) عبر عن مأسوية الضعف أدق تعبير :

فانك كالليل الذي هو مدركي ..

وإن خِلتُ أن المنتىء عنك واسعُ

فهنا حس مأسوي يصور الضعف أمام القوة والصعوبات أمام الحيلة ، بل هناك مآساة أعمق هي : مآساة الحياة والموت وقد عبر عنها « النابغة » في رثاء أخيه أدق تعبير :

حَسْبُ الخليلين ناي الأرض بينهما .

هـذا عليها وهـذا تحتهـا بالي .

الحي فوق الارض والميت تحتها . وهذه الطبقة الرقيقة من التراب تخلق أشد بعد بين ميت تحت الارض وحي فوقها ، فليس الميت بعيداً

عن الحي مكانيا • وإنما هو قريب ولكنه قرب لاينفع ، أليست هذه المآساة متجددة والتعبير عنها دائم التجدد ومختلف المقادير ؟

فلم يكن الموت وحده هو المآساة ، وإنما قد يكون كل شيء مآساة كما يقول أبو نواس :

اذا امتحن الدنيــا لبيب تكشفت

له عن عــدو في ثيــاب صديق

وتتصاعد المآساة فتتجسد في كل شيء •في العداوة•في الصداقة• وأنت مرغم على مواجهتها والعيش معها كما يقول المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عــدواً له ما مــن صداقته بــدُ

وكل هذه التعابير عن الادراك المآسوي الاجتماعي مروية مبثوثة في الشعر العربي •• معروفة للكثير •• فهل توفر هذا الادراك المأسوي في الشعر اليمني ؟•

لعل هذا الجانب الوفير مايزال مجهولا •• على وفرة المأساة في تاريخنا كقصة « الملكة بلقيس » واستسلامها بالرغم من شعبها للملك سليمان ، وكفاجعة سيل العرم ، اجتاحت المنــابت والنبــات ، وكقصــة (اسماعيل عبــد الرحمن) الملقب (بوضاح اليمن) لوضوح وجهه • فقد أحب هذا الشاعر أقسى حب • وحالت التقاليد بينه وبين حبيبته (روضة) لأنه شبب بها •• وكانت التقاليد تمنع أن تتزوج المرأة شاعراً أشاع اسمها في غزله ، وفضح أسرار محبته لها •• ولكي يغطي أبو (روضة) هذا الشيوع الغرامي ، رحل بابنته وأهله الى (الحجاز) وكعادة المحبين سافر (وضاح) خلف الحبيبة الراحلة•• ولما وصل الحجاز واهتدى الى مكان (روضة) وجدها قد أصيبت بالجذام ، فلم يعد يعرفها لشناعتها ، ولم تعد تعرفه لضعف بصرها ••

وكان (وضاح) شهيراً بالجمال كشهرته بالحب والشعر •• وعندما نادى موسم الحجيج وأقبل الوافدون من كل فج رأت (أم البنين) زوجة (الوليد بن عبد الملك) رجلاً بهي الطلعة ، رغم القناع المفروض عليه كرجل جميل ، ويروى أن (وضاحاً) المقنع الثاني بعد (نصر بن حجاج) وكانت السلطة في ذلك الحين تفرض على الرجل الجميل أن يتقنع حتى لايفتن النساء • ولكن (عينا) (أم البنين) استدلت بالقناع على فتنة من تحته • فاستدعت (وضاحاً) فرأى فيها شبهاً من (روضة) الصنعائية • فداوى الهوى بالهوى وأحب (أم البنين) زوجة الخليفة واقتفاها الى (دمشق) برغبة الطرفين • ولما وصل (دمشق) تردد على القصر كعادة الشعراء ، وذات ليلة تم له الوصال في مخدع الملكة • وفي تلك اللحظة دخل أحد الغلمان فرأي (وضاحاً) في مخدع مولاته وهي تخبئه في صندوق •

وعرف أنه اكتشف سراً على سيدته • فطلبها حبة مجوهرات فأخذها الكبر عن رشوة الغلام ، فذهب بالخبر الى (الوليد) وعلى الفور استل السيف وقتل الغلام ثم صعد إلى مخدع زوجته ليرى رجلاً في الصندوق كما أخبره الغلام • وباللباقة المعهودة طلب (الوليد) من زوجته أن تعيره الصندوق ، فبذلته ، ولما نقله الوليد إلى مجلسه رماه الى بير كانت تحت البساط وهو يردد :

« إن كان فيك أحد فقد قتلنا عدواً • وإن كنت خالياً فلم نخسر إلا خشباً » وهذه المأساة لم يتعرض لها شاعر كأخواتها من المآسي التاريخية مثل التعزير النكير « بيزيد ابن المفرغ » الحميري،في الكوفة ،مثل قتل أعشى همدان فارس اليمن على يد الحجاج •• لأن الشاعر العربي كان يستمد تجاربه من الحياة،وقلما استفاد من العصير التاريخي هذا من جهة ، ومن جهة ثانية : أن الشاعر قليل الامكانيات الفنية على حين يتمتع الروائي أو القصاص والشاعر المسرحي بامكانيات أكثر •

لهذا لم يتناول شعراء العرب مأساة (عبدالمطلب) ولا مأساة (وضاح) ولا مأساة الأعشى ولا ابن المفرغ اليمني ، لأنها مجرد حكايات تاريخية تغني روايتها عن الشعر فيها • وشعرنا اليمني كغيره شغل بتجارب الحياة ومأساة الأحياء عن التراث وما فيه ، وقد عرفنا من أسرار الشعر العربي ، وما يحمل من مأساة الكثير ، لأن هذا الشعر منشور ومطبوع ، على حين أغلب شعرنا اليمني لم يدون وما دون لم يدرس ، والمدروس كشعر « عمارة اليمني » لا يفصل مأساة هذا الشاعر ومقتله على أيدي الأيوبيّين في غربة الدار ، ولعل (القاسم بن هتيمل) اليماني من شعراء القرن السابع الهجري ، أكثر شعرائنا القدامى إحساساً بالمأساة وتعبيراً عنها ، بدليل أن أغلب شعره رثاء نائح : أو غزل شبه رمزي ، وقد يكون النوح على الميت نشيج الحي على نفسه ، أو الدليل على استعداده للبكاء بأدنى مؤثر : كما أن الغزل جانب بكائي يتجسد في صورة حبيب هاجر ، والبوح به تنفيس عن النفس المثقلة بغوامض المآسي ، وهكذا كان (ابن هتيمل) الذي نشأ في المخلاف السليماني وتنقل بين (نجران وحرض) • وكان لشعره طيران في الآفاق اليمنية ، وعلى عمق شعره المأسوي اعتبره القدامى شاعراً موزعاً بين الغزل والرثاء والمديح • مع أن الحس المأسوي يتأجج في عشرات التعابير من شعره • ويكفي أن تتمثل بهذين البيتين من أسْيَر قصائده على الشفاه ففيهما قمة الإدراك المآسوي حيث انتهى كل شيء ، ولم يبدأ شيء فقد تعطل الزمان وسافر المكان • ولم يبق إلا الضحية والسكين :

لا الزمـان الزمـان فيما عهـدناه
قديمـاً ولا الديـار الديـار
مـن معيري قلبـاً صحيحاً ولو
طرفـة عين إن كان قلباً يعـار

فقد انتهى الزمان وترحل المكان ولم يبق إلا القلب المريض يعارك المأساة وينشد إعارة قلب صحيح ، وحين لا يسكن شيء يكون المستحيل هو العزاء ويكون الجواب نفس السؤال .

صحيح أن الشعراء بكوا الديار ، وفوات الزمان الهني ، لكنهم لم يحسوا ضياع القلب وراء المفقود ، ولم يستشعروا فراغ الدنيا من أهم عنصريها : (الزمان . والمكان) ويمكن أن أشعار (ابن هـُتيمل) قريبة الى الشيوع على عمق مأسويتها وبالأخص عندما تتصوره ، وقد رأى فساد المقاييس وانعكاس المفهوم كما في قوله :

وقد تسطع الدنيــا الصفا بزجــاجة

وقد تقتل الأقدار صــلاً بعقرب

فأي انعكاس للمقاييس مــن أن تحطم الزجاجة صخرة بمشيئة الدنيا ، ويقتل القدر الحية القوية بذَنب العقرب الضعيف ..

ألم تختل هنا الموازين .... وتبطل المقاييس ؟!.

والانسان بين فوضوية الحياة وعواصف تقلباتها ، مجرد ورقة في ريح عاصفة ، اذا كانت مأسوية (ابن هـُتيمل) شائعة بين أسلافه ومعاصريه ، فاننا سنجد الادراك المأسوي أكثر عمقاً عند (اسماعيل المقري) الذي يلي (ابن هـُتيمل) زماناً لا شعراً . فبين (ابن هـُتيمل) و (المقري) اتصال الزمان وقرب المكان فقــد كان (ابن هـُتيمل) تهامي العيش كما كان (المقري) تهامي الميلاد والموت كما كان عمارة أقدم بقرن وتجمعه بالشاعرين وحدة المكان وتفرده مأسوية داميــة « بمصر » ، وقد ولد (المقري) بعد موت (ابن هـُتيمل) بخمسين عاماً في رواية وعشرين في رواية أخرى .. إلا أن (اسماعيل المقري) يختلف عن (ابن هـُتيمل) في الحياة المعيشية فقد كان المقري محظياً

عند الملك الاشرف وابنه الناصر بتعز كما قال (الشوكاني) في كتاب (البدر الطالع) وكان يسمى آية عصره حتى أن الشوكاني اعتبره بلا مثيل في مؤلفاته العلمية وفي اشعاره ونثره . فكان (الشوكاني) اذا ذكره شاعراً قال « وأنشأ قصيدة لا يقدر عليها غيره » وحكى أنه ألف كتاباً يتضمن أربعة فنون : (الفقه والنحو والشعر والصرف) وكان كل صدر يحتوي على هذه الفنون مجتمعة ، فأول الصدر يقرأ نحواً وصرفاً وأوسطه فقه وآخره علم بيان وفن قوافي ، ولعل الحس المأسوي هو الذي أغرقه في هذا التلاعب أو في هذه البراعة الشكلية التي عرف بها أدب القرن الثامن زمن شاعرنا ..

لكن (للمقري) شعر بعيد عن البراعة البديعية ومملوء بالادراك المأسوي ، فليست شكواه الشعرية مجرد لحظات عابرة .. وإنما هي أفكار أساسية بدليل التعبير عنها في عدة أشكال .. والافصاح عنها في عدة أنفاس ، وهذا البوح الحزين ليس شكوى الفقر ولا شكوى الهجر . وإنما هو إدراك لمأساة الحياة ولصراع الانسان بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون :

يا من ترون أرى الموجود في زمني
اذا تأملت فيه غير موجود

ان دام هذا ولم تحدث له غِيَرُ
لم نبك ميتاً ولم نفرح بمولود

ولادة لممات كيف يخدعني
وعد السراب واخلاف المواريد

لاشيء يصدق غير الموت عادته
بذل الوصال وانجاز المواعيد

جف الزمان فصر يا بحر ساقية

للراحلين ••وميدي ياربي (ميدي)

فهذا حس مأسوي يختلف عن وعظيات « أبو العتاهية » لصدوره عن عبث الحياة ومرارة المأساة الحياتية ، ولم يقف (المقري) على رخاء عيشه عند هذه الحدود من المأساة بل أحس كل شيء مأساة ، فالبيت جحيم والآخرون جحيم •• والصداقات والعداوات جحيم •

قالوا جهنم يوماً سوف أدخلها

فقلت قد دخلت بيتي من الباب

وفي المجالس والأسواق تصحبني

هذي جهنم مني مثل أثوابي

وسوف أخرج منها حين يحملني

نعشي••وأطرح باب القبر أوصابي

فليس الموت هو المأساة وإنما الحياة هي المأساة ، فاذا كان في القصيدة الأولى يحلم بالتغيير وييأس منه ، فهو في القصيدة الثانية يرى الموت أفضل النهايات ، لأن الآخرين هم جهنم •• ومن العجيب أن مثل هذا الشعر فاض من وجدان (اسماعيل المقري) بلا صناعة متكلفة إلا في البيت الاخير في كلمة (ميدي ياربي ميدي) فهي تحتمل اعادة الأمر •• وتحتمل الإضافة الى مركز ميدي •• وعلى كثرة تكلفه البديعي في المدائح والوصف ، نجت قصائده المأسوية من هذا الزخرف الصناعي الا بعض المطابقات المقبولة •

قال (الشوكاني) : « إنه كان يضيف الى البيت أو البيتين العسيرين عشرات الأبيات » •• وتدل الأبيات التي أوردها (الشوكاني) على تثقفه بأدب البديع من أمثال (مقامات الحريري) وشعر (الحلِّي)

إلا أنه في مأسوياته شاعر نفسه وشاعر ذاته وموضوعه •• وليست مأسويته تهافت محبين •• ولا انحلال عشاق وإنما هي نتيجة تأمل الى الحياة وعبثها ، لأنها اذا أعطت السارييد أخذته بيد •• وأعقبت المأساة الطويلة مكان اللحظة الهنيئة في كل شيء •• في عالم الانسان وفي عالم النبات •• كما عبر عن هذا شاعرنا :

والمعالي من الأمور وان اغنيْن شيئاً محتاجةٌ للعوالي
والحوالي من الرياض نراها بعد بدرين وهي ليست حوالي
للنباتات كالأناس ذبولٌ كل بَدْءٍ مقيدٌ بالمآلي
بينما تبصر الحدائق خضراً زاهياتٍ يحلن صفراً بوالي

فتحول الخضرة الى اصفرار ، وانقلاب الازْهار إلى ذبول أدل على عبث الحياة بالاحياء النامية والعاقلة ، فلماذا يولد الناس للموت •• وتخضر الأغصان للاصفرار • لماذا لا تمتد الحياة من الجميل الى الأجمل ، ولماذا تُوصل البداية الى النهاية المعاكسة ••؟

أليس هذا مأساة ••؟ والحس به صوت المأساة في ضمير الشاعر •• ثم في حروفه المشبعة والمعبأة بالفن •

لقد تميز (اسماعيل المقري) الشاعر اليماني (الشافعي) على حد تسمية الشوكاني — في عصره وبعد عصره بالإدراك الفلسفي لمأساة الحياة ، حتى جدد أنفاسه الشاعر المعاصر (عبد الله العزب) بعد ستة قرون •• وربما كان إحساسه بالمأساة أعمق من (المقري) ، أو أن ثقافة العصر جودت من تعبيره وحسه ، أو لعل الثقافة الزيدية أرهفت مشاعره لكثرة شعرها وشعرائها ، على عكس أتباع الشافعية ، فقد تميز (العزب) بين شعراء عهد النهضة بالإدراك المأسوي والتعبير عن هذا الإدراك •• وقد كان المعروف عن قصائد الرثاء في عهده ، التهويل

من شأن المرثى وتجسيم الفجيعة عليه ، أما (العزب) فاستهل مرثاته في (يحي الارياني) هكذا :

إن ذا المـوت غايـة الميـلاد
فعلام الصـدام في كل وادي
أي داع دعا النفوس الى الحزن
وهـذا ضرب مـن المعتـاد

فلا شيء إلا الحزن المعتاد والموت الدائم فأي إدراك لمأسويات الحياة أكثف من هذا ؟ إلا التمني والإخفاق في المنى ، وهذا ما عبر عنه (العزب) في أكثر من قصيدة كما في قوله :

لـو أن في كفيْ مجـرى الرياح
سيرتهـا وفق الامـور الصحاح
مـا حيـلي إن قصَّـرت مـدتي
يدي وعنـدي يا زمـان اقتراح
أن يعـدم البؤس كأن لـم يكن
وأن يعـم الارض وبل النجاح
وان يكـون الحـظ مستبصـراً
حتى ترى عينـاه أهل الصـلاح
بـاب التمنـي أبـداً واسـع
منذا عليـه في التمني جُناح ؟
قد قال هـذا المصطفى (أحمد)
وقد عجزنا .. والتمني مبـاح

لقد قال الشعراء العرب في إدراك المأساة البيت والبيتين في ثنايا القصائد .. أما الشعراء اليمنيون فكانوا أحس بالمأساة ، وكان أبلغهم

تعبيراً عنها (اسماعيل المقري) في القرن الثامن الهجري •• و (عبد الله العزب) في القرن الرابع عشر ، ويمكن أن (النابغة الذبياني) تجدد في (العزب) •

فكما قال (النابغة) في أخيه وبلائه تحت الارض •• وحزنه عليه فوقها •• فقد أحس (العزب) نفس الإحساس وجدد التعبير عنه في نفس موضوع الرثاء ، وزاد فكرة خلدها في سؤال ، لماذا نموت وتبقى الكائنات الساكنة والدائرة :

رحلتَ وأنت قريب المقر
وغبت وأنت أمام النظر
فبيني وبينك بعد السماء
وبيني وبينك مرمى الحجر
ولدنا لنحيا ونحيا لكي
نموت وتبقى الذّرى والقمر

أي تناه في القرب ؟ وأي تناه في البعد ؟•!

ولعل الرثاء كان أوسع لكبت النفس والبوح بفلسفة الحياة والموت ، لأن البيئة الاجتماعية التي أحاطت بشعرائنا الثلاثة (ابن هُتيمل •• المقري •• العزب) كانت واحدة أو متشابهة على الأقل ، فقد عاش (ابن هُتيمل) في كف العاصفة المتقلبة ، فكان الصراع على السلطة يمتد من الجبال الى المخلاف السليماني، وكان عيش الشاعر من الملك المنتصر، وكان خوفه من هزيمته أكبر من أمله فيه ، فقد كان الأمل معقوداً على الأمراء كما كان الخوف والعذاب منوطين بهم ، لأن حياة الشاعر كانت مذبذبة بين نزوات الغضب والرضاء ••

والمنافسة بين غالب ينتظر الهزيمة •• وبين مغلوب ينتظر النصر •• وكان هذا الجو يحيط (باسماعيل المقري •• والقاسم ابن هُتيمل) على حين اختلفت قليلا بيئة (العزب) فقد كانت شبه مستقرة ، وإن كانت مطوية على احتمالات وعلى تذمر مكبوت •

إلا أن بيئة (العزب) كانت أكثر استرواحاً بأنفاس العصر وأن ربطها ببيئة من قبله ، اللون الديني •• وسياسة الخلافة ، إلا أن عصر (العزب) بدأ يغير مفاهيم العالم ويشير ببعض أصابعه الى اليمن ، لهذا لاحظنا أثر عهد النهضة بما فيها من أقباس جديدة سلفية ، يخضر ويثمر في شعر (العزب) فقد لاحظنا أنه كان متشبعاً بفلسفة (المعري) الى أقصى مدى ، فاذا كان المعري قد قال :

نمـوت كما مـات آباؤنـا　　ويبقى الزمـان على ماتـرى
نهـار يضيء وليـل يجـيء　　ونجـم يغـور ونجـم يُرى

أو قال :

هـذا جنـاه أبـي علـي　　وما جنيت علـى أحـد

كل هذه الأفكار تجددت في أعماق العزب فأحسن هضمها وأجاد الاضافة اليها مضموناً وشكلاً كما يتجلى في قوله :

يا (زيد) مـن أين الطريق الـى
أصولنـا الاولى مـن النسب ؟
لا علم لي كيف ارتميت الى الدنيا
ولم سميت بالعـزب ؟
جئنـا الـى دار الغـرور بـلا
قصـد وتتركهـا بـلا سـبب
وهكذا أجنـي على ولـدي
كمـا جنـى قبـلا علي أبـي

فإذا كان « المعري » يعبر عن التشاؤم بفعل الاضطراب الدامي ، والدسائس المتشابكة في عصره ، فقد عبر « العزب » عن مأسوية الحياة من بدايتها بالميلاد الى نهايتها بالموت ، الى امتدادها من أصل النسب الى أعقاب الأعقاب •• ومن هنا نعرف أن « العزب » كان كثير القراءة للأفكار •• وقراءة الأفكار تولد في الشاعر أفكاراً عن وعي أو غير وعي •• ولعل معاصري (العزب) لم يفطنوا الى معارضته للمعري في « الدالية » واقتباسه من أفكاره • وان كان (للعزب) أقباسه الخاصة•• فالزيت « علائي » •• أما شعلة القبس « فعزبية » يمانية معاصرة ، فكما امتاز (المقري) في القرن الثامن بالمأسوية بين معاصريه ، فقد كان (العزب) أظهر تميزاً بين معاصريه •• وبالاخص اذا عرفنا الشعر الهزلي الذي عاصر (المقري والعزب) •• فقد كان أغلب الشعر الصنعائي في عهد النهضة أميل الى الغزل الغلماني والهزلي ، ولا داعي للتعرض اليه هنا لأننا في جو (عبد الله العزب) الفقيه المحقق والشاعر الحساس •• والمأسوي المتفلسف •• ولعل غرابة تفكيره ومأسوية تعبيره لم تؤثر فيمن حوله ومن تلاه ، فانقطع التعبير المأسوي بموت العزب عام ١٩٤٦ ، وإن لم تنقطع المأساة ، لأن الانسان مأساوي سواء عبر أم لم يعَبر •• ذلك بفعل الصراع مع الحياة والآخرين ، ومن لم يكن مجبولاً على الصراع فهو مرغم عليه ، ولم تتحقق للانسان أمنية ابن مقبل في التخلص من مأسوية الحياة وأهوالها في قوله :

ماأطيب العيش لو أن الفتى حجر ” تمض الحوادث عنه وهو ملموم

وقد تشكلت مأسوية اليمني من ثلاثة مصادر :

الغربة بعد انهيار سد مأرب •

الأحداث غير الهادفة مدة ثلاثة عشر قرناً •

الحس بالبعد عن العصر من أربعينات هذا القرن •

ومن هنا كاد أن يتفرد اليمن بالمأسوية ، إن لم يتفرد كلياً بالتعبير عنها ••

سمات التحوّلات الوطنيّة
على أدب الزبيري «ب»

من بين المذاهب الفلسفية المعاصرة الكثيرة ، مذهبان كبيران :
أحدهما .. انطلاق الانسان من الداخل لاستكناه ظواهر الخارج على هدى الضوء الدخيل فيه ، لأن الانسان عاجز عن قراءة الظواهر الخارجية اذا لم يكن معبأً بالاضاءة الداخلية .

أما المذهب الثاني وهو أكثر صحة ، فيرى أن داخل الانسان خلو ولا يمكن أن يمتلىء هذا الفراغ الا بخروج الانسان عن ذاته لكي يتزود من الخارج ، ثم يرجع الى داخله وقد امتلأ بالمعطيات التي تجلتها الملاحظات .

وعلى دقة المذهبين يمكن الوصول الى فكرة واحدة من المذهبين ، إذ لايمكن للانسان أن ينطلق من الداخل لكي يغترف من الخارج كما لو كان يُفْعِم صفيحة من نهر ، ولا يمكن للانسان أن يخرج ويرجع الى الداخل مثقلاً بعطايا الملاحظات وهدايا الوجود . فالأصح من الرأيين هو وجود قابلية مضيئة تحسن التلقي عن الخارج من الداخل ، وتمتد من الداخل الى الخارج على قناديل من هدي البصيرة .

قد يمكنك أن تتصور جمال الشجرة بالخبر عنها ، والخبر معرفة خارجية ، لكنه يكوّن القابلية لصورة المنظور ، ومن القابلية والصورة تتجسد الفكرة المشتركة بين الرائي والمَرئي . وهكذا كل مايقع على السمع والبصر محتاج الى القابلية ومحتاج الى المادة التي تعطي القابلية فكرة عنها . والتاريخ بمادته الاخبارية والاستنتاجية ، مادة مسموعة مقروءة تتلقاها القابلية المفتوحة، فتستخلص أسرارها وتضيف

اليها سر المتلقي وما عنده من تصور عن كيفية الصورة • وبهذا يصبح التاريخ صيرورة دائمة ، لأن الأمس الذي سجل التاريخ أطل منه اليوم الذي يقرأ التاريخ تحت ضوء مختلف • ومجرد اختلاف الضوء يغير الصورة والتصور ، لأننا اليوم نكتب تاريخ الأمس بدواعي اليوم ؛ وسيكتب الآتون تاريخ الغد بدواعي الغد الثاني ، لأن هناك دائماً غد • وكل ما ابتعد الكاتب عن فترة الأحداث التاريخية زادت رؤيته لها وضوحا ، لقياس الأحداث بالأحداث بفضل ما استجد من تطورات •

بدأ الرومان كتابة التاريخ بعد أن حققوا الانتصارات العسكرية ، وكان المؤرخ الأول « هيرودوت » مجرد مسجل وقائع ، لكن من منظور علمي يستخلص من بعده أسباب تلك الوقائع ونتائجها ، لكي يأتي آخرون وآخرون بنظريات جديدة في التاريخ التسجيلي وفي الاستنتاج الفكري • ومثل الرومان العرب ••

بدأت كتابة التاريخ بعد الهجرة بمائة عام تقريباً ، وكان التاريخ مروياً شفوياً •

وعندما عرف العرب التواريخ المكتوبة كإشارات في آيات القرآن وكأسفار في دواوين الدول المفتوحة ، بدأوا يكتبون التاريخ بعد أن سبقت الكتابة الروايات الشفوية ، والأسمار والأحاديث في قصور الخلفاء والوزراء ، والأقاصيص الوعظية في المساجد• من منتصف المائة الثانية تقريباً • بدأت كتابة التاريخ على يد (ابن الكلبي وابن اسحق)• وقد كان الاول يتّهم بالكذب •ومن مطلع المائة الثالثة للهجرة توالت المؤلفات التاريخية ، وكانت تنحو منحى واحدا هو الرجوع الى بداية الخليقة (آدم) ، وكثر هذا الرجوع تباهياً بالعلم حتى سخر منه (أبو العلاء المعري) في القرن الرابع الهجري :

جائز أن يكــون آدم هــذا

قبــله أدم علــى إثــر آدم

وتوالت كتب المؤرخين إلا أن الواحد كان يغني عن الباقي • ولعل (الطبري) من مؤرخي القرن الثالث ، كان أكثر المؤرخين تنبهـاً إلى ترتيب أحداث عصره كالصحف اليومية في هذا العصر • وعلى رغم تنويعات الأسماء لم يجدّ شيء في نوع المضمون • (فطبقات الفقهاء) على طريقة (طبقات الشعراء) ، و (طبقات الاطباء) على غرار (طبقات النحاة) الى آخر هذه الاسماء لمسمى واحد كما رأى « زكي نجيب محمود » •

وعندما وصل هذا الركام الى (ابن خلدون) في القرن الثامن الهجري، بدأت فلسفة التاريخ أو فلسفة العمران البشري خالق التاريخ• من ذلك الحين بدأ التاريخ الاستنتاجي مــن التاريخ التسجيلي •• فما السبب في هذا على عقم فترة (ابن خلدون) ؟ السبب الأول بُعد زمن ابن خلدون عن زمن الأحداث • السبب الثاني تحسن ترجمة الفلسفة اليونانية ووفرة شروحها لفلاسفة عــرب كـ (الفارابي) و (ابن سينا) و (ابن رشد) ••

ولعل السبب الاول متصل بالسبب الثاني ، فقد نشأ ابن خلدون في فترة منقطعة عن فترة الصراع بين العباسيين والامويين ، وبــين العلويين والعباسيين ، وبين العرب والشعوبيين من جهة أخرى ••

فقد ترعرع ابن خلدون علمياً في اشتباك مختلف عن الاشتباك القديم ، حيث كان الشجار الدموي بين الحفصيين والمرينيين • وكان ميدان الصراع هو المغرب العربي ، وهو أخف اعتزازاً بالنسب وأقل مباهاة بالعراقة وشرف الأصل • على يد (ابن خلدون) ابتدأ التاريخ

الفكري الذي يستنتج سبب الحدث ، ويلمح غايته ويشم أسرار الخبر وأسباب المبالغة في مادته ..

وعلى رغم الانقطاع مدة خمسة قرون بين ابن خلدون وعصر النهضة ، فقد كانت مقدمته نار دليل الباحثين في التاريخ .. فلاحظنا كيف اختلفت (حياة محمد) لهيكل عن (سيرة ابن هشام) ، وكيف اختلف (جواد علي) عن (الطبري) . فما سر الاختـلاف ؟ نفس السبب الذي حدا ابن خلدون لكتابة (المقدمة) : البعد الزمني عن الاحداث ، وفرة الثقافة . فاذا كان ابن خلدون قـد قرأ الفلسفة اليونانية في ترجمة أصح من مقروءات (الكندي) وفي شروح أكثر تفصيلاً واضافة ، فإن المؤرخ المعاصر قد عرف نظريات أثقب رؤية وأطول تجربة ، فعـرف (هيجل) و (ماركس) و (ديكارت) و (بيكون) .

ومن الجانب العلمي عرف (داروين) ونظريته في أصل الانواع و (سانت بيف) في المجال النقدي بامكانيات العلم .. ومثل ذلك (اليمن) . فقد كان التاريخ فيها امتداداً للتاريخ القديم (غاية الأماني في تاريخ القطر اليماني) « البدر الطالع في محاسن علماء مابعد القرن السابع » و (نور العيون في أخبار اليمن الميمون) و (مسك الختام وبلوغ المرام في من حكم اليمن من ملك وإمام) (سيرة الامام الهادي) . وكل هذه التواريخ تعتمد على المادة الخبرية وعلى التسجيل الوقائعي . وأمتد هذا النهج الى (الواسعي) الى (زباره) الى (الجرافي) . فنقرأ لزبارة : (نشر العَرْف في علماء مابعد الالف) و (نيل الوطَرْ في القرن الحادي عشر) وللواسعي (تفريج الغمة والحزن في تاريخ اليمن) . وقد وضعت هذه الكتب في زمن فلسفة التاريخ المعاصر ، وبعد ابن خلدون وهيجل . ولم يستهل تاريخنا مسيرته الفكرية إلا في

أول السبعينات . يتجلى هذا اللون في كتاب عبدالله الشماحي (اليمن : الحضارة والانسان) فهو أول كتاب يستخلص الفكرة من الأثر ويعلل لكل الظواهر التي أرخها . فقد بقي اعتقاد التشيع في اليمن مجهول السبب ، حتى علل الشماحي ذلك باشتراك اليمنيين والعلويين في الحرمان من السلطة وكراهية عنف المتسلطين ..

صدر كتاب الشماحي عام ٧٣ وتلاه كتاب (عبد العزيز المقالح) في الجانب الأدبي ، فكان أكثر أكاديمية وأكثر تقيداً بها لأنه رسالة ماجستير ، فلابد من التزمت الاكاديمي . والقوانين الاكاديمية تصلح أدوات تعريف للقضايا والمواقف ، ولكنها غير أسرار القضايا وأسرار المواقف . فقد تناول هذا الكتاب مساحة زمنية من عام ٣٨ الى ٧٥ من هذا العصر مع الامتداد الى خلفية ، والى استشراف مستقبلي ..

ولعل المقالح والشماحي أحسن مثل لنقاش نقطة البداية في تاريخنا العام والخاص ، الى جانب دراسة في الأدب اليمني (لزيد الوزير) ومن « الأدب اليمني » (قصة الأدب في اليمن) لـ (أحمد الشامي) ، (وشعر الأغنية الصنعانية) لـ (محمد عبده غانم) ، فكل هذه الكتب وضعت بعد ثورة السادس والعشرين من سبتمبر أو في زحام أرهاصاتها ، وكلها تقف من ثورة ٤٨ موقف التمجيد بدون تعليل ، وموقف الاشادة بدون برهنة ، مع أن هذا الانقلاب سقط في سن ميلاده بل في الاسبوع الثالث من ميلاده بالتحديد . ولم يتناول أحد تعليل قيام هذا الحدث وتعليل سقوطه والعوامل المؤدية الى سقوطه .

والسبب في كل هذا التجاهل هو عقم الفترة من الاحداث الخلاقة .

فتقبل كتابنا هذا الحادث بدهشة من يرى الكون لاول مرة قبل أن يتفهم قوانين الاشياء . وهذا في الحقيقة ، تبرير كاف لأن مجرد المحاولة الصادقة لنقل اليمن من الاستبداد الفردي الى الحكم الدستوري ، يستحق الاعجاب والتقدير .

ولكن هل يمتد هذا الاعجاب والتقدير ويحجبان رؤية المعاصر عن المكاشفة والاكتشاف ؟٠

لقد توالى علينا أربعة عشر عاماً تحت علم الجمهورية وعلى أجنحة ريح الثورة ، فلنا كل الحق في امتلاك هذا التاريخ لأنه لم يعد ملك الذين صنعهم أو صنعوه ، وإنما أصبح ملك الرؤية الثاقبة ٠ لأن تلك الفترة ما زالت متداخلة بواقع اليوم بل شديدة الضغط عليه ٠ وفي عطور ذكرى (الزبيري) واشراق مبادئه ، تتلمح سمات التحول على أدبه كانعكاس معقد للتغيرات داخل اليمن وخارجها ٠

وعند أدب (الزبيري) أقدر المفاتيح لأسرار الفترة الممتدة من أول الاربعينات الى عام ١٩٦٥ تاريخ استشهاده ٠ وقبل التورط في أدب الزبيري ، تلوّح الاربعينات بأصابع نارية :

قف من فضلك ٠٠

وتطرح أهم سؤال : من يؤرخ تلك الفترة ؟ الذين انصهروا بها وانصهرت بهم ، أم الذين راقبوها من بعيد،أو الذين جاءوا بعدها لكي يتلمسوا من أين جاءوا والى أين تضرب جذورهم ؟٠

لعل الجواب على كل هذا :

ان البعيد عن الفترة أقدر على تأريخها واستنطاق ظواهرها ، لأن رجال ثمانية وأربعين كانوا ضائعين فيها ، لايقدرون على الرؤية الى بواطنها لأنهم من صنع تلك الفترة وليست من صنعهم ٠٠

فالذين لاحظوا من بعيد أو جاءوا من بَعد ٠٠ هم الذين يعرفون صنع تلك الحقبة وصنايعها من الرجال،لأنهم يمتلكون قياس الأحداث بالاحداث ٠

اليس المراسل الحربي غير المحارب ؟ لأنه يتقصى أطراف المعركة

من نقطة عالية فيجتلي النصر والهزيمة والاقتحام والانسحاب من بُعد، يملك الرؤية ولا يمتلكه دخان المعركة أو دعاويها وادعاؤها • ومثل المراسل الحربي.المحرر العمالي ، فهو الذي يصور جهد العامل وتصاعد انتاج المعمل أو هبوطه ، بينما لايعرف العمال إلا الادارة الفنية التي تحركهم والآلة التي يحركونها ••

اذن فهل شعر الزبيري تاريخ الاربعينات ؟

ان عليه سماتها ولكنه ليس تاريخها •• في شعره الوصف الخارجي لظواهر القضية ، يمكن أن يلوح فيما يلي :

ما لليمانيين في كلماتهم بؤس
وفي نظراتهم آلام
والناس بين مكبل في رجله
قيد وفي فمه البليغ لجام
جهل وأمراض وظلم فادح
ومجاعة ومخافة وامامُ

هذه سمة الحكم •• فكيف انعكست صورة المحكومين على الزبيري • (هذه ملامح المحكومين) :

تا الله مابهم الامام وانما
ولعوا بحب المستبد وهاموا
واذا هوت بين الضلوع بهائم
قويت على حمل العصى الأجسام

هذه صورة الحالة السكونية في رضاء الشعب على الذل وتمادي الحاكم في الاذلال ، لكن هل لهذه السمة سمة خلفية ؟

لم يصل الزبيري الى هذه الهجومية إلا بعد بذل النصح الامين ، واستنفار النوازع الوطنية في نفوس الحكام عن طريق الاماديح ..

قال الزبيري في مقدمة ديوانه (ثورة الشعر) ـ بتصرف ـ أردنا أن نجعل منهم ملائكة اصلاح عن طريق شياطين الشعر .

إذن فقد بدأ الزبيري مسيرته النضالية بالنصح الممزوج بالمديح ، من مثل قوله في الامام يحي :

من نور هذا المحيّا يشرق العيـد
ويعبـق المجـد والعلياء والجود
ما للمحاكم تستفتـي أهلتهـا
وأنت يا سيد الأقمـار موجود

برغم أن هذا مديح خالص وتقليـدي السمات ، ينفخ الممدوح بالغرور إلا أن وراءه نية اصلاح . ولو كان للبحتري والمتنبي نيـة الزبيري ، لحولا المعتصم والمعز وسيف الدولة وكافور الى آلهة ، على تقاليد اليونان في تعدد الآلهة ..

لقد كانت السمة الاولى لقصائد الزبيري هو المدح البليغ القادر على تحويل المستبد الى وطني . لو كان للاستبداد مصلحة في الوطنية، تتجلى سمة ثانية قد تكون تحولية وامتدادية معاً .. في منتصف الاربعينات أوفد الامام يحي نجله عبد الله الى مؤتمر الدول العربية ، بعد قصف القوة الفرنسية برلمان سوريا ، فأعتبر مثقفو ذلك الحين أن مجرد خروج عبد الله .. يغيره نفسياً وينبت فيه الطموح الوطني على مفهوم ذلك الحين . على أن هنا نقطة تستدعي الوقوف ..

لقد خرج عبد الله الى مصر وهي رازحة تحت النير البريطاني، وكانت تناقش في ذلك البلد قضية الاستعمار الفرنسي لسوريا ، فهل

تلك هي السمات الاولى في أربعينات الزبيري ، وقبل أن يأخذني تيار التحولات أقف ملياً على الشاطىء لكي أتنصت الى المنبع الذي جاء منه الزبيري وتحرك فيه •• يرى الدكتور أبو بكر السقاف ، في محاضرته صيف عام ٧٥ بنادي الخريجين ، ان المصادر الفكرية للزبيري ثلاثة : أولاً الاسلام المتجدد ، الثاني مدرسة الحكمة ، الثالث أصداء الثورة الفرنسية في الفكر السياسي العربي • وقد تكون هذه المصادر صحيحة باستثناء مصدر واحد لم يذكره الدكتور ، ذلك هو الشعر العربي بما فيه اليمني ••

فقد كان الزبيري امتداداً متجدداً للبحتري والمتنبي • وكان معارضاً عن قصد لبعض قصائد شوقي من مثل :

(اليوم نلقى بباكستان وادينا) فهي على غرار الشوقية (يانائح الطلح أشباه عوادينا) •

وليس هنا مجال للموازنة على امتداد القصيدتين ، لأن هناك مصدراً آخر يستدعي الوقوف ، ذلك أن الزبيري ألمع رجال مدرسة الحكمة لأنها بدأت الصدور آخر الثلاثينات ، والزبيري خريج محقق وشاعر مشهور في ذلك الحين ، فلم يكن تالياً لرعيل الحكمة وإنما هو من ذلك الرعيل ••

لقد كان للدكتور السقاف فضل إثارة البحث عن بيئة الزبيري محلياً ، قبل أن ألهث في لحاق التحولات ، أقف قليلاً عند البيئات الأدبية في اليمن •

لقد كانت بيئة الزبيري الأدبية من ثلاث بيئات :

واحدة تمد العصر الجاهلي أو ماتلاه بقليل من أمثال (يحي الذاري) (الامام يحي) (يحي الهادي) (حسن السكري) ، وقد

نشر الامام يحيى قصيدة في الدعوة الى الوحدة الاسلامية يدل معجمها على العصر الأخطلي :

مغلغـــلة منشـــورة في المحافـــل

تنـــادي بني الاسلام في كل حافل

وتمضي القصيدة في استخدام غريب اللفظ كشعر (الأخطل) أو (الفرزدق) ، وتستعمل الجناس كشعر العصر التركي • فالكلمة الاولى (مغلغلة) تذكرنا بنونية (يزيد بن مفرغ الحميري) الموجهة الى معاوية:

الا أبلـــغ معاويـــة بن صخـــر

مغلغلة مـــن الرجـــل اليمانـــي

والمغلغلة هي القصيدة العنيفة ذات القوافي الصاخبة كما في (لسان العرب) ، أو الرسالة ذات الأهمية • لكن في القصيدة الامامية جناس العهد التركي كما في قافيتي الشطرين محافل ، حافل ، وهذا هو الجناس الناقص لعدم تساوي الحروف في اللفظتين • وينسب بعض رجال الرعيل الأول هذه القصيدة الى (يحيى الذاري) على لسان الإمام يحيى ، أما حسن السكري فقد كان شعره من هذا الطراز :

لك البقاء وللواشي بنـــا العطب

إذ ليس ينفق في ساحاتك الكذب

فهذه بيئة قديمة السلفية ، قرسطية ، أموية • أما البيئة الثانية فيمثلها أحمد عبد الله السالمي وعبد الرحمن كوكبان ، وهما من مجايلي الزبيري ، ونقيضاه وجهةً وفناً • فقد كانا مادحين للانتفاع وذات المدح ، وكان شعرهما ينتمي الى عصـــور الانحطاط وأن تلامحت الاصالة من تحت الركام الزخرفي • ولعل السالمي أكثر اغراقاً من

كوكبان • فقد نشرت له مجلة الحكمة في عامها الاول قصيدة جناسية مطلعهــا :

دعانى في الهــوى العذرى وشأنى
فمــا أصغيَ الى لاحٍ وشــأني

فهذا جناس تام بين شأني ، خصوصياتي ، وشأني الثاني ، العدو • ويغلب هذا الطابع على كل شعر السالمي ، حتى في الحوار الغزلي • يحشد الحرب والسلام لكي يذكر لقبه أو نسبه (سالمي) من السلام أو من اسم الشاعر كما في النص :

ومليحةٍ قالت وقد رمتُ اللقــاء
من أنت وأعتدلت كغصن ناعــم
ونضت على عجل لحربــي صارماً
من جفنها فأجبت مهلا (سالمي)

أما كوكبان فقد كان أقل جناساً الا أن التصنع ملحوظ وخفي في شعره ، من مثال هذا :

مــا دواء الهمــوم غــير الــراحِ
فاسقنيهـــا بأكبــر الأقــداحِ
خندريسا تنفــى بغــاة همومــي
عن فؤادي بعسكــر الافــراح

فعبارة بغاة الهموم وعسكر الافراح يحول الجو الخمري الصافي الى جو حربي ، كالذي جعل من حبيبته بَرداً وأحجاراً لؤلؤية وأزهار بساتين ، حتى تغيّب العنصر الإنساني بين الأشتات المتنافرة المتجانسة :

فأمطرت لؤلؤاً مـن نرجس وسقت
وردا وعضت على العنّاب بالبردِ

اذن فقد كانت بيئة الزبيري من ثلاث بيئات : القديم الوسيط ، وبيئة عصر الانحطاط ، وبيئة المزيج بين جيد القديم واضافة الجديد . وهذه هي بيئة الزبيري والموشكي والعزب والشاميين والحضراني .. ما دام أدب الثلاثينات والأربعينات من ثلاث بيئات،فلنبحث أدب البيئة الثالثة لانها تشكلت من امتداد القديم والمعاصرة ، وجمعت بين الشكل التقليدي والمضمون الثائر كشعر عصر النهضة والممتد منه في كل الشعوب العربية،وهذا يستلزم التمهل عند الزبيري ورفاقه،ويمكن أن يعتبر ابراهيم الحضراني واحمد الشامي ومحمد الشامي جبهة مناوئة لجبهة الزبيري فنياً وتالية لها بزمن يسير . قبل هذا تتحتم المقارنة بين الفرسان الثلاثة : الزبيري ، الموشكي ، العزب . فمصادر الثلاثة واحدة ، ولكن القمة لخطورتها لاتقبل الزحام ، لانها حادة وكثيرة الرياح . لهذا تفرد بالقمة هؤلاء الثلاثة من منظورات ثلاثة . كان الزبيري ثوري الحس جهير النبرات ، ينطلق الى الشعر من منظور شعري ، يهمه صفاء الديباجة وجدة المعنى أو إضافة جديد :

يا مليـك القريض قـم فتحكّم
وأت ما شئت فالحقيقة أعظـم
هـاك جوا مـن الفضائل رحبـا
فتجـول بـه وطف وتـرنـم
لا تكن في القريض لصا فأن الشعر
وحـي يوحـى ورزق يقسّـم
وبيـان كأنـه راديـون الغيب
تُجـلى أسـراره وتتـرجـم

فهذا انطلاق الى الشعر من الحس الشعري دون قاعدة فلسفية ، وان خطرت الفكرة من حين الى حين بفعل التساوق وتهاتف الخواطر .. فالزبيري كالبحتري ويقرب منه الموشكي ، بأكثر مباشرة ثورية وأقدم معجمية كما يقول في الامام يحي :

ستقرع بعد اليوم من ندم سِنَّا
اذا ما فؤاد الشعب فاض بما جَنَّا
ولبى أباة الضيم أصوات هاتف
بنا أسمعت أصواتها الانس والجنا
ينادي بأعلى صوته قائلا لنا
ألا استيقظي ياأمة اليمن الوسْنى

فقرع سن الندم وجن الفؤاد وأباة الضيم ، والانس ، والجن ، مفردات سلفية يجيش فيها مضمون ثائر ، وان فترت الملاءمة بين عصرية المضمون وفقهية المعجم . الا أن هذا المضمون سيظل يبحث عن أردية أنسب ، وتتبدا هذه المحاولة في هذه القصيدة :

خاف السقوط فلاذ بالتخريب
ملك يعيش على الدم المسكوب
خاف السقوط فقام يرسي ملكه
بالسيف والاغلال والتعذيب
ملأ السجون وصب أنواع البلى
ويريد عرشا حافلا بقلوب
قلب الامور بطونها لظهورها
ويريد ملكا ليس بالمقلوب

فالشكل قريب من الفكرة التقدمية ، إلا أن المضمون في آخر القصيدة يتعثر في المراهقة السياسية . فلم يكن استبداد الامام يحي

وبطشه راجعين الى تقدم سنه . فأغلب المصلحين والثوار بلغوا النضج وحققوا الاعمال المجيدة بعد الستين أو السبعين ، حتى أن الانبياء حملوا لواء دعواتهـم في سن الاربعين ، باستثناء السيد المسيح في الثلاثين .

فكيف رأى الموشكي شيخوخة الامام يحي سبباً في سوء تصرفه. والشيخوخة سن الحكمة وسجل التجارب ، لكن الموشكي يعكس الأمر لأن مهجوه أتى الأمر معكوساً ، فاستعمل تجاربه لترسيخ الحكم عن طريق ظلم المحكومين . ولنقرأ الموشكي :

يحي الامـام وأنت أحرص مالك
أخطأت لكن ذاك شأن الشيب
خصمان قـد هجما عليك بقـوة
ضعف المشيب ووحدة التجريب

هل الخطأ من شأن المشيب ؟ أم مصدره فلسفياً عاطفة الهوى ، وصعوبة المشكلة ، وسوء التعبير ، وغياب التبصر ؟ حتى هذه القواعد الفلسفية الأولية غابت عن بال الموشكي أو غاب عنها ، لانه لم يكن يصدر عن أي قاعدة فلسفية بفعل ثقافته الفقهية . أما الشاعر الذي يصدر عن قاعدة تأملية فهو عبدالله العزب ، لان المعري أعذب مستقياته بدليل المعارضات المقصودة لشعر أبي العلاء .. في رثاء يحي الارياني توخى العزب معارضة دالية المعري :

(غـير مجـد في ملتي واعتقـادي)

الا أن العزب انطلق من تأمل خاص ، لان معرفة الافكار تخلق الافكار ، كما رثى المعري بداليته : الفقيه الحنفي ، رثى العزب يحي الارياني بداليته :

إن ذا المـــوت غــاية الميـــلاد

فعــلام الصـــدام في كل وادي

ويرافق العزب أبا العلاء فكرة فكرة ، فحيناً يضيف وحيناً يسيء الاعادة أو المحاكاة ، وليس هنا موضوع الموازنة بين القصيدتين لان العزب كان يقصد المعارضة كشعراء عهد النهضة وتلاميذهم، ويصدر من قاعدة تأملية ولا أقول فلسفية، لأني أريد الوصول الى الزبيري، لأن فيه من خصائص العزب والموشكي الى جانب خصائصه ، فتفرد بالاجادة من جهة الأفكار الوطنية ، ومن ناحية البناء الفني ، ولكن هذا رأي مؤقت حتى نلاقي جميع أشعار العزب والموشكي كاملة .. من هنا يمكن موالاة الخط ، وقد لاحظنا سمات التحول الوطني من ثلاثة وجوه : النصح ، المدح ، لتحريك نية الاصلاح ، التحميس من ثنايا المدح الرسمي . وقد كانت هذه السمات ممتدة من مطلع الأربعينات حتى ثمانية وأربعين . ولشعر هذا العام بالذات خصائص ثورية ، لكنها لم تتخلص من النسق الأول ، فالى جانب التهجم على الامام وولي عهده فهناك الأماديح الفضفاضة للسيف ابراهيم ، ولكل من ينضم الى تنظيم الاحرار ، أو يمده عن بعد أو قرب ، كما في قصيدة لجازم الحروي :

ألا فليعش في مهجة الشعب (جازم)

فدته : بحبـــات القلوب العوالم

توالت الاربعينات بكل أعبائها ، وكانت التحولات العالمية تصنع الفترة لكي تصنع رجالها ، وتكلل الادب الثائر والجهد الانقلابي بمصرع الامام يحيى، لكي تتولد من هذه النكسة مرحلة سريعـة التحول جديدة السمات ، وسوف تنعكس غالبية هذه السمات على

أشعار الزبيري في الباكستان ، لانه رأى هناك عكس ماشاهد هنا ، هنا سقط الدستور وصانعوه :

أنا شاهدت دفن فرحتنا الكبرى
وشاهدت مصـرع الابتسامـة
ورأيت الشعب الذي حطم القيد
وأبقـى جذوره في الامامـة
نحـن شئنـا قيـامـه لفخـار
فأراه الطغـاة هـول القيـامة

وعكس هذا المشهد ، رأي الزبيري في الباكستان وطناً يحطم نير الاستعمار ، ويرفع راية الاستقلال ، فيحترق الزبيري بنارين : نار الحماس للشعب الذي تحرر ، ونار الندم على الشعب الذي اتنكس من مشارف القمة ، وهنا تستجد على وجه شعر الزبيري سمات جديدة ، الاعجاب بالجماهير كصانعة قدر ومالكة مصير بعكس جماهير صنعاء لكنها في آخر الأمر نفس الجماهير ، وإنما الاختلاف في نوعية القيادات وشعبية أهدافها باعتبار الجماهير في كل مكان سيدة الموقف ومصدر السلطات،لاتقبل الوعود و لاتطمئن الى الشك،ولاتبرر تلفيق الاعذار ، كما يقول الزبيري في سياق تهنئته لمحمد علي جناح :

أمـم الارض لا يرقعهـا الراقع
تـرقيـع ثـوبـه وكسـائـه
والملايين لا تقـر علـى الشـك
ولا تستقـر فـوق هبـائـه
وشعور الجمهور أرقم مـن العقل
ومـن حكمه ومـن حكمائـه

فهذا الشعر ينطلق من قاعدة فلسفية تقدمية ومن علم الثورات ، لكن شعور الجمهور هو أرقى العقول لان العاطفة الوطنية تتوهج على أساس عقلي كما تتألق العقلية الوطنية على أكرم العواطف • اذ لا فاصل هنا بين حكمة العقل واتجاه العواطف المعبأة بالحرارة الشعبية••

لقد جدت هذه السمة على شعر الزبيري بفعل تغير المشهد والتحول الزمني ، لكي تنضاف سمة أخرى تبرعمت عن رؤية فلسفية تجريبية ، ذلك أن المستعمر مهما كانت قوته لا يقهر الشعوب الا بأيدي الخونة من أبناء الشعوب ، كما يقول الزبيري في قصيدته الموجهة الى (عزام):

(عزام) يامن روحـه شعلة
تكشف للشرق دجى خطبـه
انظـر الى الاسـلام ما بالـه
أجمعت الدنيـا على حربـه
وانظر الى الأوطـان منكوبـة
تخبط في الليـل وفي رعبـه
في كل أرض وطـن موثـق
يعيش في القيـد وفي كربـه
قـد عقه" الخارج مـن صلبه
وخانـه النابت مـن تربـه

هذه ألمع سمة في شعر الزبيري بباكستان وهي سمة عريضة ذات شقين : الايمان بالجماهير ، واكتشاف العملاء كأعـداء لشعوبهم وقفّازات لاظافر المحتل •• وهذا بفعل سرعة التحول ورهافة الملاحظة عند الزبيري ، لاستيعاب هذه التحولات واعتصارها أفكاراً ، وتلحينها غناء تئن فيه الغربة بلغة العصافير المغنية وتتأجج فيها الوطنية بدقات النفس الملحنة • حتى لقد تطور معجمه اللغوي بطول ممارسة الشعر

واعتراك نفسه مع التغيرات المعاصرة ، حتى تبدت العبارات التقليدية غير تقليدية لحسن إيرادها في أنسب الأمكنة من البناء الفني من مثل :

ذكريــات فاحت بريّا الجنــان
فسبت خاطري وهزت جَناني
عمـــر" في دقيقــة مستعــاد
ودهــور مطلــة فــي ثواني
فكأن الماضي تأخــر في النفس
أو استرجعت صــداه الاماني

ويتدفق الحنين الى الوطن عبر هذا الغناء الفجري الذي نسجت خيوطه نار الحنين وعذاب الغربة ، حتى انك في غمرة هذا الغناء الناري الندي ، تنسى الجناس التقليدي في مطلع القصيدة « الجنان » بكسر الجيم جمع لِجنّة و (الجنان) بفتح الجيم ، القلب ، لان الجناس هنا غير مفتعل وانما انهمر من نفسه كأنما وقع على لسان الشاعر وقوع العصفور على الغصن . لقد كانت الاربعة الاعوام في الباكستان أخصب فترات شعر الزبيري،من حيث الرؤى الشعرية وعصرية المفهوم السياسي، ومادام الشاعر حياً يتنهد عن صدر أمته ، ويريد لأمه الوطن ، فانه لن ينقطع عن الغناء كما لا يتوقف نهر الزمان عن الجريان والعطايا . وما دامت هناك ثورة فان كل الاماكن قابلة للاشتعال . فبعد ثورة باكستان اشتعلت ثورة مصر واتقدت نفس الزبيري الى الاقتراب من الدار ، وفي مصر أعطى جديد الاحداث ابداعاً جديداً في الفن ، لان تغير المنظورات يغير النظرة ، وتغير النظرة يجدد المضامين الفكرية والأردية الفنية .. هناك على ضفاف النيل استعاد الفارس المجهد أنفاسه النضالية فاستجد عملا الى عمل ، فواصل اصدار (صوت اليمن) من حيث انقطعت ، وعلى أمل أكثر ازدهاراً وشباباً ..

فقد تحرك الركود عن اليمن وارتفع التذمر الذي كان يعتبر بغياً ، وتحول الهمس الى هتاف ثوري توقعه الشوارع تحت أقدام المتظاهرين ، وتصوره قصائد الشعر سراً وعلناً . نعم وعلناً ، فقد كانت الجرائد الرسمية ك (النصر) و (سبأ) و (الطليعة) بتعز تنشر القصيد الثائر الغاضب عن وعي وعن غير وعي ، وكسباً للقارىء أولاً وأخيراً ، هنا طرأت على اليمن من التحولات فوق ما كان ينتظر الزبيري ، حتى أنه كان يقرأ الجرائد اليمنية بالقاهرة في دهشة الحالم المستيقن ، ولا يتحرج عن السؤال : ماذا أرى ؟ هذا الشعر ينشر في اليمن ؟ كنا نقرأ ماهو دونه في أخفى الزوايا وتحت أوهن المصابيح .. فهل كان هذا التفجر مفاجئاً ؟ كان مفاجئاً ومنتظراً . كان مفاجئاً لمن يجهل اليمن أو ابتعد عنها ومنتظراً عند من عارك الواقع من الداخل وراقب انحلال قصور الحكم لاشتغالها بنفسها عن نفسها وعن الشعب.. فقد بدأت القصور تتصارع من حركة خمسة وخمسين التي أسقطت (الجبار أحمد) خمسة أيام وأسقطت (عبد الله) الى الابد ، وأطفأت الشعلة الحماسية مؤقتاً ، لكي تتقد من تحت الرماد فتمد ألسنتها ذات مساء. في الخمسينات غنى الشاعر الزبيري لثورتين : للثورة الناصرية العربية ، وللثورة اليمنية المنتظرة ، وانعكست هذه التحولات على شعره ، فبعد أن ألح على الشعب بالايقاظ ، أخذ يرصد هذه اليقظة ويسجل تحركاتها :

الملايين العطاش المشرئبة

بدأت تكتسح الطاغي وصحبه

وهنا يدخل الشعب منطقة الثورة ، ويدخل معه الزبيري منطقة اليقين الثوري كما سماه ، لكي تستجد سمات مختلفة على تفكير الزبيري وتعبيراته ، فينتقل من الشعر الثائر الى التنظير الثوري كما في

كتابه (مأساة واق الواق) الذي دعى فيه الى جمهورية ديمقراطية بعد رحيل مضن في قلب النار وعلى سواعد الرياح..وفترات الارهاص وفيرة الاحتمال ، لان بريق الامل يحشد أعداد الآملين ، كلٌ يبحث عن طريق الزعامة والبحث عن الزعامة ، من غير طريقها الشعبي ، يؤدي الى التشرذم قبل الاجتماع ، والى الاقتتال على الغنائم قبل الحرب . وقد انعكست هذه السمات على شعر الزبيري :

ألمح الشعب قابعاً يدرس الثورة
كيما يأتــي بأخـرى جديـدة
يتحرى الاخطـاء يغفر للاحـرار
أخطاءهـم ليبقـوا جنـــوده

وقد كانت دواعي هذه السمة متألبة من الداخل ومن الخارج فقد تجنح الاحرار في القاهرة ، الى عدة أجنحة . بدريين ، نعمانيين ، بيضاويين ، زبيريين – غالبيتهم من الطلاب . فتلح هذه الحالة على الشاعر أن يسجلها (الى الغاضبين علينا) :

أيهـا الغاضبون من ثقـة الشعب
بنـــا والمؤلبـــون علينــــا
أيهـا المرهقـون يأسـاً وغمـاً
وانهماكاً في هـدم ما قـد بنينا
أيهـا الزاعمـون أنا احتكـرنا
دعوة الحـق وحدنا وانزوينـا
ما احتكرنا نضالنـا بـل دعونـا
فرفضتـم أن تفهموا ما عنينـا

هالكـــم صبرنا علـــى كل خطب

فوقفتـــم مـــن ذعركم ومضينا

وهذه أغرب سمة لخروجها عن الخط النضالي والبياني . فقد كان الصراع المحتدم بين الثوار على اختلاف مستوياتهم وبين الامام ، والآن أنبتت الارهاصات ميداناً جانبياً كما تقول قصيدة الزبيري وهي تدعو الى وحدة المناضلين كما تسجل أسبقية الشاعر وتنظيمه أو جناحه الصغير الجديد . وفي غمرة هذه الجانبيات والاساسيات انفجرت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر كذروة سامقة لكل أوجاع المخاضات وافراز التحولات .. هناك بدأت في السجل الكبير صفحات مختلفة . صراع بين الثورة والثورة ، بين الثورة بكل أطرافها وبين ذيول الملكية وذيول أذيالها . ولقد وصلت أسبقية الزبيري الى مكانها اللائق ، فأصبح مسئولاً في حكم الثورة معارضاً لاخطائها من الداخل ، ثم مـــن الخارج حين لا مناص مـــن الخروج لمحاولة اسكات الحرب ووصول الشعب الى الحكم . وكانت السنوات السابقة للثورة حبلى بمختلف الأجنة . وفي وقت واحد تفجر الميلاد بلا دليل نظري يشكل القاسم المشترك بين القوى المختلفة . ودخان الحرب يزيد من تعتيم الجو وتهييج الاطماع .. لهذا جنح الزبيري الى الشعب في المناطق الريفية كامتداد لخطه القديم وان اختلفت الجبهة المستهدفة . وكانت أكبر آمال الزبيري أن تشب الثورة في سلام ، وأن تسكت الحرب لكي يرتفع صوت الحرية وصوت الارادة الشعبية ، فيحل الحوار العقلي محل الحوار الناري ، فينعكس وجه القضية بفعل رصاصة خائنـــة أخمدت فكر الزبيري من القلب لكي يطبق نظريته الشعرية :

بحثت عن هبـــة أحبوك يا وطني

فلم أجـد لك الا قلبي الدامي

لقد مات الزبيري في مطلع ابريل ٦٥ أعظم موت • ولكن سقوط أعالي الشجر لا يميت الجذور والجذوع • لقد سقط أخصب غصن غرّيدٍ ولكن الشجرة لن تموت ، لان السرمدية ميدان الشعوب •

مجلة الجيش العدد ٨٤ ابريل سنة ١٩٧٧

*   *   *

الزبيري مُعارضًا

تعوّد فن الكتابة في بلدنا شدة السرعة وفجاجة العاطفة وسرعة الحكم عن طريق فجاجة العاطفة .. والسرعة في الحكم العاطفي، كالسرعة في سياقة السيارة، قد يقتل السائق المسرع انسانا أو حيوانا، وقد يقتل الكاتب المسرع حقيقة، وكلاهما قتل من جراء السرعة .. ذلك في السياقة .. وبفعل سرعة ذاك في قيادة القلم ..

ولقد اهتمت كتاباتنا بالشهيد (محمد محمود الزبيري) أكثر من سواه، لأنه شهيد، ولأنه من شهداء الماضي القريب، والماضي بطبيعته مَهْرب من الحاضر، والميت أقرب من الحي (لأنه كان)، وأصبح مأمون الخطر، فصار يقصد البعض باحياء الميت إماتة الحي، حتى أن بعض كتابنا رفع الزبيري فوق مستواه .. وحمّل أشعاره فوق ما تحتمل من التفسير والاحتمالات .. لكي يجيء المتكاتب الاخير يرفع الكاتب المبالغ فوق (الزبيري) الذي تجاوز به حدود شخصيته وفنه، ونحن اليوم أحوج ما نكون الى الموضوعية لكي نتنفع بكتابة الآخرين وننفع بما نكتب، وسيقتصر هذا الموضوع على الزبيري معارضا (أي حال كونه معارضا)، لأن المعارضة سمة عريقة في الزبيري، مدح الامام يحيى وعارضه .. ومدح ولي العهد وعارضه .. ولما بدأ الثوار التخطيط للثورة، بدأ يعارض الزعامة

المنتظرة قبل أن تحكم كما في قصيدتي (الى الغاضبين علينا) و (كفر وايمان) •

وبعد قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر أصبحت كنية الزبيري (أبا الأحرار) كما أصبح وزيرا للتربية ، لأن هذا كان منصبه في حكم الدستور عام ٤٨ م وترقى من وزارة التربية الى عضو بارز في المكتب السياسي ، إلا أنه لم يكن عضوا في قيادة الثورة لكثرة القادة وقلة الثورة ، ولظروف معروفة • ومن منتصف عام ٦٣ م ، أعاد سيرة المعارضة وواصلها بشكل مختلف ، حتى استشهاده في يوم واحد ابريل ٦٥ م • فلماذا اتنهج الزبيري المعارضة في هذه الفترات الأربع المتتابعة المختلفة وجوها ووضعا ؟•

من السهل أن نصف الزبيري بأن المعارضة صفة فيه ، ولكن ما هي الأسباب ؟•

هل نقول أن معارضته في عهد الامامين ترجع الى أسباب تقدميـــة ؟•

ومعارضته للثوار المنتظَرين ، ثم الثوار الحاكمين ترجع الى أسباب رجعية ؟•

من اليسير جدا أن نقول فلان رجعي وفلان تقدمي ، ولكن الأمر العسير اكتشاف نوع التقدمية ونوع الرجعية •• ونوعية التقدمية هناك •• ونوعية الرجعية هنا وأسبابهما •• وبالأخص اذا كان المتهم بالتهمتين أو الحقيقتين مناضلا مثقفا لا يلتزم إلا عن اختيار ، ولا يتحول إلا عن دافع موقفي • اذن فليست العبقرية الكتابية هي كيل المدح أو وزن الذم ، وإنما استجلاء الحقائق والبرهنة عليها واكتشاف الأسباب والتدليل على منشئها نفسيا وزمنيا ••

لقد قال الكثير من الكتاب المصريين أن العقاد رجعي ، ولكن هل يكفي أن نقول فلان رجعي ونمر ، وبالأخص كالعقاد والزبيري •فان أمثالهما وأمثال تحولهما أدعى الى الدراسة المتقصية للأسباب المؤدية•وقد اخترت العقاد مقارنا للزبيري لاشتباههما واختلافهما •• كان الزبيري شاعرا سياسيا وكاتبا ، وكان العقاد كاتبا كبيرا وشاعرا ، وكان العقـاد حزبيا كما كان الزبيري حزبيا ، وكان العقاد تحوليا في سيرته السياسية كما كان الزبيري تحوليا في خطه السياسي • كان العقاد أكبر كاتب وطني في صف الغالبية الشعبية (الوفد) ، إلا أن وفديته انتهت بموت (سعد زغلول) عام ١٩٢٧ • وكان الزبيري (أحراريا) من عام ١٩٤٤ الى ٤٨ وان ربطته صلة بالاخوان المسلمين أعداء العقاد • وكان العقاد (سعديا) من آخر الثلاثينات حتى ١٩٤٨ ، وكان الزبيري (اخوانيا) عاطفيا من ٤٩ الى ٥٣ ، وكان النزوع واحدا عندهما هي الشخصية القيادية • كان الزبيري اخوانيا عاطفيا اعجابا (بحسن البنا) عدو العقاد ، وكان العقاد وفديا عمليا ونظريا اعجابا بشخصية (سعد زغلول) ، وكان الزبيري اخوانيا شبه تنظيمي اعجابا (بسحمد علي جناح) أو كانت ضرورة الالتجاء دواعي الإعجاب، ثم تحول العقاد الى السعديين اعجابا (بمحمود النقراشي) ، وكراهية «للنحاس» • وان كان (الوفـد) أكثر وطنية والنقراشيين أكثر تعـاملا مع « الانجليز » ، فقد كان العقاد يمضي الى الخلف ، أو كان يتراجع سياسيا ، ولكنه كان يزداد توسعا في الثقافة والتأليف • وبالعكس الزبيري ، فقد تحول من الاخوانيين الى التقدميين الثوار بعد ثورة « مصر » حتى قيام ثورة سبتمبر في اليمن • ومن عام ٦٣ بدأ الزبيري يتزعم المعارضة ضد الثورة •• فهل هناك أسباب جامعة لهذا التشابه بين الاديبين المصري واليمني ؟•

هناك تشابه ، وهناك فروق بطبيعة التشابه . كان العقاد وفديا لأن (سعد زغلول) لقبه كاتب الشرق الحر ، وكان الزبيري أحمديا سنوات ، لأن الامام يحيى وصفه بالفقيه المخذول ، على حين قلده ولي عهده أحمد إمارة الشعر :

قلـدتني لقبـا أزهو بـه طـربا
إني على الشـعر نهـّـاء" وأمار

أكـاد من لقبي زهـواً أطـير بـه
لو أن قومـاً على ألقابهم طاروا

إذن فالجامع بين أحمدية الزبيري ووفدية العقاد هو الحس بالعظمة الشخصية والاعجاب بمن يعترف بها ، وقد كان « النحاس » نحو العقاد كالامام يحيى نحو الزبيري ، إلا أن محمود النقراشي زعيم السعديين عرف اعتداد العقاد بشخصه وثقافته .. كما عرف الأمير أحمد اعتداد الزبيري بشاعريته وثقافته ، وقد انتهى العقاد الحزبي بنهاية النقراشي عام ٤٨ .. على حين واصل الزبيري النضال الوطني والانتماء الظاهري . وهنا تستوقفني نقطة : هي حزبية الأديب .. فانها تختلف عن حزبية السياسي ، لأن الأديب أو بعضهم صنيع لحظات وقل منهم من يقبل الاندماج في غمار الأفراد بفعل حس العبقرية . اذن فقد جاء نزوع المعارضة في الزبيري من الحس بالعظمة الشخصية يعززها الشعور الوطني . على أن صفة المعارضة قابلة للتحول من طور الى طور .. ولكن دون تحول الاساسيات ، فليست هناك صفات ثابتة في أي عظيم من الساسة أو الأدباء .

لقد كان (عمر بن الخطاب) يمتاز بالرجولة قبل إسلامه ، ثم تحولت الى صراحة وجرأة في ظل النبوة ، ثم الى شدة في الحق

على النفس وعلى الناس في عهد أبي بكر وعهد خلافته ، فقد تطورت الصفة الى صفات على واحدية الأساس . ولا شك أن (نجيب محفوظ) الروائي قبل الثورة غيره بعد الثورة ، لأنه تحول الى مؤرخ شعب عرف عظمته فسجل مواقفه النضالية من خلال أبطال الروايات التقليدية والتحليلية والفلسفية . ومثله الزبيري . لقد كان في عهد الامامين ثائرا في شكل معارض ، ومعارضا في شكل ثائر ، كان له شكل المعارض لأنه ناضل بالكلمة لا بالسلاح ، وله حس الثائر لأنه أشاد بمنفذي الانقلاب بالسلاح . أما في العهد الأحمدي فقد كان ثائرا على الزعامة الإمامية ، مدافعا عن زعامته المنتظرة ، أمام الزعماء المنتظرين ، حتى تزعم بعد الثورة جبهة المعارضة الى استشهاده ...

فمن أين تأتت فيه طبيعة المعارضة ؟. لقد أشرت الى أن الحس بالعظمة والشعور الوطني سبب واحد أو سببان ، فربما كانت الوطنية سبب المعارضة .. وربما كانت المعارضة موضوعية الوطنية .. فاذا كان العقاد قد قال في البرلمان : (يجب سحق أعلى رأس في البلد ، يريد الحد من حرية الدستور) ، فقد قال الزبيري :

ان القيود التي كانت على قدمي

صارت سهاما من السجان تنتقم

فالشعور بالعظمة عريق في نفس الزبيري مهما ارتدى التواضع والعادية . وهذه أدلة هذه العظمة في شكل فخر وحماس :

خرجنا مـــن السجن شُمَّ الأنوف

كمـــا تخرج الأُسْدُ من غابها

أليس هذا تعبيرا عن العظمة المعززة بثقافة الفخر الشعري ، وحتى عندما سقط الدستور وصانعوه عبر الزبيري عن هذا الحس بالعظمة في قصيدة (مصرع الدستور) :

ورأيت الشعب الذي حطم القيـد
وأبقى جـذوره في الإمـامـه
نحـن شئنـا قيـامـه لفخـار
فأراه الطغـاة هـول القيـامه

إذن فليس هذا الاعتداد الشخصي من قبيل الخاطر الشعري وإنما هي فكرة أساسية بدليل وفرة التعبير عنها في عشرات الأبيات وفي مختلف الأوقات •• فهل كان الزبيري يريد رئاسة الجمهورية بعد الثورة ؟ ولم لا •• هل كان يريد رئاسة الوزراء ؟ ولماذا لا يريد ، وإلا فلماذا اتنهج المعارضة ؟•

هل كان يريد السلام للشعب بدلا من الحرب ؟••

لقد كانت الحرب مفروضة على شعب يريد السلام كما يعرف الزبيري •• اذن فهل هي طبيعة المعارضة امتدت فيه أو انبعثت من جديد ؟• مهما تكن الاسباب فان معارضة الزبيري غير مبررة ، لأنها أعلنت نفسها في زمن الحرب ، وهو زمن غياب الديموقراطيات •

إذن فهل كانت هناك تقاليد ديموقراطية تمنهج الحكم وتبيح حرية المعارضة ؟ .الى الآن لم تتوفر التقاليد الديمقراطية بأشكالها المعروفة من تنظيمات وانتخابات ••

إذن •• فلا تسمى معارضة الزبيري بمفهوم علم السياسة معارضة لغياب الديموقراطية وانعدام البرنامجين في يدي السلطة والمعارضة •• فهل يسمى نهج الزبيري أخيرا مقاومة ثورية ؟••

لقد كان ضد الأعمال الدموية ، بل كان داعية سلام •• إذن لقد كان يحاول الزبيري تأسيس مبادىء ديموقراطية ينشأ عليها الحكم والمعارضة بمفهوم معاصر حتى سقط شهيد المحاولة •• جزاه الله أجر العاملين العظماء • فلقد حاول عن صدق وكانت النية النقية والوطنية الحارة وراء كل أفكاره وأعمدة راية نضاله ، والخطأ من لازم أي عمل على أن يشكل تجربة اللاخطأ •• لقد كانت حياة الزبيري نقية من المطامع الشخصية بدليل أنه لم يخلف ثروة تذكر ، ولقد كان طموحه مشروعا لضخامة رصيده النضالي ورصيده الثقافي ، وسنه المجرب • وكل ما وقع فيه من المزالق فهو نتيجة صعوبة الظروف وغيمية المناخ أمام الممارسة • فلم يتكشف وجه الخطأ من وجه الصواب ، ولو امتدت مدة الزبيري لأعطت إضاءة أكثر ، لأن معارضته أو مقاومته كانت في عتمتي الاستبداد والغربة وتحت دخان الحرب الثورية •• وبهذا يصعب الحكم على خاتمة شوطه مهما قدم طول هذا الشوط من اضاءة الدليل ••

من هنا يجب اتخاذ الزبيري موضوع دراسة متأنية باعتباره مناضلا وطنيا عن اختيار ، وشاعرا وطنيا عن التزام •• لهذا يجب تقصي نوعية التقدمية في نضاله والالتزام في أدبه ، والتحولات في مسيرتي نضاله وفنه •

صحيفة يونيو الاسبوعية ــ العدد ١٧ ــ مارس ١٩٧٧

شاعر الوطنية الأول

زاهر صلاح عطشان

قال أبو عمرو بن العلاء : « لو وصلت اليكم أشعار العرب ، لوصل اليكم علم كثير » • والعرب هنا هم الجاهليون •• لكن السؤال ما اقتران العلم بالشعر ؟• وأي علم يريد أبو عمرو ؟• إنه يريد علم الأنساب وعلم تواريخ الوقائع • وهذا ما فاض به الشعر الجاهلي • فبمقدورك أن تقرأ ملامح أيام العرب ، وصور حروبهم وبعض ظواهر نفوسهم من ثنايا أشعارهم ، حتى أن بعض الأبيات الشعرية تقدم الحدث بواقع الحدث ، ومن الأبيات ما يصلح عنواناً لفصل من التأريخ • مثلا على ذلك قول امرىء القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما
نُحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

فهذان البيتان يصلحان عنواناً لحادثة مقتل الملك « حِجْر » والد امرىء القيس ، واستنجاد امرىء القيس بقيصر الروم • ذلك لأن شعراء الجاهلية كانوا ينتهجون الواقعية الحرفية ، فيطرحون الحدث في إطار من الفن الشفاف الموحي أو في دائرة من التخيل الهادىء الذي يجسم الصورة ولا يبعدها ، ويلونها ولا يخفيها تحت

زركشة الخيال ، فعندما قدم لنا « المنخَّل اليشكري » نفسه في حالتي سكرها وصحوها ، طرح نفسه كما أحسها وكما يمكن أن نحسها من خلال تعبيره البسيط ومن خلال تجربتنا :

فاذا انتشيت فانني رب (الخَوَرْنَقِ والسَّديرِ)
واذا صحوت فانني ، رب الشُوَيْهَةِ والبعيرِ

أي تعبير أشف من هذا على حالتي النفس : حين تغيب في السكرة ، فتتخيل لصاحبها عظمة الملك ، وحين ترجع الى صحوها ، فتجد صاحبها قائد البعير أو راعي الشاة .

هذا مجرد مثل من الشعر الجاهلي الذي أرخ الأحداث ، وقدم صورة المجتمع كما هي في واقع الوجود ، وكما هي في واقع الفن .

وعلى هذا فقد كان الشعر الجاهلي علم تأريخ وعلم أنساب ، وصورة حافلة بما تحرك على الأرض من حروب وصراع بين القبيلة والقبيلة ، أو بين الفرد ورغباته : هذه هي ميزة الشعر الجاهلي . وقد تتلمذت الأجيال الأدبية المتعاقبة على شعراء الجاهلية ، إلا أن الشعر العربي بعد الجاهلي تلقح بالأدب الفارسي ، فدخلت عليه عناصر المبالغة وفنون التصنع البديعي . وتفنن الشعراء في المبالغات لسبب واحد هو وفرة المادحين وكثرة الممدوحين . فكانت المبالغة المقبولة والمرفوضة موطن السباق ، والدليل على سر التفوق . وبهذا فسد الشعر العربي أو كاد ، أو اختفى منه العنصر العلمي على الأقل ، نتيجة ابتعاده عن الواقع وإغراقه في تخيل أقرب الى السخافة منه الى الفن . فقد كان البرق عند امرىء القيس يشبه مصابيح راهب

قل فيها الزيت ، لكنه تحول عند الشاعر العباسي الى شعل من الخناجر تدمي جلود السحاب وتحولها الى زئير من الرعود ، الى آخر ما هناك من المبالغات التي تخفي الصورة وتضع مكانها تصوراً لا يدل ولا يوحي .

إذن .. فقد كان أبو عمرو بن العلاء صادقا حين سمى الشعر الجاهلي علماً لأنه نقل الينا حوادث العصر واشتباك السيوف ومعارك النفوس . لأن هذا الشعر كان يعتمد على الحس الفطري وعلى اللمح التعبيري الدال ، وعلى لمحات من الخيال المقتصد الذي يضيء الصورة ولا يبعدها ، ويلونها ولا يخفيها . واذا بحثنا عن مثيل لهذا الشعر العلمي فلا نجده ، إلا في المتون العلمية أو في الفن الشعبي ، على اختلاف اللغتين . ولعل الفن الشعبي يشبه الشعر الجاهلي من ناحية اعتماده على الواقعية الحرفية ، وعلى التسجيل الأمين لما وقع في المجتمع أو جال في النفس . والقصد بالشعر الشعبي هنا هو المعبر بلغة الشعب ، أو هو نقيض الشعر الرسمي الذي يفكر تفكير القصور ، ويعبر بلغة القواميس .

ونحن الآن بين يدي شاعر من أعلى طراز ، لأنه أرخ زمنه بأحداثه الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية . وعلى جودة شعر هذا الشاعر ، فقد يبدو من المغمورين ، إما لعدم اهتمام الدارسين بشعر الشعب ، أو لأُميّة المجتمع الذي نشأ فيه الشاعر ، أو لتلاحق الأزمات التي تنسي المجتمع أكبر المهتمين بقضاياه . وقد كان شاعرنا « زاهر صلاح عطشان » مؤرخاً وشاعراً . مؤرخاً لاتصال شعره بالأحداث والأطوار . وشاعراً لوفرة شعوره وقدرة تعبيره على استيعاب ما وقع عليه حسه أو ما وقع في علمه ..

نشأ زاهر صلاح عطشان في منطقة كوكبان أواخر القرن التاسع

عشر ، وساعدته مهنته كبناء على التنقل في كل منطقة من مناطق اليمن ، فاستوطن الروضة ، وأقام في (آنس ويريم) الى جانب الرحلات التي يستدعيها العمل في أي مكان ، كما تدل أشعاره .

وبعد شهرين في الروضة بلاد العنب

بالله يا طير سلم لي على كوكبان

وبعد هذا نسافر في دواخل رجب

يريم وإلا بلاد آنس وإلا خبان

وبهذا التنقل زادت خبرته بأحوال المناطق واختلاف عاداتها أو تقاربها. وبهذا توفر حسه الاجتماعي لأنه كان دقيق الملاحظة واسع الاهتمام. وقد عايش هذا الشاعر المعماري فترة تمخضات عنيفة ، وأحداث تحولية شدت انتباهه اليها ، فاشترك حساً وعملا في صنع هذه الأحداث وتسجيلها بأمانة المؤرخ وحساسية الشاعر واهتمام الوطني الصادق . ولعل فن البناء أعداه فن الكلمة المقولبة الى جانب أصالة شعرية ملأت جوانب نفسه . فلشعره هندسة معمارية لا يشبهه فيها أي شاعر شعبي ، ذلك لأن البناء نوع من الشعر الصامت ، ولأن الأحداث هندسة نفسية شاعرنا ، وأنطقت فنية الكلمة أسرار شاعريته ، كما سوف يحدثنا شعره :

الله لا زاد بلَّك يا زمان « النَّفَر »
مطر مطر فوق أموات كِنْ ما به مطر
ما بش ذري ما يسوّوا بالجرب والبقر
القضب خيرات والفرسك وقات العقر
ما غير كعكة شعير أو دخن ساع القمر
ومن لقي حفن حمرا نيته ناهيه

* * *

الصبح نسرح وتروح مع القافله

هيا « مثنى » وهيا « سعد » يـا « واصله »
ومـن يغـلس تعشـت لحمـه السـايلـه
مـا عـاد يفيد الفقيـه يحيى ولا « كامله »
وبالعشـي نفقـد الجـاهل أو الجـاهلـه
مـا حد درى من هو القـاتل أو القـاتله ؟!
وبعـد يـومـين نلقى اليـد أو الحـافيـه

* * *

يـا أهل صنعـاء وقالوا أنتم أهل الفضَلْ
وعنـدكم بر عـامي مـن أكـل لـه أكـل
أم التجـارة يفتـوا بالسـمون والعسـل
وعنـدنا الجـوع ، سعر الراس معبَّر عطل
يا ناس مـا هي شجـاعة من قتل لِـه قتـل
نشـقى ونعـلف وباتِقبـل سـنه ثانيـه

هذه القصيدة حافلة بكل ما عرفه زاهر عطشان وتأثر به من مجاعة عامة ، لم تقلل منها السحاب المغدقة والأرض المخضرة . فهذه الفترة تكاد تكون ممسوحة من تاريخنا المكتوب والمروى ، لو لم يسجلها زاهر عطشان في هذا الشعر الجيد . فقد اكتفى المؤرخ عبد الواسع الواسعي في كتابه تاريخ اليمن بوصف هذه الفترة بأنها سنة شديدة « عز فيها الطعام على الخلق » ، ولم يشر الى أن المجاعة أدت الى أكل الأطفال ، كما سجل عطشان .

والملحوظ أن قصيدته تناولت قضايا هامة تتصل بالاجتماع والاقتصاد معا . فقد عرف الشاعر مدة زمنية تواصل فيها هطول الامطار ، والشعب لا يملك حبة البذر حتى ينتفع بالارض المروية :

مـا بش ذري مـا نسوي بالجِربْ والبقر

وبانعدام « الذري » أو البذر على لغة المعجمات ، تنعدم الغلة وتعشوشب الأرض . لكن ماذا يأكل الناس ؟ لقد عبر الشاعر أدق تعبير عن انعدام الخبز في تشبيهه العضوي البيـــاني :

مـــا غير كعكة شعير أو (دُخن) ساع القمر

وفي المقطع الثاني سجل الشاعر أهم حدث أوصلت اليه المجاعة ، وهو أكل الأطفال ، فقد أشار الى هذا الحادث المفجع أروع اشارة :

وبالعشـــي نفقـــد الجـــاهل أو الجـــاهلـــه
مـــا حد درى من هو القـــاتل أو القـــاتله ؟!
وبعـــد يـــومـــين نلقى اليـــد أو الحـــافيـــه

فمن من المؤرخين صور لنا هذه الفترة ؟ عندما كان يختفي الطفل أو الطفلة ويبحث عنهما أهلهما ولا يجدون بعد يومين الا اليد أو جلدة القدم التي عبر عنها الشاعر بالحافية . هذه المجاعة الطاحنة لم يهتد اليها قلم المؤرخ بالتفصيل ، وانما أبدعت مشاهدها المخيفة شاعرية زاهر عطشان . وقد تدرج الشاعر في قصيدته تدرجا فنيا وحسيا كما لو كان يعمر داراً ، فكل كلمة وكل مقطع في المكان الملائم كأحجار البناء بالضبط . فبعد أن طرح سبب المجاعة وهو انعدام البذرة ، رتب عليها نتيجة تتلخص في أكل الأطفال ، وخوف الرجال من غوائل الطرق ، حتى أنهم يذهبون جماعات ، ويرجعون جماعات ، ومن تأخر عن بيته أكلته السايله ، ولا ينفع بعد هذا كتاب الفقيه (يحيى) ، ولا زوجته (كاملة) .

بعد أن يفرغ الشاعر من فضاعة المجاعة في الريف ، يلتفت الى المدينة ويسألها عن فضلها ، وصحة دعواها هذا الفضل ، وهي تأكل

البر والسمن ، والناس في الريف يأكلون الأطفال ، وينحرون الحياة حتى وصل سعر الرأس (معبر عطل) :

وعنـــدنا الجـــوع ســـعر الراس معبر عطـــل

فأي نمط فني أدق من هذا ، لأنه رتب الأحداث . فانعدام الذري سبب في المجاعة ، والمجاعة سبب في الخوف ، لأنها تؤدي الى السطو والاستلاب ، وبهذا يرتفع سعر كل شيء ، ويصبح الانسان أرخص الأشياء ، وبالأخص في زمن انعدام الحكم ، وتغيب الانضباط، كالفترة التي كابدها شاعرنا مع جيله الجائع المستباح . أليست هذه الدقة في تصوير شاعرنا تعطي عن أحوال تلك الفترة علما كثيرا ، وتأريخا مفصلا لا تجده في التاريخ ، ولا أشار اليه المعنيون بالتأريخ ، الا كحدث عادي موصوف بالشدة ، فهذه القصيدة لزاهر عطشان هي أول وثيقة تاريخية لسنة المجاعة التي يسميها الأجداد والجدات (سنة النفر) ، ويكتفون بهذا الوصف . لكن زاهر عطشان فصل في قصيدته كل ما حدث في سنة النفر وربما كانت سنوات . أما متى تقع هذه الفترة أو هذه السنة فلم يشر اليها عطشان ، ولا حددها المعمرون ، لكنها على وجه التقريب احدى سنوات الربع الأول من القرن العشرين . بدليل أن زاهر عطشان يؤرخ أحداث تلك الفترة باهتمام ودقة ، فقد أشار الى صلح (دَعَانْ) الذي حدث عـــام ١٩٠٥ م وتجدد عام ١٩١١ م من نفس القرن :

قالوا سبر صلح (دَعَانْ) فيه سدوا رجال
ومـــا درينـــا عـــليش تمـــوا ، وكيف المقـــال
مـــا غير ليش مـــا يسدوا قبل بدع القتـــال ؟
عليش سرنا وجينـــا في السبـــال والجبـــال ؟
لا ســـيرتك ما تفيـــدك : مـــا يضر الجلوس

فقد كان عطشان أحد القادة أو الجنود في معاركنا ضد الأتراك ، بدليل انتقاد صلح (دعان) ، فهو هنا لا يسجل صلح دعان كما سجل فترة الجوع . وانما يقف هنا موقف المنتقد على الصلح ، فما دام هو الغاية فلماذا اشتعلت الحروب وسقطت الرؤوس ؟ ولماذا لا يكون الشعب المضحي على علم بتفاصيل الصلح ؟ ولعله يرى أن الشعوب اذا حاربت تستفيد بالنصر أو بالهزيمة ، لأن النصر يعرّفها أسباب قوتها ، والهزيمة تعرفها أسباب ضعفها لكي تقوى . أما الحرب التي لا تنتهي بنصر أو هزيمة فهي تترك أحقاد الخصومة ، ولا تعطي حلاوة نصر ولا تجربة هزيمة :

ما غير ليش ما يسدوا قبل بدع القتال
عليش سرنا وجينا في (السبال والجبال)

هذا المقطع يعرفنا بالفترة التي عاش فيها الشاعر ويكشف لنا رأي الشعب في الحرب والصلح ، لأن الناس الفطريين يتقاربون في الرأي ولا يختلفون كالمثقفين الذين تختلف آراؤهم باختلاف مستقياتهم الثقافية . فعندما نعرف رأي فلاح بدقة فقد عرفنا رأي كل الفلاحين ، فلم يكن زاهر عطشان الا التعبير عن تفكير الاغلبية في ذلك الحين ، ولعل الحين الذي عاش فيه الشاعر كان أحفل العهود بالقضايا والأحداث . وزمن الأحداث يحول الزارع أو الحاطب الى رجل سياسة أو مهتم بالسياسة لحدة حساسية الأحداث وحرارة الانفعال بها ، فكما عبر عطشان عن رأيه ورأي مجتمعه عن صلح (دعان) ، أرخ مبايعة الامام « يحيى » وكيف كانت وقائعها . فلا يكاد أكثرنا يعرف كيف كانت طريقة مبايعة الأئمة ، وكيف كانت تتم بمبايعة عشرين فقيه قحطاني وسبعة من الهاشميين . ولم يحدثنا

المؤرخون عن سر هذه الطريقة ، وهل السر في كثرة العدد من الفقهاء القحطانيين يرجع الى كثرتهم ، وقلة العدد من الهاشميين يرجع الى قلتهم ؟ أم أن ذلك يرجع الى تخوف الأئمة من طموح الهاشميين واطمئنانهم الى الفقهاء • لعل كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت المبايعة على ذلك الوجه ، كما صورها زاهر عطشان :

حسين وسبعة وعشرين بايعوا للامام
عشرين قاضي وسبعه من بني المسيده
وأصبح الجوخ قالوا فوق يحيى كلام
وزاد بَرعم عمامه مثلما المكرده
ونصَّروا أهل صنعاء ، واحجروا في شبام
واليوم قالوا مدافع والبلاد مُفسده

لقد بلور الشاعر صورة الموقف كما حدث ، وكما تمخضت عنه الأحداث • فبعد تتويج الامام يحيى تمردت المناطق ولم تخضع إلا ببقية المدافع التركية • إلا أن المؤرخين الرسميين لم يشيروا الى هذه الأحداث إلا كتشنيع ديني على الخارجين على إمام الحق كالعادة في كل الانتفاضات التاريخية • وإنما اكتفوا بالاشارات الى حروب الامام مع الإدريسي ومع الانجليز ، وما تمخض عن هزيمة الادريسي من أحداث عام ١٩٣٤ م في تهامه ، وعلى هذا فقد كان شاعرنا زاهر عطشان ممتلىء النفس بالحس التاريخي والحس الشعري • فكما كان شعره تأريخا فقد كان تأريخه شعرا حلو التوقيع ، شهي الأنفاس • وقد كشفت لنا النصوص السابقة ملامح كثيرة من وجوه قضايا زمنه • وهذا يوصلنا الى اكتمال الصورة من فنه التسجيلي • فقد اشتهر في زمنه بشهرتين ، الشهرة الاولى : صحة تنبوءه بما

سيحدث • والشهرة الثانية : قدرته على سحر النساء بتأثير الشعر • ولعل الشهرتين ترجعان الى شعره • فقد تنبأ بعد خروج الأتراك من صنعاء برجوعهم وهزيمة جيشنا • ودلت الأحداث على صحة تنبوءه • وبعد رواية النص يمكن تفسير تنبوءه وعلى أي أساس بناه :

بايخرج التـرك مـن صنعـا وبايـدخلـوا
ويرجعوا لا « شهـاره » بعـد مـا أقبـلوا
لاحت بوارق (منـاخه) غـير مـا خيـلوا
قـد قربـوا كل طبشـي والرجـال حمـلوا

فكيف حدثت هذه الواقعة ؟ وكيف بنى عطشان تنبوءه ؟•

لقد دخل الامام يحيى بجيشه مدينة صنعاء ، وبعد يومين قصفتهم المدافع التركية من (عصر) ، فألجأت المدينة الى الفرار ، وتراجع الامام بجيشه الى (شهارة) ، هذا ما حدث عام ١٩٠٩ م ، فكيف عرف عطشان حدوث هذا ؟• عرفه عن طريق انسحاب الأتراك الى (مناخه) وعسكرتهم فيها ، حتى وصل (سعيد باشا) بنجدة كبيرة عن طريق الحديدة ، ثم عاودوا الهجوم على صنعاء من جديد كما قال عطشـان :

لا حت بوارق « منـاخه » غـير مـا خيـلوا

فقد كان تجمع القوة في جبال حراز يدل على أن الذي حدث للأتراك انسحاب لا هزيمة ، وقد عرف من في صنعاء التجمع لكنهم أخطأوا التقدير ، كما يخطىء مخيل البرق على أي جهة نزل المطر •

وأترك مؤقتاً جودة التعبير الشعري ، لأن المضمون هنا أهم من الابداع الفني الذي امتاز به زاهر عطشان •

الى هنا سجل عطشان عدة قضايا ومواقف : صلح دعان ، واعتراض الشعب عليه • مبايعة الامام يحيى ، وكيفية انتفاض المناطق واخضاعها ، صورة الحرب مع الأتراك الى جانب الحدث الاجتماعي الهام الذي أكل الناس تحت وطأته الأطفال ، واستهانوا بالحياة تحت مرارة اليأس والأزمات ، وتحت الفراغ الهائل من أي انقاذ أو تدخل لجلاء الأزمة أو تخفيفها •

ويبدو أن هذه الفترة أسوأ ما مر بمجتمعنا ، وان كان الجوع مألوفا في كل عام ، إلا أنه لم يبلغ الغاية التي بلغها في زمن عطشان وفي صورة شعره •

يبدو أني بعدت عن الشهرة الثانية التي شاعت عن شاعرنا • فقد اشتهر بصحة التنبؤ ، وحاولت تفسير هذه الصحة استنادا الى شعره ، والى تقديره ما سيحدث على ضوء ما حدث ، وعلى تفهم الظواهر وما وراءها من حقائق •

بقيت الشهرة الثانية وهي سحر النساء ، فكيف ذاعت هذه الشهرة لشاعر مغموس النفس في قضايا المجتمع ؟ لعلها ترجع الى مقطوعة من شعره يمكن أن تعطينا السر :

والله لوما حيا بوها وعاد أمها
لاطلع عليها قصيدة ذي تقع سمها
قالت معي أهل عسره • قلت : ما شمها
شموم مشقر ولا عين الى كمها
للبنت سبعين ناموس والرجال نومَسه

وهذا النموذج الرائع يشير الى أن لصاحبنا سلطة على النساء عن

طريق الشعر ، لكنه يشير من ناحية ثانية الى شهامته نحو المرأة ، وابتعاده عن التهالك فيها ، بدليل أنه يحترم موقفها ويعتبر لها سبعين ناموس ، وللرجال ناموس واحد ، والناموس هو الشرف أو العِرْض .

للبنت سبعين ناموس والرجال نومَسه

هذا التعبير يكشف لنا عن الخبرة الاجتماعية للشاعر ، فانزلاق المرأة في الخطأ وصمة على الأب ، والزوج ، والأخ ، والجار . فموقع المرأة أكثر حساسية من موقع الرجل كما يعبر عطشان :

قالت معي أهل عسره . قلت : ما شمها
شموم مشقر ولا عين الى كمها
للبنت سبعين ناموس والرجال نومَسه

إذن .. لا يعطي هذا النص مبرراً لاشتهار شاعرنا بسحر النساء ، وإن كان النص السابق ينم عن صحة تنبوءه . لكنه تنبوء الفهماء لا حَدْس العرافين الغيبيين ، لأنه كان يستشف ما يحدث على تجربة ما حدث .

يبدو أننا فرغنا من شاعرنا المؤرخ لنبحث عن العبقرية الفنية لشاعرنا . وأهم مميزات هذا الشاعر على الشعراء الشعبيين ، ان القصيدة عنده تنمو نمواً عضوياً ،ويتواكب النمو العضوي،والتصاعد الحسي . ولنضرب المثل بهذه القصيدة النابعة من مرارة الواقع المعيشي :

يا ليلة القدر كم سرتي وجيتي بلاش
وما لقينا زيادة في (الغنم) و (الخِباش)

أبصرتي البيت مذبب (والكتن) في الفـراش
فسـرتي الـدور حيث (المرقحـة) والرياش
كان اقتـلى (أحمـد الرامي) لأجل القراش
والا سرحنـا (سـمارة)لَعْنبو مـن جلس

فكيف تصاعد الحس وتنامت العضوية في هذه المقطوعة ؟! لقد تلاقى النمو الكياني ، والتصاعد الحسي من دائرة الحكاية المعروفة عن ليلة القدر • فحكايتها عند الناس العاديين أنها تتوهج كالبرق ، وان من يراها ويطلب حاجته تلبيه على الفور • ولكن زاهر عطشان ظن ليلة القدر تركت بيته وبيوت أمثاله لاحتقارها ، واستقذارها ، ومالت الى دور النعمة والنظافة • وما دامت لا ترحم الفقراء فيمكنها أن تعطف على البقر ، فتقتل طاعونها المشهور والمسمى بأحمد الرامي في مناطق الفلاحين •

بعد هذا المقطع يأتي مقطع ثان يعرفنا بمهنة الشاعر وهو فن البناء • وقد كانت هذه المهنة شحيحة لقلة القادرين على البناء ، وكثرة المتفوقين في هذا الفن من اليهود ، لهذا صاح عطشان بهذا التمني :

السـاعة أشـواق لـو تخرب بيوت « الدَّبا »
أو لو يزيد « ابن مفلح » سقف فوق الجبـاء
أو ليتنـا مـا نريـد الـزاد مثـل الظبـا
أو مثـل الأشجـار لا تأكـل ولا تشـربا
يـا رحمتي للرعيـة كـل « عُقْبي » يبس

أليست هذه المقطوعة أصفى مرآة للنمو العضوي في شعر عطشان ؟ وتلاقي هذا النمو مع التصاعد الحي والتدرج الفكري • تمنى أن تخرب بيوت (الدبا) ليعمرها ، وتمنى ثانيا لو يزيد « ابن مفلح » طابقاً جديداً الى القديم ، وبعد الحس بالخيبة تمنى أمرّ تمنٍّ :

يا ريتنا ما نريد الزاد مثل الظباء
أو مثل الأشجار لا تأكل ولا تشربا

أليست هذه الصيحة نهاية الخيبة ؟ نعم هي نهاية الخيبة ! ولكنها قمة الحكمة حتى وان نبعت من حس المجاعة وحرمان الطلب • ألم يكن وضعنا على هذا الشكل هو سبب سقوطنا ، كما قال الفيلسوف الصيني (ليون يو ثانج) •• أكبر عيوبنا أننا خلقنا مجوفين نضطر الى امتلاء أجوافنا ، حتى أن جلسات الأمم المتحدة ومجلس الأمن تصمم من بدايتها لكي لا تصطدم في النهاية بمواعيد الأكل !•

لقد عرف شاعرنا قبل الفيلسوف الصيني أن بطوننا أسباب سقوطنا اذا جعنا ، وأضيع أوقاتنا اذا وجدنا الأكل ، وأي وقت أتفه من مواقيت الأكل والشرب والنوم ؟ وعلى هذا فزاهر عطشان يمتاز بميزة ثالثة وهي التفكير الفلسفي ، على رغم فطريته وقلة رصيده الثقافي ان كانت له أي ثقافة • فشعره يدل على أنه يملك عنصراً ثقافياً تأريخياً قد يكون سماعياً ، بدليل اشارته الى حضارات اليمن القديمة كما في قوله :

أيام كانت « لمارب » والحواجز سدود
« وقصر غمدان » يضوّي لا بلاد الهنود
وفوق « يَحْصُبْ » ثمانين سد مثل الحيود

فلعل هذه اللمحات من المعرفة ركبت فيه الحس التاريخي ، فأراد أن يؤرخ عصره الى جانب تفكيره في بواطن القضايا المعيشية .. فكما امتاز بتسجيل الأحداث وقوة الحس الشعري ، امتاز بالتفكير في سبب عذاب الانسان وذله . فتمنى لو أن البشر كالظباء ، ولما عرف أن الظباء ترعى وتشرب ، تمنى لو أن البشر أشجار بلا أجواف ولا فروج .والى جانب أن هذا فكر فلسفي فهو يعرفنا بصحة حسه الجمالي. فأي شيء أنظف وأجمل من الشجر الصبور على الرياح والأمطار والفئوس والطيور ؟! إن الأشجار أجمل صور الطبيعة الصامتة ، لأنها تبذل الثمر والأنغام والعبير والظل وهي بريئة من عيوب البشر ، لأنها تحبل بلا قذاره ، وتلد في نظافة رائعة البهاء . لم يخبرنا عطشان عن هذه المظاهر ، وإنما أشار وعلينا أن نلمح مرامي الاشارة وأبعادها .

لقد أبعدتني عمق الأفكار عن مسايرة النمو العضوي في شعر عطشان ، والتصاعد الحسي في تركيب الصور وانبثاق الصوت . فيمكن أن استدرك في هذه المقطوعة ما فاتني من التكامل الفني . وهذه مقطوعة غزلية . والشعر الغزلي ــ على قلته عند شاعرنا ــ أنم على الحس الشخصي لأنه من نبع العواطف الخاصة . فكيف تغزل عطشان ؟ :

يا قادحه فوق وادي (جَبْر) يا قادحه
اسقيني ، اسقاش ، قالت : ماشنا طارحه
تعال من فوق راسي ، غير قيام ، سارحه
أسقاش ، وأرواش ، وايش الاسم ايش ؟ صالحه
شربت ،ما كنت عاطش ، عطشتي بالحه
ما هو عطش ماء ، و لاقهوه . عطش صالحه

يبدو أن النص غني عن الغوص في أسراره وعن اللمح الى التدرج الفني مع التصاعد الحي ، فقد رأينا كيف نادى ، وكيف أجابت حاملة الجرة ، وكيف تعلل بالقرب اليهـا بطلب السقيا ، وكيف تمهل لكي يقلب عينيه في بستان وجهها ، وكيف استعجلته للشرب من الجرة التي على رأسها حتى لا تضيع وقتها في طرحها • وبعد ما فرغ من الشرب ، أفصح عن تحايله البريء وعن عطشه الى حاملة الجرة لا الى الجرة • وهذه المقطوعة كسائر شعر (زاهر صلاح) من المخلوقات الفنية الرائعة ، جاءت روعتها في التنامي العضوي والتصاعد الحي ، والتدرج الفكري • فهو يرتب أفكاره وتعابيره ترتيب من يعرف من أين يبدأ وأين ينتهي وكيف يقولب العبارة على حسب المكان الذي تقع فيه • وهذه الميزة الفنية لا تتوفر للشعراء الشعبيين مقدار توفرها لعطشان • فما أكثر ما تجد التفكك ومجازفة التعبير في الشعر الشعبي لتقليديته للمشهورين وبكل موروث واعتيادي •

أما عطشان فقصائده تنشأ نشأة كيانية لها بداية وأوسـاط ورؤوس كالمخلوقات الرائعة أو كالنحت الفني البديع • وربما جاءته الميزة الفنية من ذوقه المعماري ، ورهافة الحس الاجتماعي وذكاء الملاحظات الوطنية • لهذا توفرت لزاهر عطشان أمانة المؤرخ ، وأصالة الشاعر المبدع ، ودقة الحس الاجتماعي والتاريخي • فلا تقرأ له نصاً إلا وهو على لسان الجماعة ، لأنه عبر عن مجتمعه لا عن ذاته ، كما تشهد المقطوعات التي اقتطفتها من أشعاره ، فنحن نقرأ شعره اليوم للاستفادة التاريخية ، وللمتعة النفسية ، وللاهتمامات الاجتماعية • لأن شعره تاريخ فترة لا تقل عن أربعين عاما ، وصورة مجتمع احترق بالأحداث واختنق بدخانها • فقد عرفنا في شـعر

عطشان شدة المجاعة في زمن الخصب ، وصورة المجاعة في زمن الجدب ، كما استشفينا ملامح الأحداث السياسية في صورة الحرب مع الاتراك ، وفي قضية مبايعة الامام والتمرد عليه في بداية الأمر ، وعرفنا كيف حدثت هذه القضايا ، وكيف فكّر فيها ابن الشعب ، وكيف عارض وقبل . ومن هنا نستدل آن مجتمع زاهر كان نابه الحس حاد اليقظة ، إلا أن الأزمات كانت أكبر من طاقته عليها . وكل هذا استخلصناه من قصائد الشاعر الذي يبحث عن ناقد يجلو أسراره ويستخلص ما دار في حياته ، لأن حياة هذا الشاعر أساس لحياتنا لقربها منا وامتداد جذورنا فيها . فبمعرفة أشعار عطشان نعرف معارك جيلين . لأن الجيل الذي بيننا وبينه كان امتداداً لجيله ، ونحن امتداد للجيل الذي تلاه ، وان كانت الأحداث والثقافات قد غيرت كثيراً من مفاهيمنا ، إلا أن أصولنا ما تزال محكمة الاتصال الى جيل شاعرنا والجيل الذي بيننا وبينه .

ومع هذا الفاصل الزمني والبشري بيننا وبين الشاعر ، فان الشاعر يفكر كتفكيرنا ويحس كإحساسنا ، وربما كان أحس منا بقضايا مجتمعه وأرهف تأملا الى الحياة من حوله وقضايا الأحياء في زمنه . ومن الأسف أن يعتبر الوصول الى شعر عطشان من قبيل الاكتشاف الأدبي ، أو من قبيل الجهد المضني في البحث والتذكر لسماعيات الصبى ، مع أنه شاعر منا ومن ثمار عصرنا . ولعل بين اليوم وبين موته عشرين عاما أو ثلاثين عاما ، وربما لا يزال حيا في إحدى الزوايا اذا كان من المعمرين . إلا أن الأغلب على الظن أنه قد مات . فلو كان حياً لتألقت أشعاره تحت أضواء عهد الثورة كما تألقت أشعار (سحلول) و (الذهباني) و (الكبسي) و (الجبري) وغيرهم من الذين تبنت تناجهم ثورة الشعب ، وكان لهم في زمن الشعب مكانة الشاعر

الرائد • فلعل خمول عطشان يرجع الى تبكير نبوغه ، وميلاد قصائده قبل الاهتمام بهذا اللون الرائع من الأدب الذي ينبض بحياة الملايين ويبوح بأسرارهم ويتشكل بلغتهم اليومية وأحاديثهم العادية • ولولا خصائص فريدة في شعر زاهر صلاح عطشان لما كانت قصائده اليوم في متناول يد أحد ، ولكن سر النبوغ كسر الذهب لا يختفي وان طال تغيبه ، وليست قصائد عطشان الا السر الذهبي الكامن في معدن النفس اليمنية • فبفضل قصائد عطشان عرفنا من التاريخ ما ضيع التاريخ • وتجلينا من قضايا الشعب ما بعد عن قصائد الشعر الفصيح ، بتزمت تقاليدها وقاموسية لغتها ، وابتعاد شعرائها عن القضايا اليومية نتيجة لتقليد السلف ، واعتبارهم ان الشعر لا يصلح إلا للموضوعات الجاهزة ، كالمدائح والرثاء وأشباههما •

لكن زاهر عطشان كان يتمتع بروح معاصرة ، فوصل تفكيره الى قضية المواطن العادي والى الاحوال المعيشية للشعب ، والى الظواهر السياسية التي سادت عصره ، فكانت قصائده أهم فصول تاريخنا المعاصر ، وأعلى قمم شعرنا الشعبي من ناحية الفن ، ومن ناحية الاهتمام الاجتماعي ، ومن ناحية الوجدان الوطني • فهذا شاعر متكامل الحس ، يمتاز بالحس التاريخي والهموم الكبيرة ، والفنية المعمارية في بناء الدور أو في بناء القصيدة •

مجلة اليمن الجديد ــ العدد (٥) ــ أغسطس ١٩٧٢

صورة الاحداث اليمنية في مرايا شعرية

عندما ينفجر الحدث السياسي في أي مكان تتلقاه المجاميع الشعبية بثلاثة مفاهيم ، على اختلاف ثقافات الجماعات وتجاربها وإدراكها للأبعاد القريبة والنائية : فالجماعة الكبرى المستقلة تتلقى انفجار الحدث بالبشائر والزغاريد ، اذا كان رد فعل لوضع سيء ، لأنها تعتبر أن الحدث جاء بالبديل الأفضل من البديل السيء ، وهذا أهم عبء على أكتاف صناع الحدث . فان المجتمع يرى في صنعهم البديل الأفضل . والمختلف كليا عما سبقه ، أو المنهي لكل ما كان سيئا ، واذا لم يحقق الحدث وصناع الحدث البديل الأفضل كانت خيبة الجماعة بمقدار الأمل : أما جماعة ثانية ، فلا تستعجل بالأمل ولا تتسرع الحكم في الحدث وصانعيه لأنها تقيمه من خلال مفجريه ، فتتساءل عن أبطال الحدث ، ما مواقفهم الوطنية ؟ ما انجازاتهم الاجتماعية ؟ ما ثقافتهم ؟.. ما سوابقهم في الميدان الوطني ؟.. ومن خلال هذا التساؤل تعرف الحدث عن طريق معرفة مفجريه .. أما الجماعة الثالثة فلا تتفاءل بالحدث ، ولا تتساءل عن سوابق عامليه ، وإنما تكوّن رأيها فيه عن طريق معرفة المواقف السياسية والارتباطات قبل تفجير الحدث ، فتحاول أن تستجلي الاصابع الخارجية التي حركت الحدث ودفعته الى عامليه أو دفعت عامليه اليه ، ويمكن أن تسمى هذه الفئة بالتنظيمات السرية أو العلنية ، فهي تشتم أصابعا

خارجية أو تفترض وجود هذه الاصابع ، عن طريق معرفتها لأبطال الحدث وهويتهم المعلنة أو المظنونة ، وعن فهم سياسة العالم المعاصرة . وقد تربط الحدث بزمنه وما نجمت فيه من ملابسات لان زمن العمل ، الدليل على وجهه الخفي وظواهره المرئية ..

ومهما اختلفت الآراء في الحدث السياسي ومهما تعددت النظرات اليه والى صانعيه ، فان مجرد حدوث الانفجار السياسي بداية تحول اجتماعي مهما كانت مؤثراته ، ودليل على حيوية الشعب مهما كانت أسباب ذلك الحدث والعوامل التي تآزرت على إبرازه ، فلا يمكن لأي حدث مهما كانت هويته أن يتبرج للنور إلا بفضل إرادة الشعب وتطلعه الى جديد . فمهما بلغ الأبطال والسلاح من القوة فانهم لا يتحركون أو يحركون شيئا إلا بالاعتماد على تذمر الشعب من وضع سيء ، ورنوه الى بديل أفضل ، هذا هو اعتبار هذه الفترة من تاريخنا للأحداث ومفجريها ..

فمن أين وصلت هذه التقويمات الى هذه الفترة ؟ لقد استقتها مجامعينا من سياسة العالم وأحداثه ومن موروثاتنا التجريبية . فكلما انفجرت في بلادنا من أحداث معاصرة سجلته أشعارنا كمؤرخة ونظرت الى أبعاده كمفكرة :

عندما أشعلت بلادنا الحرب النضالية على الأتراك ، من بداية هذا القرن حتى الثامن عشر منه . سجلت الأشعار كل الوقائع تسجيلا تاريخيا وتسجيلا فخريا ، في أمثال هذا الشعر « ليحيى الشامي » :

ولما تواقفنا بباب (شرارةٍ)
وللنصر تغريد هناك وترتيل

وثبنا على الباشات وثبة جحفل
جريء عليه من سنا النصر إكليل

وعادوا عليهم وصمة الخزي ميسم
وعدنا لنا هول عظيم وتبجيل

وهذا النوع من الشعر وفير يعكس فترة الصراع بين ارادة شعبنا في التحرر وبين الاحتلال العثماني • واذا كان بعضه تسجيل وقائع وحماسة حربية ، فان بعض أشعار تلك الفترة أشارت ببعد نظر الى الحادث وما كان يمكن أن يترتب عليه من رخاء وطني وكرامة اجتماعية ، وهذا ما نلحظه في هذه المقطوعة « لسعيد السحولي » وهو يناقش الوضع برنو الفيلسوف وهجس الشاعر وتشخيصه للكائنات النباتية والمعمارية :

يا صباح الخير يا برقوق (حَدّه)
قال لي بالخير ياصبح المودة

قال من أين ؟ وألقى في يدي
عشر حبّاتٍ وحييت بوردة

قلت من صنعا : فقال انتصرت
قذفت عنها الطرابيش بشدة

قلت شابت ثم بالأمس صبت
كابنة العشرين وهي اليوم جَدّه

فلوى الغصن وجر المجتنى
من بناني ورنى نحوي بحِدّه

قــلت يــا برقــوق أيــام مضــت

وغــدٌ آت ومـــا لليـــوم رِدّه

فالشاعر هنا يسجل الحدث النضالي ويمتد الى بُعد الحدث .. فيلمح الخيبة في الحدث على عكس المنتظر : –

قلت مــن صنعــا : فقــال انتصرت

قــذفت عنهــا الطــرابيش بشــدة

قــلت شــابت ثــم بالأمــس صبت

كابنــة العشرين وهيَ اليوم جَدّه

فقد شابت بلادنا تحت كابوس الاحتلال العثماني واستعادت شبابها بالنصر ، ورجعت الى الشيخوخة بعد الخيبة من نتائج النصر ، التي تعبت الى طوالعه أنظار الأمل . فالسحولي هنا يصور ملامح أبعاد الحدث عن طريق تسجيل الحدث ، وعن طريق الجدلية ، بينما كان وما ينبغي أن يكون ، على اعتبار أن انجازات الحدث أهم من وقوعه ، استجابة لنداء الآمال الاجتماعية . واذا لم يحقق مطالب الجميع أو الغالبية فلا قيمة لحدوثه مهما كان الحدث بداية تحول .. فقد سجل شعرنا المعاصر خط نضال شعبنا مع الأتراك واستكنه أبعاد الخيبة من الأحداث حين أصبح انتصار الشعب غنيمة رجل واحد هو الامام يحيى . لهذا استمر النضال ضد مغتصب انتصار الشعب من منتصف الثلاثينات تقريباً حتى انفجر انقلاب ثمانية وأربعين . وكان شعرنا قد بلغ في تلك الفترة سن الرشد فلم يعد يعنى بالحدث إلا كوسيلة تغيير اجتماعي . وقد تلقت أشعارنا انقلاب ثمانية وأربعين بحساسيات مختلفة ، كان الجمهور الأعظم الى جانب الامام يحيى كحارس أمين للاستقلال وكقائد تحرير من « الأتراك » ومناهض

للاستعمار الانجليزي في جنوب الوطن • وكان أغلب مثقفي تلك الفترة الى جانب حكم الدستور ، كصناع له أو داعين اليه أو آملين في النفع منه • وقد انعكست كل هذه الحساسيات على أشعار تلك الفترة ، وأجهر صوت مبشر هو صوت « محمد محمود الزبيري » :

سـجل مكانك في التـاريخ يا قـلم
فهـا هنـا تبعث الأجيـال والأمم

هنـا القلوب الأبيـات التي ائتلفت
هنا الحنـان هنا القربى هنا الرحم

وقد اشتملت القصيدة على ثلاثة أفكار رئيسية : التبشير بالعهد الجديد ، التنديد بالعهد المولي ، تصوير النضال الذي كان من ثمرته ذلك اليوم المشهود • فقد سجلت قصائد الزبيري وأشباهها الحدث التاريخي كبداية تاريخ مشرق ، وسجلت قصائد أخرى ذلك الحدث كظاهرة مشئومة كما في قصيدة (حمود دولة) : ـ

يا ليت شعري من الآتي ومـا الخبر
هذا هو النحس إن كانوا قد انتصروا

والقصيدة تشتمل على ثلاثة أفكار رئيسية : تمجيد الامام يحيى كرجل مكتمل الشروط الاربعة عشر المقررة في كتاب شرح الأزهار لصلاحية الامام • الفكرة الثانية ، التنديد بالانقلابيين • الفكرة الثالثة ، استنفار أنصار الامام القتيل • وقد كان كل هذا الشعر مصوراً للحدث ، مغضيا أو متغاضيا عن أبعاد الحدث أو احتمالات النكسة • وقد كان الرد على هذا الشعر كله قصيدة وزعها

الامام أحمد استنفارا للثأر وتشويها بالانقلابيين وتكثيف صورة مأساة الامام وبنيه وحفيده كما تقول القصيدة : ــ

نفــس جــودي بعبــرة وعــويــل
واشــرحي كيف كــان حــال القتيل
قتــلــوه وانهـــم تــركـــوه
تحت شمس الضحى وريح الأصيل.
قتــلــوا الأب والحفيــد وثنّــوا
بينيــه يــا بئــس فعــل الــذليل
انهــا فتنــة ســتقضي عليهــم
وعلى دُورِهــم وتــلك الطــلول

وقد كانت جماهير القبائل والجيش جواب نداء هذه القصيدة • فسقط الدستور وصناعه والداعون اليه والآملون فيه • وقد أدى هذا الحدث واتكاسه الى ثروة شعرية عنيت باستشراف الأبعاد أكثر من تدوين الأحداث • ولعل أهم قصائد تلك الفترة أربع من الشعر الحميني والفصيح وقد حملت هذه القصائد أسرار النفس الشعبية بغض النظر عن المنتصر والمنهزم • وأول هذه القصائد قصيدة « محمد أحمد الحَجْري » استنكر فيها نهب صنعاء من قبل جيش الامام أحمد واصابة البريء بذنب الجاني : ــ

للــورتــلاني والعــراقــي يــد
قــد وقعــا في يــدك الطــائلة
اخــذت مــن حاكوا بأوزارهــم
ما ذنب ســوق (الملــح والسائلة)

أثـاث صنعـا ما رمـى والـدأ
ما روع الأطفـال والعـائلة

واتتهى الحجري الى لمح أبعاد الحدث ، فاستجلى مايأتي مـن خلال ما أتى : —

وكل ما كـان هـو المبتـدى
اخبـاره مضمـونة واصـلة

فهذا البيت من القصيدة يربط بين الحدث وبين مايليه من أحداث ، لان وقوع المبتدأ في مسائل النحو يستدعي وجود الخبر . ورغـم التصنع النحوي فإن لمحات الذكاء أجلى من أن تخفى . فقد اعتبر الحجري ان حادث ثمانية واربعين بداية احداث لان المبتدأ يستدعي الخبر . ومثل الحجري « علي بن الامام يحي » في رثاء اخيه المطهر . فقد تصور وصور تتابع الاحداث المشئومة من منظور رسمي : —

بعـد يحي ثـم يحي والمطهـر
فتح البـاب الذي بالامس أنذر
فإذا قلتْ (سحـاب" صـائفُ)
قال لي (حِزْيزْ) هذا أول الشر

هذه صورة ثمانية واربعين في اللمحات الشعرية التسجيلية ، لكن القصيدة الثالثة أكثر توضيحا للفروق الاجتماعية بين بؤس القرية ورفاهية المدينة . وقد سجل هذا الشاعر « عبد الله أحمد عامر » أحد كبار تجار صنعاء في ذلك الحين : —

لك السلامـة سقيت الخصم كأساً يعـافه
بالرغم سفّه ودنْ

أخذت بالثأر فوراً بعـد تلك الزفافه

والسّيف احْجر ورنّ

اعطف علينا كما (دشمان) دخل بالجلافه

ومفرسـه وزن طنّ

خرب وشلّ القلافد « والضّمار » لا مسافه

وزاد رجـع للكنن

حـمّا على « الطاس والجرجيك » قد هي خجافه

حين يخرجين للكتن

والطرحة « البرم » و « المرشوش » عليهن أسافه

فوق « السليط » والدكن

فهذه القصيدة احفل سجل بمأساة صنعاء المنكوبة بنهب عساكر الامام ، وباحوال الفلاحين الذين ألجأتهم ضرورة البؤس الى نهب إخوتهم في المدينة عند أول فرصة . ولكن القصيدة تدل على صنعانية شاعرها ، وعلى طبقته المتعالية على انسانية الفلاح . فهي لاتراه جديراً بالثياب النظيفة الأنيقة والترف المدنى . لكن هذه القصيدة تشكل شاهدا على الفروق الاجتماعية والمعاشية بين القرية والمدينة بغض النظر عن الحدث ، والمتصارعين على قيادته . واذا كانت قصيدة عبد الله عامر تنم على التعالي والتميز ، فان قصيدة قَبَلية تناقضها عن وعي أو لا وعي . وقد كانت القصيدة القَبَلية كرد على القصيدة المستغيثة للامام احمد ، الا أن الشاعر القبلي لايهتم بمنتصر أو منهزم وانما اهتم بترجمة الحس القبلي في فترة « بين دولتين » كما يقولون ، قبل أن تستقر الاوضاع فيصبح هو غنيمة المنتصر المتولي : ـ

حـين قالوا هيّا شـرق يا قبيلي

قلت هيّا مرة وهاتـي صميلي

أصبحَت بـين دولتين اغتنمهـا
شَوري اليوم شور والقيل قيلي
قبـل ما يسبروا يســدوا عليّ
ذاك يا صنو لك وها ذاك لي لي
وانت سرلك هناك واذبح وهات قات
واعصـدي يامرة وزد يا قبيلي
اجـرة العسكري ولا باب سيدي
القصب والحبوب وادّي حمولي

فهذه القصيدة بوزنها الخليلي ولغتها القروية تبرز عادة شعبنا واهتمامه بالاحداث كوسائل كسب وكتدليل على الوجود الضائع . ولم ينطبع شعبنا على هـذه العادة وانما أرغمته الظروف البائسة المتوالية على احتراف الحرب والنهب . فقصائد « الحجري وعلي بن الامام وعبد الله عامر والفلاح المجهول » ، تعكس بُعد الحدث نفسيا وزمنيا أكثر مما تُجلي ألوان صورته ..

وفي عام خمسة وخمسين لم يوح ذلك الحدث شعراً كثيراً لأن حدوثه كان مفاجئا ، وانتكاسه مفاجئا أيضا . فلم يتم تنازل الامـام احمد عن السلطة وانما تظاهر انحناءً للعاصفة حتى استجمع اسبابه فأنهى الانقلاب في اليوم الخامس من بدايته ، قبل أن يفكر الشاعر وتشعر الافكار . لهذا لم يتناول الشعر هذا الحدث لا بتسجيل الظواهر ولا بلمح البعد ، باستثناء قصيدة واحدة انطلقت من منظور رسمي ونسبت الى « محمد أحمد الشامي » كمقرب الى الإمام احمد ، والى ابراهيم الحضراني كمقرب من البدر ، وكلا الشاعرين لم ينفياها ولم يتبنياها . وهي أقرب الى الحضراني من حيث شكلها وأقرب الى الشامي من ناحية إماميتها . والذي يهم هو هذا المقطع ..

ما درى هل كان سوطا أو حساما
امريـــكا جعلت منـــه إمـــامـــا
قـــل لنويـــورك التـــي تعرفـــه
هل حوى الأشراط مـــن رام المقاما
ومتـــى كـــان شجـــاعاً فاضـــلاً
سل زبيـــدا عنه سل تلك الأكاما
وسل الجيش الـــذي رد العـــدى
ومضى والقائـــد ارتد انهزامـــا
لـــم يكـــن غـــير لئيـــم جاهل
لو تولى ـ لانجى ـ ولـّى اللئاما
وغـــدى كـــل الحِمى في عهـــده
شركاتٍ تنهب الشعب اقتسامـــا

فبرغم أن القصيدة من منظور رسمي فإنها ذات بُعد شعبي. وقد اهتمت بابعاد الحدث والتشنيع على صانعه أكثر مما اهتمت بتسجيل ظواهره ، من قصف نار وانعقاد اجتماعات . فلشعرنا في الفهم السياسي غوص ذهني وتبكير اجتماعي ، لان الأدباء كانوا زعماء سياسة وسادة كلمة . فسجلوا ظواهر الأحداث بعمق ولمحوا ابعادها باستبصار مستنير : ـ

وجاءت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر في اطار من الدماء وفي موكب من أغاني الشعر البهيج المشبوب ، لان شعبنا استقبل ذلك الحدث بفرح الميلاد وطفولة الشروق وقد جمعت عشرات القصائد بين الاشادة بالثورة والثوار ، وتحدي المؤامرة والمتآمرين كما يقول « علي عبد العزيز نصر » : ـ

دَمُنا على هاماتنا علم
فلتشهدي يا أيها الأمم

ومن نفس النغمة ، وبحر أكثر بساطة ، يوقع « عبده عثمان » : —

كان السكون كأبواب مسمرة
وراءها يختفي سر ويعتصمُ
حتى اذا أومضت في الأفق بادرة
فأجفل الصمت والإطراق والظُلَمُ
ولم تمر ساعة إلا وقد نطقت
مرارة الأمس والأحقاد والألم
تلفت القصر مأخوذا على لهب
على دوي على الجدران تنهدم

وكما كانت ثورة سبتمبر غنية بعملياتها في النفس الاجتماعية ، فقد أفصح الشعر عن كل الهواجس والتطلعات . واجتمع من شعر سبتمبر ما يكون نحوا من عشرة دواوين وامتد تيار الشعر مع تيار الحياة يعتصر الظواهر ويشتم الاسرار . فصوته مع كل حدث وأنفاسه مع كل حركة ذات قضية ، إلا أن كل ما استجد من الأحداث من اثنين وستين الى اليوم كان امتداد لسبتمبر أو انعكاسا له .

وقد كثرت أدوات الرصد والتسجيل بعد سبتمبر . فتعاونت المجلات والصحف والأقاصيص والمسرحيات مع الشعر ، على حين كان في النصف الأول من هذا القرن هو وحده المؤرخ والمفلسف والسائل والمجيب من وجهة شعبية ، الى جانب التسجيل الرسمي في تاريخ الواسعي والجرافي وصحف (الإيمان وسبأ والنصر) ، التي

كانت تعتمد على الوقائع الرسمية والمراسيم الملكية ، حتى لقد أصبح شعرنا المعاصر أصفى المرايا لأحداث عصرنا وأحفل سجل لوقائع الظواهر وأسرار التحولات لأن اليمني يَشْعُر للقضية والاهتمامات العظيمة ، لا للخصوصيات الذاتية فكل ما نجم من أحداث معاصرة فهو موقع ، مسجل بدم القلوب الشاعرة وأمـانة الحرف المبدع وأنفاس الأغنية الوطنية •

مجلة الحراس ــ العدد السابع ــ أبريل ١٩٧٥

* * *

أدبنا والقضايا العالمية

لان الميلاد والموت شركة بين كل الاحياء ، فانما بين المهد واللحد شركة بين الاحياء أيضا ، ولان الانسان يفصح عن حسه بالالم أو بالغبطة ، أبلغ من الحيوان ، أمكن أن يعطف انيه أخاه لكي يشاركه مرارة المأساة وحلاوة الفرح . هـذا على المستوى الفردي . وكل ممكن على المستوى الفردي والافرادي ممكن على المستوى الاجتماعي لأن المجتمعات مجموعة آحاد ، كل عضو من الجماعة وفرد فيهـا ، فالتعاطف بين الشعوب كالتعاطف بين الأفراد، لأن تجربة المرارة ضريبة حياتية يؤديها كل حي ، من ألم الميلاد ، الى بكاء الفطام ، الى وجع التسنين ، الى قلق المراهقة ، الى خوف الكهولة ، الى ارتعاش الكبر ، هذا الى جانب ما يفاجىء من الكوارث ، او الى ما يأتي عن انتظار .

ولعل التجارب القاسية المشتركـة بين الشعوب أوثق الاسباب لتناغمها وتعاطفها ، لأن الشعوب ــ رغم الأعلام المختلفة الألوان ورغم الفواصل البحرية والجبلية المسماة حدودا ــ عالم واحد هو عـالم الاصدقاء ، وتتجلى روعة هذه الصداقة ، في الفن الرفيع ، في الكلمة الشريفة ، في الموقف النزيه ، في العاطفة النقية .

لان الانسانية صداقة ، والصداقة أخوة ، زيادة محبة ، ولعـل الشعب الاكثر نكبات ، أحس بنكبات الشعوب ، لانه يتجاوب عن

تجربة ، وهذا ما يتجلى في روائع أدبنا من أول الاربعينات حتى اليوم، فقد أفصحت الكلمة اليمنية عن صداقتها للعالم ، وعن وقوفها الحميم الى جانب كل شعب مقهور في وجه قاهرية ، لان شعبنا تذوق حتى العظم مرارة الاستبداد ، وتذوق حتى النخاع ، مرارة الاستعمار ، ولعل شعبنا من أسبق الشعوب الى رفض الدخيل، وكراهية الاستعمار، وقبل أن تحرق ثورات آسيا وافريقيا ، أقنعة الاستعمار عن وجهه الشنيع •• كان الفلاحون في قرانا يتقززون من اسم الانجليز المعروف لديهم « بالسركال » ، وهي تسمية معقدة للوحشية والطمع الضاري ، لهذا عبر شعراؤنا عن مقاومتهم للاستعمار القديم ، لذات تسلطه ، ولتمهيده للاستعمار الجديد ، عندما يخلي له مواقعه باعتبار أن الاستعمار الجديد وريث للاستعمار القديم ، معتمد على وكلائه المحليين • فقد كان أدبنا • بعيد النظر في مطلع الاربعينات رغم بعده عن تيارات العصر الا انه كان قريبا من غبار المؤامرات • ولعل الحرب العالمية الثانية أول صيحة أستفزت شاعرية اليمن الى مصارعة الاستعمار، بالكلمة المضيئة ، تعاطفا مع الشعوب المقهورة ووقوفا حازما في وجه الاستعمار القاهر ، وعلى بعد بلدنا من نار الحرب ودخانها توالت الصيحات اليمنية في وجه تجار الحروب ، لان الحرب موت للمقهورين واثراء لمصانع الموت • كما أشار الى هذا عبد الله العزب :

كأن الردى ليس يكفي الورى
فزادوه بالحرب موتا وشرّ

أهذي المدافع والطائرات
لهذا الضعيف المسمى بشر

أأستبطأوا سَقَراً ويحهم
فشبوا قُبيل (التنادي) (سقر)

اذا كـان العزب يدين الحرب الاستعمارية من منظور انساني باعتبار أن الموت الطبيعي يكفي البشر ، فان (علي الحجري) يقف من الاستعمار المنهزم موقف الشامت كما في سينيته الشهيرة :

جيشُ برلين في البسيطة أمسى
يكنس الغرب بالفيالق كنسا

فالشماتة هنا منبثقة من حس انساني ، لانها بالعدوان حين لاقى من يكيل له بصاعه ويجزيه من جنس عمله . فلم يكن الشاعر اليمني نازي الهوى وانما كان عدوا طبيعيا للاستعمار الانجليزي ، الجاثم على شطر وطنه ، والممتد على كثير من صدور الشعوب لايرعى لشعب حقا ولا لانسان حرمة . كما يقول الزبيري :

متى يرى الانجليزيون ذمتنا
كذمة حقها ترعى وتُحتَرم

حتى متى نشتكي منهم ونسألهم
رفع العذاب فمارقوا ولا رحموا

هم يدركون بأنا خاضعون لهم
من ذلنا ، رغم ما جاروا وما ظلموا

لانستحق حياة غير ما وهبوا
ولا ننال حقوقا دون ماحكَموا

لهم علينا قوانينٌ ، وليس لنا
الا الرضوخ لما قالوا وما التزموا

لقد نفذ الزبيري الى بواطن الخداع الانجليزي الذي حرض

العرب على تركيا لكي تتحرر العروبة من الكرباج العثماني ، ولما انهى ذلك الاحتلال ، تعلل الانجليز بالفراغ السياسي ، وأحل مدافعه محل الكرباج التركي ، ناقضا كل العهود وخائنا كل الالتزامات ، لهذا كان للهزيمة البريطانية أمام الزحوف الالمانية أحلى وقع لان تقليم أظفار الوحش ينجي من افتراسه ، لان الاستعمار الذي احتل الشطر الجنوبي من الوطن كان يمد أذرعه الى الشمال ، لهذا عبر الشعر اليمني عن غبطة اليمانين باختناق الاسد البريطاني ، ولما أحس الشاعر اليمني أن النازية بديل سيء من استعمار أسوأ رفع صيحة الشماته بهزيمة النازية ، لان اليمني ضد العدوان على الشعوب من أي جنس كما قال حسين أحمد العنسي عن هتلر :

عاد من روسيا بغير رؤوس
فاقد (الريخ) ، فاقدا للنفوس
ودرى ، حين لا يفيد يقين ،
مَن (ستالين) في أداء الدروس
ان من يسكب السموم كؤوسا
ينتهي نادما بتلك الكؤوس

لقد تنوعت موضوعات الشعر اليمني في موضوع الحرب العالمية الثانية وعلى اختلاف الاصوات التقت نظرتها في الشماتة بالانجليز كمعتدين حصدوا ما زرعوا ، ثم التفت الشعر اليمني الى النازية فرآها بديلا فضيعا كما قال (حسين العنسي) ، وتلاه (محمدأحمد الشامي) من جانب آخر الى نفس المنظور الواحد ، فادان (هتلر) واستوقفه عند حده قبل ان يبتلعه تجاوز الحد :

قف حيث أنت فللأقــدام زلات
وراء حــدك أنجـــاد وهوّاتُ

مــاذا تريد ؟ اتبغي الارض تخرقهـا
أم تعتليهـــا وتأويـك السمــاوات

مهلا أخا الجهـل مهلالا تكن عجـلا
فـدون ذلـك أهـوال وآفـات

لقد سجل الشعر اليمني في الاربعينات بأمانة ودقة أوزار الحرب ، وفرق بتمييز مستبصر بين معتد يهزمه عدوان آخر وبين معتد جديد يستجمع أنفاسه كخلف مشئوم لسلف مشئوم ، لقد كـانت الحرب العالمية الثانية أول الشقوق في جدران عزلة اليمن ، فلمح الشعر اليمني فضائع الاستعمار وفضائع النازية معا ، ولما انطوت الاربعينات انطوى اليمن على جراحه ذاهلا عن حركة العصر من حوله ، ولما أفاق من هول صدمة شباط ٤٨ بدأ يتلمس طريقه ، كما بدأ طريقه يبحث عن طريق ، فتعاطف رغم مآسيه مع كل أسوان ، وفي ضوء ثورات العالم الثالث بدأ اليمن يتلمس وجوده اهتداء بمن سبقه الى اكتشاف الوجود ، الا أن الحساسيات اليمنية ضد الاستعمار استمرت في اتقادها • فبعـد هزيمة الانجليز في بورسعيد وسقوط العلم البريطاني عن القناة اكتشف (نعمان القدسي) أن الاسد البريطاني الذي فقد رأسه لم يفقد بقية أذياله ، وعن طريق ذكائه النافذ شم الخبث الاستعماري من خـلال المذياع البريطاني ، فنبه الى هذا الوباء المغلف بالحرير الناعم ، ولعله أول من لمح بذكاء وجوه النوايا الدخيلة « لمذياع القسـم العربي » اللندني فحذر كنبي صادق الريادة :

لاتستمع مــذياع (لنـــدن) انــه
بدهــائـــه غــزو مــن الاســماع

عجزوا وأعجزت الشعوب جيوشــهم
فتفننـــوا في الغــزو بالمـذياع

ان الثقـــافات التــي يعطونهــا
نبشــ المقــابر وادعــاء النــاعي

ودعــايــة للخــائنــين تزيــدهــم
فضحــا كمــا تخزي جبــين الــداعي

واذا رزقت بلادة سميت مـــا
بثتــه (لنــدن) : آيــة الابــداع

ولمــا سقطت رؤوس الاستعمار القــديم بقيت ذيوله كجسور للاستعمار الجديد ، فتبلور موقف الشعر اليمني في وجه الاستعمار الجديد كموقفه في وجه الاستعمار المولّي • فتوالت الروائع اليمنية في الاعجاب المبدع بأبطال (فيتنام) • وبالاحتقار المتناهي بوحشية الاستعمار ، ومن هذه الروائع قصيدة (محمــد سعيد جراده) في ديوانه « مشاعل الدرب » بعنوان : فيتنام في معارك التحرير :

فيتنــام هذا الصــبر درس لاجيــال
وهذا الكفاح الفــذ مضرب أمثــال

وهــذا الثبــات المر أروع صــورة
لشعب عريق المجد في الزمن الخــالي

أبــى أن يدوســ الأجنبــي ترابــه
وكيف يــدوس الفهــد غابــة رئبــال

لقد حس اليمني بأصالة ان تحرر أي شعب يؤدي الى تحرره ، لان التحرر كالضوء سريع الامتداد ، على حين الظلام قابل للانحسار • لهذا وقفت الكلمة اليمنية الشريفة موقف النضال مع كل شعب ، ومع كل صيحة ، تكسر قيدا أو تقهر ضرورة • لأن الشعب المقهور آحس بقهر الآخرين سواء على مستوى شعوب أو على مستوى افراد ، ففي الوقت الذي كان ينشد فيه شعبنا العدالة الاجتماعية كان يخيب في نشدانه فيعبر عن طلبه الحياتي في كل صورة ، كما نلاحظ في قصيدة لطفي (جعفر أمان) :

« ليزورك الجديد » وهو رجل فرنسي أعدمه القضاء على براءته من تهمة القتل ورغم شهرة عدالة فرنسا :

ليزورك مبعوث هنـــا
مازال حشرجة على عسف القضاء ممزقة
مازال مأساة على جفن الزمـــان مؤرقة
وطريد أمنية بأبواب الليالي المغلقــة
تهفوا له الأحزان واجفة الرجا •• مترفقة
وعدالة عميـــاء تخنقه بحبل المشنقة
ليزورك مات فلا رجـــا
والعدل مـــات مع القضاء

ليست القضية مقصورة على (ليزورك) وانما كانت قضيةالانسان في (عدن) تحت حراب الانجليز الدامية باسم القانون ، حتى كـــانت تجعل موت الحياة أمرا مشروعا باسم الطوارىء ، حينا وباسم مصالح الاجانب حينا آخر ، وتحت كل الاسماء الاحتيالية المعروفة عن الاحتلال البريطاني • ان عذاب اليمني كان اثارة الى عذاب الآخرين ، لأن

انسانية شعبنا لا تنغلق على نفسها وإنما تحب السلام والرخاء للآخرين بمقدار ما تحاول تحقيقهما لذاتها ، لقد اهتم أدبنا من مطلع الأربعينات الى اليوم بأهم قضايا البشر • وبرغم طول صراعه لواقعه فانـه مع البشرية في صراعها العام وفي قتال الاستعمارين كعدو مشترك • ولـم يقتصر الادب اليمني على نضال المحتلين وانما مجد كل بادرة من أي فنان تعبر عن نزوع الانسان وعن تخلصه من القهر والضرورات كمـا في قصيدة (ابراهيم الخصراني) « على قبر جوته » وكما في قصيدة (عبد الودود سيف) (بيكاسو) وكما في مجموعة عبده عثمان الرائعة « فلسطين في السجن » • فان كل هذه القصائد هي النفس الناطقة لشعبنا العظيم الذي يكره القهر لنفسه • وبمقدار ما يكره القهر لنفسه يكره قهر الآخرين •

مجلة الحراس العدد ١١ أغسطس ١٩٧٥

* * *

الحكيم الثالث :
حزام مُرشد الشبثي

يلاحظ المهتمون في زمن التحقيق نسبة كثير من الأفكار والأشعار الى غير أصحابها . ويلاحظون أن هذه النسبة الخاطئة لاتخلو من صواب لان نسبتها كانت على ضوء الاساليب أو على هدى الشهرة . فكل بيت حماسي لايُعرف قائله يرد الى عنترة أو الى « الزبيدي » حتى لو كان (للشنفرى) و (تأبط شراً) وكل شعر فكاهي مجهول القائل ينسب الى « ابي دلامه » ، وكل شعر خمري ينسب الى « أبي نواس » وهذه النسبة ترجع الى سبب واحد هو شهرة أصحابها حتى عزي اليهم ماقال غيرهم لتشابهه بما قالوا ، ولشهرتهم بما صحت نسبته اليهم ، وليس هذا في الفن العربي وحده بل في الفنون العالمية كلها . فقد أضيفت أكثر الاساطير اليونانية الى ملحمة (هوميروس) لاشتهاره بالشعر الملحمي القائم على الأسطورة البطولية . وقد امتد هذا النوع من النسبه الى عصر النهضة الأوربية فكاد دارسو القرن التاسع عشر ينسبون أكثر أفكار (شيكسبير) الى (فرانسيس بيكون لاشتهاره بالفلسفة التي لم يشتهر بها شيكسبير) بل كاد بعض المحققين يلغون شخصية شكسبير ويردون كل ما قال الى بيكون . كما كاد بعض المحققين أن يلغوا تاريخية « هوميروس » ويعتبروا ملحمته ملحمة الشعب اليوناني كله . ويمكننا اليوم أن نرد أقوال (علي بن زايد .. وحميد بن منصور) الى الشعب اليمني جيلا تلو جيل ، فمن

هو (علي بن زايد ومن هو حميد بن منصور)، وفي أي فترة عاشا وهل أشارت امثالهما وحكمهما الى الفترة التي عاشاها؟ أظن لا .. !! وعلى هذا فعلي بن زايد وحميد بن منصور صوت تأمل الشعب والصورة الناطقة لتجاربه . لكن الملاحظ أن الحكيم الثالث مجهول عند الكثير، ولا يشير الى اسمه ويستشهد ببعض امثاله الا القليل من المعمرين . فمن هو الحكيم الثالث؟ أو الصورة الثالثة من فلسفة الشعب؟ انه «حزام مرشد الشُبثي» من جهران آنس ويقال من قيفه، وقد نسبت أكثر حكمه التجريبية وأشعاره، أو كلها الى «علي بن زايد أو حميد بن منصور» وليس حزام الشبثي، الا كعلي بن زايد وحميد بن منصور، مجرد رمز الى فلسفة الشعب . فليس الحكماء الثلاثة الا الشعب اليمني أو لسان تفكيره، أو صدى احاسيسه، لأن حكماءنا الثلاثة مجهولو الزمان والمكان . فأمثالهم تنطبق مع لهجة كل منطقة، وكلهم متشابهون، فلا نكاد تتجلى لاحدهم مكانا وانما مكانهم الشعب، لانهم الشعب . وعلى هذا فلم يتناول هذا البحث حزام الشبثي بالتحقيق التاريخي ولا بالتشخيص الأدبي، وانما سيتناول اشعاره باعتباره رمز الشعب أو هو الشعب في شخص رجل يقال له حزام الشبثي .

والذي يهم من هذا الرمز أو حزام الشبثي هو جودة أقواله واخلاصه الحار للارض، حتى كأنه نبي الارض وعبدها .

من فجّر الأرض جادت	بالسَّبول الجياد
ومن تكيسل يقع له	سور (وادي عباد)
ذي ما يحرّق ويحرق	ضاع تحت الرماد
ما يزرع البُرّ الأحمر	من يخاف الجراد

هكذا يغوص حزام الشبثي في أعماق الارض ليستخرج من غبرة

ترابهـا خضرة الزرع وإشراق السنابل ، وينتقل من هـذه الحكمة فيفلسف العمل الزراعي فلسفة الصراع البشري أو فلسفة العراك بين البقاء والفناء •

ذي مـا يحرق ويحرق ضـاع تحـت الرمـاد
مـايزرع البر الاحمـر مـن يخـاف الجـراد

هذه أصدق نظرية في الصراع الشريف ، وأصح دليل امام المغامرة في الحياة ، اذا لم تكن نارا تضرب وتتلقى الضرب فسوف تسقط تحت الرماد بلا حساب ولا اعتبار ، واذا كنت تخاف العواقب فلن تبدأ أي عمل ، فهل يتوقف الزارع عن تفجير الخضرة خوفا من الجراد • ان هذا أسوأ أنواع الجبن • فعليك أن تعرف صحة البداية غير مكترث بالعواقب الا بمقدار دفع حدوثها اذا حدثت • ان هذا النص الشبثي يعلمنا أكثر من الحرث والزرع اذا قرأناه قراءة جديدة ، ودخلنا الى صميمه بروح معاصرة لأن جودة القراءة تهم كجودة النص ، وسوف نلاحظ بمفهومنا العصري أن حِكم الشبثي تعلمنا الحماس الوطني ، والتمسك باستقلال التراب ، وسيادة البشر عليه • ومع الشبثي في هـذا النص •

عـز القبيـلي بلاده ولـو تجـرع وَباهـا
وغيرهـا مـا تفيـده لـو مالهـا في جُباهـا
فمـا تبـاه غـير داره وغيرهـا مـا يُباهـا
ملي يـدك من بـلادك وقـل لنفسك جَباهـا

هل أقول أن الشبثي أول من فطن الى أن الاستقلال الاقتصادي أهم اركان الاستقلال الوطني ، فهذا النص لايحتاج منا فهما جديدا لانه بذاته جديد التعبير والروح ، والملحوظ من معرفة بيئة امثال الشبثي

واشعاره انه يقصد بالبلاد قرية المزارع واوديته ، لانه كان ذائبا في حب الارض ينبض حسه في كل ذرة تراب ، فهو يتناول المزرعة بأحر نفثات الغزل كما يخبرنا هذا النص .

مساش ياجربه مساحريوه   مكحـله مدغنجه بنيـله
واتنى بجار الله من الثلاثه   من البـَرد والبرد والمخافه

هذا الصوت الذي أطلقه حزام الشبثي أو رمز الشعب يردده الزراع عندما يفرغون من بذر الارض ، وقد اودعوا احشاءها حبات عرق الجبين وحبات البذور . وعندما تخضر الحبات اليابسة وترصع اديم الارض بالخضرة الممتدة ، ينتقل غزل الشبثي بالارض من منطقة الحنين الى منطقة التشهي والشوق الدافىء ، والدهشة الحبيبة بحبيبته الأرض التي هي أفتن الإناث وأروع حسان الدنيا .

يا قاع جهران يا حلى من صدور البنات
ما حلى صباحك وليلك حين زرعك نبـات
وحين شـعيرك وبرك والطواير تحـوم
وعـاد بيضـا وحمرا والمسايل نجـوم

كلنا نعرف بنقاوة الحس الفطري أن في التراب جمالا افتن وأروع من ورود الخدود البشرية ومن هزات النهود الآدمية .

فقد نقل الشبثي الارض الخضراء الممتدة من سهل مخضوضر الى لوحة مذهلة تتملا روائعها عيون الذهن وبصائر الوجدان . ومـا اكثر وأروع غزليات الشبثي بالارض ! لكنه لم يقتصر على الارض وما تعشو شب فيها من خضره ، وتتلألأ من سنابل ، وانما وزع حسه المرهف في مئات التجارب ، وان كانت الارض هي المادة الملهمة له ، لكنها بما فيها ومن فيها تشعل نظراته الى مايتحرك على الارض من

احداث وتجري فيها من اقدار • كما في قولـه وهو يشمل في نظرة واحدة اعقد المسائل القدرية والكونية •

زاب الخريف العوالـي ... والصيف شـرقي هليله
وكـم عرفنـا عجـائب ... كثـير مـا هي قليـله
كم يسقي البرق شارب ... ومـا يصل لا المحيـله

هذا الذي ترك الأفهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا

كما قال الراوندي ، وهذا الذي صير الشبثي فيلسوفا ، فكم عرف وعرفنا بروقا تسقي الوادي المرتوي وتحرم الارض المحيله • هكذا اناس يموتون غرقا في الماء وأناس يموتون عطشا في الصحراء ، وأناس يموتون بالتخمة ، وأناس يموتون بالجوع • إذن فالشبثي فيلسوف أو متفلسف على الاقل، وليست الفلسفة ذريات ديموقريطس ولامثاليات افلاطون ولا عقليات ديكارت، وانما الفلسفة أرحب مجالا• من هذا فلسفة الحياة المتصلة بقضية الاحياء وعذاب الانسان • ان الفلسفة الحية الخصبة هي التي تعاني مرارة الحياة مع الاحياء وتعايش مغامرة العلم ، وتحاول أن تدفعـه من طينية الطـامعين الذين جعلوا الانسان سلعة والعلم سلعة ، فليست الفلسفة ملك أحد وانما هي لكل احد يستنكر ما يرى ، ويعارض كل جور وتغرير •

ولقد كان الشبثي فيلسوفا وحكيما وخير ما في فلسفته انها من معطيات الارض مهد الميلاد ومدرج الحياة وقبر الممات فقد نفذ الشبثي الى كثير من القضايا الاجتماعية ونفذ من القضايا الى اسبابها وظواهرها•

يا قـاتل البنت ياشـوم ... بعض القحامه تحيمـار
قتلتهـا للتستـار ... فأصبح الظن أخبـار
وهـكذا كـل مُدْبِر ... يغَسّل العـار بالعـار

بنــات عشرين أغمــار ... مــا يعرفــين التصبــار
والمــاء ولو كــان بارد ... لا وقدوا له ، حمي ، فار

يمكن هذه المقطوعة أن تبصرنا بقضايا نعاركها وتعاركنا ، فبعض الشجاعة نذالة أو على حد تعبير الشبثي : بعض القحامة تحيمار • لكن الشبثي كان دقيق الاختيار في تفريقه بين أنواع الشجاعات ، فبعض الشجاعة (تحيمار) وبعضها انساني يغري بالموت • ويمكن الوقوف عند البيت الاخير من المقطع ، وسوف نلاحظ أنه ينطوي على مئــات الاشارات الى أكثر من قضية •

والمــا ولو كــان بارد ... لاوقدو اله ، حمى ، فار

فالفكرة المعاصره « الضغط يؤدي الى الانفجار » ، ولكل فعل رد فعل ، والكبت مصدر الازمات الاجتماعية ، والنفسية • وقد مثل الشبثي الانسان بالماء يبدو باردا ولكنه بفعل النار من تحته يحمى ثم يفور حتى تستحيل النار رمادا • وعلى هذا فالانسان الذي صنع قيده يقدر على كسره اما بالاختيار او بالاضطرار • يلاحظ من كل اشعار الشبثي أنه لاينتهج نهجا فنيا معينا فهو احيانا يصرّع البيت على قافيتين واحيانا يقفي الاشطار الاخيرة ولا يقفي الاشطار الاولى على قاعدة الشعر الشعبي • وهذا النهج يلتقي فيه كل حكماءنا من امثال ذلك لعلي بن زايد :

يقول علي بن زايــد : ... يا اهل الغنم يا مساكين
ان تمطر التسع والسبع ... ولا فتمطر سكــاكــين

فقد التزم في الشطرين الاخيرين (الياء والنون) وكان لكل شطر من الشطرين الاولين قافية • ومن أمثال ذلك قول حميد بن منصور :

ياغـارتـاه يـا ثريـا　　معـالم الصيف زلـت
قدمت مـالـي تـأخر　　اخـرت مـالي تقـدم

وسـابق النجم الاحمـر

وعلى هذا النهج ينهج الشبثي :

لعنت يـابـايع المـال　　كـان ارهنه لاتبيعـه
ذي مـا يغبـر ويبرد　　فمـا يسـاوي تبيعـه

والسؤال لماذا انتهج هؤلاء الحكماء هذه الطريقة في فن الشعر الشعبي ؟ لعلهم لم يكونوا يهتمون بالتطريب الشعري ، وانما كانوا يهتمون بتأطير الفكرة في موسيقى يتم لها التجاوب وان أنقصها التطريز ، والسر في هذا انهم شعروا عن فطرة لاعن ثقافة وعبروا عن أفكار تنقصها الفنية المتبعة في فن الشعر الشعبي لأنهم حكماء لا شعراء • وان مادة الهامهم هي الارض لا اوراق الكتب • فكانت لاشعارهم روائح المزارع الحبلى وتجاوب الطبيعة في هزات قصب القمح وتناغم الرياح على أوراقها ، فجاءت اشعارهم خضراء كأوراق الحياة ، عفوية كانبساط الشمس على الحقول ، ولنتأمل قول الشبثي في هذا التجاوب :

من يـوم قالوا فقـرنا　　قاتـم احنـا سـرق
مـابش قلـق يابنـي　　بـدّاح مـابش قلـق
اليوم (أثمر ملاحِق)　　« والذريحه ـ ورق »
مـايصرب الـبر الا　　مـن يصـب العـرق
مـايطعـم الحـالي الا　　مـن طعـم قيّـره

وهكذا يتجلى الشبثي كزميليه الحكيمين شاعرا يقتطف توقيعه وانفاسه من حسه ومزارع تربته • وتشير المقطوعة الى عادة حسنة

من العادات القبلية وهي تسمية الحقول كالابناء ، وتسمية الاغنام والمواشي كالبنات، لقوة الصلة بين انسان الارض وبين مواشيه وأولاده وأرضه . فالمزرعة أو الوادي الاول ملاحق ، والوادي الثاني ذريحه ، ولعل ملاحق وذريحه في اكثر من منطقة كما لوحظ في غير هذا النص لعاي بن زايد :

يقول علي بن زايد : مالذّلي مثل « حيكان »
المسبلي يشبع انسان والتلم يملي غراره

ووادي حيكان بنفس الاسم يقع في سبع مناطق وربما اكثر لو تقصينا العد . فأمثال حكماءنا وأشعارهم تؤدى بكل لهجة ، وتصدق على كل منطقة ، وهذا هو الدليل الصادق على أن حكماءنا الثلاثة رمز الشعب لصلاحية الاستشهاد بأمثالهم في كل لهجة، وانطباق افكارهم على تجربة كل منطقة ، وان كان ابن زايد وابن منصور اشهر من الشبثي ، لهذا نسبت اكثر اشعاره اليهما وقلما ذكر الشبثي على امتياز أقواله وسعة دلالاتها . لهذا ارجوا ان يثير هذا البحث المتواضع اهتمام المهتمين لتقصي اشعاره وحكمه، فلعله أقرب الى الفكر الانساني والحس الشعبي من زميليه .

فقد اتسعت رواية الحكيمين الاولين وكاد الحكيم الثالث أن يضيع بينهما ، والاهتمام بالحكماء الثلاثة من شرايف النزعات الوطنية، لأن الثلاثة رمز الشعب اوهم كل الشعب المفكر ، المعبر عن أفكاره وعن معطيات المواسم . نسب اليهم كل قول واتنمت اليهم كل فكرة ، فلا يرتبطون بمكان ولا يقترنون بزمان ، وانما هم كالوطن للجميع ومن الجميع .

مجلة الجيش العدد ٣٠ اغسطس ١٩٧٢ م

اليمنية وعزة الفقر عند أعشى همدان

عندما يؤكد أي كاتب على انفراد شعبه بمزية أو مزايا أو ظاهرة أو ظواهر ، فان هذا التأكيد لايمنع أن يشارك شعبه أكثر من شعب في هذه الظواهر والمزايا ، الا أن كل كاتب يعرف عن بلده وتاريخه أكثر مما يعرف عن بلدان الآخرين وتواريخها ، مع العلم أن المجاميع البشرية تتشابه في أحوالها وصفاتها وبالأخص اذا تشابهت أو تماثلت أساليب الحياة وظروف المعيشة ، فمن الجائز أن يتشابه شعراء العصر الاموي ومعاصريهم ، في دولة الروم • ومن الجائز أن يتشابه مجتمع الجاهلية ومجتمع أوروبا الشرقية والغربية ويصل التشابه الى حد التماثل ، عندما تستوي ظروف المعيشة وتتساوى ظروف الحياة ، ومستويات الثقافة •

والظاهرة الفريدة والغريبة التي امتاز بها الشعراء اليمنيون في الدولة الاموية ، هي هذه الشجاعة النادرة على وهن شوكتهم ، وهذا الاعتزاز بالنفس على قلة ما في اليد من مال وسلطان ، وعلى غربة الاهل والدار ، فلم يقدم أي حي من العرب من الشهداء الشعراء كما قدم المجتمع اليمني كضريبة للشجاعة وكثمن لتحقيق الوجود • ففي خلال عشرين عاماً تقريباً يسقط ثلاثة من أشهر شعراء العرب بسيوف بني أمية ، في وقت كان الشاعر فيه لسان الدعاية ، ونفير الحرب والذائد عن العرض ، وكان أول صريع هو يزيد بن المفرغ الحميري بيد عُبَيد الله ابن زياد ، بلاسبب ، سوى أنه هجا أخاه عبّاد بن زياد ، وبعد أن خاف

من عباد لجأ الى دمشق في خلافة يزيد بن معاوية وبرغم مدح الخليفة والاحتماء به فقد أسلمه الى عبيد الله بن زياد والى البصره ، فسقاه نبيذا ومسهلا وربطه الى خنزير يطوف به الشوارع طيلة يومه زيادة في التعزير والتشويه ، ولم يُنكر عليه أحد بصوت عال ، رغم أن هـذه العقوبة لم ينص عليها شرْع . لانها جزاء هجاء بالشعر ليست عقوبته التعزير وشرب النبيذ والمسهل ، حتى أدى هذا العنف الى موت الشاعر اليمني . فهل كان يزيد أول من هجا ؟

وهل عاقب خليفة أو أمير شاعرا هجّاء ؟

لقد هجا الحطيئة الزبرقان بن بدر الصحابي المشهور ، وعاقبه عمر على تشدده بسجن أيام ، وهجا عبد الرحمن بن حسان معاوية بن أبي سفيان ، من خلال افتعال مواقف فاحشة مع ابنته رمله، ولم يُلحق بأبن حسان أي عقاب من قبل معاوية ، رغم الحاح يزيد عليه وهجـا الفرزدق وجرير والأخطل والكميت ولم ينلهم سوط أمير ولا حربة خليفة.

فلماذا لاقى يزيد بن المفرغ هذا العقاب ؟ لانه كان يعتد بيمنيته في أيام الزهو القرشي ولأنه أول من كتب مقطوعة شعرية في تاريخ ملوك سبأ وحمير لهـذا نزل بيزيد أشنع عقـاب من أشنع أمير وهو الدعي بن مرجانه كما سماه يزيد : وعبيد الله بن زياد كما هو معروف ، وبعد مصرع بن المفرغ بسنوات سقط شهيد آخر هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث المعروف بأعشى همدان ، وقصة أعشى همدان لاتقل غرابة عن قصة يزيد بن المفرغ ، كان أعشى همدان يمدح الولاه اليمنيين اعتزازا بأهله ، والتماسا لعطايا بني عمه ، كحق أدبي عليه ، وكحق نسبي عليهم أن يعطوا ما داموا يجدون وعندما خرج محمد بن الأشعث على الحجّاج كان أعشى همدان نفير المعركة وعبير الثورة ، ولما انهزم ابن الأشعث وقع الأعشى في يد الحجاج ، فذكره بمدحه في

ابن الأشعث فحول الأعشى مدح ابن الأشعث الى هجو ، والى مديح للحجاج وبني أمية ، ولم يشفع هذا الموقف لأعشى همدان ، وإنما قتله الحجاج صبرا رغم شفاعة الشفعاء من الشاميين ، أليست القصةغريبة ؟ ألم توصل العظمة الى أغرب موت في أكثر الأحيان ؟..

لقد اعتاد معاصرو تلك الفترة وما تلاها من عصور ، أن الشاعر كان يتخلص من عقوبة الموت بقصيدة مناقضة ، أو قصائد مغايرة لما سبق منه ، وكانت تغمد سيف الحجاج وأمثاله نكتة بليغة ، أو نادرة مضحكة ، أو شعر جيد .. فلماذا لم يشفع للأعشى شعره على سموق مكانته ؟ السبب أنه كان شديد التعصب ليمنيته ، كاثبات لوجود ، أو تحقيق لذات . لهذا قتل الأعشى صبرا ، لاعتداده اليمني وقت ضياع اليمنية بعد النكسة التاريخية .

وبعده بسنوات سقط عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بوضاح اليمن ، لانه تغزل بأم البنين زوجة الوليد في بعض الروايات ، أو سامرها في رواية أخرى ، لكن هل هذا سبب كاف لقتل شاعر استدعته ملكة ؟

اذا كان هذا السبب كافيا ، فلماذا لايبرر نفس السبب قتل عمر ابن ابي ربيعه المخزومي ، وقد فضح غزله كل محصنات قريش ، بما فيهن عقيلات الخلفاء والاميرات ، ومثل (عمر ابن ابي ربيعه) (الأحوص) و(العرجي) و(ابن قيس الرقيات) فقد تغزل هؤلاء أصرح غزل، وافتعلوا مواقف صلات مع الأميرات والملكات تفوح منها جدران المخادع وأحضان الأسرّة ، ومع هذا : نجا عمر والأحوص والعرجي ، وسقط وضاح اليمن ، لانه يمني الشعر والوجه ، في شدة الضياع اليمني بين زحام المناكب والاقدام . وقد أدى هذا الحس بالضياع الى تفرد أعشى همدان بالحنين الى اليمن . والاعتزاز بأي يمني يلمع نجمه في افق السياسة ، أو يلوح سيفه في غبار الثورة . لهذا تغنى بالنعمان بن

بشير الأنصاري لأنه يمني ، ومحمد بن الأشعث لأنه يمني وثائر ، وقد شارك الاعشى في البطولة اليمنية • فقاد غزوا مظفرا الى الديلم ، ولما وقع اسيرا كما هي عادة المغامرين ، اراد صاحب الاغاني ان يتلمس نقطة ضعف كعادته ، فحكي أن جارية من الديلم هوت الأعشى • وبعد صلته بها في سجنه فكت قيوده ودلته على مخارج تعرف مسالكلها، شريطة أن يصطفيها لنفسه ، وقد أوحت هذه الحادثة الى بعضهم شعرا يسخر بالأعشى ومن معه من اليمنيين ، لأنه نجي امرأة ، على أن ميزة الأعشى ليست في القدرة القتالية وحدها ، فلم يشتهر بشجاعة نادرة كما لم يشتهر بتخلف أو جبن ، ولم تكن ميزته في اشعار المديح والغزل فهو في هذا اللون من الشعر صاحب إجادة وصاحب تقليد ، وإن كان لايقل عن فحول عصره ، كما تدل قراءة النصوص وكما يؤكد رواة تلك الفترة • وقد كان (الاصمعي) ــ وبينه وبين الأعشى ــ نحوا من مائة عام يستجيد شعر الأعشى ، ويفضله على جرير والفرزدق ، لكن هذه الصفة لاتحدد ميزة الأعشى التي تفرد بها ، فقد مدح كغيره وتغزل وهجا كمعاصريه من الشعراء ، وناقض هجوا بمديح ومدحا بهجاء كشاعر محتال ، لعصمة دمه والتماس قوته وقوت بنيه، وكانسان قبل كل شيء ، يحب ويكره ويخاف ويتغلب على الخوف ، ويتشجع فيغامر ويصيبه ضعف الانسان ، فيتوقف احيانا ، كل هذه المزايا والصفات يلاقي الأعشى له فيها أندادا من معاصريه ، اذن فما هي ميزته الخاصة كشاعر وإنسان ؟

لعل ألمع مزاياه هي هذه الأنفة على المال ، في زمن التمسح بالاعتاب في سبيل بدرة من النقود أو خلعة من الحلل •

لقد كان الأعشى يمدح ولكن الى من كان يتجه بالمديح ؟

كان يتجه الى الولاة اليمنيين الذين يرى عليهم حق العطاء ،

بحكم القرابة الوطنية ويرى على نفسه واجب الاشادة بهم كضريبة أدبية ، ونزعة اخوه ، وعندما مدح ابن الأشعث ولم يرضه ما اعطاه ، تناوله بالتعنيف على البخل أمام القرابة :

مالك لا تعطي وأنت أمرؤ
مثر من الطارف والتالدِ

إن كنت من كندة في بيتها
فان اخوالك من حاشد

نحن ولدناك فلا تجفنا
فالله قد وصاك بالوالد

فلا تلحظ من هذا الشعر انكسار السؤال ولا ذل الاستجداء ، وانما هو يذكّر بحقوقه على يمني مثله ، جمعتهما غربة الدار والحنين الى الديار ، ورأى على القريب المثري واجب البذل الى ابن وطنه ، لانه يملك من الطارف والتالد . فالأعشى هنا يعطي تصورا جميلا عن اصحاب الثراء مع انهم في واقع الأمر أشد الناس بخلا ، لأن البخل سبب في ضخامة الثروة ، لأن وفرة المال ادعى الى الطمع في المزيد ، الا أن الأعشى لمح واقع الاغنياء من منظور مثالي ، ومن ثنايا تجربته الشخصية ، فهوكثير الاعتزاز بالفقر لأنه الدليل على رفعة النفس والدليل على الكرم بما ملكت اليد .

فالانسان عند الأعشى أغلى النفائس وأنفس الثروات كما يقول:

تقول ربة بيتي وهي ضاحكة"
أفلست ، قلت كريم الأرض أفلسُها
هل النفائس غطت عار منتقص
دعي النفائس إن المرء أنفسها

لايحرس المـال أهليـة وان حرسـوا
وليس لي ثـروة كالكلب أحرسُهـا

فالاعتزاز باليمنية وبشرف الفقراء أروع مزايا أعشى همدان ، لأن هذه الفكرة أصيلة في نفسه بدليل تكرارها والتعبير عنها في قوالب مختلفة الاحجام والنغم ، ومن العجيب أن الأعشى يفاخر بالفقر في زمن التهافت على الغنائم والزحام على الفتات ، وقد كـان ابن قُتيبة يتمثل بقول الأعشى في القنوع والترفع :

وأرى مغـانم لـو أشـاء حويتهـا
فيصـدني عنهـا غنى وتعففُ

والغنى هنا امتلاء النفس ، لا انتفاخ الجيب بدليل فلسفة عظمة الفقر في هذه المقطوعة التي تفرق بين يمنيين يفخرون بعظمة الفقر ، ويمنيين يتهافتون على تلويح العطايا كما يقول الأعشى :

مـن اليمـانيـين الأُلي لـم نقـل
لكـل مثـر نحـن مـن جنـده
قالـوا بـلا مـال فقلنـا نعـم
هـل يملـك الليـث سـوى لبـده
هـل يقطـن النسر سـوى عشـه
هـل يسكن السيف سـوى غمـده
نردي غـداة الـروع أرواحنـا
والعرضـ عنـد المـال لـم نـرده

لقد تعصب الأعشى للفقر واحتج لـه بأنصع الحجج ، فالأسـد عند العربي أعلى مثـال للفتك والشجاعة ، وهو لا يملك غير أظفـاره

ولبده ، والسيف أعلى مثل في المضاء وحسم الخصومات ، ومع هـذا فهو لا يملك الا غمده فماذا ينقص الأعشى اذا كان له فقر الاسد وعري السيف الصقيل ؟•

وهذا التمجيد للفقر عند أعشى همدان ــ كدليل على شموخ النفس ـ ذو نسب في الشعر اليمني فقد كان العرب يتفاخرون بالمآزر الضافية والبرود الجديدة •

فزيّف عمرو بن معدي كرب الزبيدي هذه الدعوة وهذه المظاهر في مثل قولـه :

ليس الجمـال بمئـزر فاعـلم
وان رديـت بـردا

ان الجمـال معـادن ومنـاقب
أورثـن حمـدا

ومن هذا المستقى اليمني زين الأعشى صورة الفقر ، لأن السيف لا يملك غير الغمد ، والاسد لايملك غير اللبد على جلده ، ويكرر الأعشى الضرب على هذه النغمة كفكرة أساسية ذات جذور نفسية ، ولعل مكونات هذه الفكرة آتية من تجاربه مع اليمنيين في المهاجر ، فقد كانوا يغالبون ثم يميلون الى الغالب ، فمنهم من تشيع لقهر بني مروان ، ومنهم من تمرون تعصبا على آل علي ، أو ميلا الى أموال السلطان وكان الأعشى يتمنى لكل يمني الترفع عن العطايا كما يقول :

لـو تدنيـت في الامـور لكـانت
ثروتـي فـوق مـا يظن ابـن عمـي

غـير انـي أبيت وهـو تـدنـي
ويحـه ان همـه غـير همـي

الذي يأخذه بريقه وايقاعه ، وكان الشاعر يجوّد هذا الفن لانقطاعه له واستغراقه فيه ، وفي المجتمع الذي يوحيه • ولما تنوعت الفنون في العصر الحديث ، تجاذبت إعجاب القارىء والمشاهـد ، وخففت من توترات الأديب المنتج ، وهذه ظاهرة يشترك فيها الشعر العربي والشعر العالمي ، فلم يعد الشعر وحده فارس الميدان ، ولم يعد الشاعر وحـده المخلوق الاسطوري ، فقد أخذت الصور المتحركـة تشارك الشعر مكانته في النفوس ، فأبطال المسرحية يمثلون فنا ويتحركون بفنيـة ويتقمصون ابطالا ، ومهما كانت المسرحية تافهة ، فانهـا قد زاحمت الشعر في الإثارة الفنية حتى ولو بالحركة الدرامية والحوار المتراوح بين العنف والرقة على حسب المواقف ، فكل الصور المتحركـة من تلفزيونية وسينمائية ومسرحية وحركة رقص ، كلها قد نازعت الشعر مكانة مجده وسيطرته ، وهذا طرف من أطراف الأزمة في الشعر ، ومنشأها المجتمع الذي تنوعت فنونه حسب متطلباته ، لأن المجتمع يعطي نفس ما يتقبل في صورة أخرى • الطرف الثاني للازمة سرعـة الطباعة ولهاث الشاعر خلف دواليبها ، لكي يولد في كل فترة في اوراق ديوان ، حتى لاحظنا ان لبعض الشعراء ــ ولم يتجاوز الاربعين عاما ــ مايقرب من عشرين مجموعة أو يزيد ، فـ (لعبد الوهاب البياتي) الى الآن خمس وعشرون مجموعة كما أعرف • و (لسليمان العيسى) عشرون مجموعة و « لنزار قباني » ثماني عشرة مجموعة ، وهـذه الكثرة في الانتاج على حساب الجودة غالبا ، فالسرعة في الانتـاج طرف في الأزمة ، لكن منشأ هذه الأزمة الشاعر نفسه ، وإن كانت بتأثير العصر الذي يعدو عدو الرياح ، الا ان الشاعر لابد أن يفرق بين التأني في انشاء الأدب وبين سرعة الاسفار على طائرة أو قطار أو سيارة

فقد أصابت سرعةالعصر الشاعر بعدوى السرعة، فحاول أن ينتج الأدب باسلوب الاتصال التلفوني ، أو باسلوب سفر البريد أو باسلوب سرعة المطبعة ، فسرعة الانتاج بتأثير العدوى أو بحب الظهور الدائم، الطرف الثاني في الازمة الشعرية • على أن الاديب المنتج على علم بعقم هذه السرعة وقلة جدوى الكثرة بلا اجادة اكثر ، فكل الادباء يعلمون أن (رامبو) كان أكبر شعراء (اوربا) بشعر ثلاث سنوات ، كـانت بدايتها فجأة وكان انقطاعها على غير انتظار «،وبودلير » كان شاعر القرن التاسع عشر والخمسين الاولى من العشرين ، بأربعين قصيدة ، وديوان (المتنبي) من مائتين واحدى وثمانين قصيدة ومقطوعة ، وهي حصاد أربعين عاما ونيف تخلي فيها للشعر ، وكلما زاد سناً ونضجاً زاد إقلالا وإبداعا ، حتى انه في سنواته الاخيرة ، كان ينظم في العام ثلاث قصائد ، تستدعي أكثرها مناسبات ملحة ، وها نحن اليوم نعنى بالمتنبي أكثر من عنايتنا بشاعر معاصر لأنه كرر اعادة النظر ، فقرأناه وأعدنا لكي نفهم أكثر ما كتب وما كُتب عنه من عشرات الكتب أغلبها معاصرة ، لأنه كما شغل عصره بالاستيعاب والتعبير شغل أكثر عصرنا بالغوص فيـه ، فالشاعر اليوم مسؤول عن ضعف اتـاجه لاستجابته لدواعي السرعة واغراء الظهور المتوالي ، صحيح ان المجتمع سريع القراءة وقلما يعيد ما قرأ ، لكن الاديب ينتـج لجمهور الادباء وهم يتأنون في القراءة بمقدار أناءتهم في الكتابة ، وبالتالي لو تروّى الاديب وتعمق ، لاصبح القارىء اكثر روية •

اما الطرف الثالث في خيوط الأزمة، فهو القارىء نفسه فقد اختلفت ثقافات القراء واتسعت ، كما تنوع ميولهم السياسي والاجتماعي على حسب تلون المشارب الثقافية وان أدى هذا الى الخلط ثم الازمة ، فلم يعد القاريء يرتضي الفن الوسط ، وانما يحتـاج الى شعر يلذ بالابداع ويدهش بغرابة التصور والصورة والكشف ، لقد تكونت

الازمة الشعرية من زخرة الفنون ومن سرعة المنتج ومن تنوع ثقافة القارىء ومن اختلاف الاتجاهات السياسية ، فقد كان مجتمع القراء يفتتن بلون الفن اذا تكاملت له شروط الإجادة ، أما اليوم فمجتمع القراء يريدون شعراً يعبر عن طموحاتهم ويلتصق بهمومهم على اختلافها، ويحرك فيهم إنسان الداخل،ولا يهم أي قارىء معاصر،قضايا الجماليات الفنية ، اذا لم توضف في خدمة الجماهير ، صحيح ان القيم الجمالية ضرورية لكنها وحدها لاتغني عن المضمون الاجتماعي والمدلول الانساني القائم على فلسفة ، ولا تكفي عن الموقف الذي يصدر عنه الأديب ، ولسعة آمال المجتمع القارىء ورقيه الذهني تضاعفت مسؤولية الشاعر فنياً ومضمونياً ، وعندما جهلنا حقيقة الأزمة بحثنا عن أشكال تغطي وجه الأزمة وتلهينا عن معرفتها ومعالجتها .

إن الازمة الحقيقية في الشعر نشأت من الضعف الفني والتجزء المضموني ، وخطورة القارىء ، فقد أصبح المتلقي في مستوى المنتج من الناحية الثقافية ، فكيف يمكن ان يتفوق المنتج على المتلقي بعد أن زالت دهشة الفن والفنان ؟ لابد أن يكون المنتج أوفر ثقافة وحساسية من المتلقي ، ولا بد للمنتج من التأني ، ليخرج فنا فوق مستوى الجمهور المتلقي ، ومن صميم حياته ، لان الفن يتعالى على الحياة برغم أنها توحيه ، لكنه يعيد خلقها ويرد اليها معطياتها أشهى وأبقى ، ولا يمكن ان يتبلور فن شعري جيد الا بحساسية غير عادية وقدرة فوق قدرة الجمهور المتلقي ، ولقد عجز الفن الشعري في السنوات الأخيرة عن الارتفاع وعن امتلاك الواقع النفسي للقارىء ، فحاول الشعراء أن يسدوا هذا النقص بالمزيد من انواع التشكيل والشكل ، فلاحظنا شعراء عموديين ينشئون الشعر المرسل مجاراة للأسواق الكاسدة وكتدليل على القدرة في صناعة الشكل ، ولاحظنا شعراء تفعيليين ينشؤون الشعر العمودي تدليلا على القدرة وتفنيدا لتهمة

العجز ، وكل هذه مجرد اقنعة تتراكم على وجه الازمة الـكامنة في أصول الفن الشعري ، فمن اليسير جـدا على الشاعر العمودي أن يكتب شعرا مرسلا ، ومن السهل على الشاعر المتحرر أن يتقيد بالعمود والقافية لكن كل هذا مجرد صناعة وطلاء على أقنعة الازمة، أما الازمة فهي باقية لايعالجها مجرد التنقل من شكل الى شكل ، أو مجرد التفنن في تعدد الاشكال ، وانما يعالجها ابداع شعر عظيم على قاعدة فلسفية في شكل عمودي أو شكل مرسل أو نثري ، والشعر العظيم يستطيع ان ينتقي ارديته من أي لون أو من أي شكل ، لان الجودة تأتي من الافكار الشعرية فتفيض على الاشكال نضارة وايحاء • لأن جمال الحس والفكر يجدد الرداء ويشيع الحياة المشرقة في أبنيته والوانه ، مهما كانت هذه الأبنية ، نأخذ مثلا من معاصر مغرق ومن قديم موغل وكلا النصين من البحر البسيط ، ولا يحس أن النصين من بحر واحد، الا من يعرف البحور بدقة وبعد تأمل • قال : « النابغة الذبياني » :

يا دار ميـة بالعليا فالسند ... أخنت وطال عليها سالف الأبد

وعندماتقابل قصيدة النابغة بهذه القصيدة المعاصرة من موسيقى الاولى نحس الجدة والمعاصرة في قصيدة « معين بسيسو » من ديوان « فلسطين في القلب » فهذه القصيدة من مطلعها :

لك الجماهير أبنـاء بلا عدد ... فلست وحدك يا أماً بلا ولد

الى ختامهـا :

من لم تودع بنيها بابتسامتها ... الى الزنازن لم تحبل ولم تلد

هذه القصيدة على تقليدية موسيقاها العروضية مليئة بالمعاصرة ، فهل غير هذا الشكل من معاصرة قصيدة « معين » برغم انتمائها الى بحر قصيدة (النابغة) وعشرات أمثالها في الشعر العربي، يمكن لنموذج

آخر ان يثبت لنفس المقارنة ، نأخذ من قول الحماسي القديم ومن (علي محمود طه) شاعر الرومنتيكيةهذين النموذجين من بحر الهزج.

قال الحماسي : —

عفـونا عن بني ذهـل ... وقلنـا للقوم اخـوان
فلمـا صرّح الجهـل ... وأمسى وهـو عريـان
ولم يبق سوى العدوان ... دنّـاهم كمـا دانـوا

ويقابله من نفس العروض القمر العاشق « لعلي محمود طه » :

إذا مـا طـاف بالشرفة ... ضـوء القمـر المضنى
ورف عليك مثـل الحلم ... أو إشـراقة المعـنى
وأنت على فراش الطهر ... كالـزنبقـة الـوسنى
فلفي جسمك العـاري ... وصوني ذلـك الحسنى

فهل أدى الاتفاق العروضي الى تشابه أو تماثل ؟ اطلاقـا ، ان القراءة الأولى للنصين توهم باختلاف النصين على رغم واحدية العروض ، اما الموضوع فلا دخل له للاهتمام بالشكل هنا ، والمقارنة لاتعتمد على اختلاف الموضوعات في الشعر ، لان الشعر تعبير ، غاية طموحه أن يرقى الىذروة الموسيقى . اليست الجدةفيالروح والانفاس تخلق اسلوب الشكل ؟ فيتلون بمـا في داخله من زحمـة الالوان ، فيتبلور الشكل بأسراره الجديدة ، فليس هناك شكل قديم ولا شكل جديد وإنما تتلألأ الجدة من المعاني فتجعل ابنتيها وضاءة ، اذا كانت تملك الاضاءة من الداخل ، أما مجرد الشكل على أهميته فلا يوهم بإبداع اذا كان خواء من الحس الجديد والفكر المبتكر ، لأن جمال الاشكال يتوهج بفضل ما يتحرك داخله من تصور وحس متحرك ،

وليست اللغة الا ما يتقد داخلها من اسرار وافكار ومؤشرات ، فليست المعاصرة مجرد تعابير لغوية وإنما وجدان جماعي يمنح العبارة حيوية المعاصرة وسمة الفكر المعاصر ، فكل التعابير تتصف بالحياة وتتسم بها بمقدار ما تضم من أحاسيس حياتية ابداعية ، اما اللجوء الى الشكل لذاته بدون رؤيا بعيدة ، فهو مجرد قناع ، بل انه مغالطة لحقيقة الأزمة ، كما يدل أدب القرون الوسطى الذي تمظهر بسئات المحسنات والايقاعات كتغطية مفلسة • فهناك شعراء يجيدون المرسل وان حاولوا إيهام نفوسهم بالقدرة على العمودي ، وهناك عموديون يجيدون هذا اللون وان اوهموا نفوسهم بالقدرة على المرسل لان المسألة تهيء نفسي وانطباع داخلي على ضرب معين من النغم الشعري ، على ان صناعة الشكل في حد ذاتها لاتحتاج الى امكانيات كثيرة ، ففي امكان الشاعر العمودي كتابة المرسل بأقل مهارة ، وفي امكان الشاعر المرسل ان يكتب العمودي بمجرد قراءة بعض القصائد من نوعه ، فلا يحتاج الشكل الى قدرة خاصة ولا الى تجربة خلاقة ، لكن الذي يحتاج الى التجارب العسيرة هو الفن الجيد في أي شكل وفي أي نمط وعن فلسفة اجتماعية وامتداد رؤية ، تواكب امتداد الأداء النفسي المعبر عن مضمون انساني اجتماعي •

* * *

النظرية والنظر في الثقافة اليمنية

قسمت اللغـة العربية النظر الى قسمين : النظر العقلي وهو الذي يميز المفكر على سواه ، لأنه اكتشاف وملكة تمييز ، والنظر الحسي وهو الذي يتساوى فيه الانسان وسواه ، لأن الحيوان والانسان ينظران القمر والشمس والخضرة والغيوم •• إلا أن الانسان يستمتع برؤية هذه المناظر ، وأما الحيوان فهو ينجذب الى الخضرة ، لـكي يأكلها لا لكي يحس فتنتها •• على أن هناك من يرى أن حب الانسان للزهور والغصون يرجع الى النزوع المادي الكامن في نفسه ، أيام كان يأكل النبات ، ومن هنا يتماثل الانسان والحيوان في كل ما هو حسي • وإن كانت الضوابط لحس الانسان أكثر •• إذن فالمميز للانسان هو النظر العقلي ، لأنه يتخطى الظواهر الى الحقائق الكامنة وراءها ، وإن كانت الحواس تشكل أدلاء أو رسل الى مصادر الفـكر •

من هنا اتضح الفرق بين النظر العقلي والنظر الحسي •• كذلك تتشكل الفروق بين النظرية والنظر على مجيئهما من مصدر واحد ، وهو العقل التجريبي أو التأمل الاختباري ، إلا أن النظرية تتسم بالتجربة العلمية الخالصة المستقبلية التي تقوم على اكتشاف ، أو على استقراء الحفريات•وعلى إخضاع المسيرة البشرية ذو الرؤية الواقعية ، أما النظر العقلي فهو يتأمل ما هو منظور أو مسموع ، فيقبل عن

اقتناع أو يرفض أو يشك باحثاً عن اليقين ، والنظر وإعادة النظر هو أغلب سمات ثقافتنا اليمنية القديمة كغيرها من الثقافات الموروثة ، إلا أن لكل ثقافة مفاهيم مختلفة ، وتشكيل يلائم الشكل الاجتماعي الذي أنتج الثقافة وتقبلها ، وهذا يوصلنا الى السؤال ، هل للثقافة اليمنية فلسفة خاصة ، أم أنها متصلة بالفلسفة العامة للثقافة المشتركة ؟ قد يكون الجواب على السؤال •• سؤالاً آخراً ، هل عانت اليمن العزلة الرهيبة كما يقال ••؟

إن من يستقرىء الثقافة اليمنية لا يحس بين اليمني وبين سواه من شعوب الأمة ، أي انقطاع أو أي فرق ملموس •• إلا أن المسألة مسألة وقت لا أكثر ، فأغلب ما كتب في (بغداد) و (القاهرة) و (دمشق) و (القيروان) و (اشبيلية) و (البصرة) كتب مثله في (صنعاء) و (صَعْده) و (شَهارَة) و (زَبيد) و (بيت الفقيه) و (عدن) و (المُكلا) •

إذا كان الخليل بن أحمد الفراهيدي وضع أول معجم موسوعي، وهو كتاب (العين) فان (نشوان بن سعيد الحميري) بعده بمائتي سنة ألف (شمس العلوم) ، فكان أشمل من كتاب الخليل بن أحمد باعتبار أن اللاحق يضيف الى السابق ما جد من مصطلحات ، وما تبلور من أفكار،واذا أردنا أن تتجلى إضافة نشوان،فهي تتبدى في تحليل الاشتقاقات اللغوية،وكيف انشقت،وكيف أهمات بعض حروف الكلمات مثل « أيش » أي شيء ، بفعل الاستعمال اللساني المتعاقب ، وكيف كانت تقال تلك الكلمة قبل أن تعركها الألسنة ، ثم يلتفت نشوان الى وفرة من الكلمات العربية غير المدونة من أمثال كلمة (بس) بمعنى حسب، وكلمة (ريت) وهي بمعنى ليت وزيادة ، إلا أنها تختص بتمني الرؤية •• فبدلا من ليتني أراه تركبت كلمة (ريت) • ويستمر نشوان

في دراسته لتركيب الكلمات حتى أصبحت الكلمتان كلمة مثل (بعثر) (بعثُ ونشرُ) ومثل (تراءى) أي تبدى للرؤية أو رأيته بعد تمن للرؤية ، ومثل حضر الموت امتزجت الى اسم واحـد (حضرموت) فأصبح الاسم المركب بدلا من الفعل والاسم ، ومثل ذلك في الاسم المنسوب كعبدري نسبة الى عبد الدار ، ومرقسي نسبة الى امـرىء القيس ، والجمع عَبـادرة ومَراقسة . فـاذا أردنا أن نقارن بين كتاب (العين) الذي كتبه الخليل في البصرة ، وبين (شمس العلوم) الذي كتبه نشوان في صنعـاء (ولسان العرب) الذي كتبه ابن منظور في القاهرة ، فسوف نحكم للخليل بالريادة لسبقه الزمني ، والخطوة الاولى اذا كانت مضيئة هـدت خطوات على حين يمتاز نشوان بتقصي خماسيات الحروف ، على حين اقتصر الخليل على الثلاثي لكثرة شيوع الكلمات الثلاثية ، أما ميزة ابن منظور فهي تعزيز المفردات بالاشعار . وأجمل من كل هذه الميزة حسن اختيار الاشعار ، فلم يقتطف من الشعر مايدل على قواعده كما فعل النحاة ، وانما انتقى الاجود لكي يكون كتابه مرجع لغة وحديقة أدب ، على حين كتاب نشوان يدلنا على تطور اللغـة تبعا للتطور الاجتماعي باعتبارها أهم العلائق الاجتماعية ، وعلى الهيئات المنطقية في عـلوم اللسان ، وهذا مجرد مثل على اتصـال اليمن ثقافيا ، هذا من ناحية اللغة وعلومها باعتبارها أداة التفكير ولغة المفاهيم والمعاني والآراء . ولكن كتاب نشوان على ما فيه من اضافات يدل على بعد نظر وليس على نظرية تجريبية ، لانه جدد تجربة سابقة فكون اضافة هامة ان فاتها الابتكار فهي تجديد له ، ومثل ذلك كتب السنة التي بدأت تتمنهج من منتصف القرن الثاني الهجري عندمـا دعت الحاجة الى منهجة السنة . في شكل الجَرْح والتعديل للراوي وفي فرز المروي باللفظ ، والمروي بالمعنى ، وفي إثبات الاسانيد والتواتر والانقطاع

السندي ودراسة الرواة لمعرفة مصلحتهم من الوضع سياسيا أو عدم مصلحتهم لكي يستنبط المجتهد الحكم من أصح الروايات .

يقول أكثر من مؤرخ ان أبا جعفر المنصور استدعى مالك بن أنس وقال : يامالكأن العلماء يموتونوالاحياء لا يتعلمونكما قالابنمروان، ولم يبق غيرك وغيري وقد شغلتني الخلافة فهل لك في وضع كتاب ، توطئه للناس ، وعلى هذا كتب مالك كتابه (الموطــأ) أي الميَسَّر والمُسَهَّل ، وتلى مالك « صحيح البخاري ومسلم » ثم (مسند) احمد بن حنبل (وسنن) النسئي (ومستدرك) الحاكم والترمذي .. فهل كانت السنة في حــاجة الى مزيد من الكتب حتى يضيف اليهــا محدثو اليمن ؟ نعم لقد كانت دوافع المؤلفات اليمنية زمنية واجتماعية، لانهم كتبوا عن نظر بل عن حس ثوري بالنسبة لذلك الحين ، لأن اليمن كان يلتزم ثلاثة مذاهب مثل غيره من العواصم العربية .. بل ان بعض العواصم كانت تلتزم الأربعة المذاهب، ويستحر بين الأتباع من القتال ما يستحر بين أصحاب الملل ، أما المجتمع اليمني فقد كان يلتزم الزيدية مذهب الخلافة ، والشافعية مذهب مجــاميع كثيرة ، والاسماعيلية مذهب طوائفية ثورية ، الى جانب من المذاهب الفكرية كالمطرفية والصوفيــة ، فكيف يمكن التوفيق ؟ نظر ابن الأمــير والشوكاني وابن الوزير والمقبلي والجلال الى هذا الوضع فتصدوا لاصلاحه . فألفوا في السُنة عشرات الكتب وكان التأليف في هــذا الموضوع يعتبر مغامرة من ناحيتين : من ناحية الخروج على أساس الخلافة المعارضة للاجتهاد .. ومن ناحية اتباع المذاهب السلفية ، فقد أراد الشوكاني وأصحابه أن يرجع الناس الى المنبع الذي تفرعت منه المذاهب ، وهو الكتابان (المتلو والمروي) على أساس أن استنباط الاحكــام مــن الشروق القرآني والنبوي أسلم من التقليد ، واذهب للخلاف ، فماذا أضاف الشوكاني مثلا الى مؤلفات ابن تيمية وابن حنبل ومالك والصحيحين .

لقد أضاف الشوكاني الى تجربة من قبله ما سمي (بالموضوع والمجموع) واعتبر الشوكاني الموضوع قائما على أساس من شهرة حديث ، أو من اختلاف روايته ومن انقطاع سنده ، وأعاد النظر في طريقة البخاري في الجرح والتعديل ، فنظر الى الراوي ومصلحته وعدم مصلحته في الوضع ، بغض النظر عن سيرته ، فاعتبر شهرة كل حديث دليل صحته ، واضاف الشوكاني أصول الفقه الى جانب ما كتبه اليمنيون من قبله كالقمان والطبري في كتابيهما الموسومين بكافل لقمان وكافل الطبري ، فألف الشوكاني (ارشاد الفحول في علم الاصول) يلائم فيه بين وسائل الاستدلال في « الزُبَد للشافعي » وبين مُؤلّفَه .. وتجنب كثيرا من الاسس الشيعية في كافل لقمان وكافل الطبري باعتبارهما الفا عند تأسيس الخلافة الهدوية ، ولعل الثقافة اليمنية ، تميزت بالاكثار من التأليف في أصول الفقه .. لكي يسهل استنباط الاحكام من النصوص القرآنية والنبوية ، وهذا جانب آخر من الثقافة اليمنية صدر عن نظر في الاحوال .. وعن تأمل للصالح الاجتماعي من وجهتين شيعية عند الطبري ولقمان ، وسُنيّة اجتهادية عند الشوكاني وزملائه ، ولنلتفت الى جانب آخر ، كما كتب المسعودي في التأريخ (مروج الذهب) (وأنباء الزمن) وكما كتب ابن الأثير (الكامل) وكما ألف « الواقدي » (فتوح الشام) وكما ألف ابن خلدون (ديوان العبر) .. وكما وضع المقريزي (كتاب الخطط) أسهم اليمنيون في كتابة التأريخ الخاص والعام .. فكتب عبد الله الزواحي (الاسرار والشيم في تأريخ الامم) وكتب الهمداني التأريخ الخاص المسمى بالاكليل ، كما ألف الديبع « نور العيون في أخبار اليمن الميمون » ، وألف قطب الدين النهري (البرق اليماني) ، في الفتح العثماني ، وهنا تتساءل ماذا أضافت هذه الكتب ؟ .

أول ما يلاحظ المرء في كتاب الزواحي أنه يعنى بتأريخ الافكار

للامم ولا يهتم بالاحداث •• إلا على مقدار معطياتها الفكرية ، لأنه كان صاحب دعوة اسماعيلية •• وكان أستاذا لاكبر زعيم يمني هو علي بن محمد الصليحي ، أما كتاب الهمداني فهو يشبه ســواه من التواريخ الخاصة : كفتوح الشام للواقدي •• وكتأريخ مدينة صنعاء للرازي •• وكتأريخ بغداد للبغدادي •• اذن فماذا أضاف الهمداني ، هل هو أول من أرخ لملوك اليمن وأذوائهـا وأقيـالها وحروبهـا وحضـاراتها ؟ طبعا لا فلا يخلو كتــاب في التاريخ من أخبار سبأ وحِمْيَـر • وتبع • ومعين وقتبان •• إذن فما هو الجـديد عند الهمداني ؟ الجديد هذا الحس المعتز بحضارة تلك الممالك ، وفتوحاتها المؤزرة•• بينما تناولها المؤرخون القدامى بالحس الديني، فلم يذكروا سبأ وحِمْيَر إلا كما يذكرون قيصر وكسرى والفراعنة كمتجبرين •• وكيف بادوا ، لأن ملك الله هو الذي لايفنى وهم يعتمدون في هذا على دليل : لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن : (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية••واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) إلا أن الهمداني لايروي تأريخ أجداده بحس العظة وقصد الاعتبار•• وإنما بحس من يسجل مفاخر •• حتى أنه اعتمد على أغرب الأحداث ، وعلى الاساطير المصنوعة والمروية ، والى جانب هذا سبق الهمداني ياقوت الحموي بكتابه (صفة جزيرة العرب) فهيأ المجال لياقوت الحموي لكتابه معجم البلدان ، وتمتد الثقافة اليمنية الى علوم البلاغة والتأريخ الأدبي • فكما ألف عبد القاهر الجرجاني اسرار البلاغــة ودلائل الإعجاز •• أقتفاه يحيى بن حمزة فوضع في علم البلاغة (طراز الأسانيد) ويتفرد إبن حمزه على البــلاغيين ، تفرد إبن منظور على اللغويين •• فلا يكتفي إبن حمزة على الإستدلال بصحة الاستعارة أو فسادها وتساوق النظام ، أو على المجازات ، أو التشبيه ، أو الكناية ، أو التورية ، وإنما يختار من الأدلــة أبدع الأشعار •• لكي يصبح

كتابه علم أدب وأدب ، بالاضافة الى هذا فان أكثر شواهده من شعراء وشواعر اليمن •• ولولا طراز الاسانيد لما عرفنا الشاعرة (سعود المرهبية) ومراثيها للاسود العنسي •• اذن فقد شارك إبن حمزه فحول البلاغيين ، وزاد حسن الإختيار الفني فقد انتظمت المكتبة اليمنية ما انتظمت مكتبات بغداد أو القيروان •• إن لم يكن في الكم ففي النوع ، بالاضافة الى أن المؤلف اليمني كان يصدر عن نظر لمتطلبات بيئاته ، فاذا كنا قد عرفنا مشاركة المحدّثين واللغويين والمؤرخين والبلاغيين من أبناء اليمن ، فان القائمة لم تنته ، فكما وضع الزمخشري (الكشّاف) في علم التفسير أو في بلاغة اللغة القرآنية•• وضع الشوكاني في التفسير كتابه (الفتح القدير) عن نظرة أشمل في أسباب النزول وإشتراك المعاني •• إلا أن المقبلي في تفسيره يأخذ على الزمخشري ميوله الاعتزالي في التفسير ، لهذا كتب المقبلي (الإتحاف في الرد على الكشّاف) •• وشارك المَقْبلي أبا حامد الغزالي في صراع الفلاسفة فألف (العَلم الشامخ في إيثار الحق على الأباء والمشايخ) بالاضافة الى كتابه (الأبحاث المسددة في مسائل متعددة) بنية الرد غير المباشر على المعتزلة والقرامطة••إذن ماذا أضاف المَقبلي؟ يتسم كتابه (الاتحاف) بسمة تفسير معاني القرآن ، على حين أهتم الزمخشري بالاسلوب القرآني ولغته المعجزة من حيث مفرداتها وتراكيبها •• أما ماذا أضاف المقبلي الى الغزالي فهو هذا التهجم على الصوفية التي لم يشر اليها الغزالي لاشتغاله بالصراع مع الفلاسفة ، على حين يقسم المقبلي بين الزهد الذي يدعو اليه الدين ، والتصوف الفلسفي الذي تخطى الزهد وتجلى وجه الله ، بلا وساطة من أنبياء ولا ملائكة أو ماسمي بـ (الحلول) ، إذن فقد أضاف المقبلي نواحي جديدة غابت عن الغزالي أوجدت بعد وفاته •• كما أضاف الشوكاني

في الفتح القدير ، أسلوب المقارنة بين الحديث والآية القرآنية ، وتفسير الآية بالاخرى .

وكما تعددت المؤلفات حول شعراء كل قطر صنعت كتب يمنية في هذا الخصوص ، فكما كتب إبن بسام (الذخيرة) في شعراء الأندلس وكما شغل الثعالبي كتابه (يتيمة الدهر) بشعراء سيف الدولة بحاب .. كتب عماره اليمني (المفيد في أخبار شعراء صنعاء وزبيد) و (أنباء الزمن في احوال ممالك اليمن) .. اذن فلم يكن يمن العصور الوسطى الى عهد النهضة ، بمعزل عن التيارات الثقافية التي تشابكت في (البصرة) و (الكوفة) و (بغداد) و (القاهرة) و (قرطبة) و (القيروان) .. وإنما ألف اليمنيون في كل فرع من فروع الثقافة.. من لغة ، وفقه ، وحديث ، وتفسير ، وبلاغة ، وتأريخ عام ، وتأريخ خاص ، وتأريخ أدب وبلدان . كل ما يمكن أن تتجلاه من فرق إذ اليمنيين استفادوا من مترجمات الفلسفة دون أن يشاركوا في ترجمتها من اليونانية .. كبغداد ، وميزتهم أنهم تقبلوها على (سنيتهم وشيعتهم) بعد أن تطورت الترجمة الى أفضل ، ولم يرفضوها كالمغرب العربي والأندلس بحكم التعصب المالكي .. وإنما جادلها رجال السنة في أفكار رجالها ... بينما بنى عليها الشيعة فلسفة الحكم ، على أصول فيثاغورية وسموها أصول الدين بدلا من علم الكلام عند الكندي ، فألف إبن حابس: (الثلاثين المسألة الصغرى) و (الثلاثين المسألة الكبرى) وألف «أحمد الشرفي» كتاب (الأساس) وقد كانت هذه الفلسفة امتدادا لفلسفة الكندي ، والفارابي ، وإبن سيناء .. إ لاأنها تعتمد في مسألة الإمامة الفكر الفيثاغوري ، والافلاطوني ، في كتاب (النواميس) لإفلاطون ، وتضيف هذه الفلسفة جملة مسائل في العقل الكلي وفساد الكون .. إلا أنها تصل من كل هذا الى شرائط الإمامة وقداسة من تتوفر له ،

وهي في هذه النقطة فقط تلتقي مع الاسماعيلية ، إلا أنها تختلف عنها في قيمة الظاهرة ، لأن الاسماعيلية تفسر الظاهرة على (أقداس الباطن) •• بينما تعتبر فلسفة الشيعة وجوه الظواهر نوافذ الحقائق •• وان بعضها لذاتها وبعضها لحقيقتها ، ومع كل هـذا فلم تنبثق هذه الفلسفة عن نظرية تجريبية •• وإنما جاءت من نظر لما هو موروث أو كينوني، فأعادت النظر في تفسيره وتوجيهه والبناء عليه وهكذا توالت مسيرة الثقافة اليمنية حتى وصلت عهد النهضة ، فأشبه مثقفوا اليمن مثقفي أمتهم ، فكما اختلف واتفق جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، والكواكبي ، اختلف الوريث ، والعَزب ، والمُوشـِكي ، واتفقوا • كان الشيخ محمد عبده يرى الإصلاح الاجتماعي سبب الاصلاح السياسي •• باعتبار الساسة يصعدون من المجتمع ، ومثله أحمـد عبد الوهاب الوريث ، وكان يرى جمال الدين الافغاني أن الإصلاح السياسي سبب الإصلاح الاجتماعي باعتبار القيادة السياسية الرشيدة أقدر على تحريك المجتمع ، ومثله رأى عبد الله العزب وزيد الموشكي، لهذا تهجما على الإمام لأن سوء القيادة أدعى الى سوء أحوال المجتمع •• إذن فأي نقطة لم يصارع فيها اليمنيون فكريا ؟ إن هناك لونا واحدا من الثقافة لم تتعصب له الأجيال الماضية ، ولا عليه، ذلك هو الحضارة الغربية ، فقد تكونت الايدلوجية العربية من ثلاثة منازع •

رجال الدين يرفضون الحضارة الغربية جملة وتفصيلا •

والمعتدلون يرون اقتباس خير ما فيها ••

والمتطرفون يرون تغريب الشرق •

وهذا المجال من الصراع لم يخضه مثقفوا جيل العشرينـات

والثلاثينات في بلادنا لانعدام أسبابه ، لاننا لم نواجه فلسفة استعمارية أو تبشيرية أو دعوات ماسونية ، وإنما واجهنا مدافع تركية وقذائف انجليزية لاتعطي فلسفة وإن جاءت عن علم انجليزي وجهل تركي .. إذن ليست اليمن بمعزل عن حوادث العالم القديم والحديث وثقافتهما .. وإنما هي قوية الصلة بثقافة الماضي والحاضر ، واحداث الامس واليوم وكل ما كان ، يمكن أن يكون .

مجلة الجيش العدد (٨٧) يوليو ١٩٧٧

* * *

الأصول الأولى لمعاصرة الفكر اليمني

الموازنة نوع من الحكم غير المباشر ، لأنها تقوم على التفضيل وهو نوع من المشاركة في مزية أو مزايا ، وزيادة لطرف على آخر ، فاذا قلنا فلان أكتب أو أشعر أو أفكر ، فقد شركناه بغيره في فن الكتابة والشعر والتفكير ، إلا أننا لاحظنا تفوقه على سواه من مشاركيه . هذه هي المقارنة بين الأفراد ، ويمكن أن تقوم بين الشعوب لأن الاختلاف بين فرد وفرد في أكثر من سمه يدل على الإختلاف بين شعب وشعب . وهذا الاختلاف هو الذي يجر الى الموازنة والمفاضلة أو الموازنة فقط ، لأن المقارنة تنعقد بين نقيضين لمعرفة سر التناقض ومميزات النقيض عن النقيض ، وكما تفيد المقارنة بين النقيضين تفيد بين المتماثلين ، لمعرفة الاشتراك بينهما ولتجلي الزيادة لذا والنقص عند ذاك ، وعلى هذا فالمقارنة علاقة من علاقات الصلة ، وليست وسيلة من وسائل الإنقطاع لأن الاشتراك صلة وزيادة . واظهار الفروق يشخص كلا بما له من زياذة وبما له من نقص ، وفي تراثنا العربي عدة ذخائر من الكتب التي تمنهجت المقارنة من أمثال كتاب (الآمدي) « الموازنة بين الطائيين » : أبي تمام والبحتري ، فالكاتب يوازن من منظور معين بين الفنية الغنائية عند البحتري وبين الفنية الفكرية عند أبي تمام ، ويفضل الآمدي البحتري فيقابله (الصولي) بكتاب عن أبي تمام بعنوان « هبة الايام في شعر أبي تمام » ويفضل الصولي

أبا تمام لسبقه في ابتكار المعاني • قبل هذا الكتاب كتاب (الأصمعي «بين الفرزدق وجرير » وهذا الكتاب يعتمد على المقارنة، وإن كان يفضل الفرزدق لكثرة استعماله الغريب من اللغة ، إلا انه يفضل جريرا من ناحية تدفق الشاعرية والسخرية اللاذعة في الهجاء • وقد ولع العرب بالمقارنة فقارنوا بين بغداد وحمص وبين الحضر والبادية ، حتى أوصلت هذه المقارنة الى المناظرة التي زخر بها أدب القرن العاشر والحادي عشر ، كالمناظرة بين السيف والقلم ، وبين القيان والجواري ، حتى وصلت المناظرة الى أصناف الأطعمة ، إلا أن الفرق بين المناظرة والمقارنة جلي • تعتمد المقارنة على الموازنة وتلمس جوانب التفوق من خلال الفروق الدقيقة ، على حين تُعتبر المناظرة نوعا من المفاخرة أو من التعصب لجانب على آخر • وجاء العصر الحديث فأصبحت المقارنة أهم أنواع الدراسات ، لأنها الوسيلة لمعرفة نقاط الفروق ونقاط الإلتقاء بين فرد وفرد ، وشعب وشعب ، لان لكل شعب أصول تكوينية لتفكيره وتعبيره على حسب شكله الاجتماعي ، واسلوبه المعيشي ، فكيف تكونت الأصول الاولى لمعاصرة الفكر في بلادنا ؟ من المسلمات أن الازمنة كالأجيال لاينقطع بعضها عن بعض لان ما حدث في القرن العشرين نشأت اصوله قبل هذا العصر بعصر أو عصور ، لأن الأزمنة كالناس ، يتتلمذ الطفل في آخر شباب والده أو في كهولته ، ومن هنا تتوثق الصلات بين الاجيال توثقها بين الازمان إلا أن هذه الصلات لاتمنع من حدوث جديد يصل بالقديم ، أو ينقطع عنه جزئيا باعتبار الزمن صيرورة وباعتبار الناس حقل هذه الصيرورة ، لأنهم فاعلون لها ومنفعلون بها • من هنا يتبدّى من أول نظرة أن الفكر المعاصر تكون في بلدنا من ثلاثة عناصر :

١ ــ امتداد القديم •

٢ ــ لمح جديد الآخرين •

٣ ــ من محاولة الملائمة بين ماجد وما هو كائن وما كان •

وقبل الدخول في تفاصيل هذا يمكن أن تضيء هذه المقارنة علة هذه الاصول • نلاحظ أن الايدلوجية العربية تكونت من المحافظة على طريق السلف ، ومن محاولة الانتقاء من ابداع الآخرين ، ومن التطرف أو تغريب الشرق ، والى نقل الحياة الأوربية أو الانتقال اليها ، باعتبارها شكل الايديولوجية العربية • هناك تشابه في وجوه ، واختلاف في وجوه لاختلاف الشكل الاجتماعي ، والتكوين الثقافي ، فاليمن لم تواجه فلسفة استعمارية ولا دعوات تبشيرية وماسونية ، وبهذا لم تقبل هذه المذاهب ولم ترفضها لانعدامها ، بينما تقبلت بعض شعوب أمتنا هذه المذاهب ورفضتها ، ولعل أجلى دليل على تقبل هذا ورفضه مقاومة شيوخ الدين لكل ما هو أوربي إكتفاءً بما لدينا من التراث ، إمّا مطورا عند فريق كحزب الإخوان المسلمين في الأربعينات والخمسينات ، أو غير مطور باعتباره غنيا عن التطور كما رأى حزب شباب محمد بمصر • لكن هناك احزابا ومفكرين يرفضون كل هذا أو بعضه ، كالوفديين والعدليين ، فقد كانوا معجبين بالديمقراطية البريطانية وأساليبها ، ولكن ليس هذا هو المهم وإنما الأهم بالنسبة الينا في هذه الكتب التي شكلت ايدلوجية أو شبه أيدلوجية وهي تتشكل من ثلاثة جوانب • كتابات (سيد قطب) وزملائه تفلسف عصرنة الاسلام وتنقيته من الخرافات ، وكتب (سلامه موسى) و (شبلي شميل) وأمثالهما تدعو الى أورَبة الشرق والى نقل الحياة الأوبية أو لانتقال اليها باعتبارها من صنع العلم ، وتعزز هذا الثقافة الأدبية مثل كتاب الدكتور طه حسين « مستقبل الثقافة في مصر » بل كل كتب طه حسين والعقاد تؤَرب الأدب العربي قديمه وحديثه ، فقد درس طه حسين القدامى بطريقة الفرنسيين ، كما اعتمد العقاد ــ بل تتلمذ عن

بعد للأدباء الانجليز ـ فكتب « العبقريات والشخصيات » على طريقة « كارل في الابطال وعبادة الابطال » . لكن بلادنا من مطلع هذا القرن حتى الاربعين لا تكاد تعرف ينابيع هذه الثقافة ، وإنما عرفت ثمارها في أول مؤلفات طه حسين والعقاد وسيد قطب وسلامه موسى ، إلا أن مثقفينا من مطلع هذا القرن الى منتصفه تأثروا بكل هـذا بغض النظر عن معرفة منابعه ومنازع كتّابه لهذا لم يكن لهذه الثقـافة عمق في تفكير مثقفينا الاصلاحيين ، فقد كان أثر الماضي أغلب عليهم وان اختلف توظيف هذا التأثير كما لاحظنا عند « الطرماح » . اذن لابد من لفتة الى الخط الممتد من مطلع القرن السادس عشر حتـى أربعينات هذا العصر . لقد شارك علماء اليمن في رفع مداميك البناء الثقافي لأمتنا ، وتميز الباحثون في التاريخ اليمني بوضع الكتب حول فترات محدودة الزمن ، معروفة المصادر ، فوضع (الشوكـاني) كتاب « البدر الطالع بمحاسن مـا بعد القرن السابع » وبهذا أرخ الشوكاني لاربعة قرون حافلة بالأحداث والجدال الديني والصراع الهجائي الادبي ، كما ألف (ابن قاطن) (طبقات فقهاء اليمن) على حظوظهم من التحصيل ومراتبهم في الاجتهاد والتأليف . وتصنيف الفقهاء الى طبقات نوع من التاريخ أو نوع من السير لمجموعة معينة من الفقهاء المجتهدين ، لان الفقيه في تعبير (ابن قاطن) هو المؤلف المجتهد ، اما من يفسر لتلاميذه ماكتبه سواه فهو من الحفّاظ لا من الفقهاء ، وعلى هذا قسم ابن قاطن الفقهاء الى ثلاث طبقات : فقهاء وهم المجتهدون المؤلفون ، حفّاظ : وهم الذين يعلمون ما علموا ، علماء وهم الذين يعلمون ولو لم يؤلفوا ويعلموا ، وبهذا حاكى ابن قاطن طبقات (ابن سعد) أو طبقات (ابن المعتز) وان اختلف الموضوع واسماء الاعلام . لقد كان (الشوكاني) (وابن قاطن) المنبع الخصب

للمؤرخين من بعدهم في مطلع هذا العصر وآخر الماضي ، من أمثال (زباره) و (الواسعي) و (الجرافي) و (العرشي) ، فكما كتب الشوكاني ، كتب زباره « نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف » . وهذا الكتاب يجمع بين التأريخ السياسي والأدبي معا ، ومثله كتابه « نيل الوطر في نبلاء اليمن بعد القرن الحادي عشر » . من هنا تتبين امتداد أثر الشوكاني في المرحوم المؤرخ محمد زَباره وهذا يدل على نفسية عظيمة عند زَبارة ، لان هذا النزوع صورة الاعجاب بالشوكاني المحدث والوزير والشاعر ، فقد كان الشوكاني بموسوعيته في القرن السابع عشر علما يهدي ويهتدي ، ويقرب من زباره العرشي فقد كان يتوخى السجع إلا أن كتابه « بلوغ المرام » لم يحدد فترة وإنما حدد سيرة الامام المنصور ، وترجمة ابنه يحيى وصراعهما مع الاتراك مع استطراد الى من حكم اليمن من ملوك وأئمة . ويختلف الواسعي قليلا عن زباره والعرشي وإن كان يشبه ابن الاثير بتسجيل الاحداث على السنوات ، إلا أن اسلوب الواسعي أبعد قليلا عن السجع وأقرب قليلا الى اسلوب الصحافة ، وبالاخص في الطبعة الثانية من كتابه « تفريج الغمة والحَزَنْ في تأريخ اليمن » . كما يغلب على الجرافي في (المقتطف) الحس الفقهي الوطني معا . ويغلب على (ثابت بهران) في كتابه : (نزهة الناظر في مشايخ الإمام الناصر) تسلسل المشيخة من جيل الى جيل ، لأنه يؤرخ مكانة الاشياخ ومن يصبحون بالتلمذة أشياخا ، وكل هذه المؤلفات موصولة النسب بالقديم لانها تسجل الأحداث دون استنتاج أسبابها واستخلاص نتائجها ، فهي تشبه مؤلفات القدامى في التأريخ العربي أو اليمني القديم ، وان كان الواسعي أقرب في طبعته الأولى الى (الجبرتي) مؤرخ القرن التاسع عشر في مصر . تبرهن معطيات هذه الكتب جميعها على غياب الأثر العصري في هذه التواريخ بالرغم من أنها كتبت تحت شمس القرن العشرين ،

وبين زحام احداثه وهذا اللون من الثقافة لا يثير أفكارا ، لانه لا يعطيها إلا أنهـا خلفية خصبة لاستخلاص التأريخ الفكري من التأريـخ التسجيلي ، مثل هذا الجانب الآخر من ثقافتنا وهي الثقافة الفقهية .. بشقيها الحديث والاحكام من الحديث وقد بدأ تأليف الاحكام من أوائل القرن التاسع عندما ظهرت أصول الاحكـام (للهادي يحيى ابن الحسين) ، وهي تقدم الحكم جاهزا ينفذه القاضي دون معرفـة أدلته للثقة بمذهب المؤلف . ثم تلت هـذا الكتاب عشرات الكتب « كالزنين » للشريفه الدهماء « والبحر الزخار » (للمهدي احمد ابن يحيى المرتضى) و « شرح الأزهار » لابن مفتاح ، على « متن الأزهار » لأحمد بن يحيى المرتضى أيضا « والمعتمد » للفقيـه حسن الشبيبي « والبيان » لابن مظفر ، والأهم من هذه الكتب هي انها كـانت مثار جدل بين كتاب الفقه كأحكام وبين رواة الاحاديث والآيات كأصول للاحكام ، لان الجدل الفقهي أدى الى الجدل السياسي حول العهـد الراشدي والمرواني كأساس للخلافة أو لشرعية الخلافة العلويةوراثيا ، وقد امتد هذا الجدل حتى أصبح أفتك سـلاح يمني على الاكتساح التركي ، ومن هنا تتجلى أساليب الصراع الوطني بين اليمن وشعوب أمته العربية ، فقد كان الحس الوطني في اليمن مقترنا بالحس الامامي نتيجة الثقافة الامامية ، على حين كان الحس العربي ضـد العثمانيين قوميا خالصا بفعل الثقافة القومية الاوربية ، التي أشبهت نشوء القومية العربية فتلك نشأت لمقاومة الغزو النابليوني ونشأت العربية للتحرر من السلطان العثماني هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كان صراع العراق والشام ضد العثمانيين بقيادة التنظيمات السياسية باختلاف مناهجها ، على حين كانت القيادة اليمنية إمامية خالصة لانعدام التنظيم الذي لم تعرف عنه اليمن في ذلك الحين، كما عرفه الشام والعراق عن طريق الثقافة

السياسية الأوربية،لهذا اختلف أسلوب النضال عندنا لاختلاف القيادة وثقافتهاوثقافة قواعدها،وامتد التيار السلفي من النضال ضد العثمانيين الى النضال ضد الامام بنفس المنطق الشكلي ، وان كان لايخلو من لمحات معاصرة • وقد تبلورت هذه اللمحات في قصائد الرواد من الوريث الى الموشكي الى الزبيري ، وتجلت أيضا في الكتابات فقد كان يعتمد الوريث في كتابته الاصلاحية على عظمة الفتوح أيام الخلفاء ، وكيف انهارت الامة بانغماس امرائها في الشهوات ، كما تشير مقالات الحكمة التي رأس تحريرها الوريث أحد عشر شهراً • وهذا يشير الى المعاصرة السلفية عند الوريث ، فقد كان يشبه مصطفى كامل رئيس الحزب الوطني في مصر الذي كان يرى التخلص من الاحتلال العثماني والتعاون معه لكي لا يصبح الانجليز البديل عن الزعامة المصرية والقيادة الدينية معا، إلا أن مصطفى كامل اعتمد في كتاباته في جريدة اللواء على الحس الاجتماعي المعاصر في مصر ، بينما اعتمد الوريث على عظمة الرشيد وعلمية المأمون ، وانهيار خلفاء القرن الخامس والسادس ، ولعله بهذا كان يلمح من منظور اجتماعي أقرب الى التقليد منه الى المعاصرة الخالصة • ومثل كتابات الوريث أشعار الموشكي والعزب والزبيري ، فقد كان يعتمد الموشكي على المنطق الجدلي العريق في تأريخنا وفي تأريخ الشعر الشيعي والمناوىء للتشيع ، فكما كان يرى (الكميت والفرزدق) أحقية آل علي كانا ينافحان منطقيا عن هذا الحق ، كما كان (الأخطل والراعي) ينافحان عن الأحقية الأموية ، وامتد هذا الى العصر العباسي عندما انشق الهاشميون الى علويين وعباسيين ، فاذا كان (دعبل) يقول :

أرى أميةَ معذورين إن غدروا

ولا أرى لبني العباس من عُذُرِ

فقد كان مروان ابن أبي حفصة يصدر عن موقف عباسي كما يقـول :

أنـا يـكون وليس ذاك بـكائـن
لبنـي البنـات وراثـة الأعمـام

وكان أكبر محتج لآل علي الشاعر مهيار الديلمي من القرن الخامس الهجري ، وكان أحدّ جدلاً ، كما يقول في عام الجماعة كما سماه معاوية .

وفيم صيرتموا الاجمـاع حجتـكم
والناس ما افترقوا طوعا ولا اجتمعوا
والنـاس للعهد مـا لاقوا ولا قربوا
وللخيـانة مـا غـابوا ولا شسعوا

وعلى نفس النغمة ارتفع الجدل الشعري في اليمن ، أواخر القرن العاشر ميلادي ، كما يقول (نشوان بن سعيد الحِمْيَرَي) :

مهـلا قـريش لا أبـا لأبيـكم
مهـلا وهـل فيـكم إلـه يعبـد
منـكم نبي قـد مضى لسـبيلـه
أزعمتمـوا أن النبـوة سـرمـد

وقد نتج هذا الجدل عن الجدل الفقهي الذي نشأ عنه الجدل السياسي المعاصر من أول الثلاثينات حتى آخر الاربعينات من هذا العصر ، وإن تطورت مضامين هذا الجدل ، كما يقول الموشكي مخاطباً اليمنيين :

أأحسـنتموا بالمسـتبدين ظنـكم
وهم داؤكم لـو تعلمون الذي يشفي

نخيرتمـــوهم للتقــدم في الــدنــا
فــكانوا •• ولكن للتأخر والنسف

أو كما يقول الزبيري :

هب أنهـم خلقوا الأنام فهـل لمـن
خلقــــوه عهـد عنـدهم وذمـام

إلا أن الجدلية عند الموشكي تتسع وتمتد فتتطور عن شكلها المنطقي ، غير أنها لا تتخلى عنه ، كما يقول في ولي عهد الأربعينات :

تخـاصمنـا بالدين والدين موجـع
لأنـك قـد أدميت مهجته عـدّا

وإلا فهـل هتك النســاء وضربهـا
حلال ولو في دين من يعبد الصلدا

إذن •• فقد تطور المنطق الشكلي من الجدل الفقهي والنّسبي الى الموضوع الوطني الديني معا ، وإن لم يبرأ نهائيا من محاكاة السلف في أسلو بالجدل ، تبرهن هذه المعطيات كلها من ثقافة تاريخية ، وفقهية ، وأدبية ، ونضالية ، شدة سيطرة الماضي على الثقافة اليمنية الى منتصف العصر وضآلة المعاصرة ، وبالاخص في الشكل التعبيري • وهذا يوصلنا الى أن الايدلوجية اليمنية محرومة من الفلسفة ، وإن قامت على أصول مختلطة من الفكر ، إلا أنها في ملامحها العامة تشكلت من النزوع الديني والحس الوطني ، ومحاولة المزج بين ما كان وما جدّ على العصر ، إلا أن غموض المرحلة زاد غموض الايدلوجية ، غير أن مكوناتها الاولى تصلح أساسا لأنها بذرة حية قابلة للنمو ، ولأن نشأتها واكبت الشكل الاجتماعي البطيء الحركة •

ومع كل هذا ، فان ملامح العصر قد اختلفت من مطلع الخمسينات • وخفت وطأة الماضي رغم كل الجهود ، لأن الجهود الزمنية أقوى من محاولة التراجع ، والمسألة حسن استغلال التسيير للقافلة المتجهة الى الغد الأبهج ، مهما تعرجت الطرق فانها موصلة لأن السير غير متوقف والتعرج غير التراجع وغير التوقف ويمكن أن تتلمس فروقاً جديدة في الموضوع التـــالي •

مجلة الأضواء ــ العدد الأول ــ يونيو ١٩٧٦

* * *

بداية المفترقات في خطنا الفكري

لعل أعنف هزتين ، حركتا المياه الراكدة في تأريخنا : هما ظهور الاسلام ، ثم ترجمة الفلسفة اليونانية والأسمار والحكايات الفارسية الهندية •• وكانت الهزة الثانية وثيقة الصلة بالهزة الأولى •• ذلك لأن الاسلام ، قام على ثقافة ، فقد نتجت عنه ثقافات أغزر •• فلم يترجم العرب الفلسفة إلا لكي يتسلحوا بالجدال المنطقي ، للاقناع بالاسلام ــ أو ليحتج كل لمذهبه ــ كما فعل المعتزلة •• ثم كانت الفلسفة أدوات الجدال ، أما محوره فقد كان في الغالب دينيا ، وفي الأقل أدبيا وسياسيا واجتماعيا •

من هنا كانت الهزة التي أحدثها ظهور الاسلام ، سببا في الهزة التي أحدثتها ترجمة الفلسفة والعلوم •• لأن الحدثين انفجرا في حدة الحساسية ورهافة القابلية ، فقد كانت الفوضى القبلية ، تستدعي نظاما يجمع الشمل ويحل الوئام ، محل التناحر غير الهادف ، فجاءت الرسالة المحمدية فأقنعت بعد جهاد ، ثم كان التسليم المطلق يستدعي التساؤل واجابة التساؤل •• لأن الساسة قد استغلوا الدين ، وتناحروا باسمه ، من معركتي (الجمل) و (صفين) الى معركة (الزاب) •• فأثارت هذه الأحداث كوامن الشكوك ــ والشك بطبيعته قلق يبحث عن استقرار في اليقين ــ فكانت الفلسفة مثار السؤال ، وإضاءة الجواب •• وإن كانت المعارك الجدلية في غير صالح الدين ــ كقضايا مسلمة ــ فهي من عوامل تصاعد الفكر الديني ••

وأهمية الحدثين ، أنهما تفجرا في أمة حية تتفاعل بالحدث ، فتتحرق في ناره لكي تضيء •• وهذه هي الغاية المرجوة من الأحداث ، فكم انهمرت حوادث لم تثر فكرا ، لأنها وقعت في محيط موتى •• فقد كان المنتظر ، أن تؤدي الغزوات المغولية والتتارية والصليبية والعثمانية أخيرا ، الى رد فعل معاكس ، باعتبار الهجمات الاستعمارية تستفز مقاومتها •• إلا أن الأحداث تنير حياة الأحياء ، ولا تخلف على أنقاض الموتى إلا الرماد ••

فبعد هذه الأحداث •• تضاءلت قيمة الجدال ، لضآلة منابعه وموضوعاته ، فلم يعد الا مجرد ترديد لما قيل ، باستثناء الفكر اليمني ، الذي تصارع دينيا ولغويا ، عن حيوية فكرية منبعها ومحورها الصراع القرمطي الزيدي والصليحي النجاحي •• حتى وصل الى معاصرة المضمون الوطني •• وقد سبقت الاشارة في البحث السابق الى نوع الجدل النضالي من آخر الثلاثينات ، الى منتهى الأربعينات ، وكيف كان يتسم بالثقافة الموروثة وبالحس الاصلاحي ، فماذا جد ؟•

لقد جدت قضيتان من أهم القضايا الثقافية والسياسية : إحداهما مصرع (الامام يحيى) ذي القداسة المطلقة عند الشعب ، حتى ان مصرعه أشعر المجتمع اليمني بامكانية التغيير ، وانتقال السلطة من يد الى أخرى ، وهذا العامل نفسي •• وثانيهما أن الخمسينات بدأت بالركود ، والانقطاع ، أو شبه الانقطاع عن أحداث الأربعينات وأفكارها ، وذلك بفعل نكسة الدستور (شباط سنة ١٩٤٨) ودموية الانتقام من الانقلاب والانقلابيين ، ومايتصل بهذا ••

لهذا بدت الخمسينات حزينة الوجه ، محمرة العيون ، على وجهها ملاسة الصخر ، وعلى شفاهها صمت المقابر •• ولم يكد يمضي عامان وبعض العام ، حتى اشتعلت الرؤوس بالأفكار ، وانطلقت

الألسنة بالنقاش ، بيد أن هذه الأفكار وذلك النقاش ، كانت منقطعة عما قبلها ، بل وبعيدة عن المحلية ، وان اتصلت بجوهر القضايا المحلية لواحدية أهداف الشعوب وتشابه تجاربها •• وصحيح أن لهذا البداية جذورا من الأربعينات ، وان كانت تلك الجذور ، أصداء لأحداث خارجية •• فقد شغلت الحرب العالمية الثانية ، حيزا وسيعا من أدمغة مثقفينا •• فكانت صفحات مجلة (الحكمة اليمانية) ترفع أصابع الاعتراض في وجه تجار الحروب ، إلا أن الإعداد للانقلاب في اليمن ، كان أحر حيوية •• ولما انتكست الحركة خمد كل سؤال أو نام مؤقتا •• لهذا أطلت الخمسينات بوجه كالح ولكن مختلف •• ولم تكد أصداء ثورة (مصر) تصل الى (اليمن) حتى استنطقت الصمت ، وأشعرت الأحياء أن الحياة لا تتوقف ، وأن ما حدث هناك ، يمكن أن يحدث هنا •

من هنا بدأت تخصب الخمسينات ، بالحس الثوري ، أو بأصداء الثائرين • هذا من جهة •

ومن جهة أخرى ، فقد بدأت الثقافة ، ترتدي ألوانا مغايرة •• فبدأ مجتمعنا ، يقرأ الصحف اليومية ، ويسمع الاذاعات بشكل واسع ، ويناقش كل ما قرأ وكل ما سمع ، حتى انقطع التفكير الجديد ، عن التفكير القديم أو كاد •• فلم يعد الخلاف بين أفضلية (علي) و (معاوية) قائما ، بل لم يعد النقاش بين الحلفاء والمحور ذا أهمية ، لأن الانفجار الجديد القريب المكان ، استولد أحاسيس جديدة ، من أرض تملك سر الخصوبة ، وسر قابلية الأحداث •• وتنيجة لهذا أطلت براعم جديدة ، من المحاولات الفنية ، بفعل الحس الجديد ، وبفعل ظروف محلية ، فبدأت المسرحيات التاريخية ، تشارك القصائد الشعرية ، أو تحل محلها ، وقد نشأت المسرحيات في المدارس الثانوية والمتوسطة

بـ (صنعاء) و (تعز) ، وكانت أعياد الجلوس الإمامي المناسبة الوحيدة ، الملهمة لهذه المسرحيات ، وإن كانت لا تمت الى موضوع المناسبة •• فقد كانت كل المسرحيات ، مستمدة من التأريخ ، كمسرحية « اليرموك » وفتح (القادسية) ويوم (الهجرة) وفتح (الأندلس) وهزيمة الصليبيين على يد (صلاح الدين الأيوبي) ••

وكان بعض الأساتذة ، يعد هـذه المسرحيات ، من المواد التأريخية الجاهزة ، وكان التلاميذ أحيانا يمثلون مسرحيات كتبت في (مصر) ، أو الشام ، كمسرحية (محمد) لتوفيق الحكيم ، و (أم القرى) للكواكبي وأمثالهما ، على رغم بؤس أول الخمسينات ، فقد بدأت تثري ، وان كان ذلك الفن لا يدل في تأليفه على معاناة وأصالة ، لأنه كان جاهزا أو شبه جاهز ، إلا أنه يبرهن على عراك مكبوت في النفوس ينفس عنه الصراع الوهمي على الخشبة •• ومن جهة ثانية يدل على أن مجتمعنا بدأ يتمسرح ذهنيا ، ويميل الى الفن الحواري المبسط ، بدلا من الشعر المركب ، ولو نمت تلك البذرة بلا انقطاع ، لكان مسرحنا على حال أفضل ، لأن هذه البداية ، كانت فاتحة المسرح في كل العواصم العربية تقريبا •• وبرغم أن تلك المسرحيات تأريخية اسلامية ، فقد كان الرجال التقليديون يسخطون من هذا اللون ، وان تمتعوا بمشاهدته ، لا لشيء إلا لأنه جديد ويستدعي أبطالا من العدو المحارب ، والعربي المقاوم ، إلا أنهم لم يستطيعوا نقده لجدته ، وإن كان موروثا في موضوعه كفن الشعر ، فقد حكم الاستئناف على الأبطال الذين مثلوا قادة الفرس والصليبيين ، بتجديد اسلامهم (لأن من تشبه بقوم كان منهم) •

المهم أن بداية المفترقات بدأت تلوح ، وان الانقطاع عن الماضي بدأ يتسع ، وقد كان لهذا سلب وإيجاب ، سلب من ناحية الانقطاع

عن الجذور ، وإيجاب من ناحية إمكان تجذير ثقافة جديدة لو تهيأت التربة أفضل .. إلا أن الأعمال البدائية ، اذا وقفت في خطوتها الأولى ، غير مأمولة النفع .. فقد أصبحت الثقافة المحلية مرفوضة أو شبه مرفوضة ، لصلتها بسياسة الحكم المرفوض .. فقد كادت المدارس التقليدية أن تتعطل في مدائن الأقاليم ، (كجبلة) و (شهارة) و (زَبِيْد) و (صعدة) و (ضُوران) و (ذَمارْ) .

وتزايد الاقبال على المدارس الثانوية التي لا تصل الى مستوى إعدادي اليوم ، غير أنها كانت بما فيها من بعض الحداثة ، أكثر جذبا لطلاب العلوم .. ولم يبق من المدارس التقليدية الا دار العلوم (بصنعاء) ، لأن التخريج منها دخول في الوظيفة كالقضاء وادارة المحافظات .. لأنها كانت بين السلفية والحداثة ، كدار العلوم (بالقاهرة) ، على أن طلابها في الخمسينات كانوا مفقودي الحماس لمنهجهم ، إلا لما يرتبط به من نفع في آخر الشوط .

لهذا اتسم نقاش النصف الأول من الخمسينات ، حول الثورية وقيام الجمهوريات وقراءة ما يصدر عن الدول الثورية ، من كتب ومجلات وصحف وإعلام مسموع .. ومن ذلك الحين نزلت السياسة من أبراجها ، الى مقائل القات ومقاعد المقاهي ، والى الطرق العامة والمزارع .. لأن السياسة قد ألقت أقنعتها ، بفضل ما كتبه مفكرو الهند عن الاستعمار ، وما كتبه مفكرو العرب ، عن شرعية الثورة ، وعن أهداف الاستعمار ، وحتمية انتصار الشعوب .. ولم يعد هناك أي نقاش عن (الحسين) وعن (يزيد) أو عن العلويين والعباسيين ، أو عن نواقض الوضوء ومفسدات الصلاة ، ومذهب الكوفيين والبصريين في النحو ، كما فصّل البحث السابق نوع هذا الجدال .. بل بدأ مثقفو الشباب يرفضون الشعر لارتباطه بالقصور وسادة

القصور •• ولم يكن ذلك الرفض ، يرجع الى الشباب وانما يرجع الى نوع شعر تلك الفترة وما قبلها •• فقد كانت الصحف اليمنية الثلاث : الايمان ، النصر ، سبأ ، بعيدة عن هموم المجتمع المتطلع بتزمتها الرسمي ، واعتمادها على المراسيم الملكية وتهاني الامام ومن يعطف عليهم الى جانب المدائح الفضفاضة بمناسبة وبلا مناسبة •• وأدب الانحطاط كالألغاز والأحاجي والتاريخ الأبجدي •• ولم يستعد الشعر مواقعه في (اليمن) الشاعر ، إلا بعد أن فكر الشعراء بتفكير الجماهير ، فأجادوا التعبير عنها ، الى جانب الذكرى الحميمة لثوار ١٩٤٨ ، الذين سكن صوتهم ، ولم يبق إلا أنفاس مغتربة ، يرسلها (الأستاذ الزبيري) من باكستان ، وقد كانت هذه الأنفاس الزبيرية غير ما عرف المثقفون عنه ، لأن شعره في ذلك المهجر ، كان مديحا (لمحمد علي جناح) زعيم الباكستان آنذاك ، أو جدالا الى جانب سياسة الباكستان ضد الهند • ولم ترن للزبيري في بداية الخمسينات ، قصيدة وطنية خاصة ، إلا تهنئة صديقه (الأستاذ نعمان) بالافراج من السجن ومطلعهـا :

أيبعث (نعمـان) مـن قبره   وينسل من قبضتي أسره

وبعد أن تفرغ القصيدة من التساؤل والتهاني ، تشيد بسجان (نعمان) وزملائه ، إغراء له باطلاق المزيد من السجناء •• وقد كان الشعر هو الذي أطلق (الأستاذ نعمان) قبل شعر التهنئة •• وذلك عندما حول له (الامام) مائة ريال وأمر بفك قيده ، فبعث النعمان برقية من بيت شعر للبحتري :

أمر العطاء ففاض من جمّاتِه   ونهى الصفيحَ فقرَّ في أغماده

وكان الاطلاق هو الجواب •• ولعل أريحية (الامام) للشعر ، قد أهاجت في (الزبيري) ذكرياته القديمة ، إلا أن كل هذا الشعر

لم يصل الى نفوس الجماهير المتطلعة ، لاقتلاع الممدوح ، لكي تنتهي عادة المديح المتزلف •• أما القصائد الفنية التي كانت تزخر بها الصحف ، فبعضها تجاوز المديح الى الغزل الخاص ، وبعضها تجاوز العموميات واستبطن ذاته •

كل هذا والشعب يتقد ثورة ، وتفاعلا بالثورات •• ولبلاغة النفوس بنار الأحداث ، لم يعد هناك من يناقش بلاغة القصيدة الذاتية أو الوصفية ، وإنما وطنية البلاغة •

لهذا كان حدث ٥٥ م المفترق الثاني ، أمام قافلة الجماهير كلها ، بما فيهم الشعراء ، حتى شعراء البلاط •• فقد أصبحت الوطنية بشكل أو بآخر ، أسرار الشاعرية ولغة الشعر •• واتجهت البلاغة الشاعرة والكاتبة الى صراع الاستعمار في الشطر الجنوبي تصريحا ، وصراع الاستبداد في الشطر الشمالي تلميحا ، وتصريحا في آخر الأمر •• حتى وصل عنفوان التحدي في آخر الخمسينات ومطلع الستينات •• من هنا عرف محررو الصحف وكتاب الشعر ، الطريق المؤدي الى الرسالة ، أو الى الشهرة الحقيقية ، أو الى المشاركة الاجتماعية على الاقل ، وساعد على هذا خفوت بريق الإمامة ، وتداعي أوضاعها، حتى أصبح التفكير في ثورات الآخرين، وإمكان الثورة في بلدنا هو مثار النقاش، وفي صورة شبه علنية، لأن الشعب قد قهر الخوف داخل نفسه، فأرغم قاهره على الصمت أو على التغاضي، وقد كان يعتبر التغاضي بُعد نظر أو عجزاً عن إسكات الشعب ، ومهما كانت أسبابه ، فالأهم هو تنوير الرأي العام ، واقتباس نار الكلمة ، من جذوات القلوب الوطنية •• فقد اختلفت سمات التفكير والتعبير ، لاختلاف طبيعة التلقي عن الشعب ، من بداية عام ٥٦ حتى سبتمبر سنة ١٩٦٢ م ، حين تحدثت نار الثورة ، فتجاوزت بلاغة كل قول •• فقد بدأت

الخمسينات ذاوية خرساء ، ولكن لكي تنفجر •• وعندما بلغت ثورة سبتمبر ذروة الانفجار ، امتدت من الخمسينات كل نبات البذور ، كما أزهرت وأثمرت أكثر البراعم •• إلا أن المناخ العام ، كان ملبداً بدخان الحروب المفروضة ، وبصراع الانتهازية والثورية •• ولما وصلت الحرب الى شاطىء السلام على أي شكل ، بدأ المثقفون اليمنيون ، يلتفتون الى الينابيع التي جاءت منها سيول الأحداث ، وأفواج الناس ، والى التيار الذي امتدت منه الأفكار •• وبفعل إفاقة الحس الوطني ، تزايد حب الثقافة اليمنية ، وحب المزيد منها ، وبالأخص ثقافة هذا العصر ، لاتصال حلقاته ، ولانبثاق بعضه من بعض •• فتوالت المجلات الشهرية ، تعنى بفلسفة تأريخنا المكتوب ، وكتابة غير المكتوب •• لأن لكل أمة تاريخا مكتوبا ، وتأريخا يحلم بالمداد •• ولعل ما لم يكتب ، أهم مما حملت الكتب الى الآن ، لأنأغلب المكتوب، سجلا للأحداثالرسمية ، وسير الأئمة ، ووزرائهم، وشعرائهم •• وقد أثار هذا الاتجاه ، ثلاثة أسباب :

الأول : استقراء الواقع ، واستيلاد الجديد من الموروث •

السبب الثاني : أن من يجهل أمسه ، يضيّع غده ، لأن الغد لا يأتي فجأة ، وإنما من إرهاصات الأمس واليوم •

السبب الثالث : زيادة البعثات الدراسية من (اليمن) الى العالم ، وبالعكس ، واهتمام العالم بهذا المكان من شبه الجزيرة العربية ، لسببين :

الأول : وجود نظامين مختلفين في الشطرين •

الثاني : قرب شطري اليمن ، من منابع الطاقة •

فلا يكاد اليمني ، ينزل أي شعب ، إلا والأسئلة تحيط به وتلاحقه ، عن وطنه ،عن ثوراته وثرواته ، أعلام حركاته ، نوع فنونه ،

تطورات آدابه ، امكانيات مستقبله •• فلا يجد اليمني مخرجا من الإحراج ، إلا بمعرفة ثقافة وطنه ، باعتبارها سر التغيير ، وباعتباره أعرف بها •• لأن كل مواطن في كل دولة ، أدرى بثقافة وطنه ، وأطوار أجياله •• لكل هذه الأسباب وغيرها كثير ، تركز اتجاه المثقفين ، الى غير المكتوب من ثقافتنا ، والى ثمرات الأقلام اليمنية ، وكيف أثرت وتأثرت ، وكيف اقتطفت الإبداع ، لكي تعنقده للقاطفين •• فاذا كان مثقفو الأربعينات وما قبلها ، غارقين أو نصف غارقين في الماضوية ، فان بداية الخمسينات كانت غارقة في حديث الآخرين •• وهي بهذا تعاني ، نصف غربة في الداخل ، الى جانب غربة في الخارج •• واذا كانت بداية الخمسينات الىآخرها،مشدودة بثورات(مصر والعراق)، فان بداية الستينات ، كانت نهاية التمخضات ، ولأن الولادة وجع وأفراح ، فقد بلغ الوليد اكتمال الوعي ، بجذوره التي جاء منها ، ومنبته الذي ينمو عليه •• فكانت آخر الستينات وبداية السبعينات الى الآن ، تكوّن مفترقا جديدا ، يتجه من الوطن اليه ، فيستعيد كل حي دفنه الركام ، ويبذر فنا وثقافة جديدة الروح والسمات على أخصب تربة وتحت أنقى مناخ •

مجلة الكلمة ــ العــدد ٤١

* * *

الأفكار الواردة والأفكار المستوردة

عندما تعممت المعرفة أخذت تُعرّف كل شيء ، وحتى الانسان الذي وضع التعريفات ، أخذ يبحث عن تعريفاته ، فوضع الى جانب التعريفات القديمة ، تعريفات جديدة ، فقد عرّف « أرسطو » الانسان بأنه حيوان ناطق ، وكان هذا التعريف كافيا ، لأن (أرسطو) لا يعني بالنطق رفع الصوت ، لأن هذه الصفة تنطبق على كل ذي صوت من الحيوانات الطائرة والماشية ، وإنما معنى ناطق ، مفكر معبر عن أفكاره ، هذه أولى تعريفات الانسان ، ومنها تفرعت أكثر التعريفات ، فقالوا : ان الانسان حيوان ذو تاريخ ، ولكن اكتشف أن للحيوانات تواريخها ، وبالأخص الحيوانات النافعة ، كالخيول والإبل ، فقد كان العرب يؤرخون لهذه الفصائل ويدرسون أنسابها كما يدرسون أنسابهم، فيقال الخيول الأعوجية والجبائية والجوفية، ومثل ذلك السيوف ، والرماح ، والدروع ، فقد اهتموا بأنسابها المكانية والزمانية ، فقالوا سيوف يمانية وهندية ، ورماح خطية ورُدينية ، ودروع سابرية وطلاسية وكل هذا تأريخ أنساب .

ثم قالوا ان الانسان حيوان مكْتشِف، وهذا التعريف يرجع الى نوع الكشف والمكشوف، فاذا كان المكْتشَف يدل على المغامرة العقلية لتجلي حقيقة أو ابتكار نظرية علمية فهي صنعة إنسانية، وإلا فللحيوانات

اكتشافاتها لأنها اهتدت الى الكهوف ، والأوجار ، والأوكار ، وأعالي القمم ، فحمت نفسها ،كما حمى الانسان نفسه ببناء البيوت والقلاع .

ثم قيل إن الانسان حيوان مجرب ، وهذا يرجع الى نوع التجربة ، لأن الفصائل الراقية من الحيوانات تستفيد من التجارب ، وبقدر أقل ، ومن هنا نعرف ان هذه الصفات مجتمعة تكون الانسان ، فهو ناطق لأنه مفكر ، وهو صانع التأريخ لأن أعماله مادة التاريخ ، وهو مجرب لأنه مكتشف ، وهو كل هذا لأنه مفكر ، وهو مفكر لأنه يأخذ ويعطي ، ويَهدي ويُهتدى به ، ففي كل عصر من العصور تنقلت الأفكار من بلد الى بلد لأن للأفكار سرعة الانتقال كالأضواء ، والانسان بطبيعته يحن الى المفقود ، كما يحب الاضافة الى الموجود ، وكلما كانت الأفكار أغرب وأجدّ كان تقبلها أكثر ، وهو يتقبل أفكار سواه أو يرفضها لأنه مفكر في ذاته ، فعنده أصول التقبل وأصول الرفض بحكمه مفكرا ، وقبل المواصلات السريعة واللقاءات المباشرة وغير المباشرة بين العالم ، وردت الأفكار بلا استيراد ، نأخذ مثلا على هذا فكرة البعث في الحياة ، فقد كانت من أفكار الكلدانيين ، فقالوا : ان (عشتار) آلهة الخصب تموت كل خريف وتبعث كل ربيع ، وانها عند موتها تغوص في التراب لتبعث (تموز) إلـه الصيف ، فقد كانت فكرة الموت والبعث في الحياة كلدانية ، انتقلت الى جزيرة العرب ، فاعتبروا أن كل انسان يموت لا بد أن يرجع الى الحياة ، لهذا كانوا يقولون عند دفن الميت (لا تبعد) أي لا يطول غيابك ، وقد أشار الى هذا « مالك بن الريب التميمي » المتوفى عام ٣٥ هجرية في قوله :

يقولون لا تبعد ، وهم يدفنونني   وأين مكان البعد إلا مكانيا

وهذا هو التعبير المباشر عن بعث الميت في الحياة ويماثله تعبير غير مباشر للخنساء في قولها :

يذكرني طلوع الشمس صخرا فأبكيه لكل غروب شمس

فقد تصورت الشاعرة أخاها الميت في صورة الشمس التي تغرب ليلا لتشرق صباحا ، بل امتدت هذه الفكرة الى العهد الأموي ، وأصبحت مذهبا التزمته طائفة الكيسانيين الذين انتظروا رجعة « محمد بن الحنفية » بعد موته ، وعبر عن هذه الفكرة الشاعر الكيساني « كثير عزة » :

وسبط لايذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تَغَيَّبَ لا يُرى فينا زماناً «برضوى» عنده عسل وماء

ثم تطورت هذه الفكرة الكيسانية وامتدت حتى كونت مذهب المهدي المنتظر ، وقد جاءت فكرة البعث في الحياة الى الجزيرة العربية من بابل ، ثم امتدت وشاعت ، ولا تزال شائعة الى اليوم نتيجة انتظار المخلّص ، مما تعانيه الشعوب ، لأن الأفكار بطبيعتها سريعة الانتشار ، ولما دخلت الحضارة العربية عهد استقرارها ببغداد وتوالت الأفكار المعروفة في عالم ذلك الحين ، انتقلت الى الفكر العربي حكمة الهند عن طريق « كليلة ودمنة » ترجمة « عبد الله بن المقفع » ونتيجة للازدياد من الأفكار انشأ المأمون دارين للحكمة والترجمة فترجمت فلسفة « افلاطون » « وفيثاغورس » « وارسطو » « وابيقور » كما شاعت المزدكية والزراد شتيه والمانوية من الفكر الايراني وكونت عقائد فكرية تسمت عند الفقهاء بالزندقة • وبفعل هذه الزخرة من الأفكار لاقت القبول كما لاقت المعارضة ، إلا أن الكل استفادوا من هذه الأفكار ، فالمعارض يحتاج اليها كحجة على المتقبل ، لان من يجادل الفيلسوف مضطر الى معرفة فلسفته وبهذا

أثرت الفلسفة على كل فروع المعرفة والفنون ، فدخلت الشعر ، والنثر الفني ، والفقه ، والسياسة ، وعلم اللغة • وانعكس التأثير على المؤلفين فسمعنا من النحاة حقيقة الاسم وحقيقة الفعل ، وسمعنا من الفقهاء الاصل ، والفرع ، والعلة ، والحُكْم ، وسمعنا من الشعراء الجوهر والعرَض والطبائع الأربع كما حددها (ببقراط) وادخلت الى الفتاوى والمؤلفات الفقهية مسائل الإجماع ،والقياس ،الجزئي والكلي والا متجزىء وكل هذه المصطلحات من ثمرة الثقافة الفكرية الوافدة من اليونان ، أو الرومان ، أو الفرس والاصول العربية • وحتى الذين عارضوا هذا التثقف اضطروا الى معرفته كما نلاحظ في قول «ابن قُتَيْبَة»:

لقد جد علينا مالا عهد لنا به ، فقد كان الصدق يغني عن المنطق والشيء في ذاته يغني عن معرفة أصله ، ووجود الظاهرة تكفي عن معرفة العلة أو السبب •

وكان « ابن قتيبة » يقاوم هذه الأفكار ويعرفها في نفس الوقت ، وكان يعارضها من وجهة فقهية ، كما عارضها البحتري من وجهة شعرية فاعتبر الشعر فناً غنائياً صافياً يثير بالايقاع ولا يحتاج الى التعقيد المنطقي :

الشعر لمح تكفي اشارته
وليس بالهذر طُولت خُطَبَه
ولم يكن (ذو القروح) يلهج بالمنطق
ما نوعه وما سببه

فقد كان المتلقي والمقاوم يتثقفان بهذه الأفكار ، إما للاستفادة منها وإما لجدال المتمسكين بها ، ويمكن أن يكون (الغزالي) أعلى الأمثلة في الرد على الفلسفة بالفلسفة ، لأن المجادل يحتاج الى معرفة حجة من يجادله ، لكن هل هذه الأفكار واردة أو مستوردة ؟ كل الأفكار بطبيعتها واردة لأن الانسان حيوان مفكر ومن يملك الفكر ينزع الى

معرفة أفكار غيره ، بهذا تثقف كل عصر في كل بلد من ثمرة العصور السابقة ، ومن ثقافة العالم المتصل به ، ولقد كانت الجزيرة العربية في الجاهلية وثيقة الصلة بالشعوب المتحضرة ، عن طريق التجارة ، وبهذه الصلة على ضيقها ، عرف العرب أكثر أفكار الأخرين لأن كل انسان محب للمعرفة بفضل نزعة التفوق فيه وحب الاكتشاف ، وفي العصر العباسي احتضنت اللغة العربية كل التيارات الفكرية ومدتها الى عصرنا ، واليوم ونحن في عصر المواصلات السريعة ، وعصر الالتقاء ، حتى أصبح العالم كقرية ، لابد أن تتلقى أفكارا ونعطي أفكارا مادمنا نحمل أدمغةً تفكر ، لأن من يعرف يحب المعرفة في الآخرين والمهم حسن الاختيار وبعد حسن الاختيار، حسن الاستخدام،والمهم أن نكتشف على ضوء الفكر مكامن قوتنا ومواطن ضعفنا،وبمعرفتنا نفوسنا نعرف من أين نبدأ وكيف ؟ لأن الواقع يتحرك من حولنا ، ومن تحتنا ، ولا نقدر على تسييره الا بالفكر المثقف والاستزادة من التثقف ، والتفكير ، لأن الواقع لايبدو في أحلامنا وانما يتحرك من خارجنا ، ويمتد الينا • ولعل الواقع أخصب مادة للفكر لأن للفكر موارد كما له منابع ، وليست المعرفة الفكرية مقصورة على الكتب ومناهج الدراسة ، وإنما كل قضية وكل شيء يعطي فكرة ويلهم رأياً ، مادمنا نملك الملكة الفكرية والحس العلمي • ومن يحب أن يعرف نفسه عرفها من تجارب غيره ومن وقائع تجربته ومن هذين المصدرين ينشأ الانسان الكاشف المكتشف والمؤرخ والتاريخ والمفكر والمعبر •

مجلة الكلمة العدد (٧) السنة الثالثة يوليو سنة ١٩٧٣

الجسور والحفر في خطنا الثقافي

كما أن للأشجار جذورا تأتي عن بذور ، فإن للانسان جذورا تأتي عن بذور ، وقلما يلتفت التأريخ الى زارعي البذور ومجذري الجذور ، وإلى المنابت لأن هؤلاء الجنود المجهولين يسبقون التأريخ ، لانهم أولى صفحاته أو أولى مادة صفحاته ، ولا نرجع الى الاوليات — إن رجعنا — الا بعد أن ينقشع الذهول الذي كثفه الابداع الفني في أول بزوغه ، نأخذ مثلا الملاحم اليونانية والقصائد الجاهلية ، فإنهـا قد أذهلت عن الاساسيات التي تفرعت منها وأغصنت من أرومتها ، لأن فن الملاحم وفن القصائد شغل المجتمعات بها عن أصولها .. وأذهل المعرفة عن الينابيع التي تدفقت منها بتتبع أنهارها ، ومحاكاة خريرها .. كان اليوناني مأخوذا بالدهشة مـن إشارات (الالياذه والأوديسة) دون أن يتساءل من أين جاءت وعن أي نبع امتدت فراعةُ قامتها ؟ لان تلك الملاحم كانت موضع التأمل والاستغراب ثم أصبحت موضع المحاكاة لانها جاءت من أصل فأصبحت أصلا لنبات جديد ، حتى جاءت الفلسفة فقللت من عظمة (هومير) ، بملاحمه ومن ابداعية (سو فكليس) بمسرحياته ، باعتبار أن ذلك العمـل الشعري المرقصْ وشوشة العواطف ، ومثيرا للعواطف المستقبلة ، فنشأت فكرة محاكاة الفن عند (افلاطون) . فاعتبر أبلغ قصيدة واجود ملحمة لاتساوي المنظر الذي حاكته ، لأن القصيدة في بطولة

الأبطال أقل شأنا من استماتة البطل ، والقصيدة في تماوج البحر أقل شأنا من هدير الموج وتلاحقه ، لهذا فالشعر عنده فن محاكاه ، لايبلغ بصوره الوصفية صورة الموصوف ـ وبالتالي فهذا عمل لاتشع فيه مصابيح العقل ـ وكانت هذه كلها أفكار (أفلاطون) ••

وعندما تلقى (ارسطو) هذه الافكار أسس عليها وفندها معا ، فاعتبر الفن الأدبي ينهض على أساسيات المحاكاة ، ولكنه يختلف عنها ، فالمسرحية التي تتشكل من تأثير حدث ، أكثر تأثيرا مـن الحدث ، ومختلفة عنه في نفس الوقت ، لأن الحدث مجرد مادة القصيدة أو المسرحية ، فالحدث بالنسبة اليها كالبذرة التي أصبحت شجرة ، ومن نظرة أخرى فإن القصيدة عن البحر عمل اضافي ، لأن البحر في القصيدة غير البحر في المحيط ، وميدان القتال في المسرحية غير اشتباك السلاح في مكان المعركة ، لأن العمل الفني إعادة خلق لذلك العمل عن رؤية جديدة ، وعن حرارة خلق انساني ، يختلف عن مخلوقات الطبيعة ، وبهذا اختلفت الاعمال الفنية حتى أصبحت أجمل وأبقى من مستقياتها الحياتية •• من هنا ترافقت الفنون الأدبية مع النظريات الفلسفية ، بل أورقت الفلسفة بقطرات الادب ورنين أوتاره • وتعمق الادب بغوص الفلسفة ، لأن الادب بنقاوة كلمته يوصل الفكرة ، والفكرة بعمقها تضيء الكيان الأدبي من الداخل ، وقد تجلى ذلك في العملين الفكري والأدبي ، فأجاد الفلاسفة عرض أفكارهم بلغـة الأدب ، وامتلأت اللغة الادبية بالسر الفلسفي ، فكان كل منهما مددا للأخر ، ولولا أدبية العبارة عند (افلاطون) لما وصلت فلسفته في (الجمهورية) والحوار الى قرارة المتلقي حتى قامت الكنيسة فقطعت الصلة بـين الفلسفة والأدب ، لأنها تبنت من الفلسفة مايلائم الطقوس ورمت بما لايلائمها بين تسميات الوثنيات ، واستمر هذا الى القرن الخامس عشر

الميـلادي ، فالتفتت أوربا الى النبعين العذبين الذين تدفقت منهما نظريات الفلسفة وعيون الادب ، فردمت الهوة التي حفرتها الكنيسة ووصلت الجسور بين(هيجل) و (بيكون) و (افلاطون) و (ارسطو) وبين (سوفكليس) و (دانتي) ، هذا بالنسبة للفكر الاوربي ، أما بالنسبة الى التيار الفكري العربي فقد تعزز كل قديم بجديد ، وان أحدث كل جديد دهشة به عما قبله ، فقد خفت صوت الشعر الجاهلي تحت جلال آيات القرآن وعظمة نهر أحداثه ، ولكن مؤقتا لان ذلك الكتاب السماوي نزل بلغة أهل الأرض وتلقاه نفس الجيل الذي تناشد اشعار (زهير) و (طرفه) • وكان أجل الصحابة من الرواة للشعر بل كان بعضهم من صناعه ، فكانت الحياة النبوية مددا لذلك الشعر كما كان الشعر فيئا ظليلا لتلك الحياة المعتركة ، بين جديد الهدى وقديم الوثنية • بل كانت المصاولة بالكلمة الشاعرة كالمصاولة بالسيوف ، وعندما جاء نصر الله والفتح تساءل المتسائلون ، عن ديمومة الشعر ، وسر هذه الديمومة ، وبالأخص إن مـن أعظم رواته (الصدّيق) و (الصدّيقة بنت الصديق) ، ويمكننا الآن أن نكتشف لماذا تبنى الاسلام الشعر الجاهلي ومحى الجاهلية ؟ لعل أصح جواب يتلألأ من شقين، أولاً : أدبية ذلك الشعر فكراً ولغة ابلاغيته ، ثانيا : حياتية ذلك الشعر بمعزل عن العابد والمعبود ، لان الشعر الجاهلي كان مختلف المجال عن الأرباب والمربوبين • فلا أشاد بالوثنية ولا ندد بها ، وإنما كان فنا ، لا هو ضد الاديان ولا هو معها ، لهذا أصبح فن التأريخ الاسلامي كما كان صوت الحياة الجاهلية ومراياها ، وان خفت رنينه العالي في العهدين النبوي والراشدي ، لان هذه الفترة كانت بمثابة استراحة ، اذا لم تشكل جسرا لامتداد الشعر الجاهلي بالإسلامي ، فهي لم تشكل حفرة انفصال كما فعلت الكنيسة بل لقد كان الرسول

عليه الصلاة يتجاوز عن نبرات شعرية ترثي أيام الجاهلية من ذلك موقف (تميم بن مقبل) مع (أبي بكر) حين سأله الصديق : كيف تبكي يا بن مقبل ماضي شبابك في الجاهلية ، وقد ابدلك الله خيرا منه في مشيبك ؟ فقال ابن مقبل : يحب المرء ما اعتاد فاستنشده أبو بكر من شعره في تلك الذكريات فأنشد ولم ينكر ابو بكر شيئا من إنشاده لانه تناول التغيرات الزمنية التي لاتتوقف ، وشعور الانسان بالهشاشة في معترك التغيرات ، حتى كان يردد أبو بكر قول إن مقبل في كثير من أوقاته :

ما أطيب العيش لـو أن الفتى حجـر

تمضي الحوادث عنـه وهـو ملموم

إذن فلم تحدث فترة انقطاع تام في رحلة الشعر العربي ، وإنما امتد بعضه من بعض ، وعندما تلاقى الأدب ، والدين ، والفلسفة ، في محيط واحد زمنيا ومكانيا ، تقابس بعضها من بعض ، فاحتاج رجل الدين الى لغة الأدب والفكر ــ كما فعل المعتزلة ــ ليجيد الإفصاح عن اعتقاده ، وتعمق الأديب بالالهام الديني لكي يوسع ثقافته ويرفد أصالته بالعنصر الغيبي والسماوي ، وتأدبت الفلسفة لكي تجيد عرض أفكارها ، وتفلسف الأدب لكي يفعم أكوابه بأسرار التأمل ، واقباس النظريات ، بل تمازج العلم والأدب أحلى امتزاج لواحدية الأصل ، فقد كان الأدب علما بطريقته الخاصة حتى تفنن العلم • واستخدم الفن الأدبي روحية العلم ، حتى تميز الأدب العلمي أو العلم الأدبي في قلم (الجاحظ) المبدع ، فاهتدى الى سر كل مسألة بجذوة الشعر • واهتدى بغموض كل مسألة فلسفية الى عمق الشعر ، فاذا هو يحدثك عن الحيوان بلغة الأديب الباحث ، ويكفي أن الجزئين الأولين من (حيوانه) أبدع مقارنة بين الكلب والديك ، أو بين مفضل الديك

ومفضل الكلب ، ومن كان يتصور أن يصبح الديك والكلب مادة أدبية علمية لألف صفحة من الأسلوب الجاحظي العظيم ، فكيف تمازجت هذه الفنون هذا التمازج الحميم ؟ تلمح الخلفية الجاحظية ، كان وراء الجاحظ مدد أدبي وديني وفلسفي ، كانت الاشعار العربية تلحن علاقة الألفة بين الانسان والحيوان لأنها كلها تجمعها حياة ، وتنعقد بين البشر وبين الحيوانات علائق المنافع ، لأن الإبل والخيل كانت وسائل الوصول ، والكلب كان رفيق الصيد ، ووسيلة الصائد ، والديك كان أنيس الوقت ، والساعة المعلنة لابتداء وقت وانتهاء وقت ، هذا من الناحية الشعرية ، وعززتها الناحية الدينية فنزلت سورة (البقرة) ، وسورة (الأنعام) ، وسورة (النحل) ، وسورة (النمل) ، وسورة (الفيل) • وجاءت الى اللغة العربية سبعة عشرة مقالة في الحيوان (لأرسطو) ، وكل هذه كونت خلفية (الجاحظ) ، حتى أثمر قلمه الخلاق أبدع وأرحب موسوعة هو كتاب (الحيوان) ، فقد كان الجسر متصلا بين الدين والفكر والأدب •

ولم ينقطع هذا الاتصال الممتد في تجديد إلا بتدخل العُجْمة في اللغة ، والانهيار في الحياة الاجتماعية • فلم يكد هذا التيار يصل أوائل القرن الحادي عشر ميلادي حتى انفغرت أمامه الحفر ، وتشعبت السراديب ، لكي يحل محل الازدهار الابداعي ، التجانس اللغوي للتسلية ، بدعوى البراعة أو لتغطية الافلاس الفكري الناتج عن الافلاس الاجتماعي ، إلا أن هذه المرحلة الجدباء ، كأي ظلام لا يخلو من نجوم •• فماذا حققت هذه المرحلة من القرن الحادي عشر الى التاسع عشر ؟•• إن هذا العصر يدين لهذه الفترة بالاحتفاظ بثمار العصور المبدعة ، كدواوين الفحول وكتب المبدعين ، أما أدب تلك الفترة فلم يدخل في نطاق الاتقان والتأثير إلا كتابان (لسان العرب) لابن منظور

و (مقدمة تأريخ ابن خلدون) • وهذان النجمان كثير في ذلك المحيط من الظلام المطبق والعقم المتراكم ، إذن ففترات الانحطاط في حياة الشعوب كنكسات المرض في حياة الأفراد ، لا تخلو رحلة شعب من نكسات وتعرج وعوائق ، كما لاتخلو حياة فرد من أمراض وعوائق ، إلا أن الاختلاف في الأسباب ، فقد كانت الحفر في رحلة الثقافة الاوربية من صنع الطقوس الكنسية التي رفعت سياسة المشانق ومحاكم التفتيش ••

أما رحلة الثقافة العربية فقد تواصلت مشاعلها أفواجا بعد أفواج ، حتى وصلتنا زحوف الكنائس الاوربية تحت الصليب في شكل الحروب الصليبية ، والزحوف المغولية ، والتترية بفعل الاغراء بالسلطان والثروة • ولا شك ان عوامل الضعف والانحلال شكلا أهم الأسباب في أطماع الآخرين ، بيد أن لكل مقدمة نتائج عكسية واضطرادية ، فقد أدى الركود التركي والمملوكي الى البحث عن المنابع الصافية ، واختلفت وسائل البحث عن مد الجذور الى الينابيع •

وكان القرن التاسع عشر فترة إحياء أخصب الجذور ، وفترة انتاج أوائل الثمر • وكان الوصول الى هذه الغاية من عدة طرق ، كانت الطريقة في (مصر) هي الرجوع الى عهد ازدهار الحضارة من القرن الثامن الى القرن الحادي عشر ، فرأينا (البارودي) يستعيد صوت (أبي فراس) و (أبي نواس) ، ورأينا (المنفلوطي) يستعيد أنفاس (ابن خلدون) و (الجاحظ) ، ورأينا (الشيخ محمد عبده) يستعيد صوت (النظّام) و (العلاّف) •• فماذا كانت الوسائل في الثقافة اليمنية ؟• تختلف الوسائل باختلاف الغايات ، فلم يصل الأدب اليمني الى الانحطاط الذي وقع فيه الأدب العراقي ، تحت أقدام الزحوف التترية ، أو الأدب المصري ، تحت أقدام الزحوف الصليبية ،

وانما اشتركت كل الثقافة العربية في الذبول في ظل الطربوش التركي • إلا أن معاهد الأدب اليمني كانت بمنأى عن مراكز السلطة العثمانية ، لأنها كانت تزداد ترعرعا في مدارس (صعدة) و (ثلا) و (زبيد) و (جبله) ،•

ومن ناحية أخرى فقد كانت الحملات التركية مشغولة عن فرض جهلها بالحفاظ على رقابها ، لهذا لم تفقد الثقافة اليمنية سرها الفكري ، وبهائها التعبيري كل الفقدان ، فاستمر فيها ما انقطع في « بغداد » و (القيروان) و (القاهرة) من الناحية الفكرية ولو بشكل مختلف ، لقد كان الجدال في هذه العواصم بين المعتزلة والسنة ، وبين الأشعرية والحنفية ، ثم وصل الصراع الى شعوبي وعربي ، بل انتقل الى الفكرية المحظة كالراوندية والدينية ، والفيثاغورية الصفئية والشيعية غير الاثنى عشرية ، على حين اختلفت مادة الجدال وميدان صراعه في اليمن • فكانت هناك ثلاثة ميادين في ميدان واحد•• كان هناك صراع بين الزيدية والهدوية على واحدية الأصل • وكان بين الزيدية ذاتها صراع بين «المطرفية والمجمعية» ، المطرفية الملتزمة بالفكر السياسي الزيدي والفكرية الراوندية والمجمعية المتقيدة بحرفية كتاب مجموع زيد بن علي ، وكان صراع بين شيعتين اسماعيلية في جانب وكل الأطراف الشيعية والسنية في جانب آخر ، بل كان هناك اختلاف بين أعلام المذهب السني ، فقد انقسم الى فريقين ، الفريق الاجتهادي يمثله (الشوكاني) و (الجلال) و (الوزير) ، والفريق الآخر الذي يلتزم السنة ولكن بدون اجتهاد ، وإنما من خلال المذهبة الشافعية•• لكن أين كان الشعر ؟ كان (صفوة الساعاتي) و (البارودي) و (المنفلوطي) ، واليازجيان بلبنان ، و (فهد العسكر) و (صقر شبيب) بالكويت يمتون الى عهد (ابن خلدون) و (الجاحظ) والى (المتنبي) و (أبي فراس) و (النواسي) و (العتاهي) • على حين

كان الشعر في اليمن يمت الى عهدين قريبين وبعيدين ، كان رعيل من الشعراء يمد عهد المعلقات رغم الفكر الشيعي كـ (ابن حريوه) و(ابن الهبِّي) و(المسوري)، (ونواحة حِمْيَر) ،وكان هناك فريق يمت الى عهد الرقة الصناعية، مع أصالة لم تحجبها الصناعة كـ (ابراهيم الهندي) و (ابن الأمير) ، وكان هناك فريق ينتمي الى شيعية (دعبل) وأسلوبه و (الكميت) و (مهيار الديلمي) ، كـ (الهبل) و (ابن هتيمل) و (ابن القم) ..

ولهذا التباين في لغة الشعر لا أغراضه ، تفجرت دعوة الإحياء من شاعرية (علي محمد العنسي) في القرن التاسع عشر :

يـا سـميري وللفتـوة قـوم ... خلقوا من سـلالة الإنسجـام
قم وعرج بنا على مرقص الشعر ... وفتش بنـا طـريق الغـرام
بطراز (الرفـّا) بتشبيب (مهيار) ... بطبع (البها) ، بلطف(السلامي)
كعيون المها ويا ظبية البـان ... ألا فاسـقني أدر يـا غلامي
ثم دعني من الكلام الذي يشمخ أنفا ... بـالبـأس والإقـدام
كقفا نبك ، أو أقيموا بني أمي ... وتلك الصخور فوق الآكـام

اذنّ .. فقد كان شعرنا في القرن التاسع عشر ينتمي الى الفحولة الجاهلية لغة ، ويختلف عنها رؤية وغرضا ، فكان (علي محمد العنسي) أول من فطن الى ردم هذه الهوة بين التعبير والمضمون . فدعى الى الشعر العباسي الذي أنضجت ثماره معارك التجربة المتلاحقة ، فتناسبت شفافية قوالبه مع مدنية أغراضه ، فالعنسي في هذا المجال كالبارودي يجمع بين الإحياء والتجديد ، أو الدعوة اليهما ، وقـد تواصلت هذه الدعوة فتنامى التطور الشعري من أول القرن التاسع عشر حتى مطلـع القرن العشرين ، ثـم تدخلت فتـرة الضعف في إعادة شعر الأحاجي والألغاز وسواها ، من المخلفات المستهلكة من العهد المملوكي والتركي . فكانت فترة آخر العشرينات وأوائل

الثلاثينات هوة فاصلة بين أدب الإحياء التجديدي وبين أدب الإبداع ، ولا يضيء جهامة تلك الفترة إلا بعض أقباس متناثرة •

ولما انتصفت الثلاثينات تبرعمت ثقافات التجديد المنبثقة من مدرسة الإحيائيين من أمثال (يحيى الارياني) ، (عبد الكريم مطهر) ، (يحيى الذاري) ، وأمثالهم ، فتعالت دعوة الاصلاح الديني على يـد (الوريث) و (الدعيس) وجمع الفن الشعري بين وراثية الأسلوب وجديد المنظور والمضمون على يد (الموشكي) و (العزب) ، ثم (الزبيري) و (الحضراني) و (الشاميين) ، إلا أن ذلك التواصل لاقى حفراً • بينما عبرت بعض مواكبه جسورا متواصلة ، فقد سكتت دعوة الاصلاح الديني بسكوت (الوريث) في مثواه الأخير ، ولم تجدد دعوته ذرية فكرية كما جدد (رشيد رضا) دعوة (محمد عبده) و (جمال الدين) ، أو كما جدد (محمد خلف الله) الى الآن دعوة (رضا) •• لقد بدأت دعوة الاصلاح الديني من منتصف الثلاثينات وسكتت في مطلع الأربعينات لأن الاشاعة عن موت (الوريث) وأسبابها ، ربما شكلت سببا في انقطاعها ، أما الثقافة الشعرية وفن الشعر فقد واصلت مسيرتها فحمل الراية (محمد محمود الزبيري) من الأربعينات الى مطلع الستينات ، وكان هذا التطور يتجدد من داخله ومما حوله ، بعضه يمت الى فحولة القرن العاشر عند (المتنبي) ، وبعضه يمت الى فلسفة القرن الحادي عشر عند (المعري) ، إلا أن المضامين كانت وطنية التجديد وان اختلفت الخطوط ، فقد امتدت مدرسة الحكمة شعريا الى مطلع الستينات ولكن في خط يوازيه خط آخر يشبهه من ناحية وينقطع عنه من عدة نواحي ، فقد اختلف شعراء الخمسينات عن شعر الثلاثينات والأربعينات تركيبا وتناولا وذلك باختلاف المؤثرات وباختلاف المستقيات والانتفاع بكل هذه المؤثرات•

لهذا لاحظنا الفرق البين بين (محمد سعيد جراده) و (ابراهيم الحضراني) وبين (علي صبره) و (أحمد الشامي) وبين (لطفي جعفر أمان) و (محمد محمود الزبيري) و (محمد عبده غانم) على رغم التجايل لأن الأربعينيين والوا خطواتهم في الخط الذي لون انطباعهم الأول • على حين تفتحت براعم الخمسينيين على أهوية جديدة ، وكانوا في بدء التكوين الفني ، فالتحموا بالمؤثرات الطرية لأنهم كانوا جزءا منها ، ولم يكونوا مجرد واصفين من الخارج ، لا تتقال الأفكار السياسية من الحلم الى المباشرة ، ومن مطلع الستينات الى الآن أدى اختلاف المؤثرات الى اختلاف أشكال التعبير والى اختلاف الرؤية لاختلاف الآفاق المرئية فانقطع أدب الستينات والسبعينات عن أدب الخمسينات بعضه من جهة مضمونية وتناولية ، مع الاحتفاظ بالشكل ، وتجديده من الداخل،وبعضه اختلفت أشكاله وان بقيت حيوية الجذور في خيوط نسيجه ، أو شعاعية رؤيته •

لقد واصلت ثقافتنا مسيرتها في عدة خطوط بعضها سقطت في هوة ولم تتجاوزها ، وبعضها سقطت لكي تستعد للمسير ، وبعضها تعرجت ولكن لكي تصل على بعد الطريق ، وبعضها وضعت أقدامها على أول طريق متين فمكنها من التواصل بدون انقطاع ، وكل هذا يرجع الى الحياة الاجتماعية ، فقد حاول شعبنا تجاوز واقعه فتعرجت طريقه من جانب وتفتحت له الهوات في بعض الخطوط ، وامتــدت مسيرته على بعض الجسور •

والمهم من كل هذا ان مجتمعنا بتحركه في الحياة وتأثيره في الأدب لم يتوقف وان كثرت المتعرجات وتعددت الحفر ، كما لم يتوقف أدبنا وان تعثر وتواصل •

صحيفة ١٣ يونيه (٣٠) يونيه ١٩٧٧

ثقافة الثورة أو ثورة الثقافة

ليست الأفكار تحفاً تقتنى ، وإنما هي قوة ذات تأثير وأعمال ، وليست أعمال الأفكار مجرد ممارسة في غرف النوم ، وانما هي قوة متحركة في المجتمع ، فلنا أن نراقبها ونترصد آثارها ، لكي نستجلي نفع تأثيرها أو سوء تأثيرها .. وليس التعصب للأفكار الرديئة يجعلها جميلة .. وليس التعصب ضد الأفكار الخيرة يجعلها شريرة ، المهم فهم القضايا على وجهين : كما هي .. وكما يقال عنها ، فما أكثر مـا يخالف القول عن القضية ، واقع القضية ، وما أكثر ما يمثل الرأي في القضية بعض جوانبها،وعلينا أن نستجلي مااختفى على ضوء ماتبدى، كل هذا أصبح معروفاً . كما أصبح أكثر من معروف ، ان أفكار المفكرين لم تعد ملكهم بعد انتقالها من رؤوسهم الى أوراق الكتب ، أو ميدان العمل ، وإنما أصبحت ملك النقاش وملك النقد ، لاننا بالنقد والنقاش نكتشف أخطاءنا .. ونكتشف صوابنا .

صحيح أن النقد قد يكون مغرضاً ، وأن الدفاع قد يكون مغرضاً .. لكن لا يخلو النقد والدفاع من فائدة تجتنى ، لو لم يكن إلا طرح القضية للحوار ، وبسطها للاكتشاف والرأي الذي يبديه أي ناقد لا يمثل المنقود ، إلا بقدر ما يبدي من نماذج أعماله ، أما مسؤولية الرأي فهي على صاحبه ، لهذا يشترط في الرأي ، صحة المعارف ، ووضوح الاستدلال والخبرة ، ليكون الرأي مشروعاً ،

لأن الحكم أصعب الأمور ، فعندما نحكم لشيء أو على شيء لا بد أن تكون براهيننا صادعة . ولا بد أن يكون حسن القصد وسيلتنا وغايتنا ليصبح الحكم مقبولا أو قريبا من القبول ، ولما كانت الأفكار من ثمار الثقافة والتجربة ، تحتم على الدارس أن يرجع الى الأصول الأولى من المكونات الثقافية ، ثم ما صدر عن هذه الأصول من نظريات تحولت الى عمل ، أو دعوة الى عمل ، ومن المعروف أن القرن العشرين خلاصة ثقافات القرون وعصارة تجاربها ، في كل العالم ، كما في بلادنا الى حد معين كما سوف نرى ، والذي يهم هنا هي (ثقافة الثورة في بلادنا .. أو ثورة الثقافة) كحركة تغييرية . وبديهي أن ثقافة سبعين عاماً من هذا القرن أحدثت في بلادنا مزيداً من التحولات الاجتماعية ، ولم تكن هذه التحولات إلا نتيجة ثقافة سبعة عقود من الزمن .. وبرغم بعض الانقطاع بين عقد وعقد فان الاتصال مايزال أوثق ، لهذا نعود الى البداية :

دخلت بلادنا هذا العصر بالبندقية والسيف ، فكانت الأحداث أول زادها الثقافي .. والأحداث أنضج أنواع الثقافات ، لأنها تقدم المادة الحسية ساخنة في مجال العمل وفي معترك التجربة اليومية ، وقد كانت تجربة بلادنا ضخمة ، لأنها عاركت الصراع الدامي قرابة عشرين عاماً .

أولا ــ صراعاً مع الأتراك .

ثانيا ــ مع ورثة الأتراك من حميدين وأدارسة .

ثالثاً ــ مع الجيران من الجانبين .

وكانت هذه السنوات الدامية بمثابة المحك الذي يدل على معادن النفوس ، وبمثابة الانتقال الهائل من جمود العهد التركي الى حرارة المصارعة الميدانية ، ولما استقر الأمر بجلاء الأتراك ، ونهاية

الأدارسة ، وعقد الاتفاقيات المؤقتة مع الجيران من الجانبين ، دخلت بلادنا عهداً مزيجاً من الماضي البعيد الذي قبل الأتراك •• ومن العهد الجديد الذي تلى الحرب العالمية الثانية ، وهنا نحاول أن نلم بألوان الصورة الثقافية بعد خمود المعركة ، وسوف نلاحظ أن جلاء الأتراك قد أتاح الفرصة للتعليم الاسلامي،كما كان يدرس في (بغداد والقاهرة وفي قرطبة ، والقيروان) • فيمكن ان ثقافة عشرين عاما أي من ١٩٢٠ الى ١٩٤٠ من هذا القرن تقريبا تكونت من الألوان التالية :

ـ الفلسفة الشيعية ، الحرفية السنية ـ بقايا التعاليم التركية الادارية والعسكرية ـ ، فلسفة الاسماعيلية ، كما سبقت الاشارة •

ويمكن الوقوف عند الأولى والأهم وهي (الفلسفة الشيعية) ، لقد عرفنا منذ القدم أن (آل علي) كانوا حصاد السيوف السفيانية والمروانية والعباسية ، وتتيجة لهذا العنف تزايد العطف عليهم من جماهير الشعوب ، حتى أصبح قداسة عند البعض •• وتأليهاً عند البعض الآخر • لأن انتقال البطل الى شهيد ينسج حوله أزهى مجال التصورات •

بهذا أصبح العلويون رؤساء الأحزاب الشعبية أو قادة المعارضة في كل شعب من شعوب الاسلام وفي كل جيل من أجياله •• وأصبح التشيع بفضل شهدائه وفلاسفته وشعرائه مذهباً فلسفياً وعملاً ثورياً •• لكن الحكم أبرز مكان يسفر الحاكمون فيه بوجوههم الحقيقية ، وأشد المختبرات كشفاً للحكم ورجاله ، فعندما حكم الفاطميون في مصر على أساس المذهب الشيعي ، تضاءل بريق القداسة من حولهم بفعل الانتقال من مثالية النظرية الى ظروف الواقع العملي ، لأن الفاطميين في مصر أصبحوا كالعباسيين في بغداد أو أسوأ ، فبدأت تلك الهالة تتقشع وبدأ ذلك الاعتقاد يتزعزع شيئاً فشيئاً ، حتى انهار الحكم الفاطمي في مصر على يد الأيوبيين • وعمت ديار العرب عُجمة

التركية وجهالتها واستمرت هذه العجمة والجهالة حتى نهاية العقد الأول من هذا القرن • وهناك بدأت الثورة على الأتراك في كل قطر عربي بما فيها اليمن •

لكن الديار العربية بعد الأتراك دخلت طوراً جديداً هو طور الديمقراطية وطور الثقافة الاستعمارية •• والحكم الاستعماري ، ومهما كان ذلك الحكم وثقافته فقد اعتبر أكثر ازدهاراً وجدّة من العهد التركي ، لكن اليمن لم تحدث جديداً ، وإن أنهت القديم (العثماني) ، فقد خرجت من العهد التركي لترجع الى ما قبله من الجدل الشيعي والصراع المذهبي •• فكوّن الجدل الشيعي أهم الألوان الثقافية في بلادنا من عام ١٩٢٠ الى ١٩٤٠ ، وكان الحكم يعتمد على الشعائر الشيعية وإن كان لا يظهر التحيز الى أي جانب وإنما كانت الحقوق والواجبات لعامة الشعب عليه ، إلا أنه كان يقيم الشعائر الشيعية (كعيد الغدير) •• ولاءً (لعلي بن أبي طالب) ، وشعائر عاشر محرم تكريماً (للحسين) ، ومن الجدير بالاشارة الى أن الامام (يحيى) حاول أن يوجد تعادلاً بين اقامة الشعائر ، فأقام الى جانب (عيد الغدير) عيد أول (جمعة من رجب) اعتماداً على بعض الروايات أن كتاب (النبي) وصل الى اليمن في أول جمعة من رجب فدخل اليمن في دين الله ، لكن هذا لم يمنع عنف الجدل بين الشيعة والسنية ، فما نوع السلاح الذي كان يستخدمه الشيعة ؟

لقد كانت بيعة الغدير وما قيل فيها من حديث وشعر ، أمضى الأسلحة في ذلك الحين ، كما كانت مراثي (دعبل) و (الشريف الرضي) (للحسين) من نفس السلاح بالاضافة الى أشعار (الهبل) في (ثلب يوم السقيفة) ، والتنديد بالخلفاء الثلاثة ، لهذا تزايدت الشعارات على هذا الأساس ، فكانت أناشيد الأعراس ، ودفن الموتى تتضمن الروح الشيعية ، من أمثال :

أزكى صـلاة الله تغشى الرســول

ثـم الوصي وابنيهمـا والبتول

وهي الى اليوم تؤدى ليلة كل زفاف الى جانب عشرات الأناشيد ، ثم انبثّت هذه الروح الى محفوظات المدارس والى أنواع العبادات.. ومعاملة القضاء في كل محكمة ، فأصبحت الكتب المدرسية هي كتب الأئمة (كشرح الأزهار) الذي وضع متنه (المهدي) وشرحه (ابن مفتاح) ، والذي أصبح دستور البلاد في القضاء ، والجنايات ، والعبادات ، وفض الخصومات وتشريع الزواج والطلاق .. والبيع والشراء .. والشفعة والايجار ، وقد أُختتم هذا الكتاب بباب في سيرة الامام .. وشروطه وهي أربعة عشر شرطاً .. أولها أن يكون الامام علوياً فاطمياً .. وكان هذا الكتاب أهم أنواع الثقافات فتحقيقه يرشح قاضي المحكمة .. ومحافظ المنطقة فكان يقرأه كل من يهيىء نفسه للمكانة الاجتماعية .. أو يعدّ نفسه.وأولاده للوظيفة مع الدولة ، بل كانت الوصايا تتوالى على التجار بتعليمه لمعرفة البيع والشراء ، ومعرفة الربح والرباء ، وكان الى جانبه نوع آخر من الثقافة :

١ ـ كـ (علم اللغة .. صرفاً ونحواً وبلاغة) ..

٢ ـ وكـ (أصول الفقه وتفسير القرآن) ..

وكلها تؤدي الى زيادة فهمه .. أو تكوّن الوسـائل الى اكتشاف أسراره .. لكن هذا لم يكن فلسفة التشيع .. وإنما هو التشريع النبوي كما يراه التشيع ، فقد كانت فلسفة التشيع تختص ببحوث أخرى :

ـ كـ (الثلاثين مسألة) .. (لابن حابس) .

ـ وكـ (الأساس) .. (لأحمد الشرفي) .

وأمثالهما من كتب الفلسفة أو أصول الدين كما كانوا يسمونها . وكانت المسألة العاشرة من مسائل هذه الكتب هي :

(مسألة الإمامة ..واتمائها الى آل علي وبنيه،ونفيها عن غيرهم) ولكن من منظور فلسفي فيثاغوري ، يختلف عن المذهب الفقهي ويتصل به من جوانب . وقد رفدت هذا الجدول ينابيع جديدة (كالقصائد العراقية الشيعية) ، وقصائد (آل السقاف) و (آل العلوي) في (حضرموت) . فقد كانت هذه القصيدة (للحيدري النجفي) أنشودة التشيع ، وهذا مقطع منها .

يا من قد أنكر .. من آيات أبي حسنٍ ما لا ينكر
إن كنت لجهلك في الأيام جحدتَ مقام أبي شبَّر
فاسأل بدراً واسأل أحداً وسل الأحزاب وسل خيبر
من دمر فيها الكفر .. ومن هد الأحزاب ومن دمر

الى آخر هذا الشعر الواغل في التشيع . ومثل ذلك قصائد (آل السقاف) الحضارمة .. وأشهرها قصيدة (أبي بكر العلوي) التي ندد فيها بأعلام الفقه الاسلامي (كالبخاري ومسلم) .. وخصص البخاري أكثر لأنه رفض رواية (الصادق بن جعفر) :

قضيــة أشبــه بالمرزئة	هذا البخاري إمام الفئه
بالصادق الصديق ما احتج في	صحيحه واحتج بالمرجئه
وحق بيت يممته الورى	مُغِذةً في السير أو مبطئة
ان الإمام الصادق المجتبى	بفضله الآي أتت منبئه
أجل من في عصره رتبة	لم يقترف في عمره سيئه
قلامة من ظفر ابهامه	تعدل من مثل البخاري مئه

أليست هذه القصيدة وأشباهها دليلا على التراجع الثقافي الى ما قبل عهد الأتراك ؟ لأن العلوي كان شاعراً معاصراً .. وكان يناضل للفكر التشيعي بحرارة (دعبل) وعصبية (الشريف الرضي) مع أنه من ناشئة القرن العشرين الذي غيرته (حربان عالميتان) ومئات الهزات

النفسية والفكرية ، فقد استمر هذا الشاعر يجادل رجال السنة في أحقية (آل علي) بالفضل والحكم حتى أدركه الموت عام (١٣٤١) هجرية • فأنت تلاحظ الفرق بين العلوي وبين الطرماح على مجايلتهما •

وهذا يكون دليلا على عنف الجدال •• والجدال من قِبَل الحاكمين أو أتباعهم يدل على عدم اقتناع المحكومين أو المعارضين ، فما رأي أهل السنة في التشيع •• وأين نقطة الالتقاء •• وأين نقط الفروق بين المذهبين ؟•• هذا يستدعي الى تلخيص ألوان الثقافة السنية بتوسع بعد اجماله في البحث السابق •

كان رجال السنة يرون صحة مبايعة (أبي بكر وعمر وعثمان) ولا يرون (علياً) إلا واحداً من الصحابة••وليست قرابته من (النبي) عليه السلام إلا كقرابة (بلال الحبشي) أو (سلمان الفارسي) ، لأن النبي رسول الله أرسل رحمة للعالمين ••

وان كل أتباعه قرابته • وكانوا يعتمدون في أحكامهم على النصوص الصريحة من القرآن والسنة ، فإذا اعتمد الشيعة على (احمد بن سليمان) صاحب (الحكمة الدرية •• ونور اليقين) اعتمد رجال السنة على الشوكاني صاحب (الفتح القدير •• ونيل الأوطار) واذا فخر الشيعة (بمحمد عقيل السقاف) صاحب (النصائح الكافية) فخر السنيون (بالمقبلي) صاحب (العَلَم الشامخ) • واذا احتج الشيعة (بالهادي) احتج السنية (بالجلال ، صاحب ضوء النهار) فقد كان لرجال السنة مستقيات ثره من علم الحديث ورجاله •• وكتب امهاته ، ولكي يصبح الشعر أحدّ أسلحتهم صارعوا بقول الشوكاني : —

هلموا الينا معشر الرفض ان يكن
لكم معشر الإنصاف دينا كديننا

مدحنـا علياً فـوق ماتمدحونـه
واتم سببتم صحب أحمد دوننا
وقلتـم بأن الحـق ماتدّعُونـه
ألا لعـن الرحمن أيّنا أضلنـا

أو مثل قول الجلال :

« اذا جادلتـه بكـلام ربـي
أجاب مجادلا بكلام «يحيى » ..الخ

وكان السلاح الشعري عند الشيعة أفتك .. فقد كان عندهم قصيدة (لابن حريَوه) في هجو (الشوكاني) وكان عندهم قصيدة (للهبل) في هجو (المقبلي) ، لكن الملاحظ أن الثقافة الفلسفية جعلت الشعر الشيعي أعمق فكراً ، وأجمل وقعاً ، وأقوى تأثيراً لزهادة رجال السنة في الشعر رواية وانشاء . المهم أن التشيع والتسنن ملأ عشرين عاما من بداية تاريخنا المعاصر ، فكانت البراعة في الجدال هي غاية الطموح . وليست هذه الثقافة متصلة بالعرق ، فليس الهاشمي متشيعاً بالضرورة .. وليس القحطاني متسنناً بالضرورة ، فقد كان بعض القحطانيين شيعة (كصالح الجمالي وعلي فضه) وزملائهما .. وبعض الهاشميين أهل سنة (كزيد الديلمي) و (عبـد الرحمن الشامي) وزملائهما ، وكان هناك لون ثالث من الثقافة ، الا أنه كان محصوراً وخفياً ، فقد كان المذهب الاسماعيلي مرفوضاً عند الشيعة والسنة على السواء ، لأنه يرى الشريعة الاسلامية مجرد ظاهرة تحجب خلفها حقيقة الاسرار المقدسة . فهم يرون النبي ظاهرة حقيقتها (علي) ويعتبرون (القرآن) فيضاً من المعاني الإلهية أنزلت على قلب النبي ثم عبر عنها بلغته ، لأن هذا عندهم يقتضي تجسيم الإله ، فما دام له لسان انسان فله لغته العربية وكيانه ، وعلى هذا فالقرآن عندهم ظاهرة من حيث

اللغة •• وسر باطني من حيث المعنى ، وقد كان هذا التفكير قديماً ترعرع في فارس ، واعلنت أسراره انظمة القرامطة في الأحساء واليمن والمغرب ، ومثل طقوسه السرية الفاطميون في مصر ، والصليحيون في اليمن ، الا أنهم كانوا يتعاملون مع شعوبهم بظاهر الشريعة ،ويمارسون مع أنفسهم أسرار الباطن ، أو قدس الأقداس كما يقولون • وقد سبقت الى هذا تلميحات في بحث سابق من هذا الكتاب ، ولم يكن لهـذا المذهب أي نوع جدلي في الفترة التي أتحدث عنها ، لانه كان مغلقاً على نفسه خوفاً من السلطة • وبرغم أن هذا المذهب شيعي الا أنه يحصر تشيعه في اثني عشر إماماً • أولهم (علي بن ابي طالب) وآخرهم (أبو حسن العسكري) • بينما تشيع الزيدية يبتدأ من (علي) ويمتد في ذريته الى يوم القيامة ، كما دعت الى هذا كتبهم • هذه نقطة الخلاف بين الشيعة الجارودية التي شغلت أول عصرنا ، والشيعة الاسماعيلية التي امتدت وعاصرت ولم تؤثر في العصر • ويبقى السؤال عن نقط الالتقاء والافتراق بين الشيعة والسنة قائماً • لقد كانوا يلتقون في أصول المسائل : كالخمس الصلوات •• والزكاة •• والحج •• وصوم رمضان •• والجهاد في سبيل الله •• وكل أمهات المسائل ولو ظاهرياً ، وأشد نقط الاختلاف بينهم بيعة علي وبيعة ابي بكر ، وتحديد أهل البيت • فهم (علي وبنوه وزوجه) عند الشيعة وهم الصحابة وزوجات الرسول والتابعون ومن والاهم عند رجال السنة ، لكن هناك جانب يمكن الاشارة اليه ، ذلك أن اهل السنة يرفضون الخروج على الخليفة القائم كائناً من كان ، ويسمون الثورة حتى (على الظالم) ايقاضاً للفتنة أو شقاً للعصى كما يقولون ، لهذا كان الامام (يحي) يركن اليهم وان كان لايتحيز إلى جانبهم •• كما كان يمالي الشيعة بلا تحيز اليهم وانما ترك مجال الجدل يمتد ويتسع • ولعله انتهج هذه الطريقة

من قبيل سياسة الإلهاء ، لكن هل هذا كله ثقافة ثورة ؟؟.. ان الطريق الى المكان جزء من المكان .. كما أن رد الفعل أحد علائق الفعل ، لانه عامل وجوده وسر تكوينه ، فقد أدى هذا النوع من الجدل الثقافي الى الملل والرفض ، بل والى المقاومة ، فقد نبغ من أبناء العقد الثالث من هذا القرن من اعتبر هذه الثقافة والنقاش فيها عبثاً لاطائل تحته ، لأن زاد الموتى لم يعد صالحاً للأحياء .. وحوالي عام ١٩٣٥ تردد الإ ستستخاف بثقافة الفرقاء الثلاثة بكلمافيها .. وبكل من يمثلها .. ونشأ من سموا (بالعصريين) وهنا بدأ أول صراع بين قديم وجديد نتيجة الضجر من المألوف المتكرر ، فاذا كان ابن المعتز قد قال :

ولست تراني سائلاً عن خليفة
ولا سائلاً من يعزلون ومن يلي
ولا صائحاً كالعير في يوم لذة
يجادل في تفضيل (عثمان)أو(علي)

اذا كان (ابن المعتز) في القرن الثالث الهجري قد سئم الجدال الميت في فضل الموتى ورذائلهم فبالاولى أن يضجر العصريون في العقد الرابع من هذا القرن في بلدنا ، لهذا كان أحلى إنشاد يردده العصريون هو قول : لطف التهامي :

يا شعبنا هل أنت تدري
هذي الامور وكيف تجري ؟
الناس قد بلغوا السماك
ونحن في زيد وعمر
أوفي الوضوء وفي نواقضه
وحيضة كل شهر !

أو لعـــن فيضي قـــد مضـــى

فيضي ومـــات رشـــاد مصر

هذا النص أهم دليل على التحول الثقافي من جدال على الموتى الى صراع على الحياة وصنع الحياة ، غير أن الباحث يلاحظ أن الجدل العقيم حول الموتى قد أدى الى الجدل الخصب ، فإذا كانت الثقافة القديمة قد أثارت جدلاً غير حياتي فقد كان لها الفضل في خلق الحس الجدلي القابل للتحول ، الى مكان أصح وعلى أمور أكثر حيوية ، وبالاضافة الى هذا ، فلم تنقطع خيوط الثقافة القديمة الى نهاية العقد الخامس ، وان تضاءلت قليلاً أو كثيراً ، إلا أن الجديد من الثقافة كان رد فعل على الثقافة القديمة ، ورد الفعل متصل بالفعل سلباً أو ايجاباً ، فقد تزود أبناء العقد الثالث بالكثير من ثقافة آبائهم ، إلا أن أكثرهم أضاف جديداً ومن ذلك الحين تألق النابهون من أمثال : (الوريث والعزب والموشكي) ، وكان هؤلاء فقهاء وأدباء ومعاصرون وقدماء وثوار ومحافظون ، الا أنهم كونوا بهذا المجموع من المزايا (ثقافة الثورة) التي كانت رد فعل على برودة ثقافة آبائهم •• ولكن لم ينقطع الخط الثقافي نهائيا بل شكل خلفية جدلية مهما كانت ماضوية الموضوع فانها قد استبقت الحيوية الذهنية على أهبة الاستنفار ، فما أفكار تلك الثقافة الثورية •• ؟؟

لقد تكونت من مزيجين : اللون الديني •• واللون التغييري •• أو الحالم بالتغيير ، فكان دعاةالتغيير يحاربون الإمام (يحي)لاستبداده وكان رجال الدين يحاربونه ، لانه عطل الحدود الشرعية ، وعلى هذا فقد وقع الإمام بين ضغطين :

ضغط رجال الدين من أجل اقامة الحدود .

وضغط العصريين من أجل هروبه من العصر • فماذا كان موقفه من الفريقين الموحّد المرمى ؟••

لم يسمح رجل الدين لنفسه ان يتهم الإمام (يحي) بجهل الشريعة، لان تحقيقه كان أظهر من أن يخفى ، ولم يسمح العصري لنفسه أن يتهم الامام (يحي) بالعبث بأموال الدولة فقد كان يعيش كأوساط النـــاس •

فكيف كان يحاجج رجال الدين ؟• كان يقول كما كان يفعل « انا نقيم الحد على اللصوص •• وعلى قطاع الطرق •• وعلى القتلة » •

وكان الامام (يحي) متشدداً في هذه القضايا كأعنف مايكون ، لأنهـــا قضية أمنيـــة تثبت مهابة الدولة وتعزز الثقـــة بالوضع ، لكن هناك إلحاح عليه في جلد (باعة الخمر وشاربيه) ••وكان يرى ان هذه من القضايا المستورة •• ولا عقاب الا على فاحشه ظاهرة •• وكان بعض رجال الدين يريدون أن يحرجوه بجلد مواطنين ليحتجوا على هذا بتركه لابنائه وحولهم كثير من التهم الخلقية في الخمر وغيره •• ولما عرف قصدهم قال : « ان الشريعة لم تنص على حد الشارب » • فاحتجوا عليه بفعل عمر •• فرد عليهم بالمسألة الفقهية الشهيرة : « ان فعل الصحابي غير حجة وانما الحجة آيات الكتاب وأفعال النبي •• وأقواله وتقاريره » • ولعل قصد الفقهاء بإحراجه لم يكن سبباً كافياً ، فقد كان الامام (يحي) كثير التشدد في قضية عصر الخمرواستهلاكه ، إلا أن هذا التشدد أوصل الى نتائج غير مُرضية ، فقد هـــدم بيت (الصباحي) ، لان فيه (عصّارة) ، وكلف العساكر بتفتيش بيت (آل ابي دنيا) فقاوموا بشدة وادت المقاومة الى قتل اثنين منهم • لعل هذين الحادثين خففا من التشدد في هذه القضية ، لان التشدد فيها عاجز عن المنع ، لانه زيادة في الاغراء وبالاخص في زمن تحدي السلطة •• وهذا يجرنا الى نقاش هـــذا الموقف لاهميته في أصول

سياسة الحكم لذلك الحين • لم يكن الضغط من قبل رجال الدين عنيف اللهجة وانما كان يقدم في شكل نصيحة ، أو في صورة ابلاغ بما هو جاري ، لان الحكم كان دينياً خالصاً فلا حاجة لحدة الدعوة الى اقامة الحدود ، لان أهم الحدود كانت تقام بلا تهاون ، وبالاخص ماتقتضيه المصلحة الاجتماعية كتأمين الطرق وسلامة الارواح والاعراض وصون الدماء ، إلا أن بعض رجال الدين كانوا مدفوعين سياسياً لقصد المشاركة في السلطة أو نيل ما أمكن منها •

ومن هنا التقى العصريون والسلفيون في ثقافة الثورة وفكـرة الثورة ، واستمر التذمر السياسي من الوضع القائم ، لكنه في سرية شديدة وفي المدن الكبرى خاصة •

وساعد على هذا المزيد من الثقافة الجديدة ، وبالأخص الثقافة السياسية ، وان كان الطابع الاستعماري أغلب على هذه الثقافة ، لانها كانت تدعو الى الحرية والديمقراطية ، وكانت تعني حرية الاستعمار وديمقراطية الاستغلال ، أما الشعوب فقد كانت تتلهى بمجرد الاسماء والعناوين •• أو بمجرد أشكال حزبية أو برلمانية ، لان الشعوب في ذلك الحين في بدء يقظتها •• وأول اليقظة كأول العمر برآءة تقبل الخديعة أو خديعة تجد نفوذها في البراءة ، الا أن الاحوال في شعبنا كانت أحوج ماتكون إلى جديد ، أو الى اصلاح على أي وجه ، وربما كان الاصلاح أقبل في ذلك الحين ، غير أن تعطش العصريين ومـن جاراهم كان يرتطم بصلابة الإمام (يحي) وطغيانه • وكما كانت له مواقف مع رجال الدين كانت له مواقف مع العصريين ، فقد كان يرى أن الاستعانة بالاجانب وخبراتهم يؤدي لاحتلال البلاد ولا ينفعها • وكان يضرب لهم المثل بالمجاعة الطاحنة والمتلاحقة في (الهند) مع أنه

مشحون بالخبرات الاجنبية والشركات الاجنبية ، فقـد كان يعتبر الاستغناء عن الاجانب أهم عوامل الاستقلال الوطني ، الا أن المعارضين كانوا يعتبرون مخاوفه حرصـاً على الحكم ، لكي لايسود الرخاء فيستغني عنه الشعب ، أو يخفت بريق هالته أمام العيون التي كانت تقدسه وتتقرب اليه بالنذور كل يوم ، وعلى هذا فقد نشأ السخط عليه من ثلاثة منطلقات : ـ

الاول : من المفهوم الديني ، لعبث ابنائه .. وتعطيل حد الشارب .

الثاني : لاستبداده بالحكم .

الثالث : فقر الجماهير وضآلة رواتب الموظفين والجنود .

المهم أن العقد الرابع والخامس من هذا العصر عهد تحول من جدل حول (علي ومعاوية .. والحسين ويزيد) الى جدل حياتي حـول (الاستبداد والديمقراطية والفردية والشورى والدستور ..) ، ولعل هذا الجدل ينتسب إلى الجدال الاول وان اختلف عنه ، وكان لمقدمته كالنتيجة العكسية .. ومن كل هذا تكونت ثقافة الثورة ، على قلة المثقفين في غمار الشعب المطمئن الى أحواله الراضي عن مألوفه ، لكن الثقافة تثمر الأفكار .. والافكار تتحول الى أعمال ، ولكن ببطء وبالأخص إذا كانت الأميّة سائدة وإرهاب السلطة مسيطر على خارطة الواقع كما كانت أحوال بلادنا ، فيمكن أن نسمي العقد الرابع والخامس عهد ثقافة الثورة كما يمكن أن نعتبر انتفاضة ١٩٤٨ م ثمرة لتلك الثقافة الجديدة القديمة ، وهذه الانتفاضة البكر المباركة تغري بتقصي ظواهرها لنستشف الحقائق من ورائها ، فقد كانت كل الظواهر تدل على نجاح تلك الانتفاضة لأن أغلب أهل الرأي اجمعوا عليها ، والعنصر الجديد في هذا الاجماع اشتراك بعض أولاد الامام يحيى فيها . إمـا

طلباً للنجاة وإما طمع كل واحد منهم في إرث الخلافة ، فكما انضم (إبراهيم) الى الأحرار في (عدن) عام ١٩٤٧ شارك أخوه (علي) في تذمر المتذمرين بصنعاء واشتهرت له في ذلك الحين قصيدة منها : ــ

بنـــي وطني إلى كـــم نحن نشقى
وأنتـــم في المضاجع راقـــدون ؟

وهـــذا المستبد الغـــر (يحيى)
عـــدو الله يظلمكـــم سنينـــا

ومثل (علي) •• (الحسين والمحسن) فقـــد كانا على صلة (بحسين الكبسي) و (علي الوزير) والدليل على مشاركتهما سلامتهما من السجن ، فقد اعتبرا نفسيهما كما اعتبرهم الكثير من رجـــال الإنقلاب ، ولما أرادا أن يدخلا الى (دار السعادة) كوريثين للطاغية منعهما (جمال جميل) وأمر بقتلهما •• وقد أثار قتلهما خصاماً عنيفاً بين رجال الانقلاب ، فقد احتج (علي الوزير) و (حسين الكبسي) و (حسين عبد القادر) و (احمد الحورش) لهذا التصرف الفردي من قبل (جميل جمال العراقي) واعتبروا هـــذا التصرف طيشاً يخالف وجهة الانقلاب الذي استهدف (يحيى) و (ولي عهده) ، فمشاركة أربعة من أولاد الامام في فكرة الانقلاب تدلنا على الاجماع في صنعاء بانتقال الحكم الى أفضل •• كما تدلنا على شعور (آل حميد الدين) بالنهاية ، ومن جهة أخرى يمكن أن نعتبر مشاركة أولاد الامام من قبيل الخصام بين الاخوة على وراثة العرش ، وهذا النوع من الخصام قديم بقدم الملك الوراثي وبقدم دسائس القصور ، وقد يكون من عدوى التيار الاجتماعي المتطلع الى عهد أفضل ، ولما انتكست تلك الانتفاضة على غير احتمال مسبق ، ماتت آثارها حيث هي وامتد

الخسود عامين مسهداً لثقافة جديدة تؤدي بالضرورة الى عمل جديد ..
وأمامنا خمسة من الأعوام يمكن أن تتقصى فيها ألوان ثقافة إنتفاضة عام ١٩٥٥ م . لقد كان عهد الامام احمد امتداداً لعهد أبيه من جهة .. ومنفصلاً عنه من عدة وجوه ، لقد رفض الامام « يحيى » أن يقيم « سفارة » له في أي بلد .. كما رفض أن تقام أي « سفارة » في بلدنا .. ولقد رفض الانضمام الى الجامعة العربية لأنها من تأسيس الاستعمار البريطاني ، كما لم يهتم بالدخول في عصبة الأمم .. أو هيئة الامم . وكان وزير خارجيته كأحد كتبة القصر الا أنه مختص بالشئون الخارجية . وعندما كون « وزارة المعارف » و « وزارة الصحة » و « المواصلات » في آواخر أيامه ، عين فيها أولاده . « اسماعيل » و « القاسم » و « يحيى » .

ولعل هذا التعيين كان كإلقاء النفط في النار لانه عجل مصرعه بعد سنتين من تشكيل هذه الوزارات الاسمية ، وأقول الاسمية لأنها كانت مربوطة الى « عبد الله العمري » و « أحمد الآنسي » القريبين من الامام فما كان في مقدور « اسماعيل » أن يدخل طالبا الى أي مدرسة الا بموافقة أبيه ولا في مقدور « يحيى » أن يرقد مريضا في المستشفى إلا بموافقة أبيه أو استشارة « الآنسي » ولا في مقدور (القاسم) أن يوظف موزع بريد إلا بموافقة إماميّة . ولما تولى الامام « أحمد » عين وزراء من غير اخوته الى جانبهم ثم استوزر غير اخوته كل على وزارة ، وان كان الارتباط بشخصه مايزال مستمرا . لكن هناك وزارات ووزراء يتاح لهم الامر أكثر مما كان يتاح لاخوة الامام ، آخر أيام أبيه ، إلى جانب هذا أصبح اليمن عضوا فعالا في الجامعة العربية .. وعضوا في هيئة الامم ، وبعثت بلادنا سفراء ، واستقبلت سفراء ، وازداد تسلل الصحف والكتب .. وولدت في تعز صحيفتا

« النصر وسبأ » ودخل الراديو رغم المنع أكثر مما لو رخص له ، من ذلك الحين انتقلت اليمن الى صميم العصر حتى بمشاركة الهموم .. ومعرفة الأحداث ، وكان أول حدث هز النفوس واستنهض الأمل هو ثورة (مصر) عام ١٩٥٢ ، لانها انفجرت في حال اقتناع اليمنيين من أي تحول وفي يأسهم من أي نجاح ، وهناك بدأ اليمنيون يسمعون أسماء مغمورة تتردد ، فبدأ الحس العسكري يتنبه الى وجـوده ، وساعدت على هذا التنبيه التيارات الثقافية الوافدة من مصر ، عن طريق الأعمدة الصحفية والأثير .. وكانت هذه الثقافة جديدة المضمون والشكل لانها كشفت حيل الاستعمار وفلسفت مذاهبه .. وبلورت العمل الثوري ودواعي انفجاره ، فأحدث هذا النوع من التثقف تغييرا أعم من الذي سبقه .. فأصبح رجل الشارع يناقش السياسة ويفلسف مغازي الاستعمار وذلك بفضل الراديو والمنشورات من كل شكل ، فلم تعد السياسة سرا يمتاز بمعرفته نفر في صنعاء .. أو نفر في تعز .

من هذا النبع الجديد نهل الشعب بعد العطش المحرق وانقطع خط الثقافة عن الخط الأول من أكثر الجوانب .

لهذا لم يكن حادث ١٩٥٥ مجرد مصادفة ،وانما سبقته ثقافة وربما اعداد سري ،وكان ثمرة لتلك الثقافة وذلك الاعـداد .

ان الظواهر التي انبثق منها حادث ١٩٥٥ توهم بأنه مجرد صدفة أو مجرد نزوة ، لكن لا ينبغي أن تخدعنا الظواهر عما وراءها .. لقد حدث اشتباك بين بعض الجنود وبين أهالي قرية « الحوبان » فرفع أهل « الحوبان » قضيتهم الى الامام ، فأمر الجنود بارضاء أهـل الحوبان وكان هذا الامر سبب انفجار النار على الامـام .

هل هذه ظاهرة كافية ؟؟..

لقد كان الجيش يتقبل كل أمر يصدر من الامام بلا سؤال ولا تردد .. فلماذا رفض هذه المرة .. وأجاب بالرصاص على دار « العرضي » ؟.

أليس هذا دليل على أن النفوس مهيأة لثورة .. وعلى أن ثقافة خمس سنوات قد أثمرت ذلك الحدث ..؟ ولم يكن وجود « عبد الله بن يحيى » على رأس ذلك الحدث إلا استغلالاً للفرصة .. أو عملية صيد في ماء عكر ، ألا ينبغي أن نقول أن اسم « محمد نجيب » و « جمال عبد الناصر » قد أغريا « المقدم أحمد الثلايا » ؟.

هذا ممكن وبالأخص إذا رجعنا سبع سنوات لمتابعة خطوات « أحمد الثلايا » .

ـ عندما حدثت انتفاضة ١٩٤٨ كان « أحمد الثلايا » أمير مفرزة « صعده » ، وحين وصلت اليه أخبار الانتفاضة تردد في تأييدها .. وقام بينه وبين محافظ صعده خلاف كبير ألجأ الثلايا الى الاحتماء « بآل منّاع » فلماذا ؟؟.

ولما علم الثلايا بوجود « أحمد » في « حجه » أسرع اليه بجنوده ، فكان « أحمد الثلايا » موضع ثقة الامام وبعد أيام تولى قيادة الجيش في تعز . .وكانت تنهال عليه رعاية الامام .. كما كانت تنهال على الامام آيات إخلاصه ، وكان « الثلايا » قائداً خبيراً .. يأمر بصرامة ، وتنفذ أوامره بطاعة ودقة !!.. أليست الأمور تجر الى أمور ؟. ألا يمكن أن ذلك الانقياد منجنوده الى جانب الأحداث المعاصرة أعدته لعمل شيء ؟..

هذا هو الممكن .. فأين الارتباط بين ١٩٤٨ و ١٩٥٥ ؟.

اقد اختلفت الثقافتان .. واختلف الاتجاهان ، إلا أن انقلاب

١٩٤٨ م من عمل موظفين وبعض شيوخ •• وانتفاضة ١٩٥٥ عسكرية صميمية••أما وجه الشبه : فقيام « عبد الله أحمدالوزير » فيالأولى•• و « عبد الله يحيى » في الثانية •• لكن البواعث متغايرة والوجوه مختلفة ، فقد كان « عبد الله » الثاني ينتوي إقامة المشاريع العصرية وادخال الشركات ، فما كان رأي المثقفين المدنيين فيما حدث ؟•

لقد انقسموا الى ثلاثة أقسام :

ـ قسمٍ يؤيد الامام « أحمد » •• ولا يرتضي به بديلاً •

ـ قسم يؤيد (عبد الله) لأنه سيزيح قاتل الأحرار ، ولأنه حل وسط بين شدة (الحسن) ولين (البدر) ولأنه يعرف (واشنطن) و (لنــدن) •

ـ قسم ثالث كان يرفض الكل ويتطلع الى صنع ما هو أجد ، ولو بنواظر الحلم وأفكار المثالية •

وفي عنف الجدال بين الفرقاء الثلاثة صعد المتنازل عن العرش الى عرشه وأسكت سيفه البنادق •• كما أخرس الأفواه فتعطلت الانتفاضة ، ودل تعطلها على سقم أفكار ثقافتها ، لأن ميدان التجربة يقدم الدليل على صحة الأفكار أو سقمها •• ومن هنا بدأت ثقافة جديدة وتفكير جديد •• ودخلت الحياة طريقاً جديداً تلونت فيه المظاهر •• وكل ما حدث كان رد فعل لما سبق ، فلأن الامام المهزوم كان يعرف « لندن » و « واشنطن » عرف الامام المنتصر « موسكو » و « بكين » رداً للاعتبار أو كيل الصاع صاعين •

المهم ان التحول كان عنيفاً بل كان من النقيض الى النقيض •• وكانت هذه الانتقالة تهمي بالأفكار وتشدد الاستعداد باثارة المهيئات والبواعث ، فقد رأى شعبنا أسراب الطائرات وأرتال الدبابات •• تنتقل من « الحديدة » الى « صنعاء » في خلال ساعات بدل أيام

وليال •• وشهد ميناء « الحديدة » يستقبل ويودع أكبر البواخر •• وسمع اذاعة تقول (هنا صنعاء) وتندد بالاستعمار كأخواتها •

أليست هذه ثقافة جديدة لاتمت الى سابقتها الأربعينية إلا بأوهن الخيوط ؟•• بل زادت الثقافة الجديدة روافد من الأحداث والأفكار ، فكما عرفت أسرار الاستعمار والاستغلال ، عرفت كيف تنتصر الشعوب على معسكرات الاستعمار •• فتلى تأميم « قناة السويس » انفجار ثورة ١٤ تموز بالعراق ، فأطاحت بحلف بغـداد وقاعدة « الحبانية » ، وكان المثقفون في بلادنا يستوعبون ما حدث بتعطش•• ويفكرون فيما يفعلون بكثير من الرغبة وكثير من التردد •• وتفجرت من هوامش الحياة بعض أحداث كانت الدليل على ما سيحدث ، لأن ما يحدث يدل على ما يليه •• أو يدل على تكراره ، وربما حدوث ما هو أكبر منه ، فما أكثر ما تكررت الأحداث السارة والأحداث الضارة ، كل ما حدث لا بد أن يتكرر أو يستولد أكبر منه ••

المهم أن شعبنا تملى من تجارب الأحداث ومعطيات الظواهر الجديدة والأفكار الجديدة •• فتجدد تفكيره بمقدار ما جدت ثقافته ، فكما كانت السبع السنوات ثقافة الثورة •• كان ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ ثورة الثقافة ونهاية شوط وبداية طريق •

مجلة الجيش ـ العدد ٣١ ـ سبتمبر ١٩٧٢

* * *

الحلقات المفقودة في تاريخنا

ما دام عصرنا عصر التخصصات المتعددة .. فان هناك معارف هي تخصص التخصص .. أو هي سر حياة التخصص لأنها خلفيته التي تفرعت منها غصونه ، ولاكتمال البنية الثقافية يجمل الانتماء الى خلفية والامتداد منها ، اذ لا يعرف المرء أين يقف إلا بمعرفته من أين أتى ، مثلا على ذلك السياسة .. وهي أقوى محرك المجتمعات فانها أعجز من أن تحرّك شيئا .. اذا لم تقم على ثقافة عامة .. وليس المقصود بالثقافة العامة الشهادات الجامعية والماجستيرية والدكتوراه .. أو ما هو أعلى وأدنى من الشهادات ، لأن كل الدراسات المنهجية مجرد وسائل صحيحة للوصول الى الثقافة ، وقد كان الملوك والخلفاء يؤدبون أولادهم أي يثقفونهم بأكثر الثقافات حيوية ، لكي ترتكز قواعد السياسة على أصول راسخة من الثقافة ، فاذا كان في السياسة تخصص فان الثقافة تخصص التخصص .. ومثل التخصص السياسي كل التخصصات ، ولعل الثقافة التي لا يستغني عنها أي متخصص : هي ثقافة التاريخ باعتبارها مسرد التطورات وأسبابها ، لأن مصدر أفدح الأخطاء هو الجهل بما كان لأنه يؤدي الى جهل ما يكون ! فثقافة التاريخ علم كل العلوم ، فالطبيب يحتاج اليها لكي يعرف تواريخ الامراض المستوطنة ، ولكي يتجلى مراحل الطب ، كيف تنقلت به التطورات من التداوي بالماء المقدس الى التداوي بالنجوم ، الى

التداوي بالكي الى استعمال الأعشاب •• ثم الى الطب البدائي عند « ابيقراط » و « جالينوس » ثم الى الوصفات المتعددة عند الباحثين في النفس من الفلاسفة « كداود الانطاكي » و « الرئيس ابن سيناء » ثم الى شبه التخصص عند « ابن النفيس » ، ثم الى أطباء الكنائس ثم الى اختراع الأمصال ، ثم تطور هذا الاختراع الى جراحات القلب والدماغ ، وبالالمام بتأريخ الطب يوسع الطبيب تخصصه ، وتتكون له معارف عامة لمهنته اليومية ، لأن الطبيب كالسياسي لاينجح في مهنته الا اذا قامت على ثقافة ، وبالأخص الثقافة التي يمارس على ضوئها عمله ، ومثل الطبيب المحامي فلا بد أن تكون أهم عناصر ثقافته تأريخ المحاماه ، وكيف كانت تعتمد على المنطق ، والجهارة الخطابية • ثم تاريخ المرافعات والدفاع ، الى جانب هذا الالمام بالقوانين والأديان والأعراف • وهذا الى جانب ما تلقاه من دراسة أكاديمية لأن الدراسة الاكاديمية أساس البناء وليست الدار • ومثل المحامي والطبيب ، المحارب ، فان التاريخ العام ، والتاريخ الخاص بالحروب أهم ثقافته ، لكي يتشجع بانتصار المنتصرين ، ولكي يقتدي بالأبطال ويتعلم من المهزومين تجربة النصر • ولا يكفي من تواريخ الحروب ما تقدمه الكليات لأنها تقدم قاعدة للانطلاق منها والبناء عليها •• اذن فالتاريخ أهم أجناس الثقافة ، لأنه صلة التجارب بالتجارب ، ولأنه أخبار ما جرى لاكتشاف ما سيجري ، ولأنه يمتاز على سائر العلوم بأدبية العبارة ، لأن له بعض خصائص القصة وبعض عناصر الشاعرية ، وبعض ملامح العقل التذكري ، فاذا صح أن يستغني المرء عن أية ثقافة فان ثقافة التاريخ أهم ضروريات اكتمال الشخصية ، لأن المثقف المعاصر يريد أن يكتشف الينابيع التي تفجرت منها التطورات ، وكيف انتقلت الانسانية من المشاعية الاولى الى الملكية البدائية ، الى الاقطاعية الى الرأسمالية الى البرجوازية ثم الى الاشتراكية، وبالتتبع لهذه الأحداث

التغيرية ، يمكن تلمس الحلقات المفقودة في التواريخ عامة وفي تاريخنا خاصة ، والتساؤل يلح عن سر غياب بعض الحلقات ، وهل هي مفقودة أو محجوبة ؟ ان السيرة الزمنية خط واحد متصل الحلقات ، الا أن هناك حلقات تغيب عن ظواهر الاشياء ، لا لانها انقطعت عن الزمن ولكن انقطع الابداع الانساني عنها ، فكيف يمكن تعريف الحلقة المفقودة أو الحلقة الغائبة عن النصر الذهني ؟ العهد الأكاديمي أبصر دليل الى هذا على قدم الاكاديمية ، فقد كانت أول أكاديمية « بستان أكاديميوس اليوناني » الذي كان مجتمع طلاب الفلسفة الانسانية واليه نسبت الاكاديميات المعاصرة ، وبما ان الاكاديميات تخرج المتخصصين بما في ذلك المتخصصين في التواريخ ، فهذا متخصص بالعصر القديم ، وهذا متخصص بالعصور الوسطى ، وهذا متخصص بالعصر الحاضر، وعلى ضوء التخصص نفتقد بعض الحلقات التاريخية ، والحلقة المفقودة هي الجدباء من كل عطاء حتى لاتعطي المتخصص أسرار أحداثها ، لأنها عقيم لها عبير الزمان وليس لها أشجاره ، بينما الموجودة هي التي تفتح للمتخصص ابواب مجاهيلها ، ففي إمكان متخصص بالتأريخ القديم أن يؤلف رسالة في الاخلاق عند السبئيين ، أو رسالة عن اقتصاد الدولة السبئية ، أو نظام العمل والعمال في ظل تلك الفترة ، بينما يصعب على المتخصص كتابة رسالة في أي مجال اقتصادي أو أخلاقي في عهد الأذواء لانها فترات العقم سياسياً • والعقم السياسي يؤدي الى العقم الاقتصادي والفني • وفي إمكان أي باحث متخصص ان يؤلف كتابا عن فلسفة الحكم أيام البابليين أو أيام الفراعنة وأيام المعينيين ، بينما يصعب عليه أن يضع كتابا عن الاقتصاد المصري أيام « المقوقس » وما تلاه الى أيام الفاطميين ، لانها فترة شيخوخة عهد وفترة طفولة عهد ، ومثل ذلك التاريخ البابلي فلا يتمكن أي باحث

أن يتخصص بموضوع معين في التاريخ البابلي من بداية القرن الخامس الميلادي الى أول القرن السادس عشر لان التأريخ البابلي قد انقطع عن ماضيه من بداية انحلاله الى سقوطه على يد الفتح الاسلامي ، الا انه يمكن دراسة التاريخ البابلي الاسلامي في نطاق التاريخ العام الاسلامي ، وكل الثورات التي تفجرت في فارس كالبابكية والراوندية لاتعطي فكرا وان جاءت عن فكر سلفي ، الا انها لم تتجاوز الاحداث الى ثمار الاحداث • ثم ان تلك الاحداث لاتتميز عن غيرها كتمرد القرامطة في العراق أو تمرد الخوارج من قبل في الكوفة ودمشق ، والحركات لاتصبح موضوعا للمؤرخ الا بما حققت ، لان الفكرة عن الشيء لاتتحقق الا في الممارسة العملية ، لهذا تبدو الحركات التمردية مجرد مادة تاريخية ، انها حدثت عام كذا أو أخمدت شهر كذا دون أن تصبح موضوع دراسة اقتصادية أو اجتماعية ، الا من حيث أسباب انفجارها لا من حيث انجازها ، وان كانت كل حركة انجازا اجتماعيا كدليل على الحيوية ، غير ان الحلقات الموجودة هي التي تعطي كل جوانبها على تعدد التخصصات ، في الإمكان ان يؤلف المؤرخ التاريخ اليمني القديم ، على تتابع الممالك وعن رخاء هذه الفترة ، وعن قحط تلك وعن الخصب الذي تلى القحط ، وفي مقدور المتخصص ان يغوص في جوانب كــل الفترات ، فيمكن وضع كتاب عن التجــارة في أيام المعينيين والسبأيين ، وعن الفتوحات والتجارة ، وعن الخصب الزراعي أزهى صفحات التأريخ المعيني والسبئي ، على حين يمتاز العهد الحميري بصناعة السفن وتزايد السيطرة على البحر من فترة الى اخرى ، فقد ورث العهد الحميري السفن المشدودة بالحبال ، ولما عانى المرارة من إغراق أكثر السفن وخسارة أمهر البحارين ، اخترع المسامير الخاصة بالسفن ، لهذا أصبحت البحرية الحميرية موضوع بحث عن بدايتها

وتطورها ومكاسبها التجارية •• إذن فهذه حلقات متصلة لانها كانت حضارة بأي مفهوم لتعدد جوانب الانتاج ، وتعدد ميادين الاختبارات حتى أن سد مأرب كان يرمم على رأس كل أربعين عاما ، عندما تستدعي الترميم زيادة الصدوع أو خوف اتساعها، ولما وصلت الدورة الحضارية آخر حلقاتها انهار السد ، الى قرب الاساس • فكان هذا الانهيار الصورة الخارجية لتداعي السياسة من الداخل • ولا تنهار السياسة الا لضآلة مصادرها من الثقافة أو لقلة توسع الثقافة ، لأن الحضارة ثقافة كما ان الثقافة حضارة•صحيح إن المخطوطات والنقوش لاتعطينا صورا متكاملة ، عن ثقافة العهود الحضارية الا أن انجازها الزراعي والمعماري والتجاري والحربي والنحتي يدل على ازدهار ثقافي ، لأن الخصب الثقافي أغنى مصادر الحضارة بكل ثرواتها ، واذا لاحظنا بلدا قليل الثقافة كثير الثروة تبينا على الفور ان هذه الثروة ليست من صنعه ، وإنما موروثة أو مستعارة الخبرة • وهذا ما يشير الى انقطاع الحلقات الحضارية بعد الانهيار النهائي لسد مأرب ، فماذا تؤدي الحلقة التأريخية من انهيار السد ، من القرن الرابع الميلادي الى القرن التاسع ؟ كل ما يسجله التأريخ لهذه القرون هو الصراع العنيف بين اليمنيين والرومانيين ، ثم بين اليمنيين والأحباش ، ثم بين اليمنيين والفرس الذين كانوا يسمون بالابناء ، وهذه الفترات الدامية هي مادة التأريخ التسجيلي وليس لها أي معطيات فكرية لأن المعتدين غير علميين كمستعمري اليوم وغير منطلقين من نظرية • فلا تثمر مقاومتهم أي لون ثقافي سوى ثقافة تحريك السلاح • وقد امتدت هذه المرحلة الى ظهور الاسلام • ويمكن أن تكوّن تأريخ بطولة لكن لو أراد متخصص وضع كتاب عن اقتصاد تلك الفترة ، لأعوزته المادة لانه اقتصاد حروب بعد نقص في طاقة المياه • وبالطبع ان اقتصاد الحروب

شديد البؤس حتى في البلدان النهرية والثلجية ، فكيف باليمن الذي خسر أفخم سدوده وأغناها ؟ وأدى هذا الى الضعف السياسي كما أدى الضعف السياسي الى انهمار الضيوف غير المدعوين من روم واحباش وفرس تحت مختلف التبشيرات والرايات، فهذه الفترة طافحة بالشجاعة بفضل الينابيع النابضة من الميراث الحضاري وليس من صنع تلك الفترة البائسة • ولما دخلت اليمن في دين الله العظيم أصبحت من أهم صفحات تواريخ الفتوح ، ولكنها لم تكن يوما عاصمة الفاتحين بل جنود رايات إلهية تدخل في العموم على حين يشارك غيرها في العموم ويختص بميزات ، فقد احتفظت البلاد المفتوحة كمصر والعراق والشام بوميض من حضاراتها أضافت اليه الأضواء الجديدة ، ولما استقلت اليمن برايتها في القرن التاسع بدأت أو لى صفحات تأريخ جديد ، فتكونت الحلقة الهدوية الا أنها أغلقت في مدة عشرين عاما ، وبدأت الحلقة المفقودة أي حلقة الحروب الاهلية بلا هدف ، حتى بدأ العهد الصليحي في القرن الحادي عشر ، فبدأت الحلقة الثانية من خيطين من الحلقة الهدوية ومن رد الفعل على الحلقة المفقودة بعد الهدوية، من هنا توالت حلقات العهد الصليحي نحو مائتي عام فتكونت ثقافة فكرية على أساس ثقافة « بغداد والقيروان » وعلى جذور يمنية خالصة ، وازدهر الاقتصاد الزراعي الذي يُعدّ المجد الأخضر لليمن على طول تاريخه بعد انتهاء الصليحيين بدأت حلقة مفقودة فكأن الزمان في لا زمان ، وقد دل هذا الفراغ أطماع المحتلين الأتراك ، فكان القرن الساس عشر وثلث السابع عشر حلقة دموية خفتت فيها حتى أصوات الأدب ، أما الجدال فقد انتقل من منطقية العقول الى شفار السيوف وأسنة الرماح ، وكانت هذه الحلقة دموية خالصة وكـان الاقتصاد اقتصاد حرب ، والأخلاق منحلة لأنها أخلاق حرب • لأن الأتراك كانوا

يحرقون المزارع والأجران في كل مكان تصـــل اليه أيديهم ، إلا أن أيديهم كانت أقصر من عرض اليمن وطولهـا فكان هنـاك اقتصاد اكتفائي ، فلا تستورد اليمن أي منتوجات لأن مصانع الاقمشة الموروثة من العهود السبئية لم تتوقف ، وان أبطأت ، فقد كانت المنسوجات الجنَدية والزبيدية والصعدية المسماة بالخولانية تسد الضرورة في كل الفترات ، بما في ذلك العصر التركي الاول إلا ان هذه الصناعة لم تضطرد في تصاعد تطوري فتستحق الدراسة وانما كانت تنتج نفس النوعيات في كل فترة وان كانت القمصان الجنَدية مطمع حسان الحجاز والعراق ، المهم أن الحلقة من بداية القرن السادس عشر الى منتصف السابع عشر كانت موجودة ، لكنها غير متعددة الجوانب وقد كانت هذه الحلقة جسرا الى حلقة أشد سوءاً . فمن منتصف القرن السابع عشر الى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا كانت الحلقة مفقودة ، لانها كانت من الصراع العقيم بين إمام وإماموقد سميت هذه الفترة عصر « علي بن مهدي » لأنه كان يفر من الثائرين عليه فيحل محله إمـام آخر حتى يضعف،يظهر « علي بن مهدي » من جديد وقد عد « العقيلي » المرات التي اختفى فيها « علي بن مهدي » وظهر الى أربعين مرة ، الى جانب زيادة الائمة وقلة الأتباع المتحمسين لنصر حاسم لأحد وهذا ما أطال فترة الصراع البائس لأن الجبهات المتعددة كانت متكافئة لاتقوى أحدها الا لكي تضعف ، ولا تضعف الا لكي تقوى أخرى تضعف بدورها ، الى جانب هذا الإنهيار السياسي خافت الطرق حتى انقطعت الاتصالات بين منطقة واخرى ، فلا يقف التأريخ أمام هذه الحلقة الا لسرد أسماء سقطت وأسماء قامت لكي تسقط بدون أثر

لسقوط أو قيام •• فتأريخ هذه الفترة مسرد اسماء كقوائم الاحصاء لايقف عند نقطة يكتشف منها سرا •• صحيح أن السياسة كانت فقيرة من الثقافة الحية وانما كانت تمد علوما وراثية في الحكم والحرب ، فلا تتميز هذه المرحلة عن التالية للهدوية ولا يتمخض عن الإنهيار إلا انهيار ، مالم تتدخل معجزات أو يقظات غير عادية ، وهذا ماغاب عن المرحلة حتى جاءت الهجمة العثمانية الثانية ، فدارت في حلقـة مفقودة إلا إنها أدت الى حلقة ايجابية هي مرحلة الصراع عن مفهوم وطني ديني معا • فكانت حلقة الصراع الهادف من آخر القرن التاسع عشر حتى السنة الثامنة عشرة من القرن العشرين ، وامتدت هـذه الحلقة في صراع داخلي واشتباك مع محاولة الاستعمار الجديد ، أو وراث الرجل المريض « تركيا » كما كان يقال • فقد اشتبك شعبنا مع الانجليز بعد اشتباكه مع الاتراك وتمخض الصراع عن احتلال الشطر الجنوبي وتوطين التخلف في الشطر الشمالي ، فكانت حلقة العشرينات الى منتصف الثلاثينات تترواح بين البريق والخمود لكي تخمد ، فكانت حلقة شبه مفقودة من آخر العشرينات حتى آخر الثلاثينات ، لولا براعم ثقافية بدأت تتهيأ للموسم المنتظر ، الا أن هذه الحلقة المفقودة سياسيا كانت عامل تحفيز للحياة لاعامل تمادي في الموت كسابقاتها ، فمن مطلع الأربعينات الى الآن تواصلت الحلقات الوطنية تتصاعد وتتنكس لكي تتصاعد أكثر ، حتى وصلت مرحلة الفكر الثوري آخر الخمسينات ثم العمل الثوري من أول الستينات الى الآن •• صحيح أن المرحلة الثورية تنتسب الى خلفيات كثيرة قريبة وبعيدة ، لان الحلقات المفقودة كانت تبحث عن وجودها فيما يتمخض

عنها من حلقات ملء الابصار والنفوس ، كنتيجة عكسية لما سبق ، اذن فلم تكن الحلقات المفقودة مبتورة مـــن سلسلة الزمن ، وانما كانت تختفي في ارحام التربة لكي تتمخض عنها المراحل الخلاقة ، لهذا تعتبر المرحلة من مطلع القرن التاسع عشر الى الآن موصولة الحلقات ، رغم اختفاء بعضها وبروز بعضها وذبول بعضها لإيراق وليدتها حتى أوصلت الى الثورة ، ومن الثورة الى الآن لم يطل غياب بعض الحلقات بل لم يكن هناك انقطاع . وانما كان بعضها يعد بعضا عن طريق القوة الفاعلة أو عن طريق قوة مردود الافعال .

* * *

التراث بين العصرية والأصالة

عندما أحست الشعوب وطأة الإستعمار ، توهج فيها النزوع الى التحرر ، وكان أهم سلاح في معركة المواجهة هو حشد الخصوصيات القومية قبل أن تذوب الامة المغلوبة في تيار الغالب ، ذلك لأن انتعاش الخصوصيات يشعر الأمة بإنسانياتها وعراقتها أمام مغتصبها وبقدرتها على كفاءة الصراع •• ولكي لاتسود الشوفينية أضافت الامة المناضلة جديد الإستعمار إلى تراثها الحي ، لكي تعصرن ذلك التراث وتضيف عصريا خالصا على أساسيات من التراث أو على أساس خالص المعاصرة •• وقد بدأت أمتنا بعث التراث بإحياء الامهات من الآداب والأفكار ، ولما استحصدت قواها بدأت تعصرن هذا التراث فتنتقي أجود عناصره وتفلسف أزمنته •• وتلاحقت الدراسات العامة في التأريخ العام •• والخاصة في دراسات أبطال الحروب واعلام الآداب والافكار ، غير أن الأمة لم تصل الى هذه النقطة الا بعد أن حشدت التراث كما هو ، لكي يمكن تفسيره واعتصاره على ضوء ثقافة العصر ، لكن هل كل تراثنا قابل للعصرنة ؟• لعل أكثر الآثار لاتتجاوز زمنها • فكيف يمكن مدها ؟• من هنا تتدخل قضية الإختيار لنوع التراث الذي يناسب عصرنا الثوري وثقافتنا المعاصرة •• ولعل الكتب المعروضة ترشدنا الى ماهو ثوري في حينه ، والى ماهو عناصر ثورة الى الآن ، كالحركات الخوارجية والقرمطية • وقد دلت

الاستقراءات الى الآن أن اشعار « طرفة بن العبــد » و « زهير » و « أبي نواس » و « أبي تمام » و « المتنبي » و « المعري » قابلة للمعاصرة ، لأنها أفصحت عن تجارب تشبه تجاربنا ، بل وتماثل أكثر تجاربنا الى جانب فكرية أعلى وشاعرية أخصب ، لأن « طرفة » أول ثائر على تقاليد القبيلة ، ولو تنفس له العمر لكتب صفحات في التمرد على العرف لم يسبق اليها شاعر جاهلي :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
الى أن تحامتني العشيرة كلــها ... وأُفردت إفــراد البعير المعبــد

فقد خرج « طَرَفَة » عن تقاليد العشيرة خروج المتمرد ، وان كان أحد سيوفها اذا رفعت الحرب رايتها :

متى تبغني في حلقة القوم تلقني ... وإن تلتمسني في الحوانيت تصطد
اذا القوم قالوا من فتى خلت أنني ... عنيت فلم أكسل ولم أتبلــد

فهو أحد سيوف القبيلة وأعنف الخارجين على تقاليدها ، بل هو أحد المتمردين على الأخلاء والصحاب ولكن عن فكرة تجريبية :

كل خليــل كنــت خاللتــه ... لا تــرك الله لــه واضحــه
كلهُــــم أروغ مــن ثعلب ... ما أشبــه الليلــة بالبارحــه

فهذا رفض صارخ للرتابة القبلية وللرتابة الزمنية ، لتشابه اليوم بالأمس والغد باليوم ، حتى صار قول « طرفة » مثلا في سآمة التكرار الرتيب : (ما أشبه الليلة بالبارحة) . فأنفاس « طرفة » أقرب الى عصرنا رغم مئات السنين الفاصلة بيننا وبينه ، إلا أن هناك فاصلاً كبيراً بين ثورية أفكارنا وثورية أفكاره ، لان ثورة العصر من أجل التغيير الاجتماعي لصالح الكل ، وليست لِذات الشغب والعربدة الخمرية ، فلا يكفي القياس بين ثورية وثورية ما دامت الفوارق قائمة ، لان لكل قياس

فروقاً لا تعدم القياس •• ومهمة الثقافة المعاصرة : ثقابة الرؤية الى هذه الفروق ، لكي تتجلى مايفيد عصرنا ومالايتجاوز زمنه ، وليس الوصول اليه الا لمعرفة ثقافة تلك الاجيال •

إذا كان « طرفة » يمثل لونا وجوديا ثوريا فـ « أبو نـُواس » يقود ثورة على الموانع ، فيحاول اكتساحها بفروسية الشعر وهو مربوط اليها بقرارة النفس ، فما دعى النواسي الى الاباحية الخمرية والغلمانية ، الا وفي نفسه حاسة التماس الغفران ، ولا حاول نسف التقاليد الأدبية الا وفي نفسه احترامها ، ومع هذا لايخلو الشعر النواسي من أنفاس ثورية ، الا أنها منحرفة القصد بالقياس الى ثورية عصرنا ، وماذا يهم من رغائب « أبي نواس » سواء اقتحم اليها الموانع أو تستر اليها بجدران التقية ، فاذا قال مرة :

الا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر

فان هذا التردد أدل على انحراف القصد ، لان النواسي كان يخضع كغيره لتقاليد الخلافة ، وان جاهر بالخروج على الموانع الشرعية، وقد دل النواسي نفسه على هذا التذبذب في أجمل مقطوعة من شعره :

أيها الرائحان باللوم لـُوما لا أذوق المـدام الا شميما
نالني بالملام فيها إمام •• لا أرى لي خلافه مستقيما
فاصرفاها الى سواي فاني لست الا على الحديث نديما
كبر حظي منها اذا هي دارت أن أراها أو أن أشم النسيما
فكأني وما أزيـن منها (قعـدي") يزيّن التحكيما
لم يطق حملـه السلاح الى الحرب فأوصى المطيق الايقيما

وقد شغلت هذه المقطوعة النقاد القدامى والمعاصرين ، بل شغل النواسي أكثر المعاصرين • ولكن لماذا ؟ لاكتشاف نفسيته • وكيف

رفع راية العصيان في ظل الخلافة الدينية والمجتمع المتزمت ، وأعتبره البعض ثائرا ، ولكن على من ومن أجل من ؟؟••

ان أكبر مهمات الثقافة المعاصرة ، عصرنة الثقافة القديمة بشرط واحد : هو الاحتفاظ بأصالتها كنبت لزمنها وان وصل الينا بعض عصيرها وأكثر روائحها ، لأن أشعار النواسي وأمثاله لاتهمنا ، وان كون اعتصارها خلفية ثقافة عصرنا أو أصبحت مزيجا فيها •• لكن « أبا تمام » يختلف عن النواسي لخطورة رؤيته السياسية وتسجيله لكبار الاحداث بدلا من التعبير عن الخصوصيات ،ذلك لان«أبا تمام» كان متفلسفا ، مزج الفكر بالشعر والنظرية بالإبداع الأدبي •• حتى ان أكثر نصوصه تبدو من شعر اليوم لشمول التجربة ، كما في قوله :

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجدفي كف امرىء والدراهم

فما تشاهد انسانا فاحش الثرى الا على حساب أخلاقه وعلى حساب مواطنيه ، وبالاخص اليوم زمن البنوك والشيكات ، أضف الى هذا أن « أبا تمام » أول شاعر عربي اتخذ العلم طريقا للعمل ، وهاجم الخرافة في عنفوان مجدها :

والعلم في شهب الارماح لامعة بين الخميسين لافي السبعة الشهب

أما « المتنبي » و « المعري » فلا تزيدهما رؤية العصر الا اقترابا منا ، لأنهما فكرا بتفكير جماهير عصرهما كما لو كانا من أعلام عصرنا الثوري ، وقد أشار « المتنبي » الى الخيانات الداخلية ـ كمطايا للغزو ـ في أكثر من قصيدة ، فعندما انكسر جنود « سيف الدولة » جعل الخيانة هي السبب في الهزيمة :

لاتحسبوا من قتلتم كان ذا رمق فليس تأكل الا الميتة الضبع

وفي مكان آخر يشير الى خيانة الامراء لمواطنيهم كما يقول في « سيف الدولة » :

أنت طول الحياة للروم غازٍ فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل

وقد اعتصر الشاعر المعاصر «محمود درويش» معنى (المتنبي) في قوله :

خيول الروم أعرفها وإن يتبدل الميدان

ومع هذا كان المتنبي في هذا الغرض أكثر شعرا ومعاصرة من « محمود درويش » ، ومن هنا تكتشف الثقافة المعاصرة ماهو معاصر من القديم بنصه وما تعصرنه الرؤيةالعصرية .. فأغلب شعر « المتنبي » يعبر عن عصرنا ولا تزيده الرؤية الحديثة الا إضاءة على الجوانب الغامضة من أدوات تعبيره وبواعث إفصاحه عن التجارب ، كانعكاس لظروفه المعقدة .. ومثل « المتنبي » « المعري » أول من اعتبر الحكام خدمة الأمة :

مُل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

هذا بالنسبة للثقافة الادبية العربية . ولكن كيف يمكن عصرنة بعض الجوانب الثقافية الاخرى (كصحيحي مسلم والبخاري) وكتب الشوكاني و « سنن النسائي والترمذي » ؟ وكيف يمكن عصرنة أدبيات « ابن المقفع والجاحظ » ؟ إن بعض الثقافات القديمة لاتقبل العصرنة ، لأنها في خط ثابت لايتحول ولا يقبل تحويل ، ومثل هذا بعض جوانب ثقافتنا اليمنية . فهل يمكن عصرنة أشعار « ابن هتيمل » و « إبن فليته » شاعري القرن السابع الهجري ؟ أو هل يمكن عصرنة

أشعار « إبن القيم » شاعر القرن الخامس الهجري ؟ . ان هؤلاء الأعلام لا يتجاوزون سنوات أعمارهم ، لأن التجربة البشرية في أشعارهم لا تكاد تحس ، لأنهم كانوا مجرد امتداد غير متجدد للشعر الشائع من مديح ورثاء ، ولا يمكن أن تعصرن أو تبقى من أدبيات عصرنا الا الاشعار المميزة ذات الافكار الخطيرة التي استوعبت تجارب زمنها ، لكي تكون تعبيرا عن غير زمنها .. هناك جوانب هامة من ثقافتنا التراثية تستدعي النظر العصري لان فيها كنوزا من التجارب البشرية تغري البحث وتغري أعين النور ، .. ولعل أغلب هذه الكتب محرومة من النشر الى الآن بل لعل بعضها لم يكتب في شكل أسفار ، أما المكتوبة المحرومة من النشر فهي مثل ديوان (الهبل) شاعر القرن الحادي عشر الهجري،ومشجَّر أنساب اليمن « لمحمد أحمد الحجري » المعاصر . ولعل الموانع أمام هذين الكتابين قد انتهت الآن ، فمن الأسباب المؤدية الى اهمال ديوان« الهبل » هو غلوه في التشيع وتهجمه على الشيوخ الثلاثة ، وقد كان نشر هذا الديوان يثير الحساسيات المذهبية ، لكن رؤيتنا اليه الآن تختلف عن رؤية جيل العشرينات والأربعينات ، لاننا نكتشف من هذا الشعر الشيعي نوع المادة الجدلية بين حزبين : حزب آل « علي » وحزب آل « العباس » ، وقد اعتبر الكثير في أوائل هذا العصر إن بذاءة أشعار « الهبل » تمنع نشره . ولكن لماذا لاتمنع البذاءة نشر ديوان النواسي في التهتك وديوان « دعبل » في الهجاء التشيعي ، وديوان « إبن الرومي » الحافل بأقذع الهجاء وأعرى الألفاظ ؟ ان المراجع الأدبية والدواوين مليئة بالاشعار المخجلة ولم يمنع هذا من نشرها بل ربما كانت خلاعتها أدعى الى نشرها ، ومن يقرأ (الاغاني) و « اليتيمة » و (المرزباني) و (خريدة القصر) يستغرب هذا الشعر الفاحش في لعبة الفراش والغزل الغلماني ..

أما البذاءة عند « الهبل » فهي لاتخرج عن حدود اللياقة مثلا على هذا قوله :

قل لمن قدم « تيماً » و (عدي) — مـن زنـاءٍ أنت في معتقـدي
عـد الى تقديم صنو المصطفى — ولك الـويلات ان لـم تعـد

فقد وقفت لفظة زناء أمام لجنة علماء الاستئناف موقف التهيب مع أنهم يقرأون مثل هذه العبارة في سورة النور ويفرضون قراءتها على الفتيات الى جانب الفتيان .. أما كتاب (محمد الحجري) فقد كان سبب منع نشرة التنقيص من أنساب بعض البيوت المتصلة بالبيت المالك ، وقد عنى « الحجري » بالانساب والالقاب وتغير هذه الالقاب والانساب ، لانها كانت تختلف باختلاف الحرفة ، فهذا البيت كان الجد الرابع منه صانع أحذية ، وهذا البيت كان الجد الخامس منه أو الثالث صاحب مقهى ، وهكذا ، فتعلم أحد أفراد هذه العائلة أو تلك وأصبح من رجال الدولة ، الى آخر أشهر البيوت ، ثم توارث هذا البيت وذاك المجدَ الوظيفي من فترة كذا الى فترة كذا ، وضرب «الحجري» أمثالا ببيوت كانت كبيرة من أواخر القرن التاسع عشر الى بعد منتصف القرن العشرين ، وهذه البيوت هي التي استنجدت « بالإمام أحمد » أن يسدل الستار على هذا الكتاب لانه ينطوي على فضائح نَسَبِيّة كما تصوروا ، وقد كان الكتاب يهتم بالشجرة النَسَبية في المدينة وفي القبيلة ، وقسم الالقاب الى ثلاثة : لقب مكاني ، ولقب مهني ، ولقب وصفي ، وهي تندرج تحت مفهوم الالقاب العربية : الإشعار بالمدح أو الذم ، كما هي عادة الالقاب ، وقد قدر لهذا الكتاب أن

يتجاوز أسوار المنع إلى مطابع «بغداد»، كما يقال، وسوف يرى مثقفونا أن هذا الكتاب أهم سجل لمزايا مجتمعنا ونقائصه ، ومن المنتظر أن ينشر كتاب « المسوري » « العوائد والعقائد » وديوان « الهبل » لا لأن هذه الكتب معاصرة في ذاتها ولكنها ممكنة الاشراق تحت ضوء جديد ، وبالاخص كتاب « العوائد والعقائد » ، فقد كشف هـذا الكتاب أن لاكثر العادات المرروثة ــ على سوئها ــ قوةً تساوي قوة الشريعة أو تفوقها ، وهذا أول كتاب فرق بين العـادات الموروثة والعقيدة الدينية اليقينية ، وهذه أهم مسائل العصر ، لان العوائد الى الآن شديدة الاستحكام ، من أمثال : الذبح أمام العروس وسباق العروس والعريس على من يدوس قدم الآخر لكي يتغلب ، ومـن أمثال اشعال النار عند كسوف القمر الى غيرها من مئات العادات التي تملك قوة الإعتقاد والإخضاع ،اذن فما الذي يعصرن التراث ، من آثار مكتوبة ومن عادات متبعة ؟ •• إن ثقابة الرؤية المعاصرة تكشف أخفى الجوانب في مزايا الثقافة القديمة ، على أن تحتفظ بأصالتهـا الزمنية وتحدد منابعها ، لأن ثقافة الأمس تكوّن مددا لثقافة اليوم ولا تحل محلها ، لان اليوم لايصلح أن يكون أمسا ولكنه أت منه ، غير أن الآداب الأصيلة معاصرة دائما وإن اختلفت الشروط الفنية بعض الإختلاف ، أما عصرنة العادات فلا تمحوها الكتابات والانتقادات ، وانما تقتلها الهزات الاجتماعية التغييرية القادرة على صنع البديل الافضل ، ولعل ترسيخ العوائد قد أصبح موضوع إهتمام الاستعمار الجديد ، فهذه المؤتمرات والمهَرجانات المتوالية ، من مطلع الستينات الى الآن حول الفنون الشعبية والفلكلورات المحلية تكاد أن تشكل

دعوة لرضاء كل شعب بما عنده ، لكي لايستزيد من أرقى الفنون ، ولكي لايطفر في تطوره تحت ضوء عصر الاكتشاف ، بل ان الدعوة الى الرجوع الى التراث كما هو تزداد كل يوم من عام ٦٧ الى الآن ، ولكن كل هذا غير ذي تأثير ، وفي نفس الوقت غير مانع للمزيد من عصرنة الموروث من التراث ومـن تطور الفنون واستفادتها مـن الارقى ، فليس المهم سلفية تراثنا وإنمـا الأهم اكتشاف جوانبه الاجتماعية تحت ضوء جـديد ، لان كل شيء يتغير بتغير الرؤية الحية وبجدة الاضواء المسلطة عليه ، فليست ثورية العصر فتوحات مستقبلية جديدة لا تنتسب الى الجذور الخصبة ، وانما هي فتوحات آتية من امتلاءٍ لكي تصنع الاكثر امتلاءً والاخصب جده .

صحيفة ١٣ يونيه العدد ٣٦ اغسطس سنة ١٩٧٧

* * *

بين التذبذب والتناقض

في حياتنا الثقافية ، ما في حياتنا الاجتماعية من نقائض وخلط . ولأن الثقافة المستبصرة هي قوة التغيير ، فلا بد من التمييز بين العناوين وما تحت العناوين ، وبين الأسماء وصحة تسميتها ، على أساس أن بين الواقع والأفكار جدلية دائمة .. الواقع يعطي الأفكار ثم يستعيدها كسر تغييري لظواهره .. ثم الى صميمه .. ومن المسائل العائمة في حياتنا الثقافية ، الخلط بين الذبذبة والتناقض ، ويمكن الوقوف عند الذبذبة قليلا ، كي تقوم ملكة التمييز بين الذبذبة والتناقض .. لأن الذبذبة هي النفاق الخاسر ، لأنها محاولة خاسرة لكسب كل الناس عن طريق دعوى الانتماء الى كل الجهات .. فمن مثقفينا من يكتب في نشرات جهة على طريقة نهج تلك الجهة .. ثم في نشرات جهة أخرى في نطاق تفكيرها ، ثم في نشرات جهة ثالثة على مقتضى خطتها .. وهذه هي الذبذبة بين كل الجهات ، والتنصل من موقف معروف ، يدل على هذا المذبذب الذي يتاجر لكل سوق وهو في أكسد سوق لان ميزة المثقف أن يصدر عن موقف يدل عليه قبل أن تدل عليه أضواء الذبذبات المعاكسة .

وتأتي النقطة الثانية وهي : التناقض .

وتناقض المفكر مع نفسه ضروري ، لأنه الدليل على طول التفكير ، وعلى محاسبة النفس ، وعلى طول قراءة الأفكار ومراجعتها .. وحياة

الأفكار صيرورة دائمة •• لكن التناقض السيىء هو الانفصام عن أصول المبادىء أو جوهر الحقائق •

أما تناقض الكاتب أو الشاعر مع نفسه فهو دليل الجدية ، ودليل التفاعل المتجدد ، لأنه يطرح الرأي عن قضية ثم يعدل هذا الرأي عن اكتشاف لصميم القضية ، أو عن بعد لم يفطن اليه قبلا •• بل أحيانا قد يرجع عن رأيه في القضية لتجدد منظورها أو لتجدد نظره اليها •

مثلا على هذا : ان الشعر في مطلع الخمسينات انقسم الى شعرين •• خليلي •• مرسل •• وكان التقييم في ذلك الحين يضع العمودي في الصف « اليمين » ، ويضع المرسل في الصف « اليسار » ، تبعاً للتغيرات الظواهرية في الحياة السياسية ، رغم قصورها عن الوصول الى ضمير المجتمع • ولما وصلنا الى الستينات بدأنا نعدل أفكارنا لزيادة في الفهم الاجتماعي والثقافي ، ولزيادة تغيير في المادة المقروءة • فارتفع شعار أهمية المضمون بغض النظر عن الشكل ، لأن أكثر القصائد العمودية كانت أكثر دلالة على التقدمية السياسية ، كقصائد الجواهري ، وسليمان العيسى والسياب •• وكان الكثير من القصائد الجديدة مجرد رداء تقدمي على رجعية عريقة •

وعندما وصلنا السبعينات ، بدأت ملكة التمييز تضيء أكثر ، حتى لم تعد تهتم بالشكل لأنها اهتدت عن خبرة ، غير أن هناك من يتستر بالشكل الأجد على الامبريالية •• أو العمالة لها ، نتيجة الخلط • لأنك تقرأ في (الآداب) البيروتية ، و (البيان) الكويتية نفس الشكل الشعري الذي تنشره (البلاغ) و (الطريق) و (النهار) و (الحياة) ، من هنا لم يعد الشكل وسيلة للتصنيف ، وانما الأعمال والمواقف هي أنصح الأدلة لتقويم الناس •• ونحن في اليمن لابد أن نراعي

مرحلتنا وتحركها فلا بد أن نضع عن تمييز فرقا حاسما بين القديم وبين الجديد •• ولعل أصح المفاهيم أن نعتبر القديم في أي شكل كل ما يدعم القيم البالية ويوآزر التخلف والاستغلال •

ونعتبر الجديد كل ما يثير فكرة جديدة ويضيف انارة الى موقف ويشعل قنديلا في ضمير وطني • لأن السبعينات ليست فترة التصنيف وانما فترة التمييز الصحيح بين الأصناف والمصنفين •

مجلة الجيش ــ العدد ٧١ ــ فبراير ١٩٧٦

* * *

كتابٌ بلا مؤلفٍ

كان لقبه « فأر كتب » لكثرة ما يقرأ ، وان كان لا يؤلف ، لأنه كان يقرأ للاستنارة ، فكانت مؤلفاته ملاحظات يصوبها على كل مشهد ، ويعتصرها من كل مشهد ، لأن القراءة غذاؤه اليومي ، فقد هاله افلاس المكتبات من كل مايستحق القراءة ، وقال وهو يصعّد ويصوب نظراته بين الأرض والسماء (ان الذين يريدون تجهيلنا يعرّفوننا أكثر بنفوسنا ويكشفون لنا أوراقهم لكي تتثقف بالمقاومة ، لأن الحياة كتاب لا يصادره أحد .. ومكتبة تؤلف وتنشر في كل ثانية كتابا وكتب) ، واستراح الى هذه الفكرة لواقعيتها ، لأن حصافة الشعوب سبقت المطابع ودور التوزيع وتسييس الثقافة والأدمغة ، ومدّ خطواته الى مكان آخر ، لكي يبحث عن من يحقنه فوجد الصيدليات مضربة عن العمل المأجور ، فاستبشر وقال في نفسه .. لقد فطنت وزارة الصحة الى بؤس المرضى فافتتحت عيادات شعبية في كل حي ، ولكن الحقيقة صدمته بعنف لأن وزارة الصحة ألغت شيئا قبل أن تفكر في بديله الأفضل ، ودعت الناس الى المستشفيات كي يختنقوا بالزحام قبل أن يصل الى عروقهم ماء الحقن ، واعتبر ان هذا الامر مؤقتا ، وبعد أيام ستنتشر العيادات الشعبية .. عسى أن يحدث هذا ، لأنها وزارة خدمات ، ولكن الذي حدث أنها أباحت ما منعت ــ وهذا جيد ــ ولكنه لا يغني عن العيادات الشعبية المجانية المنتشرة في كل الأحياء

لكي تقضي على بروقراطية الطب وتجارية الأدوية ، لأن التجارب تؤكد أن خدمة الشعب عن اختيار ورغبة هي الطريق الى الزعامة الحقيقية ، لأن الزعامة خدمة تشرّف ملتزمها ، فلم يعد هناك من هو أكبر وأصغر ، وانما من هو أخدم ومن هو أخون لمسؤوليات الخدمة ، لقد كانت مؤلفاته ملاحظات يكتبها بنار قلبه في الأسماع وواجهات الجدران ، فيحس ارتياحا قويا لأنه فكر في الشعب كالأنبياء ، وفكر في الاصلاح كالعظماء وشعر بضرورة التغيير كالثوار •• تابع خطواته الاستقرائية ، وأول ما لاحظ خمسة من قدماء الموظفين أبعدتهم يد سحرية عن أعمالهم ، وتساءل •• من الجميل أن نستبدل شيئا بأفضل •• ولكن ما جدوى ، أن نستبدل كفاءة ذات خبرة بيدائية ، وبلا رصيد تجريبي ؟•

صحيح أن هناك من يسخّر طول ممارسته لخدمة سرقاته • ولكن هؤلاء الخمسة من الذين يملكون الكفاءة عن طريق الممارسة ، ويتمتعون بالاخلاص للشعب ، فما ذنبهم ؟ لقد عرف أن جرمهم طول مدتهم في العمل ، وتذكر أن الماهرين في ادارات الدول ، هم المعممون بالشعرات البيض والمنحنون بأعباء العمل • ان الخبرة الحقيقية تحتاج الى المدة الأطول بدليل أن القادة الكبار من أبناء الستين فما فوق •ومع النزاهة تبدع المدة الأطول أعظم النتائج • لقد أثمرت قراءته تعليم الحياة فكان كتابا بلا مؤلف ينتظر القراء ••

مجلة الجيش ـ العدد ٧٦ ـ يوليو ١٩٧٦

تكاليف السّلام

كما أن السلام يأتي من الحرب •• فالحرب تأتي من السلام ، لأن أهم الأمور تأتي من عكسها ، إلا أن صورة السلام تختلف من حين الى حين ، فالسلام الذي كان يسود بلادنا قبل ثورة سبتمبر ، كان فترة كَبْت تتهيأ للانفجار •• لا فترة سلام ، لأن السلام الحقيقي هو الرضاء النفسي بما هو قائم أو الأمل بتحسينه بفعل العامل الزمني •• لكن ذلك السلام كان بمثابة التجمع للانقضاض •• فهو حرب في النفس لا تنتظر الا الميدان المدجج ، أو هو بمثابة الليالي الحبالى ، كما يقول الأولون ، ويمكن لفتة أو لفتتان الى أول الخط تزودنا كثيراً من ألوان صورة السلام الذي كان سائدا قبل انفجار الثورة ، لقد كانت ثلثي أيام (يحيى حميد الدين) مذابح متوالية ، وذعرا ممتدا في كل طريق وفي كل شارع ، وكانت تسمى هذه الفترة زمن (ما بين الدولتين) ، دولة الأتراك الراحلة ودولة الاستقلال الناشئة ، وبينهما كالعادة منذ القدم تنتشر الإباحة الدموية عن ثأر أو طلب غنيمة •• وهي فرصة النهب والإنتقام الشخصي في مناطقنا القبلية ، بل وفي شوارع المدينة •

وكان السلاح يومئذ بندقية تركية •• أو خنجرا يمانيا •• أو تارياً • وقبل عشرين عاما من حركة عام ١٩٤٨ م ساد الهدوء ، لكنه هدوء المقابر •• لا هدوء الحياة العاملة في انسجام ، يمكن أن يسمى ذلك الحين سلاما ، اذا اعتبرنا السلام هو ضد الحرب ، أما اذا اعتبرنا

السلام خطة عمل وحركة حياتية فلم يكن الهدوء أواخر أيام (يحيى) يسمى سلاما ، وانما كَبْت كضم النفوس حتى وجـدت متنفسا ضيقا عام ١٩٤٨ م وما تلاه الى ١٩٦٢ •

ولما انفجرت ثورة سبتمبر ، تفجر كبت عشرين عاما ، أو يزيد ، وكان للانفجار عدة صور كما كان للهدوء الميت أو المكبوت في تربص عدة صور ، فبعد أن انفجرت الثورة أصبح السلاح في كل يد •• ومنهالاً على الأيدي من كل جهة ، وكان الكبت الامامي سببا أو أهم الاسباب في استعمال السلاح وطلبه من قبل من لا تسوقهم المبادىء الوطنية الى الحرب ، فالشعب اليمني ما يزال تغلب عليه البدوية الأمية • وهذه البيئة هي بيئة السلاح والتطاحن بالسلاح ، وقد كان الفقر والكبت مانعين من توفر السلاح ، كان يوجد في القبيلة عدد محدد من البنادق •• وكانت الذخيرة نادرة أو شبه نادرة • وحتى الجندي في القوات المسلحة ، كان لا يملك ذخيرة الا بقدر محدود ، والحساب الشديد مسيطر وراء استعمالها حتى عند ضرورة الاستعمال، ولما انفجرت ثورة سبتمبر انهالت كل الجهات على الأيدي بالأسلحة والذخائر ، فأصبح اطلاق البنادق والرشاشات متنفس الكبت ودليل الوجود ، ذلك لأن السلاح يغري باستعماله ، كما يغري الحصان راكبه بالخُيَلاء ، وعلى الخصوص في الأمم البدائية ، فكما كان العربي القديم يزدهي بالسيف الصقيل •• ازدهى المواطن في بلادنا ببراعة الرمي، وكان يمنعه قبل سبتمبر فقر الجيب عنأن ينال السلاح، وبعد الثورة أصبحت أنواع الأسلحة قريبة المتناول •• كالحجارة والعصي ، وكان الطموح الى استعمال السلاح بفاعلية الكبت سببا من أسباب حرب سبع سنوات الى جانب عوامل مبدئية •• كحماية الثورة •• وعوامل خارجية تستهدف قتل اليمني بسلاحه أو بسلاح

أخيه ، لهذا يلاحظ أن الدول تمنع السلاح على المواطن ، إلا في التعبئة العامة ، وذلك لأن السلاح يغري حامله باستعماله ولو في غير هدف ، لأن اثنين لا يختفيان ــ الدراهم •• والسلاح ــ ، وقد قال العرب « لو كانت الدراهم في جرة لحركت الجرة آذانها ، ولو كان السيف في يدي عجوز ، لقال لحاملته اضربي » ، فمن العوامل النفسية التي أشعلت الحرب في بلادنا عاملان : ــ

الأول : الكبت والحنين الى السلاح في العهد البائد •

الثاني : وفرة السلاح في العهد الجديد ، لأن حامل السلاح يريد أن يدلل على براعة استعماله ، ويصل عن طريقه في هذه المرة الى مغانم طويلة الأجل ، لأن العضلات المفتولة تجد نفسها في أزمنة الحروب ، وبالأخص بين جبهتين مغريتين للمقاتل •

والآن ، ونحن نعيش السلام ، والسلاح في وفرة العصي والحجارة ماذا نصنع لتوقيف استعمال السلاح في غير أغراضه الوطنية ؟!••

لقد كان استعمال السلاح تدليلاً على البراعة والشجاعة لإغلاق المجالات أمام القدرات المتخصصة ، ويمكن الآن بعد أن تنفس الكبت أن تفتح أبواب العمل ، فيشعر حامل البندقية أن للبراعة مجالات أخرى • وأن هناك مرتزقاً آخراً غير إهدار الدم وقذف النار ، ومن المفيد أن تتعدد مجالات العمل بتعدد ملكات النفوس ، فيمكن المواطن الذي كان محاربا أن يصبح مهندسا ، وسيصبح هذا العمل الفني بتعقيداته أجلى محك للبراعة والخبرة ، ويمكن أن يكون تحريك الحرّاثة فناً يدل على المهارة أكثر من استعمال البندقية أو الرشاش ، وقد دلت على ذلك التجارب العملية الأولية ، فالمحارب الذي أصبح سائق سيارة ، شغل بالعمل الحياتي عن عمل الفناء ، لأنه وجد مجالا يدلل فيه على مهارته ، ويكسب خبزه ، ولكن ليس معنى هذا طرح

السلاح عن كل يد ، لأن كل دولة مضطرة الى الجيش المدرب ، ويمكننا أن نفعل كما يفعل الآخرون لارتباط الجندي بعمله ، فالدول كبراها وصغراها تقيم المناورة تلو المناورة •• وتوهم الجيوش بوجود عدو متربص قد يقتحم في ظل السلام ، وهذه وسيلة تنفع من جهتين :

ـ من جهة إنقاذ الجندي من الفراغ •

ـ ومن جهة استعداده لحرب قد تحدث •

فالمناورات هي سياسة كل دولة لقتل بطالة الجيوش ، ولتحريك الحس الوطني ، ولتقوية الخبرات لقتال قد يجد ، لأن الحرب تأتي من السلام ، كما يأتي السلام من الحرب ، لكن الأحوال عندنا تختلف من طرف واحد ، ذلك أن كل مواطن تقريبا يملك سلاحا ، لكنه يملكه بدافع الحنين اليه قبل وجوده ، للتدليل على البراعة والزينة بعد اقتنائه • ولا يلهي المسلح عن سلاحه الا وجود المجالات الفنية المتمثلة في حركة دواليب المصانع وآلات الحرث والري ، أما الحرث على الثيران أو السفر خلف الحمير ، فلم يعد مطمح الطامح لطول امتهانهما حتى الملل ، فكما كلفتنا الثورة بذل الدماء ، فسوف يكلفنا السلام جهد الفكر في تحريك الأيدي •• وشغل النفوس بالأعمال الجديدة ، وقد بدأت بلادنا تملك وسائل لأعمال جديدة ، لكنها ليست كافية لالتقاء كل الأيدي ، وسوف يكلفنا السلام البحث عن كل مهنة لكل يد تظهر فيها براعة تلك اليد العاملة ، ذلك لأن في كل انسان نزعة الى التفوق ونزعة الى الخلْق ، أو إيهام الخلق ، لأن في كل انسان عنصراً من الخالق القدير ، وليس ابداع المصور أو الموسيقي أو الشاعر •• أو القصاص أو النحات إلا صورة لطموح نفسه الى الخلق ، لأن في كل مخلوق عنصرا من قدرة الخالق ، ومن كمال المخلوق أن يصبح خالقا •

إذن فتكاليف السلام لا تقل جهدا عن تكاليف الحرب ، بل لقد كانت أيسر مؤنة ، لأن البيئة البدائية لا تحتاج إلا الى الاستنفار وإغداق السلاح ، فيصبح الكل جبهة قتال ، والى جانب هذا فعنصر الحقد أو الشر أغلب على النفوس ، بينما عنصر الابداع الهادف والأعمال الخيرة الحياتية في حاجة الى تعليم والى قيادة عملية ، حتى تتوفر بيئة عملية تمتد فيها المنافسة وتصبح مجلى للبراعة ، وتكاليف السلام تستدعي المدارس التي تعد هؤلاء العاملين بينما التدريب على القتال أقل كلفة ، لأنها تُنال بأقل ممارسة ، ففي وسع أي راع في واد أو حطاب في أي غابة ، أن يطلق البندقية بمجرد وقوعها في يده وبطلقات معدودات يصبح راميا ، لكن مهندس الري ، ومحرك مكائن المصنع ، وباني الجسور ، لا بد أن تعده مدرسة وتحتضنه بيئة ميكانيكية •

واذا كانت المدارس تخرج المعسكرات ، فسبب المدارس العسكرية هو تعليم الانضباط والتكتيك وتقدير المواقف واسلوب المباغتات والحرب النفسية ، أما بالنسبة لتفجير النار من أي فوهة فيمكن أن ينال بتدريب ساعات أو أيام •

إذن فتكاليف السلام أشق من تكاليف الحرب ، لأنها انتقال من حركة الموت الى حركة الحياة ، وسبيل الموت واحد ، والحياة متشعبة المسالك والجوانب ، إلا أن الحياة تستدعي حمايتها ، فالسلام الذي نستنشق جوه هو سلام اليقظة •• والعمل والاعداد ، لأنه يمكن السلام أن يفضي الى حرب ، كما أمكن الحرب أن تفضي الى سلام •

وليست الحياة المنتجة إلا معركة لكنها معركة نظيفة يحركها الفكر العامل المستنير بدلا من النار القاتلة •• ويروّيها العرق الطاهر

بدلا من الدم ، لهذا كان يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « عدنا من الحرب الصغرى الى الحرب الكبرى » •• فقيل يارسول الله ما الحرب الكبرى ؟ • قال « جهاد النفس » •

وحربنا لنفوسنا اليوم هي أن تتخلص من خدمة منافعنا الى خدمة المنافع العامة •• وأن تتخلص من ذاتيتنا الى مجتمعنا لتحقيق نفوسنا في جماعيتنا حتى يصبح لكلمة السلام معنى ، لأن السلام الذي سبق الثورة كان معناه سلام التمويت •

والسلام الذي تتفيأ ظله اليوم نريد أن يكون سلام الرخاء العام •• والإبداع المتصل على أرضنا والمتجدد من فترة الى فترة ، ويبدو إن كل ما هو قائم الآن غير كاف لشغل الأيدي ، وإذا كنا قد اعتبرنا الهجرة الى خارج البلد وسيلة تخفف الكثافة السكانية •• وتبرّد حدة البطالة •• فنحن واهمون ، لأن سكان البلد يتزايدون ، ولأن الباقين أكثر من المسافرين ، مهما أزدحمت أبواب ادارة الجوازات •

فالمواطن الذي له ثمانية أولاد يسافر منهم ثلاثة أو أربعة •• والباقي يتزوجون وينسلون ، وبهذا سيحدث التكاثر وتمتد الكثافات السكانية من حين الى حين ، وتتبين أن الهجرة مهما تكاثر اعدادها اذا صلحت حبات تهدئة فلا تصلح علاجا ، لان دور الغربة مهما كثرت لاتستطيع ان تبتلع شعباً كاملا يقوى فيه عامل النمو البشري كسائر الشعوب •

صحيح أن شعبنا الصغير أكثر شعوب العالم هجرة الى خارج أرضه ، غير أن الهجرة لاتوقف زيادة السكان في الداخل •• ولا تنسي المواطن اليمني أهله وأرضه ، لأن اليمني المغترب يعاني في ديار الآخرين أشد أنواع الإهانات ، بحكم أنه في عمله تبعي ، فليس من

مغتربينا من هو رئيس شركة في بلد كالشامي أو الافريقي ، ولا من هو مدير فني في أي حكومة كالإسرائيلي أو الاوروبي •

إن غربة اليمني أحر أنواع الحنين الى وطنه ، لأنه يرى كرامة الآخرين في ديارهم ويرى اهانته في ديار الآخرين ، وقد عرفنا عند انفجار ثورة سبتمبر كيف رجع المغتربون أفواجاً بدافع الحنين الى كرامة المواطن على أرضه •

إذن فتكاليف السلام تتلخص في كلمة صغيرة وكبيرة هي :

العمل لكل يد •• والطعام لكل فم •• والكرامة لكل مواطن •

مجلة الجيش العدد ٢٢ ديسمبر ١٩٧١

* * *

بين الحرية والضرورة

لقد تميز هذا العصر بانه عصر الأفكار أو عصر صراع الأفكار ، وكل عصر تتزايد فيه الأفكار ، يؤدي هذا التزايد ، الى الصدامات الفكرية • وميزة الصدامات الفكرية ، انها توصل الى الحقيقة ، وهي غاية الفكر والمفكرين •

فكل ما في العصر من علم ومن فن ومن فلسفة لايهتم بغير الحقيقة ، إلا أن لكل لون اسلوبه في البحث عن الحقيقة ، فأسلوب الأدب في استجلاء الحقيقة والتعبير عنها غير اسلوب العلم في اكتشافها والتدليل اليها أو عليها ، واسلوب الفن التشكيلي غير اسلوب العلم في التوصل الى الحقيقة ، أما الفلسفة فهي باسلوبها ومضمونها ، البحث عن الحقيقة ، بل لقد سميت الفلسفة حب الحكمة أو الحكمة أو الوصول الى الحقيقة عن طريق المعرفة، وقد كانت الفلسفة مقصورة على عليّة الناس ، كما كان يقال ، شأنها في هذا شأن السياسة والعلم، فقد كانت كل هذه المميزات الفكرية والعلمية والفنية ، بعض خصوصيات الحاكمين ، أو بعض خصوصيات من كانوا يدعون بالأشراف ، ولما فرضت الشعوب وجودها كمصدر للسلطات ، تعممت الامتيازات الفكرية والعلمية والفنية ، حتى نزلت الفلسفة من أبراجها وكنائسها الى الشوارع والمعامل فأصبح لكل إنسان فلسفة في الحياة ووجهة في الوجود .

لكن أي نوع من الفلسفة تعمم بين الملايين ؟ انها فلسفة الحياة لافلسفة الهروب من الحياة الى الابراج والملكوت ، ولا فلسفة البحث عن « أصل البيضة والدجاجة » « والجوهر والعرض » و « الصورة والهيولى » •

كل هذه المصطلحات الفلسفية تغيرت مدلولاتها ، وانتقلت مع الفلسفة من مواجهة الكون الى مواجهة الحياة العملية والمأسوية للانسان ، وتجمعت أشتات الأفكار العديدة الى ثلاثة أفكار رئيسية ، هي التي تقود عصرنا وتسيره ، وهذه الثلاثة الافكار تتلخص في كلمة الحرية ، الديمقراطية ، الاشتراكية ، فلم يعد في عصرنا من لايطبق هذه الافكار أو يدعي تطبيقها ، أو يتظاهر على الأقل بشعاراتها ، لأن المذاهب الثلاثة أصبحت مذاهب العصر على أي وجه من الوجوه ، أو أصبحت عناوين بارزة لعدة موضوعات مختلفة باختلاف المفاهيم للحرية والاشتراكية والديمقراطية ، وسوف تلاحظ اختلاف مفهوم الحرية من بلد الى بلد ، فالحرية في الغرب الرأسمالي تتلخص في كلمة (دعه يتجر) ، (دعه يمر) ، أو في كلمة (أنت ما تملك) • وتتلخص الحرية في العالم الاشتراكي في كلمة (أنت ما تعمل) ، (الحرية للكل من أجل الكل) • والحرية في العالم الثالث جلاء الاستعمار بكل آثاره وتوفير الضروريات بكل اشكالها • وكما اختلفت مفاهيم الحرية اختلف مفهوم الديمقراطية •

فهناك الديمقراطية الاجتماعية التي تعني تحرر المجتمع وتحقيق اهدافه الكبرى ، وهناك الديمقراطية السياسية التي تمثلها تعدد الأحزاب والانتخابات البرلمانية ، ومثلها الاشتراكية فقد تعددت أسماؤها واختلفت سماتها ، وكل العالم يلتزمون مفهوما من مفاهيم الاشتراكية أو شعارا من شعاراتها ، إما التطورية أو الفابية كما في

بريطانيا وفرنسا ، أو الاشتراكية المعتدلة التي تحدد سلطة رأس المال وتصاعده ، ولا تمنع الملكية الخاصة الا انها تقيدهـا من الطغيان الاستغلالي وهذا النهج قـائم كنظريات ، أو مطبق في اجراءات في شعوب العالم الثـالث ، وهناك الاشتراكيـة العمالية وهي تطبق في المعسكر الاشتراكي ، المهم أن الحرية والاشتراكية والديمقراطية ، أهم افكار عصرنا وأكثرهـا فاعلية وقبولا وتطبيقا ، وقد جـاءت الديمقراطية والاشتراكية من دعوة الحرية ونداء التحرر ، ولاختلاف المفهوم في الحرية اختلفت مذاهبها فلسفيا وسياسيا ، كما اختلفت وسائل تطبيقها ، لكن ما هي الحرية هل هي الارادة وتنفيذ الارادة ؟..

إن تحقيق الارادة ممكن عند البعض ، مستحيل عند البعض الآخر فالمسألة نسبية ، لهذا يمكن أن يقال ان أصح مفهوم للحرية هو السيطرة على الضرورات ، فماذا نفعل بالحرية ونحن جياع ، إن أهم من الحرية السيطرة على ضرورة الجوع وامتلاك وسائل العيش النظيف ، ثم ماذا نفعل بالحرية ونحن مرضى ، ان المرض أصعب عائق لحرية تحركنا ، فلكي تتحرك بحرية لابد أن نسيطر على المرض ، ثم ماذا نفعل بالحرية ونحن بلا ثياب أو مساكن ، ان قسوة الطبيعة سوف تعوق حريتنـا ، فلكي نكون أحرارا لابد أن نسيطر على الطبيعـة فنمتلك الثياب والبيوت التي تقينا الحر والبرد .

لهذا كان العلم أنفع خادم للحرية بكل اشكالها وبكل ما نتج عنها من ديمقراطيات واشتراكيات ، لأن العلم أنجح الوسائل للسيطرة على الضرورات وعلى قوانين الكون ونواميس الطبيعة ، فالقضاء على الامراض والمجاعات والحروب والجهل أوضح سبيل امام حرية تحرك الانسان ، وبعد أن نسيطر على الضرورات تتساءل هل تحررنا من ضرورياتنا ؟ فأذا امتلكنا الواقع وسيطرنا على الضرورات فقد امتلكنا

ما هو أهم من الحرية ، وهو الإنتفاع بها ، فالحرية الشخصية مطاب تافه ، لانه يتيح لنا أن نمارس الهوايات الرخيصة ، ونلبس ما يروق لنا ، ويتيح لنا أن نحب وأن نتجول ، وهذه حرية تافهة .

أما الحريةالنافعة فهي التي نحققبواسطتها الطموحاتالاجتماعية وأكبر الاغراض البشرية ، ولا ننتفع بحريتنا الكبرى الا باقتدارنا العلميعلى تسيير قوانينالوجود واخضاعالضرورات لسلطانمعرفتنا .

لهذا اعتبر أكثر الفلاسفة ان المعرفة أهم ما يمتلك الانسان ، لأن المعرفة مفاتيح اسرار الوجود ، وبمعرفة اسرار الوجود يمكن أن نسيطر عليه ، وبالسيطرة على الضرورات نملك الحرية التامة .

والحرية التامة تضمن لنا أصح المذاهب الديمقراطيةوالاشتراكية وأهم أفكار العصر، فاذا سألنا هل هناك ماهو أهم من الحرية؟ فسوف يكون الجواب الانتفاع الاجتماعي بالحرية أهم من الحرية نفسها والسيطرة على الضرورات أصح طرق الحرية ، فبين الحرية والضرورة أهم صراع تنتصر فيه الحرية بالمعرفة وتتكسر أو تموت بقلة المعرفة أو انعدامها ، فلا حرية بلا سيطرة على الضرورات ولا سيطرة بلا معرفة تدلنا على كيفية العمل وغاية الحركات .

مجلة الكلمة العدد (١٣) مارس ١٩٧٣!

المعاصرة واليمن المعاصر

إذا كان لكل أمة وطن تنشأ عليه وتدافع عنه ، فان الزمن وطن كل الأمم ، لأن أيامه تشرق وتغرب على الجميع ، وتحولاته وتغيراته تؤثر على الجميع ، وتمتد من مكان الى مكان بسرعة حركات الكواكب والشموس ، فاذا اختلفت الشعوب في التأثر بالمعاصرة والتأثير في العصر ، فانها كلها تشترك في صنع هذا العصر والتفاعل بمنتجاته ، الا أن الشعوب المتخلفة تلقت هجوم العصر قبل أن تستعد لمواجهته . فكان لهذا الهجوم ضحاياه ومؤثراته : لقد دخل وطننا أبواب هذا العصر دخولا مفاجئا ، له إفزاع المفاجأة وسر تأثيرها واحتمالاتها ، في الوقت الذي بدأ فيه مثقفو العشرينات يعرفون نظرات « المنفلوطي » وطبائع الاستبداد « للكواكبي » وأشعار « شوقي والزهاوي » . في هذا الوقت عرف شعبنا هجوم الطائرات البريطانية عام ٢٨ وهي تقصف « قعطبة ومأرب وذمار » وتحوم فوق (صنعاء ويريم) . ومن هنا امتزجت خطورة العصر بحلاوته في نفس المواطن اليمني ، لأنه قبل أن يسافر على طائرة احترق بنار قنابلها ، أو شاهد الصرعى تحت نيرانها ، وبرغم هذا الهجوم فان شعبنا — على تقليديته — تعود جدة العصر ، لكن تعود المتلقي لا تعود المعطي ، ولم يكن شعبنا فريدا في هذه الصفة ، وانما تشاركه كل الشعوب المتخلفة والتي تريد أن تتجاوز التخلف ، فلم تكد القاهرة تنفض عن كاهلها كابوس العثمانيين ،

وكرابيج المماليك ، حتى أفاقت على مدافع « نابليون » تقصف القلاع والأبراج ، ولم تكد تخرج من العهد الملوكي والنابليوني ، حتى دخلت عصر المدافع البريطانية ، فكما أفاقت القاهرة على مدافع نابليون صحت الإسكندرية على مدافع البريطانيين ، ومثل الاسكندرية القاهرة ودمشق وبيروت ، فلم تكد دمشق تضمط جراحاتها من الحرب العالمية الأولى ومن مشانق « جمال باشا » حتى اصتدمت بالمدافع الفرنسية عام ٢٣ ، ومثلها بيروت وكثير من مدائن العالم المستعمر .

ولعل شعبنا احد احتداما بالعصر الذي هاجمه ، قبل أن يمتلك الرؤية الى ابعاده ، والقبضة القادرة على تصريف قياده ، فأول منجزات العصر كانت وسائل دمار وموت على يد علم الموت الراقي .

أول ما عرف شعبنا المدافع عرفها في معسكرات الغزاة الأتراك وسقط بقذائفها في (شهاره وصنعاء وحراز) ، وبعد أن قصف « سعيد باشا » مدينة صنعاء من نقطة (عَصِر) عام تسعة من هذا القرن بدأ شعبنا يتماسك أمام العصر المهاجم ، فعندما جاء قصف الطيران البريطاني ، كان شعبنا قد تناسى لعلعة المدافع التركية ، فكان الهجوم الجوي أعنف أثرا لجدته من ناحية ، ولقلة الهزات العنيفة من ناحية أخرى .

ألم يدخل شعبنا أبواب العصر بصراخ الميلاد ونزيف الجريح ؟؟ وبرغم هذه المرارة المهاجمة فقد استقبل شعبنا العصر المهاجم برغم أن دخانه أكثر من أضوائه وبرغم أن ضحاياه أوفر من غنائمه ، إلا أن الانسان اليمني بدأ يمرن عيونه على ظواهر العصر ، ويفتح نفسه لتقبل وافداته ، فبعد أن سكت صوت النار والأزيز بدأت تتوالى منتجات العصر على شعبنا من معامل صنّاع العصر ، وأول ما أدهش سمعه بعد صوت الطائرات والمدافع ، هو صوت المذياع الذي يقول كثيرا ويفهم قليلا ، فقد كان المذياع في بدء إرساله كثير الوشوشة ، وكانت الأسماع كثيرة

الاستغراب قل ماتعي مايقال • إلا أن هذا الطريق المسموع بدأ يتجلى ويتضح ولكن للخاصة القادرين على امتلاك الاجهزة ، إلا أن الأخبار الخطيرة سريعة الانتقال عن طريق المحادثة في مجاميع البيوت والطرق والاسواق ، وبعد استماع المذياع أو السماع به كان أول ما عرفت مدائننامن ألوان العصر تلك الدرّاجات النَّفَسية «السيكل» السريعة •

وعلى تقليدية مجتمعات المدن فقد ألفتها الرؤية ، وأنكرتها النفوس بعض الإنكار •

إلا أن أول من استعملها هم حماة التقاليد ، لقدرتهم على الشراء، وإن كان الإستنكار لم يسكت غير أن الاستعمال لم يتوقف ، بل زاد انتشار هذه الدراجات وكان يستعملها أبناء المحافظين ويسميها بعضهم (بغلة الشيطان) ثم بدأ يتعمم هذا اللون ، فانتقل من الطبقات الفوقية الى الطبقات الوسطى حتى لم يعد أحد يرفع صوت الإستنكار ، أو يمد نظرة الاستغراب ، لأن هذا النوع من الكماليات أصبح ملموس النفع ، وتحول الى ضروري كغيره من الكماليات ، ثم جاءت السيارة وكانت تبدو كمخلوق عجيب ، تثير الدهشة ونزعة الامتلاك ، لأنها كانت في يد القدوة كالأمراء وكبار التجار في ذلك الحين ، لأنها وسيلة ملموسة النفع الى جانب أنها ظاهرة جمالية• ثم أخذت السيارات تتكاثر وتتنوع ، وشعبنا يزداد إلفا لها بل إعجابا بها • وبالمذياع الذي تعمم بدوره ، ومع هذا الاعجاب وحس الضرورة ، لم يحلم رجال الأعمال والأموال بصنع الدراجة أو السيارة أو المذياع ، مع أن الذين صنعوها حلموا ففكروا ثم صنعوا ، لأن كل المنجزات ترف أحلاما على المخيلات • ثم تتجرثم أفكارا في الأدمغة ، ثم تنبت أعمالا ، وتتشكل في مصنوعات ، فلماذا تقبل شعبنا كغيره منتجات العصر ، ولم يفكر في صنع ما يستورد ويستعمل ؟؟

السبب أن العصر هاجم شعبنا ، قبل أن يستعد لقيادته ، فاكتفى باستهلاك ما ينتج الذين فكروا ، ثم صنعوا ، مع أن مجرد الاستيراد والاستهلاك لا يدل على المعاصرة ، وإنما يدل على الاستسلام للعصر ، والذين لايفكرون في الانتاج لايدللون على وجودهم كخالقين ، لأن من صنع الشيء يدل على أنه يسواي شيئا ، أما مستهلك الاشياء فلا يتجاوز المتاع الذي يستهلك وهذا ما أشار اليه « ابن خلدون » في حديثه عن الغزو التتري قال (ابن خلدون) :

(كانت الجيوش العباسية وغيرها من الولايات تحمل الأسلحة ، وتنكسر أمام التتار ، والمغول ، لأنها مجرد حاملة أسلحة لاصانعة أسلحة ، أما التتار فكانوا يصنعون سيوفهم ، ورماحهم ، وخناجرهم . أو يشكلونها على أيديهم اذا كانت جاهزة . وكانوا يربون خيولهم في الأرض القاسية والغابات المفزعة ، فلا تتقهقر عند الحرب بعد أن روضت على الفروسية في الغابات اللفاء والربوات الصخرية) .

فهذه الإشارة الخلدونية تعلم الانتفاع من وجهين ، من ناحية أنها تبلور في الانسان عنصر الخلق ، ومن ناحية حسن الإستخدام . وقد لاحظ خبراء الحروب أن الجيش الاسرائيلي يطور ما يستورد من الطائرات والدبابات والمدافع بصناعته المحلية . ومهندسيه المحليين، لأن صنع الآلة أو تطويرها زيادة في حسن استخدامها الى جانب أنه يولد في الانسان النزوع الى الابداع .

والآن وقد ركب شعبنا السيارات وتعممت الى القرى ، وسافر الكثير على مقاعد الطائرات ، يمكن حسن ابداع هذه الآلات ، لكي يشارك اليمن في المعاصرة الى جانب مشاركته في التأثر بالعصر : صحيح إن هذا الانتاج يحتاج الى أموال ، وجهود ، وبيئة ميكانيكية . ولكنه بمقدار حاجته الى المال ، والجهود ، والبيئة .. يحتاج الى

الوجدان المعاصر الذي يطمح الى الخلق ، لكي يدلل الانسان على أنه يصنع شيئا ، لأن صناعة الاشياء تدل الانسان على مافيه من طاقة وعلى مافيه من ملكات، ولا يمكن أن تتجلى المنجزات كحقائق تحت الشمس، إلا بعد أن تنبض أفكـارا في الرؤوس ، فهل بدأت مرحلة التفكير ؟ صحيح إن الحياة الحضارية مترابطة ، يستدعي بعضها بعضا •• فهـل يستدعي الاستيراد الى خلق المستورد وتصديره : إن هذا ممكن لأن صنع الكلمة أول وسيلة لصنع الأشياء ، كما في تجارب المنتجين ، ولقد بدأ شعبنا يفكر ويصنع الكلمة ، ولن تكون هذه الكلمة معممة وذات أثر ، إلا بعد أن تهدي الى صنعة الأشياء• ومن يتابع مجلاتنا ومؤلفاتنا يجد أن العشرين السنة الماضية قد أنجبت صناع الكلمة ، ولن تتجلى خصائص هذا الموسم الخصب إلا على ضوء صناعة الأشياء • فالكاتب والشاعر والمؤلف يصنعون الكلمة ، ولكنها تطبع في أوراق من غير صنع البلد وبمداد من غير انتاج البلد ، بل إن اكثر كتاباتنا وأشعارنا تطبع في الخارج وأكثرها لايصل الى مكتباتنا • فلا تكتمل الحيـاة الثقافية إلا بصنع الكلمة ، وصنع الأوراق التي تحملها ، والمطابع التي تخرجها ، والقارىء الذي يحسن كتابتها ، وهذا يستدعي وفرة المدارس وكفاءة المدرسين ووفرة الكتب محليا ، فلكي يلتقي اليمن المعاصر وروح المعاصرة ، لابد من توفر حس خلق الأشياء لكي يدلل الانسان على قدرته ، وعلى انه يتأثر لكي يؤثر ، ويأخذ لكي يعطي لأن الذي لايصنع شيئا لايساوي شيئا •

قال (الجاحظ) حين نصحه أحد المشفقين ، بالكف عن الكتابة : (أنا أحسّ أن يدي ترتعش من الكبر والمرض ، ولكني أحس أنه يجب أن أعمل شيئا •• فان اللسان الذي لايعبر هو إصبع ، واليد التي لاتكتب هي رجل ، والرأس الذي لايفكر هو كومة عظام) •

فنحن نتعلم الإبداع من الحياة ومن أفكار أجدادنا العظماء •

ووراءنا طريق طويل من التجارب المعاصرة ، فاذا كان الماضي من العصر قد هجم علينا قبل الإستعداد له ، فان علينا أن نواجه الحاضر بنفس روح العصر وآلاته ، فطول احتمائنا بالماضي أو حفاظنا على الحاضر ، لايد فعان عنا هجوم الغد فلكي لايهاجمنا الغد كالأمس علينا أن نهاجم الغد من أوسع أبوابه لأن أمسنا من صنع غيرنا أما الغد فهو من صنعنا •

مجلة الجيش العدد (٥٦) نوفمبر ١٩٧٤

* * *

الوصول قبل السفر

كلما كانت له بداية صحيحة •• كانت له غاية صحيحة مهما قامت العوارض ، لأن بدء الطريق الصحيح والإصرار على السير جزء من ضمان الوصول •• أو هو الوصول ، وكل وصول الى غـاية يصلح بداية أضمن الى وصول آخر •• باعتبار إن دوران الحيـاة لايتوقف وباعتبار إن كل جديد يتجدد بالممارسة ويستدعي الاضافات من فترة الى أخرى ، وإن كـانت النظريات العلمية تامة فهي أشـد اضطرارا الى من يحسن تمثيلها لأن عظمة كل مبدأ تتجلى من عظمة ممثليه ، لأن المبدأيين هم نفس المبدأ ، إذ ليست المبادىء أعمـدة مركوزة في الشوارع •• وإنما هي حركة دينـامية تتحرك وتتفاعل بمحركين وبمنفعلين ، وكلما كان المبدئي أعظم كان المبدأ أكثر عظمة ، لأن رفع الشعارات مجرد رايات تظل الشجعان المناضلين ، وإذا التفتنا الى المسافة الخلفية التي وراءنا فسوف تصفعنا الحقائق بأحد" الأسئلة : من أين جئنا ؟ وهل نحن جئنا فعلا • ؟ وماذا حققنا • ؟ وهل نحن حققنا • ؟ وهذا يستدعي القراءة في وجه الواقع :

ماذا تغير داخله ؟•• وهل فجرت كل تحركاتنا البنية الاجتماعية ؟ وسوف نجد بأقل ملاحظة متبصرة أن التغيرات والتحقيقات لاتكاد تذكر • رغم المكونات التي يصعب انكارها ، لكننا لو عرفنا البدء وتعزيز الخطوة الأولى بالثانية ، لكنا قد تجاوزنا الاساس الى رفع

مداميك البناء ، وإذا استبصرنا السبب فسوف نجد أن بعض تجاربنا أجهضت • وبعضها ولدت ميتة •• وبعضها حالت الظروف عن حسن استغلالها،فاذا كنا من بعد الستينات الى الآن نرددكلمة الديمقراطية•• ونمارس بعض اشكالها • فان هذه الديمقراطية لم يتم الانتفاع بها الى الآن اجتماعيا ، اذ ليس المهم اعلان الحرية والديمقراطية وإنما الانتفاع بهما في أهمية اعلانهما •

بدأ صوت الديمقراطية يتردد في بلادنا من عام ١٩٤٨ ، وتضمن الميثاق الوطني الذي اعلن في ذلك الحين أهم بداية للديمقراطية الشعبية ، إلا أن هذا الميثاق مات يوم ميلاده ، لم يمارسه معلنوه لقصر مدتهم ، لهذا أمكن العهد الأحمدي أن يحتوي شكل الميثاق في ما استحدث من تشكيل وزارات وشعارات وتكوين علاقات واتاحة الحرية التجارية • ولو اتيح لشعبنا أن يبدأ بممارسة ذلك الميثاق لأمكن الاضافة اليه أو أمكن تجاوزه عن اختبار الى أفضل منه إذا كانت المرحلة قد استهلكته ، لكننا في عام ١٩٦٢ تجاوزنا تجربة ١٩٤٨ قبل أن نجربها •• وادعينا الوصول الى بداية أخرى قبل أن نمتحن النظريات الأولى وتتبين نقائصها ومزاياها عن طريق العمل الميداني ، وبعد قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ، أصبحت التضحية أو شبه التضحية في سبيل خلاص البلاد ، سوق مزاد للمباهه بالأعمال الوطنية والتبكير في المنادات بالتغيير أو العمل فيه ، لهذا استمر المن بالتضحية على الشعب من عام ١٩٦٢ الى الآن •• دون أن يقدم أي مدع برهانا على أثر عمله في وجه الواقع أو في وجدانه ، لأن الأهم من العمل ما يحققه ذلك العمل من تغيير في الظواهر والحقائق •

إذن •• ليست المسألة رفع دعاية الأعمال وإنما ماذا حققت هذه الاعمال •• وامتداد سيرها ••

لقد كان طبيعيا يوم الثورة أن يصبح كل الناس أبطال ثورة .. وان يقدم كل واحد سجل بطولاته ، استجابة لعدوى البطولة الحقيقية التي فجرها الشعب .

فما هي القضية هنـا . ؟

القضية أن كل البطولات والتضحيات (على تكريمنا البـالغ للشهداء والمضحين) لم تحقق تفجيرا في البنية الاجتماعية .. بل لم تكتب عنوانا جديدا على صفحات الواقع ، ذلك لأن الأعمال المبكرة تنقسم الى أقسام ، فهنـاك عمل يكوّن بذرة ناميـة قابلة للتطور والاخضرار على تعاقب الفصول ، وهناك اعمال لاتتجاوز السنين أو الشهور ، لأنها آنية يصعب عليها تجاوز حينها ، لنقص في رؤيتها أو لقلة استيعابها للاحتمالات والتغيرات ، وهناك أعمال عقيمة لا تدل على وجودها أي ظاهرة .. وانما حدثت لانها حدثت فقط ، فاذا رجعنـا الى دعوى الثورية والبطولة فسوف نتساءل : أين آثارها .. ؟ وأين امتدادها .. ؟ وأين مفعولها في تقدم الشعب أو حتى في قطع شبر من الطريق .. ؟

علينا أن نعترف بكل شجـاعة اننا الى الآن لم نعمل لشعبنا ماينتظره أو أقل ما يتوق اليه .. بدليل يغني عن كل الدلائل هو أن شعبنا ما يزال حيث هو : يستورد كل شيء .. ولا يصدر إلا الانسان صانع الأشياء .

إذن فلا مبرر للتبجح بعمل كذا وكذا . على أن لا يكون اعترافنا بالتقصير سببا في القصور .. وإنما وسيلة لبدء الجدية .. وتغيير التكتيك لأن من يدعي بأنه حقق ولم يحقق يقتنع بالوهم عن الحقيقة، ومن يقنع بالاعتراف لايستوجب المغفرة ولا يتخلص من عقدة الذنب إزاء الشعب .

عندما قامت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر الى بعد قيام حركة يونيو اصبح الحبس •• أو الاعـدام •• أو التشريد •• أو التحدي •• أو دعوى التحدي جوازا أحمر الى الوظيفة العليـا •• أو طريقا ممهدا الى أعلى المناصب •• كما تدل على هذا المطالب الى رؤساء الحكم في كل الفترات الجمهورية •

(أنا استحق وزارة كذا لأني سجنت سبع سنوات في حجّة) •

(يجب أن تعرفوا تضحياتي ونضالي ، لأني لجأت في ١٩٦٦ الى عدن أو خَمِرَ أو الطائف •)

(انكم لم تقدروا ما بذلته ، لأن ولدي الوحيد سقط على تربة صَعْدَه أو على أحجار عَيبان) •

(لايستحق أحد غيري وزارة كذا • أو سفارة كذا ، لأن اعمالي الوطنية متواصلة من الاربعينات الى اليوم •)

تضيف الى هذا دعوى الوزير الفلاني تنسيقه لاعمال الوزارة•• وإبداعه في تحركها المثمر ، وانها قد سقطت بابتعاده عنها ، وإن كانت لم ترتفع حتى تسقط •

صحيح ان الكثير من جماهيرنا ومن مختلف طبقات شعبنـا ناضلت بشكل أو بآخر ، وقدمت قدرا ضئيلا أو عظيما من التضحية• لكن هل التضحية والبطولة مجرد طريق الى المناصب أو الكسب ؟ وهل النضال مجرد موضة موسمية تجف آخر الموسم وتريد أن تحصد مالم تزرع • ؟

إننا الى الآن لم نقدم للشعب أقل متطلباته بدليل أن التخلف ما يزال ضارب الجذور ، رغم وفرة إمكانية التغيير وزيادة امكان القابلية للتغيير •

فهل السبب أننا ندعي الوصول قبل السفر ، أو أننا تتجاوز قبل العبور • ؟

هذا ممكن ، صحيح أن هناك تجاوزات فكرية لكنها كلها مجرد اعلانات عن تجاوز دون اختبار للمرحلة الاولى ودون بداية اختبار للمرحلة الثانية ، وصحيح أن بعض القوى التنظيمية قد تجاوزت نفسها من منتصف الستينات الى اليوم •• لكن بدون تجربة للمرحلة الاولى •• وبدون دراية بجدوى الانتقال الى المرحلة الجديدة ، لكن مجرد التجاوز حتى ولو اعلانيا دليل الحيوية •• ودليل الجدية على تلمس الطريق الأصح •

بعض القوى تجاوزت نفسها « من حركيةالى علمانيةمستقبلية » وبعض القوى تجاوزت القومية الى العالمية••لكن دون تجربة للاولى، وبدون تجربة للثانية ، لكن مجرد التجاوز لايكفي دون معرفة عقم الاولى وخصب الاخرى ، لهذا نلاحظ أن أفرادا كثيرين ينتقلون من قوى الى قوى كما يخرجون من غرفة الى غرفة في بيوتهم ، فهل المسألة بحث عن منفعية شخصية صعب الحصول عليها هنا••وأمكن الحصول عليها هناك •• ؟ أم أن الدخول بلا موقف •• والخروج للدخول بلا موقف •• ؟

كل هذا ممكن ، ولكن آثاره الايجابية لم تنعكس على الشعب •• وإنما كل ما يتبدى مجرد شكل •• وإن كانت الاشكال قابلة للامتلاء بشرط التفاعل مع الشعب والانطلاق منه اليه •• باعتباره جذر كل قوة وإطارها ، ومن الجدير بالتساؤل : ماذا أثمر هذا التجاوز الفكري مادام يؤدي الى التمزق الراهن •• ؟

فهل اتفاق الفكرة سبب في اختلاف التفكير •• ؟

وهل واحدية المنهج تؤدي الى تفرق معتنقيه •• ؟ بالطبع لا ••

وبالأخص عندما تتألق بروق الأخطار ، لأن هذه الاخطار تعم ولا تخص ، واظن عوامل التوحيد تلح على نفسها من فترة الى فترة ، ولم يسبق لكل القوى أن التقت رغم تتابع الأخطار إلا مرة واحدة عندما أصبحت نيران المدافع تنفجر في الصدور والحلوق .

هنـاك التقت شتى القوى تحت أعظم شـعار رفعه شعبنا : (الجمهورية أو الموت) ولقد جنى شعبنا ثمرة ذلك اللقاء نصرا عظيما بعد حرب السبعين يوما من عام ١٩٦٧ ، إلا أن هذا اللقاء كان أسباب قطيعة أكثر إيلاما .. برغم الاحتمالات المليئة.. وبرغم إمكانيةحدوث ما حدث ، فهل المسألة ترجع الى صعوبة المرحلة .. أو الى اشتغال البعض بالبعض عن عدو الكل .. وهو التخلف .. وإمكانية تفشي افرازاته ، لاننا نصل قبل السفر .. أو نبلغ الشواطيء قبل مغالبة المـوج ؟..

لاشك أن صعوبة المرحلة من ١٩٦٧ الى حركة حزيران ١٩٧٤ كان لها دخل ، ولكن فترات الانتكاس تشكل أسباب الوثبـة عن تجربة .. وتجمع عوامل التجاوز ، وهذا ما حدث من جانب ، حين قدمت القوات المسلحة مشروع التصحيح عام ١٩٧١ ، وعندما انتصر التلاعب بهذا المشروع كان رد الفعل حاسما وإيجابيا .. فتفجرت حركة ١٣ حزيران ١٩٧٤ فاستفزت الحس الوطني من نومته الظويلة المرتبكة ، وفتحت أرحب المجالات لكي يمارس التجـاوز النظري برامجه الوطنية.إن كان ثمة برامج مكتوبة،لايمكن أي متأمل أن يتجاهل ما أحدثته حركة يونيو من إثارة الحس الوطني بانفجارها من ذلك الركام . وهذا في حد ذاته يكوّن أهم نقطة لقاء .. وبالأخص إذا عرفنا أن واحدية المنهج تجمع بالضرورة كل معتنقيه .. إلا إذا كانت المزايدة هي البديل عن الممارسة .. أو إذا كانت المنفعية الشخصية هي البديل عن المنافع الجماهيرية وعلى حساب انتصار المبدأ العام .

إذا كنا نلاحظ أن قوى كانت تحاول أن تمتلك الميـــدان على ضعفها ، فسوف تتجلى أن سبب قوتها ضعف القوة الأجدر بامتلاك الميدان ، لأن المبادرة السريعة كانت متروكة للمستهلكين (بفتح اللام) وهذا طبيعي ، لان غيــاب الحقيقي يؤدي لظهور المفتعل ، وغيــاب الصحيح يترك السوانح للزيف والمزيفين ، ومع كل هذه التجاوزات.. وكل هذه الاحداث فسوف نرى ان كلنا لم نحقق للشعب أي طلب أساسي، لأن الوصول قبل السفر قد أغنى عن السفر من أجل الوصول.

ولكي نسافر الى وصول متصل فان بأيدي قوانا أهم الامكانيات، لأن كل القوى الوطنيــة تجمعها وجهة عــامة .. هي (اليمنية .. الثورية .. الحس بضرورة تجاوز المرحلة ..) ،

وهذه تكوّن أساسا كافيا للالتحام الوطني ، لأن القوى ليست نقائض .. وإنما هي طرف من عدة أطراف يقابلها النقيض العنيد .

وما دام هناك أساس فان الالتحام ــ ولو مرحليا ــ ممكن التطبيق ، لأن كل الأطراف الوطنية يجمعها بالضرورة أساس واحد .. حتى وان تباينت جزئيات نظرياتها فان المنظور واحد وهو التحرك للمستقبل .. ومواجهة النقيض (العدو) .

من هنا يمكن أن تتجلى المنطلق الذي أضاءت أول طريقه حركة الثالث عشر من حزيران ، وبمعرفة المنطلق يمكن أن نسافر الى وصول . حتى لايخدعنا وهم الوصول قبل السفر وبالأخص ان الحركة قــد أعلنت مشروعيات الممارسات الوطنية تحت الضوء . وهذا يجدي من طــرفــين :

١ ــ اكتساب القوى الشعبية من خلال البرامج العلنية .

٢ ــ اكتساب السلطة الشرعية الديمقراطية من خلال الشعبية الحقيقيــة .

مجلة الجيش ــ العدد ٧١ ــ فبراير ١٩٧٦

الضجّة بين الصّوت والصّدى

تتيح المناسبات سوانح جميلة للتذكر والتذكير ، لأن المناسبة ضرب من الذكرى ، والذكرى تعيد الماضي تحت ضوء اليوم ، فتختلف صورة الماضي لاختلاف الضوء المنصب عليها ، فيتذكر المرء وجه الحدث الذي تبرج ، وملامح مرحلة المخاض الذي انبثق عنه الحدث • وأحداث السبعينات تختلف باختلاف أمكنتها ، ولا تختلف في أكثر غاياتها ، فكلها حركات تصحيح أو ثورات تصحيح •• وكلها تحمل نفس التسمية الثورية ، في مكان كانت حركة التصحيح ثورية الثورة •• وفي أخر كانت ثورة على الثورة •• ولكن ممتدة من نفس الثورة بأي شكل •• وفي مكان آخر كانت مجرد امتداد بلا زيادة ، سوى تنحية جناح وقيام جناح مكانه • فمن أي طراز تعتبر حركة يونيو ٧٤ في بلادنا ؟•

لقد كانت طرازا فريدا بالنسبة الى قيامها وبالنسبة الى المنبع الذي تدفقت منه ــ ويمكن الرجوع الى بداية الخط • تفجرت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ م ــ فأنهت الإمامة وقامت الجمهورية •• ولاقت الثورة أشق صعوبات لسبب واحد هو : أنها جاءت من فراغ ، لأن الثورة تنشأ امكانا قبل انفجارها بسنوات ، وهذا الإمكان هو الذي يخلق الثورة الفكرية المنظّرة للسلاح ، لكي تحل محله عملا وإنجازا ، غير أن الوضع الإمامي كان واضح الاختلاف

عن ملكية مصر والعراق أو عن نوع الحكم الاستعماري في الشطر الجنوبي من الوطن ، فقد كانت كل الأنظمة تحمل كثيرا من سمات المعاصرة السياسية ، فتسمح بمقادير معينة للحريات وتتحرك في أشكال معاصرة •• كان في مصر برلمان وتنظيمات ، كما كانت في العراق نفس الأشكال وفي الشطر الجنوبي من الوطن نشأت نفس الأشكال ، وفي هذا الجو نشأت الثورات امكانا ثم تحققت عمليا على أرضية تصلح أساسا ومنطلقا ، لتنامي الثورة ، وكانت هناك أشكال لاتكلف إلا ملأها بمضامين مختلفة ، وكانت هناك أساسيات يمكن البناء عليها أو يمكن اعادة تجذيرها للبناء عليها ، غير أن اليمن المتوكلي كان يختلف عن كل الملكيات • كان جزاء من ينادي بالحرية قطع رأسه • كان السجن بلا تحديد عقاب صاحب كل رأي ، ولما تلاحق الانحلال على القصر نشأت الخلايا السرية قبل الثورة بعامين أو أكثر ، وهذه المدة لا تكفي لبلورة ثورة فكرية تنظّر للعمل ، ولما يعترض العمل من صعوبات ـ وأحسم العوامل لقيام الثورة والاستجابة لها تشكل من شقين : فناء الامامة ، وسخط الشعب ، فأصبح الواقع مهيئا لتقبل الثورة ولكن بدون رؤية ثورية ، وانما كان السخط العام وتهيؤ الواقع أهم فتيل للاشتعال ، وهذا ما ساعد على انفجار الثورة وعلى شعبيتها العريضة ، الا أن الشعب الذي توهج فيه فجر الثورة كان يختلف عن أكثر الشعوب • وباختلاف المكان اختلفت صعوبات الثورة • لم تحقق الثورة القضاء على الامام ، ولو حققت القضاء عليه لما حسمت الأمر ـ فأي رجل من العائلة المالكة وهم كثيرون يصلح إماماً إما للقضاء على الثورة وإما لتشكيل عامل ضغط على الأقل ، وكان الثوار يملكون الحماس الوطني ، ولا يملكون النظريات المسبقة الكافية لمواجهة الاحتمالات التي صارت واقعا ، لهذا خاضت الثورة أشرس الحروب ، في الشهر الثاني من قيامها جابهت قوتين نظاميتين خارجيتين •

وحقق جيش الثورة انتصارا ساحقا في هذه الجبهة ، إلا أن حروب العصابات تمادت بدفع من الخارج ورغبة من الداخل في الإرتزاق ، كما هي العادة في الشعوب العشائرية المسلحة ، ومع كل هذه الصعوبات حققت الثورة انتصارات عسكرية كثيرة ولكن غير حاسمة ، حتى تعالت ضجة المناورات بين صوت البشير السبتمبري وبين صدى المستبشرين • وأدى طول الحرب الى عدة مخاوف ، فحل الصلح محل انتصار فريق على فريق ، وبهذا سكت صوت الحرب لكي يبقى ركام الحرب ، وتنتقل الى أحقاد بدلا من طلقات نارية كما هي عادة كل حرب غير حاسمة ، وقد أدى هذا التصالح الى ركام من اشتباك المصالح ، تجلى هذا في انقلاب ٥ نوفمبر عام ١٩٦٧ ، وتسمى هذا الانقلاب بحركة تصحيح تنادي بالسلام ، ولكي يتم السلام المطبوخ شنت القوى الملكية حربا شرسة وصلت الى مشارف صنعاء ثم انهزمت بعد سبعين يوما ، وجمهر بعض أتباع الملكية وتميلك بعض المجمهرين ، وهذا يدل على أنها حرب ضغط لكي يحل المعتدلون محل المتطرفين ، إلا أنه تكاثر الخليط فصعب التمييز بين المتطرف والمعتدل ، ولم تتضح فلسفة للاعتدال ولا نظرية للتطرف • ولغياب النظريات من الجانبين تشابكت الألوان بالألوان وتبدى الوضع من ٦٧ الى ٧٤ غير تصحيحي وغير ثوري وغير ملكي وغير جمهوري ، ولعل فقر الثورة من بدئها من النظريات الوطنية ممتد على المرحلة الأخيرة ، إلا أن هناك يقظة شعبية كانت ترصد النظام وأتباعه فتكونت ثورة في النفوس على الإستغلال والانتهاز • وكانت الرشوة شبه علنية كما كان الاستغلال مرفوع الرأس ولكن في حصار من السخط الجماعي، حتى شعر النظام أن الشرعية غير شعبية ، فبرغم انتخاب رئيس المجلس الجمهوري من قبل مجلس الشورى ، لم يظفر النظام بشعبية حقيقية لابتعاده عن

مصلحة الشعب من جهة ، ولركام المجلس التشريعي من جهة أخرى • فقد كان أكثر عضويته بالتعيين وشبه التعيين وبعضها بالانتخاب المزيف، وأقل القليل بالانتخاب الحر ، وكان تصويت القلة المنتخبة ينهزم امام تصويت الأكثرية ، وبهذا نالت السلطة الشرعية وعجزت عن تحقيق الشعبية ، حتى اضطرت القوات المسلحة أن تقدم مشروعا تصحيحيا الى القيادة السياسية عام ٧٢ ، فتجمد هذا المشروع لعجز السلطة من جهة ولانتفاع البيوت الكبيرة بالفوضى الادارية والمالية من جهة أخرى ، وقد اختلفت هذه البيوت عن البيوتات الإمامية ، فقد كان الإمام يحكم كل مناطق الشمال بالبيوت التقليدية من كل المناطق • كان الامام يحيى يحكم وحده وكل البيوت مجرد منفذة ، وفي نفس الوقت وافرة النفع ، وكان أغلب رجال الإمام يحيى من المناطق الشمالية لاشتراكهم في نضال الأتراك معه •• وبعد مصرعه عام ١٩٤٨ من هذا القرن حكم الإمام أحمد من تعز بكبار البيوت التقليدية من كل المناطق كآل « الشامي ، وآل العَمْري ، والسيّاغي » من صنعاء « وآل عثمان ، وبيت الباشا ، وبيت محرم » من تعز، « ومحمد عاموه » من الحديدة ، وهذه نقلة لا تجديد ولا جديد فيها وإنما اضافة بيوت الى بيوت • وكانت المشيخة من كل المناطق هي البديل عن بيوت أي منطقة الا مناطق جيوبها ومن يتصل بها نسبا لا أرضا • وكذلك نظام آخر الستينات وأول السبعينات ، أحل بيوتا بدلا عن بيوت • وكانت المشيخة من كل المناطق هي البديل عن بيوت الهاشميين والقضاه أيام الامام وبديلا عن كبار الضباط في أول الثورة ، ومن هنا تكون تحالف كبير ، بين جميع الكبار الجدد من ضباط وتجار وشيوخ ، دون أن تتكون علاقات طبقية بالمفهوم العلمي •• وإنما تجمع مصلحي أو لقاء محمي بحامٍ • لهذا تزايد التناقض مدة سبع سنوات حتى تفجر كل الركام على نفسه

في ١٣ يونيو عام ٧٤م. فكانت هذه الحركة تصحيحا للتصحيح السابق، غير أن هذه الحركة ذات امتيازات مشرقة ، لأنها نبعت عن نية صادقة في التصحيح الحقيقي ، وعن معرفة بمواطن الفساد ووجوه المفسدين، وعن انتماء الى ثورة سبتمبر وشعبيتها ، لأن الحركة انطلقت من نقطة عالية ومن موقع شعبي ، وهذا ما وفر لها شعبية وشرعيــة في نفس الوقت ، لأن الشعبية هي الشرعية وزيادة ، باعتبار أن النظام الـذي يخدم مصالح الغالبية هو النظام المشروع والحقيقي الشرعية ، لأن أصدق الشرعيات تنبع من الشعب بحكمه مصدر السلطة ومستقى الأفكار وسيد الأرض ، واليوم ونحن نحتفل بالذكرى الثالثة لحركة يونيو نلاحظ أنها قد حققت من المشاريع ما عجزت عنهـا الحركة السابقة ، وما عوقت عن تحقيقها ظروف الحرب .. صحيح أن حركة يونيو تواجه الكثير من المصاعب ولكنها تملك أمرها وتستطيع المواجهة بالحلول مهما كانت خطورة المشاكل . والمنتظر ألا توقفها العوائق أو تردها الى عهدي سابقتيها لأن الزمان الذي لم يصلح لحكام الأمس أقل صلاحية لحكام اليوم .

جريدة التصحيح ـ العدد ٤٤ ـ تاريخ ١٣/٦/٧٧

* * *

من حلوق البنادق

إلى مقاعد اللجان

المتشابهان أو المتماثلان من الناس والحيوان تجمعهما أوثق علاقات المودة ، أو أقوى علاقات العداوة ، فاذا وجدنا متصادقين أوثق صداقة فلا بد أن بينهما تشابها في السجايا والتركيب الجسماني ، واذا وجدنا متعاديين أقوى عداوة ، فلا بد أن بينهما تشابها أو تماثلا في المزايا والعيوب ، لأن التشابه أو التماثل يؤديان الى أصفى انسجام أو الى أعمق كراهية ، فقلما تجد المرأة الجميلة تصافي جميلة مثلها ، وإنما الغالب أن تكمل المودة بين قبيحة تحب جمالها المفقود في جمال صاحبتها ، وبين جميلة ترى محاسن جمالها بالقياس الى صاحبتها ، وقلما توثقت علاقة الفة بين جميلتين أو بين قبيحتين هذا في عالم المرأة لأن الجمال سر قوة المرأة وأمضى أسلحتها • ومثل ذلك الرجال إلا أن الرجال يعتدّون بقوة العضلات،وقوة الأذهان والأفهام •• والتشابه أو التماثل بين قويين ادعى الى الخصومة بينهما بفعل التنافس والتنافر على الغلب والامتياز ، وقد عرفنا عمق العلاقة الحميمة بين (أبي بكر الصديق) وبين (عمر بن الخطاب) ، وقد جاء هذا الائتلاف من الاختلاف في تركيب الرجلين وسجاياهما ، فقد كان الصديق وديعا هادئا ، وكان الفاروق عنيفا غضوبا ، ومن الاختلاف كان الائتلاف وبالعكس تماما قضية (عمر) و (خالد) الذين تجمعهما نزعة الفروسية، وخشونة الجندية ، فقد كان عمر وخالد متشابهين الى حد التماثل ،

حتى كان يصعب على الرائي والسامع التمييز بينهما عن بعد قريب .
ومن هذا الاتفاق كان الاختلاف ومثل عمر وخالد (عمرو بن معد كرب الزبيدي) و (سعد بن أبي وقاص الزهري) فقد كان الرجلان متماثلين كلاهما طويل القامة ، وكلاهما حسن التدبير في القيادة، وكلاهما مغامر مفتول الساعدين مطاع في جنده ، فأدى التماثل بينهما الى حدة الحساسية وشدة الاختلاف إلا أن الرجلين كانا في قبضة رجل أقوى منهما هو (عمر) فلم تبدِ الاحقاد رؤوسها وإنما دفنت تحت مهابة القيادة الحازمة ، وتحت قداسة الراية ، التي تظللهما وإن كان (الزبيدي) غير مطمئن الى شيء ، إلا الى يمانيته ، كما اتضح هذا بعد . بدليل قوله :

نُعطى السوية في طعن له نفذ
ولا نساوى اذا تعطى الدنانير

وإن نمت يوم طعن دون سيدهم
قالت قريش الا تلك المقادير

ومثل ذلك (مسلمة بن عبد الملك) المعروف بمهارة الفروسية وخوض الغمار ، فقد قامت بينه وبين قادة بيته أشد عداوة بحكم التشابه في طبيعة الجندية وخصائص التركيب العضوي، ويأتي الجانب المقابل جانب المودة بين المتشابهين أو المتماثلين من جانب واحد هو جانب الانتصار على النفس ، وترجيح الصفات على الاشخاص ، فاذا أحب القوي قويا مثله أو ود العظيم عظيما مثله فهذا يرجع الى حب الصفة ، لأن من يحب العظمة في نفسه يكبرها في نده ، لأنه لايهتم بالعظيم وإنما بالعظمة ذاتها وقد تجلى في موقفين من تاريخنا :

سأل (عبد الملك بن مروان) جلساءه من أشجع الرجال ؟ وكل

عدد من حضره من الأسماء • فقال عبد الملك : أشجع الرجال (مصعب ابن الزبير) خرج الى قتـالي وهو يعلم أنـه مقتول • فقـد ارتفع عبـد الملك على هـواه وأحب العظمة في خصمـه لمكانتها في نفسه ، فتجاوز شخص العـدو الى صفته • هـذا موقف ، والموقف الثاني عند (أبي جعفر المنصور) عندما سأل جلساءه من أعظم رجال بني أمية ؟ وقد فاجأتهم هذه المباذهة فما كان أحد يظن أن عباسيا يذكر أمويا بخير ، فاحجم جلساء (المنصور) خوفا من أن يبدوا مزايا أعدائه فكان السكوت أسلم على حكمة القدماء•فقال : (أبو جعفر) رجل القوم (هشام) أما (عبد الرحمن الداخل) (فصقر قريش) خاض البحر وهو الآن يؤسس ملك المغرب ، بعد أن فقد ملك المشرق ، وهكذا الصقور من قمة الى قمة • فالتشابه في عظمة القيادة أدى في هذه الحالة الى ظاهرة المودة ، لكن هـذه المودة نشأت من عنصر العقل الناضج ، ومن الحصافة التي تفضل الصفات الخالدة على الأجساد القابلة للفناء • وترتفع عن مستوى الفطرة الى سمو الحكمة هذه أمثلة قليلة عن التماثل والتشابه بين أفراد ، وقد تنطبق على قبيلة وقبيلة وعلى شعوب وشعوب ، فالاسكتلندي والايرلندي لايطمئنان الى اللندني للتمـاثل بينهمـا ، لكن الايطـالي ينجذب أكثر الى الانجليزي للتناقض بينهما ، لأن الانجليزي صموت والايطالي ثرثار ، والاكثر حديثا أميل الى الصموت لان لسانه يبحث عن سمع ينصت اليه ، فللتشابه والتماثل نتيجتان ، كلاهما منطقية فالتشابه يؤدي الى الكراهية بين المتشابهين حبا للتفرد بالصفات المحبوبة ، أو يؤدي الى المودة الأكيدة حبا للصفات نفسها أكثر من الموصوفين بها ، وقـد عرفت كثير من شعوبنا العربية ، التي تخضع للقوة كيف تنفجر إذا ملكت قدرة التحرك والسيطرة ، واليمن يشبه غيره من الشعوب الى جانب طبائعه الخاصة ، التي تعاون على تكريسها ميراث التـاريخ

وجغرافية الأرض ، وطبيعة الحياة المعيشية ، فالى عهد قريب ما تزال النزعة الوراثية تشكل الحياة العامة من قتال فردي وثانوي وجماعي وأكثر جماعية ، ويجمع هذا السلوك مثل واحد (أنا عدو ابن عمي وأنا عدو من يعاديه) ، فهذه صورة تجربة وراثية وحياتية ، فهذا المثل يسمع من ابن المائه كما يسمع من ابن العشرين ، في جموع القبائل وعلى هذا فقد أدت طبيعة الشجاعة الى حب القتال بين شعبنا ، وللشجاعة مغرياتها من روافد الحياة العامة ، من حل المشكلة بالسلاح الى حب الامتلاك بالغلبة .. الى نزعة السيطرة بالقهر ، الى التماس المال عن طريق الرهبة إلا أن الانسان كائن متطور فقد تطورت الشجاعة كما تطور الشجعان فانتقلت من الأخذ بالثأر للفرد الى الأخذ بالثأر للشعب . وأدى الى هذا المفهوم جماعية الظلم وكراهية الفساد لأن الفساد السياسي يؤدي بالقائد والمقود الى الخطر بل يتزايد الخوف منه ، حتى يصبح السجين أكثر أمنا من السجان ، ومن هذا الركام وهذا الحس بثقل الركام انفجرت ثورتا الـ ٢٦ من سبتمبر والـ ١٤ من اكتوبر .

لقد تخلص الحقد من الموروث بالمولود . فاذا الثورة تعبير جماعي واذا غايتها موضوع نقاش ، واذا بطبيعة الاتفاق تؤدي الى الاختلاف . ولأن عشائرنا عسكريون بالوراثة قاوموا حكم العسكريين في الشمال بفعل الالتقاء في طبيعة الجندية ، وبفعل الإقتران في وثاق الشجاعة الى جانب المغريات الخارجية ، وبعد هذا انتصر الفهم على قوة العضلات ، وبدأت تخف عوامل النزاع بتمكن عنصر الاقناع ، ووضع الحلول الوسط على سوئها مكان الاختلافات المتباينة ، ولكن كل هذا بعد اقتتال ، ابترد من حره كل غليل ، لان القتال أذهب للغيض كما قيل ، فليس بعده إلا التصافي عن صدق والتآخي عن صحة

إدراك ، بعد أن لفظت الأحقاد مرارتها ، وبعد أن عرفت الأفهام الى أين تتجه الفوهات ، ومن الممكن أن تتجدد الأحداث البعيدة والقريبة اذا نجمت دواعيها ، لأن التطور في بلادنا موصول العلائق بالوراثة ، وقلما يتغلب العنصر التطوري على العنصر الوراثي ، لحداثة التطور وعراقة الموروث ولقلة الهزات الخلاقة التي تقلع الجذور وتبدلها بجذور أخرى ، فكلما امتَحَنْا تَطَوُرنا ،وجدنا سلفيتنا الوراثية أغاب • واذا بالقتال هو الحكَم ، واذا بالتآخي يعقب التعادي كوريث شرعي ، أو كالصباح من المساء ، وهكذا في كل أطوارنا التاريخية ، تلد الحلاوة من مرارة التعبير عن الحقد فينتقل من حلوق البنادق الى مقاعد لجـان التفـاهم •

كل هذا حدث ويحدث في شمال الوطن ، ولعل الطبيعة المشتركة من أبناء الشمال تمتد الى الجنوب لتكوّن طبيعة واحدة ، أو جد متقاربة ، لأن ليس هناك يمنان ، وانما يمن واحد تختلف مناطق الشمال فيه كما تختلف مناطق الجنوب عن بعضها ، وان تفاوتت المقادير ، فما الذي أدى الى الانفصال بين شعب كان واحدا على مدد التاريخ السَّبئي والحِمْيَري والاقيالي ، وامتد هـذا التوحيد باستثناء فترات قصيرة في ظل خلافة المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة والآستانة فما الذي أدى الى الانفصال ؟•

اذا عرفنا أسباب الانفصال فسوف نعرف طريق الوحدة • أما اذا أردنا أن نستخدم أسباب الانفصال وسائل للوحدة ، فعلينا أن نوفر الجهد • ولعل أهم أسباب الانفصال الحس بالسيادة والرعوية • فعندما انجلى الاتراك عن نواحي الجنوب • أرادوا تسليمها الى الامام يحيى ، فأراد وتراجع : أراد لتتسع رقعة ملكه ، وتراجع خوفا على الحكَم من كثرة المحكومين •• هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ،

فقد كان الامام يحيى مهتما (بالادريسيين في تهامه) أكثر من اهتمامه بالانجليز ورثة الاتراك في الجنوب ، ولم تتم له السيطرة على تهامه والتنفس من الادريسيين ، الا بعد أن أطبقت سيطرة الانجليز على عدن وأشرفت على النواحي التسع ، كما كان يسميها ، أو المحميات التسع كما كان يسميها الانجليز .

ومن ذلك اليوم ، بدأ الحكم المتوكلي يحلم بالجنوب ، حلم الفاتحين ، لا حلم الوحدويين . فقد كان هم الامامين يحيى وأحمد افتتاح الجنوب وضمه الى الشمال ، لاتساع رقعة الملك وكثرة أعداد الرعايا ، لا لوفرة ثروة الشعب بأيدي الشعب ، ولا لحماية استقلال الشعب بزيادة دخله واكتفائه عن غيره .

من هنا تكرس الانفصال، وزاد تكريسا ، فقدآثر قادة الجنوبيين حكم الاستعمار على حكم الفاتحين مهما كانت القرابة أصيلة وعريقة ، لأن الاستعمار أسرع الى الانتهاء بينما حكم الفتح أقبل للامتداد ، أو أقرب الى طول العمر لهذا ازدادت فترة الانفصال امتدادا حتى وصلت الى فترة الانفجار والتحرر ، وحتى في هذه الفترة لم يتطور مفهوم الفاتحين ، وانما أغرته بروق الانفجارات ، وأراد أن يركب الدخان الى عدن ، فكما كان شعراء الامام يحيى يقولون :

« عدن دارنا ودار أبينـــا » .

كان يقول الامام أحمد نفسه :

أيهـا الغــربي تقنــع   ان سيف الحــق أقطــع

إذن فأول سبب أدى الى الانفصال هو حس الحكم الملكي بالفتح المسلح ، والاغتصاب الحربي لمقاطعات الجنوب ، حتى أن الامام أحمد عام ١٩٥٦ أراد أن يبدو عدو الاستعمار وفاتحا للجنوب ،

فسلح أفرادا لا يملكون النزوع الى الحرية وليس لهم من سوابقهم ما يجذرهم في تربة الأرض وصميم القضية ، لكنه أنفق أسلحة وأموالاً من قبل السخاء الملكي ، لا من دافع العمل التحرري ، فقد كان يجند أناساً يقبضون النقود ويحولون الأسلحة الى نقود بسفر يوم وليلة ، وإذا بالبنادق التي سلمت اليهم في تعز تباع في الجوف وخولان بأقل أثمانها ، وقال المواطنون فليبشر الانجليز بطول السلامة ، واتضح من ذلك الحين ، فشل الفتح واخفاق نية التحرر ، حتى تحرر الشمال من الاستبداد ، وانتهى طمع الفتح ، تفجرت الثورة الحقيقية من ردفان .

والتقى الشماليون والجنوبيون في معسكرين يناضلان الاستعمار الجاثم ، ويدحران الاستعمار الآتي مدة ثماني سنوات ، من هنا ، انتهى حلم الفتح وحل مكانه حلم واحدية اليمن ، الذي كان واحدا أكثر الفترات .

وفي سبتمبر من عام ١٩٧٢ ، حدث ما كان يحدث دائما ، فاندلع القتال بين الشمال والجنوب ، كما يندلع بين قبيلة وقبيلة في الشمال ، بمقتضى العادات الوراثية الى جانب التدخل المالي والسياسي من قبل الرجعية والامبريالية .

وبعد أسبوع من حماس الاناشيد الحربية ، انتقلنا الى حماس الوحدة ، ومن حلوق البنادق الى مقاعد اللجان ، والآن وقد أصبحت الوحدة كقضية مفروغ منها كما يبدو من عقد الجلسات المتوالية ، ماذا ننتظر من تحقيقها ؟ لسنا وحدنا الذين نقلهم القتال الى الوحدة ، فلم تصبح اميركا ولايات متحدة ، الا بعد قتال دام خمسة عشر عاما ، ولم تتحول روسيا الى الجمهوريات السوفياتية ، الا بعد قتال سبعة عشر عاما .

إذن فالأمور تأتي من نقيضها ، ولم تتكون المقابلة بين النقائض في اللغة إلا لالتقاطها ظواهر الحياة ، وأسرار البشر ، ليس من عيب الوحدة أنها نبعث من القتال ، وانما تلك طبيعتها لكن ما يزال السؤال يلح : ماذا ننتظر من تحقيق الوحدة ؟.

ليس المهم وقوع الحدث ، وإنما الأهم تنائجه ، فكم نجمت من أحداث تحرقنا حماسا لها ، حتى أفقنا على دخان حلوقنا ، تلك طبيعتنا ولكن تتعلم ، فعندما لوح (عبد الحميد) بالدستور عام ١٩٠٨ ، هلل كل الوطن العربي ، وكانت الخيبة جواب الحماس . وعندما سقط عبد الحميد ، دقينا طبول البشائر ، وكانت الخيبة ثمرة الأمل ، هذا في وطننا الكبير . ونفس الحكاية في يمننا الصغير ، لقد عقدنا مؤتمر (عَمْران) ومؤتمر (خَمِرَ) ومؤتمر (الجَنَدَ) ، وثرنا وصححنا ، وكأن لم يحدث شيء .

إذن ليس المهم ميلاد الحدث ، وانما ثمرة الحدث ، ولن يثمر أي حدث إلا بالتعبئة له ، وباعتبار أن وراءنا طريقا ــ طويلا من التجارب المرة ، لا بد أننا قد فهمنا ، فماذا ننتظر من تحقيق الوحدة ؟ إذا تلاقت القوة الخلاقة بالقوة الخلاقة ، تنج عن تلاقيهما سعة الازدهار ، ووفرة الرخاء وتحرر المجتمع ، واذا تلاقى عنصر الضعف بعنصر الضعف كانت القضية ضم ركام الى ركام ليزداد العبء ثقلا ، لكن لا يأس أيضا ولا أمل ، وانما القضية تحويل اليأس الى أمل ، وتحويل الأمل الى عمل ، فعندما نصبح يمنا واحدا سنصبح مقدار تسعة ملايين ، وهذا الرقم لا يكوّن شعبا كبيرا ، ولا صغيرا ، بل لا يهم الكبر والصغر ، وانما الأهم وفرة الانتاج ، اذا تلاقى الابداع بالابداع تمخض عن مجتمع أفضل ، فكثافتنا السكانية لن تكون كبيرة ، وانما سوف تكون متوسطة ، لكن ماذا ينفع التوسط بلا

اتتاج على أي مستوى ؟ نحن نعرف أن هناك شعوبا كبيرة تنعم بالرخاء العميم ، تتيجة مضاعفة الخبرة وحركة كل يد ، وهناك شعوب كبيرة ، تعاني المجاعة كل عام لأن الأفواه تعمل والأيدي تنام ، فالهند ذات الخمسمائة مليون ونيف كانت تعاني المجاعة، كأنها طبيعة من طبيعة أعوامها، لكن الصين ذات الثمانمائة مليون تفيض رخاء لأن كل الأيدي تعمل ، وكل الأفواه تبتلع ، ولأن اليدين أكثر نشاطا من الفكين . ومثل ذلك الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي ، فكثافتهما السكانية أهم سبب في زيادة الانتاج ، لأن زيادة عدد السكان المنتجين تؤدي الى كثرة الملكات الخلاقة ، وبكثرة الأعداد تتصاعد عدد الخبرات ، وتتنوع عملا وانتاجا عميم الإثمار ، وعلى هذا فليست الكثافة السكانية سببا في الرخاء ، ولا سببا في البؤس ، وانما كيفية السكان وارادة قيادتهم ونوعية خبراتهم هي المقياس ، ومن الملحوظ أن أرضنا جنوبا وشمالا وافرة الخير ، لكنها تنتظر أقدر الخبرات وأوفر النشاطات .

فنحن ننتظر من تحقيق الوحدة ، انضمام الجهد الخلاق الى الجهد الخلاق ، لتعمل كل يد ويأكل كل فم، وتزدهر الحياة على أرضنا الحرة المستقلة ، فشعبنا يعاني نوعا من التخلف لا يماثله فيه أحد ، فمن هذا الشعب الصغير مقدار ثلاثة ملايين مهاجر ، وحجتنا في هذا أن أرضنا شحيحة ، ولكن متى اكتشفنا أسرارها ، وأي جهد علمي قد عرف طبيعتها ؟ ومهما يكن فان لكل شعب امكانياته الاقتصادية ، اذا تلاقى حسن استغلال الموارد وجودة استنتاجها ، وليس هناك شعب بلا امكانيات ، كما أن ليس هناك أرض عاجزة عن بنيها ، المسألة حسن تصرف أو سوء تصرف ، اذن فماذا ننتظر من الوحدة ؟.

اننا ننتظر التقاء ثورتين خلاقتين تحولان اليمن الواحد الى يمن يعطي أكثر مما يتلقى ، ويؤثر على الدنيا أكثر مما تؤثر عليه ، ويشارك في صنع عصرنا العظيم ، كما شارك في صنع حضارة الأمس ، هذا أقل ما ينتظر من الوحدة ، واذا لم تحقق أهدافها الأولية ، فقد فقدت شروطها الموضوعية ، وربما كانت شروطها كافية وانجازاتها مأمولة ، ولكن لا نسبق الأحداث ، وانما نؤمل في شك وننتظر في أمل .

مجلة أضواء اليمن ـ سبتمبر ١٩٧٣

* * *

بين غروب وشروق

ما أروع أن يورّد احمرار الغروب ذوائب الأشجار وجباه الربى •• وكأنه يلقي درسا في التضحية الوردية •• وينقش ميعادا قرمزيا بتحوله الى سَحَر ، ثم لا يلبث ذلك الشفق الوردي ساعات حتى يعود وردي اللون في لحظات نسميها صباحا ، كعنوان فصل من كتاب الحياة نسميه يوماً جديداً • كل هذا يُشعر المرء بأن هناك غدا دائما ، وبالأخص عندما تتمخض اللحظات والساعات بين غروب وشروق ، لكي تلد عاماً جديداً ، لأن ميلاد هذا العام يستوقفنا بين الغروب والشروق أعنف وقفة ، لكي نحاسب النفس حسابا عسيرا ، عن ما حققناه في عامنا الماضي ؟ وماذا أعددنا للعام الجديد ؟ ذلك أن الزمن أصعب المحاسبين والمعاقبين ، لأنه يمر بلا مبالاة تاركا تحت أقدامه الضحايا •• مخلفا خلف غباره العاجزين ، غير أن السمة العظيمة للزمن أنه ينقسم الى زمانين :

— زمان الأرقام التي تبتدىء وتنتهي •

— وزمان النفوس الذي يبتدىء ولا ينتهي •

فهناك دائماً غد •• ولا ينتهي غد بانقضاء اليوم ، لأن الغد المنتظر يتحول الى غد سيأتي ، ما دام هناك شمس تطلع كل يوم •• وأطفال يمرحون في كل ملعب •• وأمومة تحبل وتلد كل يوم •

كان شعبنا في مطلع الخمسينات ينتظر الغد •• ويرصف طريقه بحرارة اللهاث وشفقية الجراح •• وكان طلوع كل يوم يشعل فيه الأمل بالغد ، لأن الغد ليس يوما يأتي على أعقاب يوم مضى •• وانما هو المستقبل الذي تهتف له الملايين وتفرش له الجباه •• وتنضج أرحام ميلاده عيون الانتظار وشموع السهر .

فالغد هو الزمن المستحيل •• الـذي يصبح حقيقة بالعمـل المستحيل ، فكيف يمكن الوصول اليه ؟ بحرق المراحل أو إنضاج الظروف ؟. يرجع العملان الى قابلية الواقع •• فأحيانا يكون حرق المراحل أجدى •• وأحيانا يكون إنضاج الظروف أضمن الى الوصول.

وقد تعاون العاملان في بلادنا ، لهذا كانت الثورة الطبيعية هي الغد النفسي والغد الزمني ، لأنها المستقبل بالنسبة الى أمل الماضي •• والماضي بالنسبة الى طموح الغد ، لأن الثورة مجرد وسيلة تبحث عن غاياتها ، هناك كان المستقبل يفتح أبوابه ويبهرج حقائقه •• ولكن للمستقبل يومه وغده ، لأن كل مستقبل يصبح ماضيا لكي يصبح المستقبل منتظرا كزمن أشهى وأعم نظارة .

إذن •• فالغد ديمومة ما دام يصبح الغد أمساً •• والمستقبل ماضياً ، لكي يشتعل الانتظار لغد آت •• ومستقبل يختلف عن المستقبل الذي صار ماضياً .

كل هذه التأملات تولّدها ساعات بين غروب يوم هو آخر عام •• وبين شروق يوم هو أول عام ، وما دام الزمن شديد الحساب مرير العقاب يحصي علينا أنفاسنا •• فنحن تتقصى خطاه لكي تتجلى ماذا تركت على رمل التاريخ ؟.

فهل عام ١٩٧٦ م هو عام ١٩٧٥ م ؟•• باعتبار أن ٧٥ قد

صمم ٧٦ ، بما بذر في ثناياه من الخطط •• وما أودع أرحامه من الأجنّة ؟ هذا ممكن ، وغيره أكثر امكاناً ، لأن الليالي حبالى بالمفاجآت غير المنتظرة ، ومشحونة بردود الأفعال عن الخطط الجاهزة ونوايا التنفيذ ••

واذا كان عام ٧٦ امتدادا لعام ٧٥ ، فهذا هو العقم الذي يعتبر شذوذاً على الزمان ، أما إذا تفجرت المفاجآت وردود الأفعال ، فهذا هو المنتظر رغم دقة الخطط وإحكام الوسائل ، ولا سيما اذا عرفنا أن الطابع العام للسبعينات هو محاولة استعمار المستقبل نتيجة للتحرر الشكلي الذي طبع الستينات •

إلا أن المستقبل أعصى على المؤامرات الاستعمارية ، لأن الخمسينات قد كانت محاولات جدية لاستعمار الستينات ، ومع هذا فقد ت العبقرية الاستعمارية عنان الزمان •• وتأكدت أنه ليس هناك ضوابط لأنهار الزمان ، فليس الزمان كالأنهار المائية تضبط بالحواجز والسدود والمجاري الكثيرة •• ولكن أمواج الزمان تحطم كل الضوابط • وتكوّن فعلا على الأفعال ، لأن أرحام الليالي أخصب ، ولأن ما يخفى على الناس لا (كل الناس) أكثر مما يعلمون •

كان الاستعمار القديم يبني مقرراته على معرفة رؤساء الحكم •• ورؤساء الأحزاب •• والظواهر العامة ، وتختفي عنه أهم الحقائق :

أكدت مجلة (التايمز البريطانية) قلة خبرة بريطانيا بالشرق الأوسط ، لأنها نشرت عام ١٩٥٨ تقريراً عن استحالة قيام ثورة في العراق •• لخبرة (نوري السعيد) في السياسة ، ولوفرة شعبيته في الجيش والجماهير ، وبعد ٤٨ ساعة من نشر التقرير انفجرت الثورة •• وأصبح (حلف بغداد) خبراً سيئاً من أخبار الماضي المشؤوم •

جاء الاستعمار الجديد على أنقاض القديم • فضم خبراته الى جديد خبرته •• فحاول الوصول الى الشعوب •• والى الثكنات بوجه خاص ، ومن جهة أخرى حاول الوصول الى النفوس الاجتماعية عن طريق الأدب المنشور •• والمسرح ، والمؤفلم ، والأغاني الشعبية ، وأحس أنه قد امتلك الواقع نفسياً وامتلك مفتاح المستقبل،لكي يدخله قبل أن تدخله الشعوب ، فكما كانت الستينات أو نصفها الأول بالتحديد على الاستعمار القديم •• فقد كان نصفها الثاني للاستعمار الجديد،لأنه تحمس مع الشعوب••بل أبدى التعاطف مع طموحاتها•• ولكن هذا التعاطف كان وسيلة وصول الى الشعب من خلال السلطات أو من وراء ظهورها ، ومع هذا كان منتصف الستينات الى ٧٣ للاستعمار الجديد ، لأنه امتلك (أو كاد) أطراف الخيوط لجر الشعوب الى فلكه ، غير أن عام ٧٤ كو"ن أشنع هزيمة للاستعمار الجديد •• فاتنزفه على أدغال فيتنام وكمبوديا لكي يسجل عام ١٩٧٥ أبهى صفحة لفيتنام وكمبوديا •• وأمر" هزيمة للاستعمار ، من هنا مال الميزان لصالح الشعوب •• وضد الاستعمار الجديد ، فبعد هزيمة الاستعمار في جنوب شرقي آسيا • سجلت الشهور الأخيرة من عام ١٩٧٥ بداية رحيل الاستعمار الجديد من إفريقيا ، ولم تكن انتصارات افريقيا بالأمر الجديد •• فقد ناضلت الاستعمار القديم ، لأنها اكتشفت أخفى نواياه من خلال المرارة والجراح •• وعلى ضوء النار ومن خلال الدخان ، وعندما امتدت أصابع الاستعمار الجديد أخفت أظفارها مئات القفازات ، إلا أن حرارة افريقيا وغزارة أمطارها أقدر على تذويب القفازات وإسقاط الأقنعة ، لهذا شهدت أهلة الشهور الثلاثة من عام ١٩٧٥ •• اتساع الهوة بين الولايات المتحدة وافريقيا ، بدأت هذه الهوة في أكتوبر من عام ١٩٧٣ •• بقطع

العلاقات مع اسرائيل •• وانتهت بتحرير « انجولا » الذي أراد الاستعمار الامريكي أن يخضعها لعنصرية جنوب افريقيا ، فقد رفضت الدول الأفريقية في مجلس الأمن تأييد أمريكا في عداوة الحكم الوطني في « أنجولا » ، وكل هذا يرجع الى الرصيد التجريبي الذي تزخر به نفسية العالم الثالث ، فاذا كان الاستعمار الجديد قد تظاهر بتأييد الشعوب على التحرر من الاستعمار القديم •• فهدفه احتلال مواقعه بشكل مختلف •• معتمدا تارة على وكلاء الاستعمار القديم •• وتارة على الانقلابات •• وتارة على تخويف الزعماء من الشعوب ، إلا أن الشعوب قد استبصرت فاكتشفت السر •• بل اختبرت ما تراه عياناً ، لأن هذا الاستعمار وقف الى جانب التعصب الصهيوني في الشرق الأوسط ••والى جانب التعصب اللوني في جنوب افريقيا وروديسيا•• بل وفي أمريكا نفسها •• حيث يشكل الزنوج مواطنين من الدرجة الثالثة ••

من هنا تجلت الحقيقة البشعة للاستعمار الجديد ، فاذا كان الاستعمار القديم قد دام عشرات السنين •• فان الاستعمار الجديد قد بدأ ينهار في خلال عشر سنوات • لهذا بدأ العالم الرأسمالي يرشح فرنسا بديلا عن أمريكا التي كانت بديلا لفرنسا وبريطانيا من مطلع الستينات •• ولكن هذا الترقيع والتبديل أكثر فشلا من سابقه ، لأن إبدال الاستعمار بالاستعمار ـ كاستبدال السرطان بالطاعون •

والآن •• ونحن على أبواب عام ١٩٧٦ •• تتساءل كلنا الى أين ؟•• ولن يكون الجواب عصياً ، لأننا قد عرفنا من أين •• إلا أن المفاجآت والاحتمالات تشكل أجوبة حاسمة على غير أسئلة ، وكل ما حدث في العالم •• أو يحدث ، حدث في وطننا •• وممكن الحدوث ••

فقد افتتحنا الستينات بأول طريق المستقبل « المستقبل الذي مضى ، والمستقبل الذي يأتي لكي يمضي » ، لأن مئات المحاولات العنيفة والذكية ترصد حركات شعبنا لكي تجعل ماضيه مستقبلا لها . أو لكي تجعل مستقبله ماضيا . فتوالت الحروب طيلة ثمان سنوات على شعبنا لكي يتراجع أو يقف حيث هو .. وتحت سيول النار والدم واصل مضيه الى الأمام مهما كثرت التعرجات وتعددت الطرق ، ولم تكن مؤتمرات الستينات في (عَمْران) و (الجَنَد) و (خَمِرَ) و (حَرَض) إلا محاولة التجاوز الى الأمام .. بل استمر تجاوز الواقع من طرق .. والتوقف في طرق أخرى ، فقد ظلت الثورة تواصل خطواتها من (صنعاء) وتواصل اكتساحها لقواعد الاستعمار من (رَدْفان) .. فلم ينته عام ٦٧ إلا على يمن مستقل الأرض والراية يحاول الوصول الى الاستقلال التام اقتصاديا واجتماعيا .

لهذا رفعت حركة نوفمبر تحقيق الذات اليمنية .. لكن ذلك الشعار لم يكن تصدقاً على الشعب .. أو استهلاكاً محلياً .. وإنما الشعب هو الذي أرغم السلطة على رفع شعار الواقع ، وقد يبدو للبعض أن تحقيق الذات يرادف الإنعزال .. وهذا فهم مراهق ، لأن تحقيق الذات يحقق الصلة بالعالم من موقف القوة .. ومن منطلق الإرادة الحرة .. لكي لا نظل شعب صدقات أو مساعدات « كما تسمى » .. على أن هذه المساعدات أو هذه الصدقات لصالح مقدميها أكثر من ما هي لصالح الذين يتلقونها ، لأنها تلهي عن الضرورة التي هي أم الاختراع وحافز البحث عن البديل المحلي ، لهذا نلاحظ كل الثورات تستهل ازدهارها الاقتصادي بالتقشف لكي تغدق على المشاريع المثمرة .. حتى لاحظنا ثلاث دويلات صغيرة بلا ثورات

استغنت عن المساعدات في مطلع الستينات •• بعد أن كانت في الخمسينات تعيش •• وتُعيّش موظفيها من خزائن المتطوعين •• من أجانب كالأشقاء •• أو أشقاء كالأجانب كما قال « أبو النشناش » عندما سألوه « من تحب أكثر أخاك أو صديقك •• فقال : أخي اذا كان صديقي » ••

مهما كانت التعرجات •• ومهما كانت الغيوم فان السير الى الأمام ظل مستمراً •• كما صمدت أشعة الثورة في اقتحام الغيوم على الرغم من أن رجال نوفمبر تنازلوا عن اعلانهم عمليا عن الذات اليمنية •• وحققوا الفتوحات السلمية للآخرين ، مستغلين بذلك إنهاك الشعب بعد الحروب •• واختلاف المثقفين في (البطل الداخلي والبطل الخارجي في الرواية) •• دون أن يسألوا عن بطولة الشعب •• بل دون أن يعرفوا أننا شعب بلا أبطال ، لأن الشعب كله هو البطل الحقيقي ، لأن بطولة الأفراد تنتهي وان أوحت بأبطال •• إلا أن بطولة الشعب متوالية المواكب وكل رعيل يعزز رعيلا قبله ، إلا أن مثقفينا لم يستمدوا روائعهم من هذا الشعب الذي كله بطل •• ولم تكن ندرة الأبطال قائمة إلا ببطولة كل ملايين الشعب ، فاذا لاحظنا أن تاريخنا المعاصر يخلو من أمثال (عبد الكريم الخطابي) رئيس جمهورية الريف في المغرب الأقصى •• الذي لم يسقط إلا بالتقاء فرنسا وإسبانيا على إسقاطه ، أيام كانتا من الدول الكبرى ، واذا لاحظنا أن تاريخنا المعاصر يخلو من أمثـــال « عدنان المالكي » السوري •• أو « رمضان السواحلي » الليبي •• فالسبب أن كل الشعب بطل الأبطال •• وان كانت القيادة على جانب كبير من الاهمية إلا أن شعبنا قائد القيادة •• وبطل نفسه ، وقد لا يبتعد عن الحقيقة أي مؤرخ رأى أو يرى أن اليمن كان سبب سقوط الامبراطورية

العثمانية ، فقد أعطى (عبد الحميد) مناطق أوربا استقلالها لكي يحتفظ بشعوب الشرق الأوسط •• إلا أن تفجر اليمن لم يتوقف لحظة منذ دخول الغزو العثماني الثاني عام ١٨٤٩ الى جلائه عام ١٩١٥ وليس ١٩١٨ ، كما يرى المؤرخون ، فلم تنفجر الحرب العالمية الأولى إلا وقد أصبح الحكم العثماني في اليمن مشلولاً داخل صنعاء •• ممزقاً على شواطىء البحر الأحمر ، ولقد عبر عن هذا (الامام المنصور محمد بن يحيى) حين كتب لعبد الحميد عام ١٩٠٣ : « اذا أردتم لشعبنا الاستقرار ولكم النجاة من البوار •• فاتركوا الحق لأهل الديار ، لأنكم قد تخليتم عن بلاد الكفار •• وأبيتم التخلي عن بلاد آل النبي والأنصار » •

فقد تفرد اليمن بالنضال المبكر من منتصف القرن التاسع عشر •• على حين بدأت الشعوب العربية الأخرى نضالها ضد العثمانيين من عام ١٩١٤ الى جانب « لورانس » وأمثاله •

إذن فالذات اليمنية مستمرة الحيوية والوجود المتجدد : ناضلت العثمانيين والبرتغاليين أولا ، والانجليز والعثمانيين ثانيا ، ثم تخلصت من وكلاء العثمانيين والانجليز في الستينات •

فهل هناك محاولة لاستعمار مستقبلنا كغيرنا ؟••

نعم •• هناك مئات المحاولات تتجلى في الضغط والبذل الاقتصاديين ، لأن البذل والضغط يجيئان ويذهبان على حسب الريح ، ولكن ليس هذا بخافٍ على الشعب ، كما تتجلى هذه المحاولات في تعليم الجهل عن طريق العلم من جهة معينة ، وبأغداق جهات معروفة •• إلا أن شعبنا يأخذ الثمر ويترك العود للنار •• شأنه في هذا شأن الأجيال العربية التي يتعلم تلاميذها من الحياة أكثر من المدارس ، لأن جيل السبعينات جيل التمييز في كل أساليب

السياسة •• وفي كل أساليب الفنون ، لأنه يفرق بين استعمار واستعمار ودعوة ودعاية •

لهذا سقط شعار الذات اليمنية •• وبقيت حقيقة الذات اليمنية حتى تبرجت للشمس في ١٣ حزيران عام ٧٤ •• ومن أحب وطنه عن صدق أحب أوطان الآخرين عن صدق ، لأن من يملك العطر لا يعطي الشوك ، أما تجار الحيّات فلن يربحوا غير السموم •

والآن ، ونحن على باب العام السادس والسبعين من القرن العشرين •• يمكننا أن نحس أن أقدامنا على أول الطريق الصحيح •• حتى ولو حدثت بعض الالتفاتات •• أو بعض الترقيعات بالوجوه المستهلكة ، فان هذه الالتفاتات والانعراجات منبثقة من مكان صحيح لأول السير ، لأن أول الطريق قد تجلى وأصبح ممهداً أمام السائرين •

ولا يمكن أن يتعوق هذا السير ، ومن أراد أن يشعل ناراً فلن يكون غيره رماد تلك النار ، لأن البداية الجديدة قد امتلكت قوة السير وارادة التصميم •• وأصبح نهر الشعب العظيم أقوى امكانية للتقدم ، وسوف نحتفل بعام ١٩٧٧ ، ونحن نشاهد وراءنا أشباراً من أول الطريق قد تجاوزتها قافلة اليمن بكل ثقة ، لأن الأصابع الخفية أعجز من أن توقد ناراً ، لأنها ستكون هشيم ما أوقدت ، ان عام ١٩٧٦ أصبح بداية صحيحة لشعبنا السائر الى الأمام في ذاتية قوية وفي صلة حميمة مع الذوات القوية ، لأن أي شعب يختلف عن سواه كما يختلف شخص عن آخر ، والسمات الثورية والتقدمية أوضح سمات شعبنا •• وأشرف طموحاته بدليل تساقط الأوراق من فترة الى أخرى •• وليس تساقط الأوراق إلا البرهان الحي على حيوية الشجرة وخصب منابتها •• أليس كذلك ؟•

مجلة الجيش ــ العدد ٧٠ ــ يناير ١٩٧٦

كتابة على باب عام جديد

هذا الشيء الفظيع الذي نفعله ولا ندري ، ويفعل فينا ولايدري ، يحول كل شيء خطير الى شيء عادي ، إنه الإعتياد ، هون كل مدهش وجعل كل خطير مألوفا ، كما لو كان نومنا الليلي وصحونا اليومي ، أي شيء أكثر إذهالاً من خروج انسان ، من انسان • ومع هذا أصبح عادياً بحكم توالي الولادة والحمل ، أي حدث أروع من انفجار الخضرة المتدفقة من أرحام الصفرة والذبول ؟• وبالاعتياد أصبح مألوفا ، أي تحول أروع ، من انبثاق الشمس من خيوط الرماد الليلي ، وبتكرار هذا الشروق تعتاده العيون كما تعتاد النظر الى مراياها ، أي شيء أكثر تحولاً وقدرة على التحول ؟•• من امتداد العام من العام أو ميلاد العام من العام ، ونقول في مولد كل عام ودعنا عاماً واستقبلنا عاماً ، « وكل سنة وأنتم بخير » ، ولا تتأمل أسرار خطورة هذا الوداع وهذا الاستقبال •

إن العام الذي ولى انتزع منا قطعة من الحياة وربما عوضنا بجمرة تجريبية ، والعام الذي أتى سيمضي كما مضى أخوه ، وتحت جناحيه حفنة من طحين عمرنا ، وحزمة من سواد ذوائبنا ، وحمرة جراحنا ، ويعزينا عما فات على حساب العمر هذه الزيادة من الفهم ، لأن كل ما ينقص من أعمارنا يزيد من خبرتنا • وهذا النقص يقلل انتفاعنا بالخبرة ، لأننا ننتهي قبل تحقيق الكمال ، وبهذا يصبح الكمال

المطلق أغنية أمل • وهذا سر جمال الحياة لأننا لو وصلنا الى الكمال المطلق ماذا نفعل ؟ إننا تتعطل بتعطل مطالب حاجاتنا ، وما دمنا أحياء تبقى حوائجنا حيّة ، ويبقى السعي الى الكمال أهم من الكمال ذاته ، لهذا نقف على باب كل عام نسجل على العام الماضي مآسيه وأخطاءه ، ونسجل على نفوسنا تقصيرها وقصورها ، وعيوبها ومزاياها ، وكعادتنا نحمّل نقصنا ظهر الزمان ، ونتسلى عن عجزنا أو تهاوننا بصعوبة الظروف ، أو كيل المواعيد ، وعن أهوائنا بكثافة الركام من يوم الى يوم ومن شهر الى شهر •

والسؤال الذي يلوح على جبهة كل عام هو ماذا حققنا ؟ هل فقدنا فصلا من العمر ولم نحقق فصلا من العمل ؟ هل عملت فينا الساعات المتلاحقة دون أن نبت غصناً في شجرة الحياة ، أو نضيف حقلا في طريق الموسم ، أو نكتب على الصفحات البيض فكراً أو أفكاراً ؟• إن أكثرنا يعبُر العام بعد العام ، كما تعبر الذبابة جلد الصخر الأملس ، لا تترك فيه أثرا ولا خبرا ، ولكن هذا لا يعفي القادرين من المسؤولين عن التحقيق المكلفين بـــه •

إن ميلاد العام ينسينا بشائر جدته ، لأنه يلفتنا الى العام الذي مضى ، لكي نحصي خطواتنا على رماله ، ونقرأ ما كتب ورقّم على تراب التاريخ •

ولقد كان العام الماضي حشداً من كبار أحداث الصراع ، انعكست عليه وجوه الانتصارات ، ووجوه الانكسارات ولعل العام الماضي لم يكن إلا امتداداً من أبيه ، لأن كل عام يمضي تاركاً في تربة خلفه رواسب بذوره وخمائر أحداث وقضايا •

توالت الأعوام الستة على أمتنا ، وهي تنوء تحت أعباء الهزيمة وتتقد بأمل النصر ، وسمينا عام واحد وسبعين عام الحسم ، ومضى

وتلاه خلفه بلا حسم ولا انتظار حسم ، وأهلّ عام وقد زاد شعورنا بالهزيمة احتداماً ، وزادت نار الثورة والثأر هديراً واتقاداً ، لأن شعوبنا أرغمت على الهزيمة ورفضت تقبلها ، أرغمت على السكون ، ثم أرغمت الإرغام نفسه ، فانفجرت في السادس من أكتوبر عام ثلاثة وسبعين أروع انفجار دل على مرارة الصبر ، وارادة التخلص من العار . وتوالت أيام أكتوبر وعلى جباهها (عناوين باهرة) : « لقد خلفنا الهزيمة وراءنا » ، « لقد محونا أسطورة الجيش الذي لايقهر » ، « لقد دللنا على بشريتنا ووطنيتنا » ، « لقد اكتشفنا حقيقة نفوسنا تحت اللهيب والدخان » . وكانت كل هذه العناوين صادقة الدلالة والمدلول ، فقد قاتلت جيوشنا أصدق قتال ، هزمت الهزيمة ، محت الأسطورة ، دللت على انسانيتها . وبقي شيء واحد ، بعد محو أسطورة العدو ، تتحتم معرفة حقيقته ، بعد القتال المرير لتتجلى غاياته ، لقد كانت هزيمة سبعة وستين أبلغ درس لفهم النفس واكتشاف ما حولها ، لأن المرارة أصدع الأضواء على زوايا النفس ، تتلمس بها مواطن ضعفها وقوتها . ولقد انتفعت الشعوب العربية بالهزيمة أكثر من انتفاع العدو ، فقد أدت نكسة حزيران الى تلمس حقيقة الأخطاء الى استجلاء وجوه التناقضات في الأجهزة القيادية ، والهيئات الاجتماعية ، الى معرفة الخلل في التركيب القيادي وفي النظام الاجتماعي ، وعندما بدأت أمتنا تعرف برؤية اليقين أسباب هزيمتها ، وعوامل قوتها ، امتد الضباب من هنا وهناك ، أمام الرؤية الصحيحة ، وخاضت الشعوب أحلك المتاهات بين مغالطة الحقيقة ومحاولة الهروب من عصر الثورات والنور الى عصور مضت ، ومضت معها شروطها الموضوعية ، لأن لكل زمن شروطه الأصلية لعلاج قضاياه ، فشروط محو العدوان الاسرائيلي ، تختلف ميدانا وسلاحا وتخطيطا عن شروط غزو (الأندلس) وافتتاح

(خُراسان) • ومهما كانت التجارب السلفية عظيمة فان عظمتها نابعة من صحة شروطها ، على أن الانتفاع بخير ما في الماضي يعزز أفضل وسائل الحاضر بشروطه الموضوعية لقضاياه • كل هذا النقاش والأفكار أثارته هزيمة حزيران ، حتى جدّ على أدبنا وفكرنا فن شهي القطوف والعبير ، سمي الفكر الحزيراني ، والأدب الحزيراني ، ولعل أنفع وأمتع شعر « نزار قباني » هو هذا الأدب الحزيراني ، كما أن أعمق وأشهى ما كتب « نجيب محفوظ » هو هذه القصص القصيرة من الأدب الحزيراني من مجموعة (خمّارة القط الأسود) الى رواية (حب تحت المطر) • كما ان خير ما غنى « محمود درويش » و « عبد الوهاب البياتي » و « عبده عثمان » ، هي هذه القصائد الحُزيرانية التي طبختها حرارة العار ، وكشفت أبعادها شمس حزيران • فقد أثمرت هزيمة حزيران أخصب فن في فكرنا المعاصر ، وأدبنا المعاصر • وستدل الأيام المقبلة على الأدب الاكتوبري ، والفكر الاكتوبري ، إلا أن وجود هذا الأدب والفكر رهين بواقع الميدان الذي تنشد فيه المدافع وتفلسف فيه الرشاشات منطقية القضية ، وقضية المعركة وأسبابها وغاياتها ، فلقد قاتلت جيوشنا أشرف قتال وصبرت أصدق صبر ولكنها الى الآن لم تبدأ النصر ، ولم تحقق أكثرية تحرير التراب ، فما يزال العدوان حيث هو ، ولكن ما تزال جيوشنا تقاتل وتستعد للقتال ، فاذا كان عام ١٩٦٧ قد ألقى الدرس بأفواه النار ، وحلوق اللهب ، فان عام ١٩٧٣ يحصد ما زرع عام سبعة وستين كنتيجة عكسية ، والمأمول ان ما زرع عام ثلاثة وسبعون يحصده عام أربعة وسبعون ثمرا شهيا ، وقطوفا نضيجة ، لأن جيوشنا الآن وأفكارنا في الميدان ، ويستمخض واقع القتال عن فكر اكتوبري يهمي بهجة ويندى تفاؤلاً وحياة • وكل هذا موقوف على النصر المسلح أو الاستمرار في النضال

الشعبي • ولعل الأفكار التي ترددت عام ٦٧ ، بدأت تتردد آخر عام ٧٣ ، وترديد الأفكار من فترة الى فترة ينم عن واقعيتها وعن صفاء رؤيتها •

فالأفكار التي نادت من ست سنوات الى الحرب الشعبية ، ما زالت اليوم تلح في النداء ، ولعلها أصح منطقا وأكثر استفادة من تجارب الشعوب ، وخلاصة هذه الأفكار أن حرب العصابات الشعبية أصح ضمانا بالنصر ، لأن اسرائيل معسكر الاستعمار الجديد ، أقدر على جلب الأسلحة وصنعتها واستخدامها بحكمها حربة الامبريالية ، ولكونها عصابة عنصرية ، ربتها أوربا وفرضتها على الشرق الأوسط لتصبح منه وعلى حساب تقدمه وثوريته الانسانية • فعندما تملك جيوشنا مدفعا يمتلك العدو أربعة • وعندما نملك طائرة يحصل العدو على أربع ، وعندما يخسر صاروخا يعوض بأربعـة ، لكنا نملك ما هو أحسم من الصواريخ والطائرات والمدافع والدبابات ، وهي هذه الثروة البشرية التي تستخدم السلاح وتحقق به العامل الحاسم •

صحيح أن الأسلحة ضرورية والاقتصاد ضروري في الحرب ولكن الانسان هو العامل الأكثر حسما ، لأن الطائرات تحتاج الى طيارين والدبابات الى رماة وقادة ، والصواريخ الى سواعد تطلقها ، فالانسان هو العامل الحاسم وفي مقدور ثروتنا البشرية أن تنتصر بالبنادق والعصابات على طائرات اسرائيل الامريكية ، وعلى كل أسلحتها ، لأن أرضنا تملك الانسان المتوفر الذي تُشذِّبه الحرب لينمو على حين يؤثر هذا التشذيب والنمو على قلة سكان العدو •

ان الحرب الشعبية صحيحة التجربة عندنا وعند غيرنا ، وقد عرفنا هذا في بلدنا اليمن طيلة ثمان سنوات ، عرفته الجزائر قبلنا ، وعرفته فييتنام قرابة ربع قرن ، ولعل عام ٧٣ ولى معجباً بتصميم

الشعب الفيتنامي ، وقدرة انسانه على ممارسة النظام ، وقهر العدوان ، في وقت واحد . وقد شهد عام ٧٣ آلاف الطائرات تسقط على فيتنام ملايين الأطنان المبيدة ، وتتساقط على تربتها كالجراد المسموم .

ففي آخر حرب من هذا العام كانت الطائرات الامريكية تشن في كل ثلاث دقائق هجوما من ثمانمائة طائرة من آخر طراز ومن أحدث مهارة ، ومع كل هذا القصف المتوالي والمركز بعنف لم يهتز فيتنامي ، ولا تزحزحت ذرة تراب تحت أية قدم مناضلة ، ومع هذه الكثافة من الطيران لم تستخدم فيتنام الشمالية طائرة واحدة ، ولا استخدم ثوار فيتنام الجنوبية طائرة واحدة ، وانما المدافع المضادة والبنادق الباسلة هي كل أدوات القتال الفيتنامي ، حتى حققت أعظم نصر على أغشم قوة . قد يقال ان أرضا تختلف عن أرض ولكن لا يختلف الانسان عن الانسان .

لقد كانت الجزائر أو فيتنام أصلح للحرب الشعبية ، وصلاحيتهما للنضال الشعبي لا يُفقد أرض الشرق الأوسط صلاحية الحرب الشعبية . قد تكون أقل صلاحية ، ولكن الانسان يستطيع أن يستغل هذه القلة ، وبالاستغلال الجيد على وفرة العنصر البشري يصل الى غايتـــه .

إن حكاية الغطاء الجوي والطيران الأوفر أصبحت خرافة في الحروب الشعبية ضد الاستعمار ، وقد دلت حرب الاستنزاف عام ٦٨ و ٦٩ على صلاحية سيناء والضفة الغربية والجولان لاستمرار الحرب الشعبية ، حتى ان اسرائيل اليوم تفخر بصمودها أمام حرب الاستنزاف ، أكثر مما تفخر بنجاح دفاعها في حرب اكتوبر ، ولقد دلت أحداث ٧٣ على شجاعة جيوشنا وخبرتها في استعمال الاسلحة الحديثة ، ولكي يتحقق النصر فان الحروب الشعبية الى جانب الحرب النظامية

أكبر ضمانات النصر • لأن الحرب الشعبية خفيفة التكاليف باهظة الخسائر على العدو ، لأن الطائرات والدبابات تضرب معسكرات وتجمعات ، ويصعب عليها ملاحقة التجمعات الصغيرة والكمائن المبثوثة ، اذا كانت بعض الأرض أكثر صلاحية للحروب الشعبية ، فان كل أرض تملك قدراً من الصلاحية ، فاذا نفذنا هذه الفكرة فسوف نستقبل عام ١٩٧٤ على ميعاد وثيق بالنصر الأكيد •

كل هذه الأفكار والاستنتاجات من حصاد عام ١٩٧٣ الذي يعتبر حصاد ما قبله من أعوام •

فاذا كانت فيتنام قد انتصرت عام ١٩٧٣ وأجلت القوات الامريكية من فيتنام الجنوبية ، فان أسباب الحرب لم تغادر غاباتها ، لأن الاستعمار يرحل مخلفا تربة خصبة للصراع والاحتدام •

لقد رحلت امريكا عن فيتنام الجنوبية وما تزال جذورها وبقايا أظافرها تستنفر الحرب ، وتخصب تربة أسبابها • وهذه الأنباء التي تتوالى كل يوم عن المعارك الدائرة بين الثوار الفيتناميين وحكومة سيغون ، تؤكد أن جلاء ثلاثة وسبعين خلف ذيولا وبذورا تمد عمر الصراع التحرري • ومثل هذا حرب اكتوبر ، فان وقف اطلاق النار في عشرين اكتوبر لم يكن الا مسكنا يوفر عوامل الانفجار ، بدليل ان النار لم تتوقف وان قل اشتعالها وأول الاشتعال شرارة •

فقد انطوى عام ١٩٧٣ حاملا عن جيوشنا أحلى الانطباعات ، واذا كان لنا أي حساب مع العام المولي ، فاذ علينا أن لا نكثر من العد والأرقام لأن ما حدث يمكن أن يتكرر • وباختصار فلقد كان عام ٧٣ أشأم عام في بلادنا وفي غيرها • فلقد كان في بلادنا خضيب اليدين ، ملطخ الجبهة وحين نودعه فانما ندفن عدوا • لنستقبل العام الجديد بطفولة الأمل وبصفحة بيضاء نسجل عليها أنصع الخطوات ، وأنظف الأخطاء ، ويمكننا أن ننبه من الآن أن انسحاب اسرائيل الجزئي

أو الكلي ، عن طريق الوساطة والتفاوض ، يحمل امكانية عدوان جديد ، عندما تهب على المنطقة ريح تغييرية تستدعيها الظروف الاجتماعية • والآن ونحن على أبواب العام الجديد فماذا نقرأ عليه ؟ لقد كتب العام الجديد على بوابته بحروف غير مرئية مئات الافكار تصعب قراءتها ، ويمكن اشتمامها ، ولعل أبرز كتاباته ما يلي :

لا تنتظروا أن أحقق لكم المعجزات لأنها في أيديكم ، فما زرعتم في تربة سلفي سوف تحصدونه في حقولي • ان الشعوب لا تولد في عطلة آخر العام وبداية أول العام، انها دائما تولد ودائما تموت لكي تولد أكثر •

الانجازات الكبيرة لا تغل كالقمح في ثلاثة شهور ، فماذا بدأتم في سبعين لكي تحصدوا في أربعة وسبعين • لا تأملوا أكثر مما تعملون فان أعمالكم حقل آمالكم • جميل أن تحلموا لأن الحلم جناح يطير الى المجهول ،ولكن الحلم دليل فكرة عمل ، والعمل ثمرة ، لقد ولى ثلاثة وسبعون ، وغيّر هذا المرور المتعاقب كل شيء ، فهل تغيرتم لكي تغيروا ؟ ان تغيير الداخل هو الذي يغير الخارج ، ان عصرية الفهم ، سر عصرية العمل ، ولا يحدث المنجزات التاريخية إلا عقل حديث •

ان كل عام اضافة الى ألوان وأسرار المعاصرة ، فهل تعصرنت نفوسكم بأحدث الثقافات والمفاهيم ؟ كما تعصرنت بيوتكم بقناديل الكهرباء ، وشوارعكم بأحدث السيارات ، ومتاجركم بآخر الموضات• اذا لم تصل معاصرة الخارج الى الداخل فبينكم وبين نفوسكم انقسام خطير ، وبين الداخل والخارج ركام من الطين والرماد ، لأن الداخل المضاء بالفهم والحس مرتبط بالخارج المضاء بالشمس والكهرباء • ولا تنفذ أضواء العصر الا الى النفوس المعاصرة ، فاياكم والغربة عن زمنكم والانقسام بين ذاتكم وذاتكم،هذه الكتابة أول دليل ، والطريق أمامكم والوحشة خلفكم والى غدكم سيروا مباركين •

مجلة الكلمة ــ العدد ٢٣ ــ السنة الثالثة ــ يناير ١٩٧٤

حتى نهزم الهزيمة

كما أن الطعام ينضج بحرارة النار •• وكما أن المطر ينْهل بتفاعل الهواء ، كذلك الشعوب تنضجها حرارة المحنة •• وتصفّي أخلاطها مرارة العذاب ، وحرارة التطلع الى الخلاص ، وعلى هذه لم تكن هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ م عامل انهيار الأمة العربية بل إنها عوامل ميلاد أمة جديدة تتمخض من الركام الى جلاء الوجود الحقيقي ••

وليست للمقدمات نتيجة واحدة ، بل لها عدة نتائج منها : النتيجة المنطقية •• ومنها النتيجة التوسطية ، ومنها النتيجة المعاكسة ، وأغلب ما تتحقق هي النتائج المعاكسة في حياة الشعوب ، فقد كان من المنتظر أن تبقى فرنسا والاتحاد السوفياتي مَرْميتين تحت الإحتلال النازي ، لكن الذي حدث هو العكس وأكثر من العكس ، فلم يكتف الاتحاد السوفياتي بإجلاء الاحتلال عن أرضه ، وإنما اندفعت قواته حتى وصلت الى قصر (هتلر) نفسه ، وكذلك فرنسا فقد كانت الظواهر العامة تدل على أن الشعب الفرنسي قد خُمد •• وأن إرادته قد تعطلت ، فإذا به ينبعث من ركام الهزيمة، ويحقق هزيمة المعتدي ويحتل قطاعات من أرضه •

صحيح أن الأقيسة لاتعدم الفوارق •• لكن وجود الفوارق لايعدم اطراد القياس على أي وجه ، فانتصار الأمة العربية ممكن

قياسا على الشعوب التي هزمت الهزيمة •• كما أن هزيمتها في حزيران كانت ممكنة •• ولكي نعرف أسباب الهزيمة ، نجمع ملامح صورة السياسة العربية قبل الهزيمة الى الهزيمة •

كانت الألوان السياسية للأمة العربية تختلف وتتفق •• وتلتقي وتتناقض ، وكانت هذه التناقضات والالتقاءات معلنة في سياسة كل دولة تعكسها تصريحات الزعماء وخطبهم •• وتفسرها اجهزة الإعلام •

كانت سياسة الجمهورية العربية المتحدة تدعو الى الوحدة العربية، عن طريق الشعوب ، وكانت سياسة سوريا تدعو الى الوحدة •• والحرية والاشتراكية ، عن طريق البعث ، وكانت سياسة العراق مثل سوريا ، على سعة الشقة بين حكم الحزبين ذي المنهج الواحد •• وكانت سياسة الأردن تستجيب للوحدة العربية لكن وحدة صف ، ووحدة قومية يمينية تقليدية •• وكانت سياسة الكويت تجمع بين العروبة كقومية والإسلام كدين ، وكانت سياسة المملكة العربية السعودية على طرفي نقيض ، فهي لاتؤمن بالقومية وإنما بالوحدة الاسلامية ، وكانت الجمهورية العربية اليمنية في ذلك الحين تقاتل تحت علم الجمهورية ، وعلى تثبيت الثورة كإرادة شعبية ، وكمصير وطني ، أما المغرب العربي فقد كان لكلٍ سياسة ، فالمغرب مكون من عروبة وبربرية ، لهذا فله جانب عربي وجانب وطني يجمع بين اللونين ، ويميل الى اليمينية الغربية ، على حين كانت الجزائر ماتزال تضمد جراح التحرير ، وتبحث عن أفضل اسلوب لقيادة البلاد ورخائها ، وكانت السياسة التونسية كالسياسة الأردنية في الدعوة الى العروبة واتجاه اليمينية الغربية •

وكانت القطاعات الشعبية كحكوماتها بعضها الى اليمين ••وبعضها

الى اليسار •• وبعضها تتخذ طريقا وسطا • هذه صورة الأمة العربية قبل الهزيمة ، ولعل أكثرها ما يزال قائما بعد الهزيمة •

لكن هل كان يشكل هذا الاختلاف والاتفاق سببا للهزيمة ؟ ربما كان أصح الاجوبة • لا •!! لسبب واحد هو أن العدوان الاسرائيلي يستهدف توسعا أرضيا، سواء كانت هذه الأرض تحت أقدام اشتراكية أو رأسمالية • أو يمينية أو يسارية ، فلم تكن اليمينية مانعة من التوسع الاسرائيلي ، ولم تكن اليسارية مانعة من امتداد التوسع الاسرائيلي الى أي قدر ، يهم اسرائيل أن توسع نطاق رقعتها ، وأن تغتصب أرضا جديدة الى الأرض المغتصبة ، وعلى هذا أصبح التجمع العربي على اختلاف مناهجه ضرورة حتمية ، لأن العدو لايميز بين اتجاه واتجاه ، وقد سبق أن تحالف الإتحاد السوفياتي الاشتراكي والغرب الرأسمالي ضد الغزو النازي •• وحققا بتحالفهما هزيمة العدو المشترك •

إذن فالتجمع العربي أقرب تاريخيا وشعوريا •• ومنهاجا الى التجمع ، لأن العدو يستهدف الجميع وهذا ما حدث ، فكما هُزمت مصر الاشتراكية هُزمت الأردن الرأسمالية ، وكما هزمت مصر ذات الحكم العسكري ، هزمت الاردن ذات الحكم المدني ، ولعل الهزيمة جاءت من التعادي الذي أدت اليه اختلاف المناهج ، ووجوه النوايا ، لكن يمكن أن يضاف سبب أكبر هو : عدم الإستعداد الصادق للحرب، فعندما اندلع العدوان توحدت القوى العسكرية • لكنه توحد فوري وبلا سابق استعداد ، فقد تلاقت وحدات كثيرة من القوى العربية : سودانية ، وكويتية ، وعراقية ، وجزائرية ، بل ولبنانية الى جانب القوى المواجهة ، ومع هذا لم تستطع القوى الموحدة أن تثبت مدة ستة أيام •

لهذا ترجع الهزيمة الى ثلاث أسباب : ــ

السبب الأول : عدم الاستعداد الصادق للحرب •

السبب الثاني : دخول المعركة بخليط من النوايا المتباينة •

السبب الثالث : وربما كان أهمها •• الجهل العربي بقوة العدو وأساليب العسكرية •

وقد دل على هذا تفسيرالهزيمة ، لأننا عندما ننتصر لانبحث عن الأسباب ، وعندما ننهزم نبحث عن مئات الأسباب •• وكل يشكل السبب الملائم لوجهته السياسية ، أو ميوله الحزبي ، فبعد أن حدثت الهزيمــة تلاوم المنهزمون في التفسيرات ، فمنهم من يرى أن سبب الهزيمة يرجع الى استبداد بعض الدول بالرأي •• ومنهم من يرى أن سبب الهزيمة إبعاد أصحاب الخبرة ، والكفاءة عن الميدان ، والركون الى القوى الموالية للحكم والمتمصلحة معه ، ومنهم من رأى أن الهزيمة تتيجة لخلل مستفحِل في كل نظام عربي ، في تركيب الأجهزة العسكرية والأجهزة السياسية ، ومنهم من رأى أن سبب الهزيمة هو ابتعاد الأمة العربية عن الدين الاسلامي ، لأن العقيدة الوطنية والسياسية لاتكفي لمواجهة معتد مدرب على العدوان ، مؤيد بأكبر القوى في العالم ، ومنهم من رأى أن سبب الهزيمة يرجع الى وجود العربي التقليدي البعيد عن المعاصرة ، أو الذي يحيا في عصره على أفكار من خــارج عصره ، وكل هذه التفسيرات والتبريرات قد تكون صحيحة ، ولكن ليس كل الصحة ، وقد تكون خاطئة ، ولكن ليس كل الخطأ •• لكن هل تفسير الهزيمة يمحوها ؟ أو تبريرها يخلّص منها ؟•

مهما كانت أسباب الهزيمة ، ومهما تعددت تفسيراتها فلا يخلص منها إلا عمل أقوى من عمل المعتدي ، وقوة لاتقل كفــاءة عن قوة المعتدي ، وأظن أن الجماهير الشعبية موعودة بالنصر لسبب واحــد

هو : إنها ترفض الهزيمة وتحترق بمرارتها ، وإذا كان المعتدي قد احتل مساحات هنا وهناك ، فإنه قد عجز تماما عن احتلال ارادة الشعوب ونفوسها ، وما دامت النفوس ما تزال حرة ، وما دامت الإرادة ما تزال مصممة ، فإن الشعوب بتعبئة أحقادها .. وتجدد جماهيرها ، سوف تهزم الهزيمة ، فعلى الشعوب أن تزيد من قواها ، ومن تلاحم هذه القوى عن مبدأ وطني ، وان تزيد من توعيتها لكي نهزم الهزيمة ونخرج من ركام السلبية الى ميلاد العمل المنتصر على نفوسنا ، والمنتصر على عدونا ، فكما هزمت شعوبنا قوى الإستعمار القديم ، فسوف تهزم قوى الإستعمار الجديد . وكل هذا بفضل المحنة التي تنضج الشعوب ، كما تنضج حرارة الصيف ثمار الأشجار ، وكما تصهر النار خبث الحديد والمعادن ، فسوف تصهر شعوبنا نار المحنة لكي تولد من جديد فتهزم الهزيمة .

المهم أن هزيمة حزيران على فداحتها قادرة على اعطاء عوامل النصر ، وكل هذا بفضل الشعوب التي ستعبر عن نفسها كما عبرت عنها في عشرات المراحل التاريخية .

مجلة الجيش العدد ٢٨ يونيو ١٩٧٢

* * *

بين الذي يرجع والذي لا يأتي

ليس العمل ضرورة فحسب يقتضيها اثبات وجود أو حماية وجود .. وإنما هو حركة تدفعها أفكار وتقودها أفكار ، لأن العمل الذي لايصدر عن فلسفة وتنيره فلسفة ، يبدو كلا عمل ، مهما تعددت مواقعه واتجاهاته ، والعمل الذي تسيره فلسفة ينبت من شجرة الحياة الخضراء ، ويتجدد اخضراره مع تحولات الفصول ، اما العمل الذي تقتضيه ضرورة البقاء أو ضرورة الدفاع عن هذا البقاء ، فيبدو مهما تكاثفت وسائله كلا حركة .. وكلا عمل ، لأن فلسفة العمل وزمن العمل يعطيانه حيوية الحياة وسر الفاعلية والتأثير .. فاذا كان لكل عمل فلسفة تدفعه وتهدي مسيرته ، فإن تزمن هذا العمل يعطيه صفة القابلية وسر الخصوبة ، لهذا قال الأجداد (ما يصلح لزمن لايصلح لسواه) .. و (مايناسب بلدا لايناسب بلدا آخر .)

فالفلسفة العملية وزمن العمل سر حركته وأسباب قابليته وامتداده .. وإذا لم تكن للعمل فلسفة تحركه وتهديه ، فهو كلا عمل مهما تزايدت مواقعه وتكاثرت أيدي عامليه ، لأنه مجرد ضجيج يحاول استرجاع ما لايرجع أو استقبال مالا يأتي .

وقد دل تاريخنا على أن لكل عمل فلسفة ولكل فلسفة عملية زمنها وعواملها .

بعد استشهاد الخليفة « عمر » رضي الله عنه تولى إختيار خليفته ستة من كبار الصحابة سابعهم ابن عمر •• في الرأي لا في الحكم ، وكان المرشحان بعد عمر إثنان : هما « علي بن أبي طالب » و « عثمان ابن عفان » ، وقد اشترط رجال الشورى على من يلي الأمر أن يسير في الناس سيرة الشيخين « الصدّيق والفاروق » ، وعندما مدوا أيديهم لمبايعة علي قالوا : « نبايعك على أن تسير فينا سيرة الشيخين » •• فقال علي :

« لا أستطيع هذا •• وانما أجهد جهدي » فمال المبايعون الى عثمان ، فقبل الشرط ، وبعد ما تولى كان أول من أخل بالشرط ، حتى قالت فيه أم المؤمنين (عائشة) :

« أيها الناس إن ثوب رسول الله ونعله لمّا يبليا حتى أبلى نَعْثل شرعَهُ » •

ألم يصعب على (علي) و (عثمان) أو نَعْثل كما لقبته عائشة استرجاع الأمس الذي لا يرجع ، كما صعب عليهما استقدام الآتي الذي لا يأتي •• لأن نقطة المحافظة عاجزة عن استرجاع الأمس ، وعلى أشد خوف من مغيبات الغد ؟•

لقد قبل « عثمان » أن يسترجع الأمس فسقط بين محاولة رجوع ما كان •• وحماية ما هو كائن ••

وبعد مقتل عثمان تولى (علي) الخلافة على أن يجهد جهده دون مد سيرة من قبله ، لأن لكل زمن عملا ، ولكل عمل أفكاراً ، وعندما اتقد الصراع المسلح بين (علي ومعاوية) غلب معاوية ، لأنه توخى الغد منذ كان أميرا حتى أصبح خليفة •• فكان ماضي غيره مستقبلا له •• ولم يكن قميص « عثمان » الا أوهى الاسس لحركة (معاوية) لأن عهد عثمان بالتزامه وخروجه عن الالتزام ، قد مهد لمعاوية ولم يمهد لعلي ، فاستغل السفيانيون الماضي للحاضر •• وساندتهم الظروف الموضوعية التي لم تتوفر لعلي •

قال (البلاذري) : (كان معاوية رجل دنيا وقد أصبح النـاس كذلك ، وكان علي رجل تقي في وقت غلبة الدنيا على اكثر المتقين .)

إلا أن معاوية باسترجاع أمسه كأساس ليومه ، قد حقق الثبوت في التـاريخ السياسي العربي ، على حين حقق (علي) رضي الله عنه الجانب التحولي في التاريخ السياسي العربي ، لأن (معـاوية) قاد المستغلين من تجار الشام ومُحدَثي النعمة من رجال الجزيرة ، فحقق بهذا الثبوت بين استرجاع الذي لا يرجع وبين مخاوف الذي لا يأتي على عكس بداية أمره اذ كان مستقبليا حتى أصبح مستقبله ماضيا ، أما (علي) فقد حقق الحركة التاريخية ، لأنه رفض أن يشتري المجـد السياسي بالأموال والنفـاق ، وأصر على قيـادة الفقراء الى حقهم المشروع .. وضحى تحت راية هذا المبدأ ، فكان استشهاده النقطة المشرقة في التحول الثوري الممتد من القرن السابع الميلادي الى اليوم، فقد توالت بعد (معاوية) الخلافة الوراثية ماضوية الروح والشكل ، وان كانت أعجز عن استعادة الأمس ودخول الغد ، إلا أنهـا كانت تتحرك في جانب ضيق .. والثورة التحولية تتحرك في جانب الشعب وبالشعب ، لأن الأئمة العلويين ، ومثقفي اليمن وفارس أشعلوا ديمومة الثورة الفكرية..ومدوها من (صِفّين) الى (كربلاء) الى (طوس) الى (الطَّف) الى كل مكان وكل زمان،ارتفع فيه عمود من دم شهيد ، لأن دم « علي » عليه السلام تحول من شعلة في (الكوفة) الى شعل ، وتلاه دم « الحسين » فزاد الشعلة ارتفاعا وامتدادا وبهاء ، فاستقرت الخلافة في زمن واحد ماضوي النزوع ، وتحركت الثورة الفكرية والعملية من زمن الى زمن ، فنشأت أفكار من أفكار ونبتت جذور من بذور ، فكان من التشيع الفلسفة الاسماعيلية والعقلية الاعتزالية ، والثورة القرمطية ، والاجتهادات الزيديه ، فكانت هذه الاعمال تسير

بمقتضى أفكار فتكتسب صفة الحيوية ، وقوة الشعبية ، رغم عساكر الخلافة وأموالها ، ورغم قمع السيف واغراء النفوس ، لأن الافكار الثورية كانت كالفصول الزمنية تنبثق في ميعادها •• على حين كـانت السلطة تكرر فصلا واحدا خارج الزمن وخارج الفصول ، وبهذين الجانبين « الفكر الثوري •• والثبوت الخلافي » تكون تاريخنا من الثبوت الذي لايتحول ، ومن التحول الذي لايتوقف فاذا كـانت السكونية والأمسيّة نظام الخلافة الموروث ، فان عمر كل دولة كان عمر انسان واحد طويل العمر أو قصيره ، كانت مدة الخلافة الأموية تسعين عاماً وكان العمر الحقيقي للخلافة العباسية مائة وخمسين عاماً والبقية مجرد شكل ، وقد امتد الصراع بين التحول والثبوت ، حتى أهَلّ عصر الحركة العنيفة •• عصر الطائرة والقاذفة •• والعابرات والغواصات •• وكل أنواع الاتصالات ، فأصبحت حركة الأشياء وتحولها سر حركة الانسان وتحوله ، لأن تحول الأشياء من صنع تحول الانسان •

وما جرى في التاريخ القريب والبعيد جرى في بلادنا ــ أول هذا العصر ــ باعتبارها اقرب الى الماضي بتقليديتها وأقرب الى التحول بطموحها وفاعليـة التغيير •• فاذا كل تحركهـا يتردد بين الطموح والتقليدية ، فيتأرجح بين زمن لايرجع •• وبين زمن لا يأتي ، وكلا الجانبين آت من تاريخنا العقائدي والفكري : الذي جمع بين الفكر الثوري التحولي والتقليدية الإمامية الماضوية •

جمع « الإمام يحيى » بين الزمنين فعقد الإتفاقيات والمعاهدات مع (ايطاليا) الفاشية ومع (روسيا) الاشتراكية ، واستعاد من النظام التركي التقاليد العسكرية والأنظمة الادار يـة •• فتردد بين التحول والثبوت •• وبين الذي لايرجع وبين الذي لا يأتي ، فبأيـة وسائل نجح في حكمه حتى اصبح من كبار مؤسسي الدول التقليدية ؟!

لم يأت نجاحه من استرجاع الأمس ولا من إغلاق باب الغد وإنما تكون من العناصر التالية :

أولا : الوطنية ، فقد قاد التحرر من الأتراك •• ورفض استبدال الإنجليز كما فعل الآخرون فانتهج الاستقلال الوطني فكرا وعملا • ولكن عن تزمت وسكونية ••

ثانيا : جَمَعَ السلطة كلها في يده فأغلق مجال الصراع والسباق على السلطة •

ثالثا : رقابته الشخصية الشديدة على العابثين بالأموال والأمن فقد كان يرى كل قاطع طريق عيني الإمام تحرقان يديه ، وكان يرى كل مسؤول مالى نظرات الإمام تتسلل الى جيوبه وتخترق خزائنه •

رابعا : مجيء الإمام من غبار معركة التحرر ضد الاتراك المستعمرين ، وضد الادارسة الوافدين من افريقيا، والمحميين بالبوارج الانجليزية في البحر الأحمر •

فاكتملت له صفات قائد التحرر ومزايا حامي علم الاستقلال الى جانب انه كان يعيش كأحد موظفيه في عيشه اليومي ، ومع كل هذا فقد أدى ثبوته بين الذي لايرجع وبين الذي لايأتي الى خلق النقيض وهي (الجبهة التحركية أو التحولية) إلا أن الجبهة التحولية كانت في ثقافتها وأفكارها أكثر ماضوية ، وأقل واقعية لأن امتلاك الواقع يأتي من تحريكه عن طريق معرفته ، لهذا عرف (الإمام أحمد) دوافع الحركة التحولية ومداها وثبوت والده ، فجمع بين الثبوت وظواهر ارادة التحوليين مهما كانت شكلية ، فمن بعد ١٩٤٨ بدأ الإمام أحمد يتخلص من مخاوف والده من الأجانب ، فكون العلاقات الديبلوماسية مع جميع الدول واستقبل الوفود وارسلها ، وقاوم الاستعمار وأبقى على أسواقه ، فبعد أن كان ممثل اليمن في « الجامعة العربية » مجرد عضو مراقب لا يتكلم آخر أيام الإمام يحيى — حتى اعتبر السكوت

المطبق منسوبا الى الكبسي ـ أصبح لليمن أيام الإمام أحمد عضوية ناطقة ذات رأى في الجامعة العربية وعضوية في الأمم المتحدة •

وبدأت ظواهر العصر تتسلل الى الشطر الشمالي من اليمن من أكثر من ثقب وباب •• إلا أن هذه الظواهر مجرد ظواهر تسمر الأمس في مكانه ، وتُعجز عن اقتحام الغد ، لأن تلك الظواهر اصبحت مألوفة ولم تصبح أداة تغيير تصنع الغد وتدل اليه •

لقد خرج الإمام أحمد عن سياسه أبيه إلا أن هذا الخروج كان بطيئا بالنسبة الى سرعة العالم ، بيد أنه كان كثيرا بالنسبة الى الثبوت أيام الإمام يحيى ،غير أن الشعب بدأ يعرف ويفكر عن معرفـة •• فكان الفكر دليل العمل وان أنقص شمول النظرة ، وفي آخرَ أيام الإمام احمد بدأت الندامة توقفه حيث هو ، وأخذ الحس الماضوي يتزايد فيه ، فبعد رجوعه من روما ١٩٦٠ حاول ان يستعيد ما امكن استعادته من أيام أبيه ، ويجعل من الزمن الغابر حاضراً أو مستقبلا ، وبين الزمانين سقطت المحاولة والمحاول •

وجاءت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر فادهشت وافزعت بضخامة دباباتها ، ومثالية ابطالها ، ولأن الثورة غير شاملة الدليل النظري ، وعلى نقطة عالية بين حاضر متردد تحركت في بطء بين الذي لايأتي وبين الذي لايرجع ، وأدمت الأحداث سبع سنوات بين قوى تريد البقاء وبين قوى تحاول الرجوع ، إلا أن الماضي تعاصى عن الرجوع كما توقف الآتي عن الفاعلية •

وبعد أن برد الحماس من المتراجعين والمقبلين جاء السلام نتيجة لتعب المحاربين لانتيجة انتصار جانب على جانب ، من هذه النتيجة الفجة بين اللانصر •• واللاهزيمة ، جاءت فترة المحافظة من عام ٦٧ الى عام ١٩٧٤ ، فقد بذلت هذه الفترة كل جهودها في الإحتفاظ بما هو

كائن وصد ما يمكن أن يكون ، لأن المحافظة نقطة وسط بين التراجع والتقدم •• إلا أن أسرار التحول لم تتوقف كما لم تتوقف الفصول •• على حين استمرت السلطة الحاكمة متربعة على قمة الحاضر تمد من الأمس القريب أوهى خيوطها الحية ، وتتقبل من الآتي أوائل روائحه •• ثم تحاول الثبوت بين ما كان وما سيكون • وقد دلت الأسماء والقرارات على رجوع ١٩٤٨ بقراراته ووجوهه الى عام ١٩٦٧ باعتبار أن هذا العهد قريب الزمن ، وباعتبار ماتلاه إمتداداً له ، إلا أن الثبوت والتحول تلاقيا من جديد ، فتحرك جانب بين آت لايأتي لقلة وسائل صنعه •• وبين ماض لايرجع لانعدام الحياة فيه وإن دلت عليه أصوات واصداء ، لهذا كان العملان مجرد حركة هزيلة في فراغ ، لأن الماضي لايرجع والآتي لم تتهيأ مهود ميلاده ، فكان الجانب الثبوتي يعجز عن إرجاع الأمس ، لأن يومه بمعزل عن الظروف الموضوعية لرجوع الأمس ، ذلك أن إعادة أي موروث تقتضي وجود كل ظروفه ، وكل ملابساته ، وكل المناخات التي غذّته •• كما أن دخول الغد يستدعي جدة نفوس الداخلين ، وقدرة تجديده وتجديد نفوسهم معه حتى لايصبح ماضيا ، ومن هنا تدل الظواهر والأعمال على أن مجتمعنا الى الآن يتحرك بين زمن مستحيل الرجوع وبين آت غير ممكن الإتيان الى الآن ، هذا ما تنبي عنه دلائل اليوم ــ وإن كان لكل يوم دلالة ــ إلا أن الآتي ممكن الميلاد كما أن الماضي مستحيل الإنبعاث لأن لكل زمن عمل •• وحيوية كل عمل ان تدفعه أفكار حياتية وتقوده أفكار حيـــاتية •

مجلة الجيش العدد (٥٩) فبراير ١٩٧٥

عام المـــرأة

عندما اعتبرت الأمم المتحدة في ١٨ مارس ١٩٧٢ عام (١٩٧٥م) عام المرأة العالمي •• كان ذلك بفضل جهود المرأة التي أصبحت رئيسة وزراء في أكثر من مكان•• ووزيرة ثقافة في أكثر من مكان•• ورئيسة لأكبر تنظيمات في أكثر من بلاد ••

فالمرأة هي التي فرضت تكريمها حتى أصبح عام ١٩٧٥ عامهـــا العالمي ، وإن كانت ملء كل الأعوام ، لأنها شريكة الرجل دائما : بنت معه أول عش •• وزرعت معه أول نبتة ، عندما بدأت الأرض تصلح للنبت •• بل كانت المرأة أكثر تحملا لمغالبـــة العواصف ، وحرارة الأرض ، واستخراج اللؤلؤ ، فعندما تحركت خطوات الانسان واكبت المرأة الرجل •• بل سبقته فكان وراء كل بطل أم بطلة •• وخلف كل متفوق أم متفوقة ، لأنها نقطة انطلاق الرجل يأتي منها كما تأتي الثمرة من الشجرة ، ويأتي اليها كما يأتي القاطف الى العناقيد ، فهي دائما مصدر العطاء ، حاربت مع الرجل في كل ميدان • في (طروادة) وفي (اليرموك) وفي (لينينجراد) وعلى « السين » •

واليوم •• وقد أصبحت المرأة رئيســـة وزراء •• ووزيرة •• ونائبة وأمينة تنظيم •• هل تتساءل عن المرأة في بلادنا •• ؟ وهل كانت غائبة ؟

إنها موجودة كلما وجد المجتمع •• وكلما قال المجتمع أنا هنا ، كانت المرأة أحلى ملامحه ، وأنشط سواعده ، نبغت في بلادنا الفقيهة في بيئة الفقه •• كالشريفة (دهماء) ، ونبغت الفارسة فيعهد الفروسية كـ (ريا بنت الحارث) •• ونبغت القائدة حين أعدتها بيئة القيادة •• (كأروى بنت أحمد) و (أسماءبنتابي الجيش) (وتحفه الصليحية) •

فاذا النابهات في كل عد يقاربن عدد النابهين ، وعندما استحكم علينا الجمود والتأخر غابت المرأة بين اللفائف والجدران •• وغاب الرجل تحت جلده لايتحرك إلا فيه •• كما لاتتحرك المرأة إلا تحت ستائرها ، وعندما ارتفع صوت العصر رددته المرأة والرجل :

كان أول مجال هو (التمريض) فدخلته المرأة بلا تردد •• لا لأنه غاية الطموح ولكنه أول مجال تهيأ ، وبعد قيام الثورة نادى العمل فقالت المرأة (لبيك) فدخلت مصنع الغزل والنسيج ، وارتفع صوتها من الإذاعة لأنه لم يعد عوره كأصوات الجدات ، وعندما انفتحت المدارس دخلت المرأة بكل الشوق الى التفوق فأصبحت متعلمة ومعلمة ، وعندما ابتدأ التعليم الجامعي اقترب عدد الطالبات من عدد الطلاب ••

فهل المرأة غائبة •؟ لقد أشرقت كلما أشرقت الحياة في المجتمع •• ومع كل هذا فان المرأةتستعد للمزيد ، رغم المقاومة ورغمالصعوبات ، لأن هذه الظروف القاسية تعلمها كيف تقتحم ، لأن الموانع تغري باكتساحها •

والملحوظ أن مجتمع الجامعيات لايشكل ظاهرة مميزة للجامعية عن سواها •• فأما أن تتميز الجامعية بزيادة فهمها وتحديها للصعوبات وإلا سوف تكون امتدادا لجدتها قعيدة البيت ، إن طالبات الجامعة يدخلنها ويخرجن منها •• وكأنهن يدخلن (تَفرِطَة) أو يخرجن من

(تفرطة) ، إن أول مهمات التعليم هو تمييز البنت على جدتها • وتفوق حاملة الكتب على غاسلة المطبخ •

وجمعية نهضة المرأة مسئولة عن سرعة تطور المرأة وزيادة خبرتها في الحياة ، فمجرد نقش الكعك وفن الخياطة لايعطيانخبرة لروتينيتهما لانها أشبه بقعيدة البيت تعجن نفس الطحين ، وتخبز نفس العجين ، وتوقد نفس النار ، والعمل المعتاد لايفتح ذهنا ولا يعطي خبرة وإن استنزف العرق •

يتحتم على المرأة المعاصرة أن تتجاوز الأعمال العادية الى الإبتكار والإبداع •• ولن تبدع في عملها إلا اذا حررت نفسها من الخوف وعقلها من الرواسب الضارة ، من بداية عام ١٩٧٥ ونحن ننتظر اشارة المرأة في بلادنا الى عامها أو احتفالها بهذا التكريم العالمي •• ومع هذا لم تشعر المرأة بعامها لأن عمرهايوم واحد مكرر مهما حملت الكتب•• فقد أصبح حمل الكتب « روتيناً » والمسؤول هنا جمعية نهضة المرأة والعاملون والعاملات في برامج الأسرة ، فعلى الرغم أن للمرأة برنامج كل يوم فلم يُعلِمهاهذا البرنامج بدخول يومها العالمي ، واحتفالالعالم بهذا العام ، مع أن هذه المناسبة العظيمة قد شغلت الكثير من إعـلام العالم المسموع والمقروء والمرئي •

إننا اليوم إذ نهنيء بنت اليمن بعامها العالمي نرجو لها أن تتجدد مع كل يوم ومع كل عام •

مجلة الجيش العدد (٦١) ابريل ١٩٧٥

بعد عامها الدّولي

لم تعد المجتمعات تنقسم الى قسمين :

ـ قسم أمامي هو مجتمع الرجال .

ـ وقسم خلفي .. هو مجتمع النساء . وإنما أصبح كل المجتمع موحدا . لا فرق فيه بين الرجل والمرأة إلا بمقدار الكفاءة . ولعل ريفنا اليمني العظيم أول شعوب العالم في مساواة المرأة .. وتكليفها بواجباتها لأنها في الحرب تقاتل مع الرجل .. في حرث الأرض تشارك الرجل .. وفي الحصاد مع الرجل جنبا الى جنب .. بل أنها في بعض المناطق تعمل أكثر من الرجل .. وتنوب منابه ـ اذا تغيب ـ في حرث الأرض ورعي المواشي وانتزاع المياه من الآبار ، فتصبح كل أم أبا وأما في أكثر من منطقة . وفي أكثر من فترة .

وعندما قررت هيئة الامم المتحدة في ١٨ مارس عام ١٩٧٢ أن يكون عام ١٩٧٥ عام المرأة .. لم نستغرب هذا ، لأن المرأة عندنا سيدة كل الاعوام وبالأخص في الأرياف .

والآن وقد بدأت تقاليد المدينة تغزو بعض المناطق القريبة من الأرياف .. تتساءل كيف وصلت الى بنت القرية أسوأ تقاليد بنت المدينة .. كالحجاب ولبس الموضات .. والتحلي بالذهب ؟ ومضغ القات ؟ .

إن المرأة في بلدنا على عكس ما هو في العالم ، لأن الريفية متحررة كشمس الريف •• على حين بنت المدينة مقيدة بسئات التقاليد •

والآن وقد بدأت بنت المدينة تواكب الرجل في بعض المجالات ، نسأل المرأة في المدينة •• ماذا بعد عامها الدولي •• ؟

وماذا ستصنع لكي تكون جديرة بالتكريم •• ؟

إن الرجال لايكرمون المرأة على أساس انها النصف الحلو من المجتمع •• وإنما على أساس أنهـا أم المجتمع وبنت المجتبع ، لأن حلاوة الوجوه والعيون قابلة للذبول والزوال • لكن نضج الفهم وثقابة الإدراك هي التي تقبل النمو •• وتزداد مع السن خبرة ودرايه •• لأن الأيام التي تتساقط من العمر تشكل أحجارا في بناء الاختبار •

لهذا يمكن أن نلفت انتباه المرأة في المدينة •• أن تشعر نفسها وغيرها بجدارتها بالتكريم وكفاءتها للعمل، لأن بعض الموظفات في بعض المؤسسات والوزارات يعتمدن على تدليل بعض المسئولين ، فيتأخرن عن مواعيد العمل •• ويتغيبن عندما يحلو لهن لالشيء •• إلا لأن المسئول فلان أو فلان لايعاقب أي حلوة لكن هل عرفت تلك الحلوة وتلك ، أن الحلاوة لاتستمر ولا تفتن كل الناس ، لأن لدى الكثير حصانة • وأن على المرأة عقاباً كما لها جزاءً ، ولأن موسم الجمال كموسم الورود سريع الذبول • لأن لكل زهرة شتاء •

لكن للزهور خبرة بمقاومة الشتاء • فهي تختبيء في الاعواد لكي تطل في الربيع •

فكيف تصنع الورود البشرية عندما يعتريها الذبول •• ؟
تعمل على تثقيف نفسها دائما •• وعلى تنمية كفاءتها باستمرار ،

لان الخـــبرة تزداد قوة بضعف الجســـم •• وتكون زيادتهــا على تناقص العمر •

صحيح أن التجربة العملية لبنت مدائننا لاتتجــاوز عقدين من السنين •• ولكن في عصر يقفز بسرعة ، فكما أن الورود تترك آثارها فان الورود البشرية (المرأة) تقدر أن تبنى وتتحضر وتعارك أشق المهام •• وهذا هو الجمال المعنوي •• وهو الأخلد والأبقى ، لأن الأعمال المنتجة تزداد بالحمل والولادة •• ولا تتأثر بهما كسيداتي وآنساتـــي •

مجلة الجيش العدد (٧٠) شهر يناير ١٩٧٦م

* * *

ثلاث قضايا بين يدي العيد

لأن الزمان حركة فهو تبدل،ولأن التبدل تطور وزيادة فمفروض على الخلف التفوق على السلف ، لأنه يمتلك تجارب مَن قبله .. وخصائصه الذاتية .

هكذا في الإنسان .. وهكذا في الزمان لأنه مجلى تطور الانسان .. فلا بد لليوم أن يفوق الأمس لكي ينبثق الغد من خبرة اليوم ومن تجارب الأمس ،

هذه قضية افترضها النقاش بين يدي العيد ، وإذا كان في كل عمل سمة الزمن فما هو موضوع قضية اليوم المطروحة بين يدي العيـد .. ؟

إن أحدث طارىء وأجمل طارىء في بلدنا هو هذا العام السخي ، كريم السحائب .. عميم الأمطار ، وقيمة هذا العام بخصبة وانفجار نهود سحابه انه جاء بعد جدب ، فهل المطر قضية ياسيدي العيد .. ؟

لقد أصبح كل شيء قضية : الإنسان قضية .. والحدث قضية ، والمكان قضية ..

ألم تكن ثورة سبتمبر قضية القضايا .. ؟

لاتغضب ــ ياسيدي العيد ــ إن أخرت قضيتك .. فهي التي

جرّت النقاش على وجهه الى نقاش قضية المطر ، لأن المطر يغير الأرض لكي يتفجر عمقها بأمواج من الخضرة والرفيف والبهجة .

والثورة مطر، من نوع آخر، تهز النفوس لكي تنفجر بخيرمافيها.

هذه القضية بجملتها ، ولجملة الأيجابيات جملة سلبيات : ألم يكن للقمر وجهان .. مشرق ومعتم .. ؟

كذلك المطر بنوعيه : ثورة الإنسان ، وثورة الرعد

.. واذا فما هي القضية .. ؟

يقول مثلنا الشعبي (قتيل الماء ولا قتيل الظماء) ، ويقول الفكر السياسي (الثورة هدم لبناء ما هو أصح وأجمل .. لأن الثورة إنهاء كل سيء .. وبناء كل عظيم على أساس عظيم) .

كذلك المطر يحول العقم الميت الى خصب ، حتى نرى في كل قطرة مطر حقولا من السنابل .. وبساتين من الكروم . إذن فتغيير المطر من أجل الجمال الذي لايتغير إلا تأهبا لجمال احفل ، والسؤال :

ماذا فعل المطر .. ؟

لقد حمل على أذرعته أودية وبيوتا وبشرا ، وبصورة تكاد أن تكون فضيعة أو منقطعة المثيل .. فهل معنى هذا أن مطر هذا الموسم أغزر من أي مطر . ؟

أظن .. لا ، وهذا سر القضية :

كانت الأمطار تنهمر بعنف .. وكانت السيول تتدفق بشراسة .. وكان الانسانأقدر على مواجهة السيول.. وعلى التحكم في فائضها.

بنى الانسان اليمني السدود في مصب كل سيل .. ولما تهدمت السدود بقي الإنسان الذي شيد السدود ـ فكنت تلاحظ « ياسيدي العيد » .. إن القرية أو قرى تستجيب لكل مستغيث من غزو السيل

•• كما تجيب كل مستغيث من سطو المعتدي ، فاذا تسطدت السيول لبيت تجمعت القرية كتفا الى كتف •• وزندا الى زند ، فيكسرون مجرى من هناك ومنعطفا من هنا ، حتى يشق السيل طريقه بعيدا عن مسكن الإنسان ، وحضيرة المواشي ، واذا أحست القرية غلبة السيل دقت طبول النجدة، حتى تتجمع كل القرى القريبة ، فتحمي من اكتساح السيل •• وتصرفه الى حيث يخصب ارحام الأرض ، وكانت تقضي التقاليد أن تنسى القرى خصوماتها القديمة •• وتدفن ذكريات حروبها حين تصرخ الاستغاثة ، لأنها تستفز المروءة •• فلم يبق ثأر، لأن الخطر من هجوم السيل أنسى الخصومات ولو مؤقتا ••

فلماذا لايحدث هذا في هذا العام •• ؟

يرجع هذا الى سببين :

الأول : غيبة أكثر أهل الديار عن الوطن بفعل الهجرة المتزايدة •

الثاني : التراخي الذي أصاب الفلاح بفعل الرخاء الظاهري •• والتمدين الشكلي ، فقد كان الفلاح الى قبل عشرين عاما لا يمضغ (القات) إلا في المناسبات ، ولا يعرف السمر المطرب ولا يعتاد النوم على الفراش الوثير ، فكان مستعدا اذا دعا داعي النجدة للتلبية •• لأنه لم يعان خدر (القات) نهارا •• وأرقه ليلا وكسله صباحاً •

إذن •• فقد ذهبت تلك العوائد العظيمة التي كانت ترد الخطر إذا ألم ببيت من الأحجار •• أو من الشَعْر ، فماذا استبدل مجتمعنا عن هذه العادة ••؟ إن التطور ينهي العادة ببديل أفضل ، فاذا لم يكن في الأوربي طبيعة النجدة •• فان العلوم في بلاده قد أغنت عن نجدة الإنسان بحداثة الوسائل المكافحة لكل خطر من حريق ••ومن فيضان، فلم تعُد أي مدينة تخاف الصواعق ، لأن عددا من الاجهزة تضاددها في كل أنحاء البلاد ، والطائرات بأنواعها تستطيع الإنقاذ السريع •

إذن فماذا استبدلنا بالمروءة القبلية .. والحس الاجتماعي القبلي ..؟

هناك بديل عظيم ولكنه جزئي : فلأول مرة يخرج الجيش بكل قياداته لكسر المجاري ، وتحويل السيول عن المساكن في المدينة . ولكن .. كم هو الجيش على وفرة المطر وفيضان السيول .. ؟

في الوقت الذي انصبت السيول على المدينة « صنعاء » انصبت على (الوادي) و « مأرب » ومناطق كثيرة .. أما كان في هذه المناطق رجال لهم عضلات الجيش وقتاليته ولهم الغيرة على مملكة التراب ..؟

نعم .. ولكن عادة النجدة قد ماتت دون أن يحل محلها دافع آخر .. وعليك ـ ياسيدي العيد ان توافينا العام الآتي وفي حقائبك بديل أفضل .. فليكن اسمها ما كان .. المهم أن تكوّن قوة للحس الاجتماعي . ودافع عمل جماعي . تتعزز فيه رغبة خدمة الكل ، وسلامة الكل ، من أجل الكل .

هذه قضية .

★ ★ ★

لعلك ياسيدي العيد .. قد أهديت الينا أشياء كثيرة ، أغلاها أنك جئت ، ولأنك جئت جاءت الينا تيارات العصر فدخلتنا من كل مسام القمصان ، لتتوقف على ظاهر الجلود .. بل لم تدخل اليها ، وبما أنك لاتقرأ الروايات والأفكار التي تصدر عنها .. والأفكار التي تستقصي دوافعها وتستكنه مواقفها .. فهنا قضية نسميها : قضية العصر والعصرنه ، وقد عالجتها رواية اسمها (رحلة الى الغد) .. لتوفيق الحكيم ، بطلاها دكتور ومهندس حكم عليهما بالسجن المؤبد : الأول لأنه قتل بتأثير العشق ، فهو رجل القلب والعاطفة ، والثاني قتل في سبيل انتصار العلم ، فهو رجل العقل والتجربة ، وقد

كان الاثنان حقلا تجربة ، لأن السلطة ارسلتهما في صاروخ الى القمر ، وبعد الرجوع من القمر ، كان أحدهما من حزب الماضي وهو رجل القلب والعاطفة ، والبطلة الثانوية حبيبة البطل الأول كانت سمراء ، وهي من حزب الماضي ، أما المهندس وحبيبته الشقراء فهما من حزب المستقبل ، والصراع بين الحزبين حول الآلة الحديثة ، حزب الماضي يرى حيوية القلب وحرارة العاطفة •• وقهر الآلة لكي يبقى للانسان مجهود وعاطفة حب ، لكن حزب المستقبل يرى أن الآلة أنفع خدمة للانسان ، ولو أدت الى البطالة ، وقد انطلق (توفيق الحكيم) في هذه الرواية من منطلق بعض الفلاسفة الاميركيين والاوربيين المتذمرين من سيطرة الآلة ، حتى أنها أيَّلت الانسان كأي دولاب أو كأي جناح في طـائرة ••

فما رأيك ياسيدي العيد في هذه الظواهر المعاصرة •• ؟

هل المهم وجودها • ؟ أم المهم الانتفاع الاجتماعي بها • ؟

ليست المشكلة وجود الآلة •• وإنما المهم حسن استخدامها للنفع العام للناس ، فاذا كان تصرف هذه الآلة في يد الشعب فهي زيادة في رخائه وسعادته ، واذا كانت في يد اعدائه فهي أفتك وسائل دماره ، وإذن فالمسألة استخدام الآلة •• وليست المسألة رفضها ولا الاشادة بها ، إن بعضنا يرى أن هذه الوسائل الكثيرة سر عصريتنا ، ويرى أن المدينة بأضوائها أكثر عصرية من الريف الذي ما يزال معتما في بلاد العالم الثـالث ، ولكن أنت تذكر – ياسيدي العيـد – أن النبوغ الحضاري والعصرية المبدعة جاءت من الأكواخ المظلمة •• ومن تحت نجوم الليل ، لم تجيء من (بكين) الى الريف •• وإنما جاءت من الـريف الى (بكين) مـع المسـيرة الكبرى تحت النجـوم وفوق مناكب الربوات •

إن عصرية المدينة اللامعة جاءت من أبطال الريف : لأن الحس بالحاجة أدعى الى العلم ، والخوف من الضرورات ادعى الى السيطرة عليها ، وليس المهم أن نملك سيارات وطيارات وجرارات آلية •• وإنما الأهم لمن •• ؟ وتخدم من •• ؟ ، الشعب أو الإحتكار •• ؟ المجتمع أو القصور ••؟

إن أحدث الوسائل، في يد الإحتكار أقوى وسائل الدماربالحرب، أو بالجـوع أو بالقهر ، فمن يرفض أحـدث الظواهر فهو يرفض استخدامها ضد الشعب ولا يرفضها في حد ذاتها •

هذه هي القضية الثانية ـــ

★ ★ ★

القضية الثالثة تتصل بك مباشرة ياسيدي العيد كحدث تاريخي وكقضية ، ولعلك تسمع من يقول ، إن قصائد الشعر حلمت بك لأن الأدب حلم ، ولكن هل هذا صحيح •• ؟ وهل هناك حلم أبعد من الواقع بأغواره وآفاقه ؟ إن الحلم هو رواسب الواقع في العقل الباطن •• أو اكتشاف الممكن من خفايا الواقع الراهن •• فمتى بشرت بك القصائد يا سيدي العيد •• ؟

بشرت بّك ، والتمخضات تتوالى كقوافل السحاب • ولم تبشر بك نبرة شعر ، إلا بعد أن تجليت امكانا في شحوب الوجوه وضمور السواعد وارتفاع التذمر •• وكل هذه عوامل الثورة إمكانا •• ومن الامكان يتولد العمل •

هتفت بك ـــ يا سيدي ـــ بشائر الشعر عندما حبلت بك أمهات الواقع وأصبحتَ منتظرا كالربيع الذي لا يتخلف •

أليست كل الأعمال العظيمة تبدأ إمكانا • ثم تتفجر عملا تكاملت

أساسياته ، من الواقع القائم لكي يسقط .. ويحل محله الواقع الممكن .. ؟

وهكذا كل الأعمال الكبيرة تنبت جذورها من عقم الواقع لكي تتحول الى خصوبة واقع جديد .

قبل أن يعلن رسول الله عليه السلام وحدانية الله، وسقوط الوثنية، والصنمية ، تجاوب الجاهليون بالسخرية بتلك الألوهية البلهاء كما يقول بعضهم في صنم يسمى سعد : —

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا
ففرقنا سعد فما نحن من سعدِ
وهل هو إلا صخرة بتنوفة
من الأرض لايهدي لغي ولا رشد

أو قول آخر في صنم .. وقد بالت عليه الثعالب :

أرب يبول الثعلبان برأسه
لقد ذل من بالت عليه الثعالبُ

هذه هي النبوة امكانا لكي تظل النبوة واقعا عمليا ، وهكذا يشم الشعر روائح الثورة فيبشر بها لتوفر إمكانها وكلما تجمعت أسبابه تدلت ظواهره .

إذن فما هو الأدب .. ؟ هل هو حلم .. ؟

إنه وعي بكل مايهمس ويلوح .. وبكل مايحدث على ضوء ماحدث .

ألم تستقبلك ياسيدي العيد مئات القصائد ، وأنت تطلق صرخة الميلاد من أفواه المدافع ؟

إن ذلك الشعر الذي هدهد مهدك الوردي رآك جنينا وركض معك حبلا فكان واقعيا من واقع .. أليس كذلك .. ؟

ولكن ياسيدي هل هذه قضية .. ؟

هذه أهم القضايا ، لأن مثقفي العالم أقوى وسائل التغيير ، فكيف يكون مثقف يمن سبتمبر قوة تغيير ..؟ هو أن يكون عضواً من مجتمعه .. وشجرة من تربة واقعه . وإذا كان هذا المثقف كاتبا أو شاعرا .. فسوف يجابهه أعنف سؤال :

لمن أكتب . ولمن أشعر .. ؟

لاشك أن الكتابة والأشعار عاجزة عن الترفع على المجتمع ، لأنـه سقوط الى الفوق الموهوم ، ولكن الأهم من هـذا هل يـكتب المثقف للجمـاهير أو عـن الجمـاهير ؟.. إن أزمـة مثقفي الجيل الماضي أنهم كتبوا عن الجماهير ، من خلال سياسة القمع التي تبطش بها ، ولم يكتبوا للجماهير لكي يعوا ما هم فيه ، ويروا مايلحق بهم، فيقفون مع من يكتب لهم، لأنه قد كشف لهم من نفوسهم ما يعانون . لو كتب ثوار عام ١٩٤٨ م للجماهير، لما تحولوا الى سلاح عليهم ، ولكنهم كتبوا عن الجماهير من خلال الحـاكم ولم يكتبوا للجماهير من خلالها لكي تقف معهم عن بصيرة .

إذن فأصح وسيلة لنفع الكتابة والشعر هو أن تتجه الى الجماهير من الجماهير لا الى الحديث عن الجماهير ، لكي تناضل عنهم بالوكالة، لأن الجماهير تريد من يضع حقائقها أمامها ، لكي تراها من تلقاء نفسها، تحت ضوء الفهم الخاص من خلال معاناتها ، وبهذا يصبح المثقف قوة تغييرية بالجماهير ومعها ، لأنه اعتصر لها لكي يضيء نفوسها .

سيدي العيـد .

هذه ثلاث قضايا يمكن أن نستبصرها بفضل ما اغدقت من ضوء جديد يدل على الظاهرة وسببها ، وعلى القضية بكل خفاياها ونشوءها .. ولعلك تطل علينا في العام الآتي وبيديك أحسم الحلول لكل قضية من داخلها لأن كل مشكلة تحمل مفاتيح اسرارها .

مجلة الجيش ــ العدد ٦٧ ــ اكتوبر ١٩٧٥

تألُّه الأزمات

إذا كانت أهم وسيلة لتحرر الانسان تكمن في السيطرة على الضرورات •• فان هذه السيطرة نسبية ، فالممكن في مكان ، صعب في آخر ، ومستحيل في ثالث • ولا محاولة في رابع ، وعلى قوة الانسان علميا ، فان سيطرة الضرورات ما تزال أقوى منه الى الآن ، وإن كان في بعض الأمكنة أقوى على المواجهة والتحدي ، ثم النجاح •

والأزمات في بلادنا بلغت حدّ التألّه لانعدام المحاولات أمامها •• وقدرتها على الاتساع والامتداد في فراغ من الانسان وفكر الانسان •

فلماذا بلغت الأزمات في بلادنا حدود التألّه والتجبر ؟

لأن الذين يعطون هم الذين لا يملكون •• أو لأن الفوقيات أكثر إفلاساً من التحتيات •• أو لأن التحتيات مقموعة تحت رعب من لونين « كاف » و « ب » تجمعهما صفة واحدة « زوار آخر الليل » ، والمحاولة مقموعة تحت لونين « و » و « خ » تشملهما جملة « إسكات القلب قبل أن يفزع » •

والذي يهم هنا هو الأزمة الثقافية ، لنشوء الازمة الاجتماعية عنها •• فهي أكثر إستعصاءً لأزمةٍ في الثقافة أو أزمة الثقافة •• ولكن الأزمة الثقافية ناشئة من الأزمات العامة التي نشترك في بعضها مع غيرنا ونختص ببعضها وحدنا ••

نشأت الأزمة من الفواصل الهائلة بين الحلم والواقع •• بين

السؤال والجواب •• بين الفوق والتحت •• بين المأمول والأمل •• ومع هذا فالانتظار بلا حدود •• والممكن أقل من محدود ، وهذا يجعل الأزمة متربعة على عرشها ، لأن الذي يعطي هو الذي لا يملك•• والذي يتلقى بلا ارادة غير السؤال •

الكاتب في صحيفة أو في مجلة أقل ثقافة وفهماً من القارىء ، المؤلفون في جملتهم أقل فهماً من قرائهم ، المستمعون في جملتهم أكثر ثقافة من الأصوات التي خلف الميكرفونات . الفوقيات لا تملك غير الغثاء ، والمتلقيات طويلة الأمل ، حادة النقد . لأن من يعطيها أكثر بؤساً منها •• وهذا ناشيء عن الهوات العريضة بين الحلم والواقع ، والكينونة والمنتظر أن يكون •

فهل هذا قدر ؟•• إنه دور تجتازه كل الشعوب ، وأقتل الأشياء للأزمات وتجبرها ، هو معرفة سرها •• فكل ما عـُرف سره فقد أسلم أنفاسه ، أو أعطى مفاتيحه ••

ومجتمعنا بسؤاله الملح ، وانتظاره الذي لا يسأم ، سوف يسيطر على أغلب الأزمات ، لأنها ليست من صنع قدر أبدي ، وانما من صنع ظروف متحولة وقابلة للتحول ، ولعل الحس بالأزمات وجبروتها أول سلاح في مواجهتها •

مجلة الجيش ــ العدد ٦١ ــ ابريل ١٩٧٥ م

* * *

من احتراف الجندية
إلى الاختيار الثوري

ليس المؤرخ قاضيا ولا يسره حمل تلك الصفة ، ولكنه مضطر أمام اشتجار الأحداث الى استماع دعاويها واجاباتها ، واستنطاق الزمـان كبرهان على صدقها وكذبها ، وبعدما يستجمع الادعـاء والاستجواب والاستشهاد ، يبحث عن دوافع الأحداث بأمانة القاضي الذي يهمه معرفة دوافع الاجرام كمعرفة الاجرام نفسه ، ومع كل هذا فليس المؤرخ قاضيا .. ولكنه مضطر الى أمانة القضاء لكي يحقق عدالة الحكم .

وليست هذه الأمانة القضائية في المؤرخ ، من قبيل ما يسميه المتحذلقون قداسة التاريخ ، فليس للتاريخ أية قداسة ، لأن الشهادات على حدث يقع اليوم ستختلف وتتناقض غداً حتى لا يبقى من الحدث الا مادته الواقعية ، وليس المهم المادة الواقعية لحدث أمس ، وانما الأهم منها الانتفاع بوقائع الأمس لليوم ، كما سينتفع الغد بوقائع اليوم ، لأن الوقائع التي تنفجر اليوم قد تمتّ الى ينابيع بعيدة أو قريبة من الزمن ، لأن نقطة التفجر هي الذروة العالية لتراكمات الأحداث .. في مقدور المؤرخ أن يرد العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦ من هذا العصر الى قبل تسعمائة سنة ـ فترة الحروب الصليبية . وفي إمكانه أن يرد الحروب الصليبية الى قبل هجومها بمئات السنين ، الى فتح الأندلس وانهياره مثلا ، لأن اكتشاف الدوافع كأهمية

الأحداث التي تمخضت عنها . اذن ففي المؤرخ عنصر من القاضي الأمين ، ما دام يتقصى الدوافع ويستشهد الزمن على الأحداث وأسبابها .. فهل المؤرخ فيلسوف ؟. ليس هناك فواصل بين المعارف ، فقد يكون تحت رداء الفلسوف الفقيه والأديب والمؤرخ واللغوي لأن المثقف الحقيقي هو من ألمّ من كل علم بطرف كما قال (ابن خلدون) .

لكن الإلمام بكل هذه الأطراف الثقافية مكرسة لخدمة التخصص، أو الميول الاساسي الذي سبق التخصص الاكاديمي وكان سببا في نجاحه . وعلى هذا ففي المؤرخ عنصر من الفيلسوف ، كما أن فيه عنصر من القاضي،لأن القضاء معرفة الظواهر والبرهنة عليها والوصول الى الدوافع ، فالقضاء هنا كالفلسفة ، لأن الفكر الفلسفي يستشف الحقيقة من خلال الظاهرة ، ويتلمس أصول تكون الكائنات من خلال نموها في الزمن ، وبعد معرفة الأصول يسهل عليه ترتيب الظواهر على اختلاف تعليلاتها .

ذلك لأن التاريخ أروع ظواهر الحياة ، لأنه عمل الانسان ، خالق كل هذه الروائع ، وأعظم من العمل العظيم ، صانعه ، وأعنف الاحداث وأروعها تفجرت بأيدي الجيوش . فما افتتح قائد قارة ، ولا حقق رخاء ، ولا غير سيئاً الى أحسن الا عن طريق الجيوش ، على أي شكل من التشكيل العسكري ، وعلى أي نظام من نظام الجندية . لان العسكرية من جنس النظام الاجتماعي ، وأبرز وجوه كل سياسة قابلة للتطور ، واختلاف التشكيل والتنظيم على مقتضيات التطور .. وقد كانت البداية في كل الحروب تقوم على العصبية البيتية ، ثم القبلية ، ثم الاقليمية ، ثم الوطنية ، ثم القومية .. كان اليونان يحاربون الرومان بالحماس الوطني ، (وهكذا واجهوا داريوس قائد الفرس)،

فيتحول كل يوناني الى جندي في وقت بلغ فيه الرومان موقعا متقدما من تنظيم الجيوش ، وتجييش المحترفين من مختلف أصقاع الامبراطورية ••

وكانت الحروب العربية في الجاهلية ، بدوافعها المعيشية والاقتصادية تقوم على اغارة القبيلة على القبيلة ، ودفع القبيلة للمغيرين عليها ، وكانت الحياة العامة تطبع كل مخلوق على الافتراس • أو مقاومة المفترس لعنف حرارة الصحراء •• وجنون زوابعها ، ورملها •• لهذا كانت الحروب متمادية الاشتباك لضرورة دوافعها ، وأهمها طلب السقيا وارتياد المرعى ، الا أن الحروب تتجاوز أسبابها ، لانها تتحول كالعاصفة ، تبدأ الهبوب ولا تعرف منتهاه •• فلا تتوقف الا بعوامل خارجة عنها ، لهذا طالت أزمنة الحروب حتى وصل بعضها الى أربعين عاما ، وحتى أدى بعضها الى ابادة المتحاربين كحرب (عبس) و (ذبيان)، لأنهم : (دقوا بينهم عطر منشم) وكان قسما لا رجوع عنه ، الا أن تكون قاتلا أو مقتولا •• وفي هذا الجو المشتجر بأذرع المنايا ، وخطوط الدماء ، أشرقت الدعوة النبوية • وكان لابد للنبوة من أن تقاتل مقاتليها ، والجيوش هي مادة القتال وأدواته ، فاعتمد الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤمنين من كل الأحياء ، ومن هنا تغير مضمون العسكرية ولو لم تتغير أشكالها وتقاليدها •• فقد كان رسول الله يحارب بأبطال متفانين في العقيدة ، أقواما متفانين بمصلحة الاعتقاد القديم • الا أن الرسول لم يشكل جيشا على غرار الجيوش الحديثة لذلك الحين كجيشي الروم والفرس • لأن صدق الاعتقاد كان أقوى من كل انضباط وبهذا تغير جوهر القتال ، فقد انتقل من العصبية الى العقيدة • فكان الاخ يواجه أخاه ، وكان يواجه الولد أباه أو العكس ، لان السلاح تغير بجدة دوافعه وجدة مستخدميه ،

أو اختلافهم تحت الضوء الجديد ، الا أن هذا النظام لم يستمر الى مابعد حياة الرسول ، على حين رجعت حروب الفتوح في شكلها ــ بصفة خاصة ــ الى النظام القبلي ، فكان (لبني زهره)لواء يقاتلون تحته ، (ولباهلة) لواء تتحرك في ظله ، ولكل قبيلة يمنية (لواء) تسير تحت خفوقه ، وهكذا كل حـ ي، لان طبيعة العربي كانت لاتقبل احتراف الجندية ، رغم جدة غاياتها تحت رايات الفتوحات ••

وعندما جيَّش الأمويون والعباسيون اعتمدوا على غير العنصر العربي ، وإن كانت القيادة من بيت المُلك أو من الاقربين اليه •• ولما انفصل اليمن عن الخلافة العباسية في القرن التاسع الميلادي ، انفصل بكل تقاليده الحربية ، وابتدأ الإمام الهادي يقاتل القبيلة المتمردة بالقبيلة الطيِّعة ، وكان أتباع الهادي يشكلون عددا كبيرا من (خَولان الشام وصَعْده) ، كما كان (الدَّعام بن ابراهيم) يشكل عددا كبيرا من (هَمْدان) وما حولها في وجه الهادي ، وكان (اليَعْفريون) يشكلون جيشا بنفس القوة من (كَوْكبان وشِبَامْ) ، وكـــان القتال بنفس السلاح خيولا وسيوفا ورماحا ، والقوة البشرية أحسم عامل لأي موقف •• وقد تمادت الحروب في هذه المناطق أطول الفترات لغلبة ميولها الى الحرب على ميولها الى حرث الأرض وزراعتها ، لأنها كانت تحقق من الغنائم والمصالح أكثر مما تحقق بالمحراث والمنجل • فكان السيف : المزارع والحصَّاد ، وكان الإمام أعجز من أن يكوّن جيشا منظما لحسم الموقف ، لانه سوف يواجه نفس الطبيعة العسكرية، فأدى التشابه بين أتباع الامام المبَايَع وبين أتبــاع المحافظين على السلطة ، الى طول الاشتباك بدون جدوى ، •• وبعد موت الهادي تمت لابنه البيعة من الأتباع وابتدأ نفس الميدان الدموي ، واستمرت نفس الظروف الحربية على نفس ذلك الشكل ، حتى جاء الصليحيون

آخر القرن العاشر فأضافوا جبهة ثالثة ، فتمادت الحروب بين الصليحيين والعلويين من جهة ..وبين النجاحيين والصليحيين من جهة أخرى ، واستجدت في النظام النجاحي والصليحي ظاهرة غريبة،كان دافع بعضها الاعتقاد ودافع بعضها الرد على الفعل بجنس الفعل . فقد اعتمد النظام الاسماعيلي على تدريب أخلص الاتباع للفدائية ، وقد استمد الصليحيون هذا المبدأ من (اسماعيل الدرزي) ولي الفاطميين الاسماعيليين ومدرب الكتائب الفدائية في جبال الشام ، فبدأ الصليحيون ينفذون حيلة الإغتيال السري عن طريق الفدائيين المجلوبين من القاهرة والقيروان ، وواجه (سعيد الأحول) زعيم النجاحيين هذه الأداة بمثلها حتى أوقعته (السيدة اروي بنت أحمد) في كمين من الفدائيين فانتهت به مرحلة الفدائيين ، وطوى اليمنيون هذه الصفحة السرية لاتسامها بالجبن والخروج عن تقاليد الحرب العربية ، لان اليمني يرى الحرب في المواجهة تحت الضوء وفي مقابلة السلاح بالسلاح ، ولعل قادة العشائر مالوا الى طي تلك الصفحة الإغتيالية صونا لمصالحهم أولاً ، ولسمعتهم الحربية ثانياً . وبعد انتهاء الصليحيين والنجاحيين بسقوط الخلافتين المتعارضتين في بغداد والقاهرة ، قامت الزعامات اليمنية المتوالية على نفس الطرائق ، بين المتشبث والطامع ، وبين الامام القائم وبين الامام الذي يريد القيام .

ولعل أكثر الحروب تنظيما هي حروب الطاهريين والعلويين ، لأنها لم تعد بين قبيلة وقبيلة في منطقة واحدة .. وانما بين المناطق الوسطى والشمالية.وعندما انتهت هذه الفترة بوصول المماليك المصريين عام ١٥٠٠ لصد البرتغاليين عام (٥٢٦) م اختلف جوهر الحرب وأرديتها : فكانت بين اليمنيين والمماليك ، الا أن خروج المماليك كان سببا في دخول الاتراك عام ١٥٣٨ م . وقد استقبل اليمنيون الاسلحة التركية بدهشة

أشد من المدافع البرتغالية ، لان المدافع التركية استهدفت المدائن والقلاع والحصون •• على حين لم تتجاوز الطلقات البرتغالية شواطىء البحر الأحمر وقلعة عمان ، لهذا استكان اليمنيون للمحاربين الجدد ريثما يكتشفون السر ، لان كشف كل سر قتل له • فلم تكد العساكر التركية تستقر حتى ابتدع اليمنيون أسلوب العصابات والمباغتات ، ومن هنا برد مفعول نار المدافع لانها لم تواجه هجوما مكثفا وانما كانت تقصف جبالا وصخورا • وبرغم نظام الجيش التركي وتكتيكه أقعده العجز عن التصرف ، فاعتمد على تأييد امام في وجه امام ، أو تسليط رئيس عشيرة على رئيس عشيرة أخرى ••

الا أن هذه الوسيلة ــ وان أدت الى طموح البعض ــ فقد أدت الى غنائم العشائر بلا ربح للاتراك ، لان اليمنيين كانوا أكثر اخلاصا لوطنهم وأحر كراهية للمحتل •• الذي أرغمتهم الظروف على تبطين عدائه ومحاولة استغلاله ، لانه يمتلك قوة لايغلبها الهجوم الجماعي وانما ينهكها الاستنزاف المتصل • وقد انتهج اليمنيون النهج الاخير ، حتى اضطر الغزو الأول الى الرحيل مفقود الانضباط ، كثير الخسائر •• كما يقول المؤرخ (قطب الدين النهر) في كتابه (البرق اليماني في الفتح العثماني) •

ولقد سمعت المرحوم « أحمد جلبي » المقتول : (دفتر دار مصر) يفاوض المرحوم داود باشا في حدود ٩٥٣ هـ •

فقال : (ما رأينا مسبكا مثل اليمن لعسكرنا ، كلما جهزنا اليه عسكراً ذاب ذوبان الملح ، ولا يعود منه الا الفرد النادر) ••

وهذه شهادة من مسؤول تركي على فشل الغزو العثماني الاول • ولسوف تصرخ عدة شهادات على سوء ظروف القرن السابع عشر بعد رحيل المحتل • فقد كان المنتظر أن تستغل الزعامات اليمنية حرارة

النضال فتشكل جيشا منظما للداخل وتكوّن أصول مقاومة في وجه أي اعتداء طارىء ، الا أن عهد الاتراك وما سبقه من عهود انسحبت على مرحلة الاستقلال الاول نتيجة كثرة الطامحين الى السلطة ، وكثرة الخارجين على من وصل اليها ، وكان للامام القائم قبيلة تحميه ، ولكل امام خارج •• قبيلة تدفعه ، وكان كل واحد يستصفي مجموعة كبيرة أو صغيرة من رؤساء العشائر ، يدعون عشائرهم الى نصرته ، وكان هؤلاء الدعاة من الشخصيات الاجتماعية التي تحسن الاختلاط بالجماعات •• وتصل الى نفوسهم عن طريق الترهيب والاغراء ، لان الغالبية الكبرى أميل الى العافية والاستقرار • الا أنهم كانوا يمارسون الحروب مرغمين بقدرة التحريض أو بقدرة الترغيب ، أو تشعلها قلة من المتمصلحين •• فتدخلها الكثرة إما من قبيل العدوى أو من قبيل الدفاع عن النفس ، أو من جهة تحقيق الوجود • وكان العامل الاقتصادي يسود كل هذه العوامل ، ويركزها للاستجابة ، فتندفع الجماعات كلما لوحت شعلة من جبل أو دقت طبول في وادٍ حسب التقاليد الحربية في الارياف • لان الفوضى لم تكن طبيعة اجتماعية في اليمنيين ، ولم تكن الحرب غير المبدئية عريقة في دخائل النفوس•• الا أن الشخصيات الاجتماعية والمنتفعة كانت تتقن أساليب التهييج أو تفاجىء بافتعال الحرب ، لان المنتفعين بتعدد الائمة وتسليط بعضهم على بعض ، كانوا مجموعات صغيرة من كل قبيلة ، تدل على هذا حروب الثورة في الستينات ، حيث كان المحرضون الجوالون يوزعون الاستنفار في القرى المطمئنة الى مزارعها ومواشيها • وبفعل هؤلاء المحرضين في كل زمن ، تراق الدماء بدون هدف جماعي •• وبالاخص اذا آزرت هذا أصابع المتدخلين أو آثار خروج هذه الاصابع !•

فقد أدى خروج الاتراك في النصف الاول من القرن السابع عشر الى تطاحن يمني دام .. لم تحسمه الا الغزوة التركية الثانية في القرن التاسع عشر . ولقد جاء الاتراك في الحملة الثانية بنفس أساليب الحملة الاولى ، لان هذا « النظام التوسعي » كان مغلق النفس والابواب أمام التغيرات العالمية ، لان الجمود كان يحمي منافع الكبار الوراثيين. فما أوفر الفروق بين بريطانيا القرن التاسع عشر ..وتركيا التاسع عشر. وان كانت الاستفادة الممكنة البطيئة تنتقل من محتل الى محتل ، فقد كانت تختلف في مجال التخطيط .

لقد انتظر اليمنيون من الغزوة الثانية حسما لتعدد الأئمة ، وحداً للصراع الناتج عن وفرة الاطماع غير المشروعة ، الا أن الاتراك استفزوا اليمنيين . لانتفاعهم ماديا بالانتفاضات المحلية ، ولأن الغزوة كانت كـ (مأمورية) وكمنفى للغير مرغوب فيهم من قبل السلطان العثماني .. بالاضافة الى الجهل الاداري عند الاتراك ، فبدلا من أن يكونوا خلاصا كما أمّل اليمنيون كانوا أشد من الحروب على الإمامة..

صحيح أنه كان يمتاز والٍ عن والٍ ، الا أن مساعي الممتاز الثاني كانت تسقط في ركام المفسد الاول ، وكانت محاولة أي اصلاح من قبل أي والٍ تشكل تهمة عليه بالتفرد على سلطة اليمن . وانصع مثل على هذا (اسماعيل حقي باشا) الوالي على اليمن عام (١٨٧٨) م. فقد رأى اسماعيل حقي شدة نفور اليمنيين من الجيش التركي ، فبدأ يجيّش من اليمنيين عددا لحل المشاكل واستلام الضرائب بأسلم طريق، وفي عهده تكوّن الجيش العربي تحت الإمرة التركية وتسمى با (الجندرمة) عند الاتراك .

وقد أدى وجود هذا الجيش من أبناء الوطن الى أعلى نسبة ممكنة من الاستقرار ، نتيجة الرابطة الاخوية بين الجندي اليمني والمواطن

اليمني . الا أن (الباب العالي) أساء الظن بهذا التصرف واستدعى (اسماعيل باشا) لانه كون قوة عطلت الجيش التركي ، وقد تصبح خطرا منظما عليه ..

لهذا سرّح الوالي الآخر الجيش العربي . وبعد مفاوضة مع الباب العالي انكشفت الضرورة لوجود هذا الجيش . وقد كانت هـذه الأربعة الطوابير من الجندرمة نواة الجيش اليمني المتطور من آخر القرن التاسع عشر الى الربع الاخير من القرن العشرين . أو بمعنى فكري من احتراف الجندية الى ثورية القوة . ولقد خدمت الجندرمة وطنها أكثر مما خدمت محتل الوطن . لانهـا لم تتجاوز الضرائب المشروعة ولا وصلت اليها عن طريق الدماء . ومن عام ١٩٠٤ م بدأت تتحول الجندرمة الى المواقع المتقدمة في نضال الاتراك . وكانت أدرى بحيل العدو وأقدر على استعمال سلاحه ضده ، فكانت تهاجم وتعرف المهاجمين ، أما التدريب فلم تكن تزيد فيه على محترفي الحرب من أي قبيلة . الا أن الجندرمة قد تحولت من احتراف الجندية الى مقاومة للمحتل . فكانت عام ١٩٠٥ م تقود الهجوم على المواقع التركية في (شهاره) و (حراز) و (ثلا) حتى أخرجت (أحمد فيضي) مـن صنعاء الى (عَصِر) ، فلم يبلغ اليمن عام ١٩١١ م الا وهو يملك الاستقلال الذاتي ، ولم تعد المعسكرات التركية تسيطر إلا على الثلاث المدائن الرئيسية ، وعلى شواطىء (المَخا والحُديدة ومِيْدي) . ونتيجة الضغط على الاتراك من جهة البريطانيين عام ١٩١٥ م في البحر الأحمر . ونتيجة ضغط الإدريسيين في (صَبْياً) وضغط الشريف حسين من مكة ، خفّت على اليمنيين أعباء المقاومة ، وبدأت مصالحة (دعان) التي عقدت عام ١٩١١ م تجني ثمارها . فقد أصبح نظام القضاء وقبض الزكوات وسائر الضرائب في يد اليمنيين ..

وفي عام ١٩١٨ م أملت اليمن شروطها على المحتل فحققت مايلي :
أولا ــ تسليم اليمن بشطريه الى الامام (يحي) الذي خلف والده عام ١٩٠٤ م •

الشرط الثاني ــ تسليم المواقع العسكرية التركية بكل أسلحتها الى اليمنيين •

الشرط الثالث ــ بقاء من يرغب في البقاء من الاتراك أو من العرب المجندين لهم •

وقد تنفذت كل هذه الشروط ، فتسلمت الجندرمة ومن قاتل معها كل المواقع العسكرية ، وأسهم الضباط الاتراك في تنظيم أول جيش يمني • وكان من مدربيه (كنعان بيك) وآخرون • وقد اختار آخر والٍ تركي وهو (محمود نديم) البقاء في اليمن ، لبذل خبرته وربما لخوفه من التغييرات المنتظرة في تركيا بفعل هزيمتها في الحرب العالمية الاولى ••

كما استقلت اليمن من خلال الدماء والبذل من الاحتلال العثماني الأول عام ١٦٣٨ م ، فقد استقلت من جديد عام ١٩١٨ م ، واختلفت نوعية الاستقلال بمقدار اختلاف نوعية الاسلحة النضالية واختلاف الحِقبة الزمنية • فقد أصبحت الجندرمة التي احترفت الجندية طليعة النضال • الا أن آثار المحتل ومرارة بعض ثمار الحروب لم تختلف نكهة وشكلا • فقد أصبحت المدافع التي حاولت اخضاع اليمنيين للاتراك أدوات اخضاع جديد للامام ، لعدم الاختلاف الجذري في النظام الجديد • ولا يُغيِّر آثار الحروب ونقائض محترفيها الا عن طريق تحول اجتماعي آتٍ من تغيير قيادي سياسي • وقد كان الامام (يحيى) يستوعب من المرحلة جانبا واحدا : هو وراثة الحكم بأساليب تختلف عن الاساليب التركية وتنتمي اليها سلفية وعقما • غير أنه فطن

الى قطع الطريق على أئمة جدد حتى لاتتكرر الاحوال ، فبدأ ينظم جيشا من أنصاره ومن الجندرمة ومن كل القبائل الموالية ، ولكن بتنظيم تركي وعقلية باشوية • وفي عام ١٩١٩ م دخل الامام (يحي) من شهاره الى صنعاء واستعرض أول جيش بقيادة (كنعان بيك) وكانت أسلحة الجيش في ذلك الحين عشرة مدافع تركية والفين بندقية مختلفة الصنع وسريّة من الخيالة وألفين من المشاة • وكان منظر ذلك الجيش ينبي ببداية جيدة رغم مظهرها المزري ، من اختلاف الثياب المهلهلة ومن الاقدام الحافية ، الا أن اصرار الوجوه وفتل الزنود كانا يدلان على القوة الكامنة تحت المظاهر المهلهلة •

من تلك الفترة ابتدأ التطور العكسي والتطور الاتجاهي في خطين متوازيين • أما التطور العكسي فيتبدى فيما يلي :

كانت طوابير الجندرمة أكثر رفقا وأكثر محبة للفلاح اليمني لانه يدفع الى عدو محتل ، أما جيش الامام فقد أبدى أشد ضروب القسوة على الشعب لكي يطيع (امام الحق) ولكي يؤدي اليه أفدح الضرائب لأنه يؤدي حقا الى مستحقه • وكان هذا العمل عن وعي وعن توعية ، فقد تحول الجيش من مناضل لمحتل الى أداة قمع وفتح في يد وريث المحتل ، وكان يرافق هذا الوعي بأحقية الامام احتياج العسكريين الى (أجر) التنفيذ لقلة مرتباتهم التي كانت تتراوح من أربعة الى ستة ريالات مخصوم منها ريال ثمن الكسوة • وفي سنتين ريالان ثمن الملابس والفراش •وكانت تتكون الملابس من مئزر (مقْطَب°) وستره وعمامة (سُماطَه) رقيقة ، وكان مفروضا على الجندي أن يسلم بقية الفراش عند تسلم الجديد • وقد كان هذا النظام موضع السخرية عند البعض ، وموضوع الحكمة والحزم عند بعض آخر ، باعتبار

التقشف بعد الاستقلال أحصن لسيادة البلد وأنجى للوجه من الابتذال في طلب العون ، لأن وراء كل عون خارجي نوايا مشبوهة •

اذن فقد كان الامام تقشفيا على بيته وجيشه وموظفيه • وهنا يكمن التطور الاتجاهي لو صدر عن نظرية إصلاحيـة مستقبلية تستهدف تعميم الرخاء على الجميع ، وتشمل كافة أجهزة الدولة لكي تتخلى الرشوة (البقشيش) عن مقاعدها الرسمية . لكن هـذا التقشف أدى الى المزيد من استغلال المواطن بحجة ضآلة المرتب •

فقد كان مرتب المحافظ (العامل) لايتجاوز خمسين ريالا وخمسة أقداح من الحبوب• وكان مرتب الحاكم الشرعي لايتجاوز ثلاثين ريالا وثلاثة أقداح ، وبقية الموظفين من أعلى الى أسفل السلم الوظيفي يتراوح بين اربعين وثمانية ريالات.ومن ثلاثة أقداح الى قدح واحد •

لقد كان هذا الاسلوب وطنيا من ناحية واحدة هو التقشف ، بيد أنه غير وطني لعجز الامام عن حماية المواطن من استغلال موظفيه • عن طريق الرشوة ، وعن طريق ادعـاء الشغب ، لمكاسب جـديدة باسم الامن ••

لهذا وأمثاله ولأمور منتظرة نوّع الامام الجيش ونوّع مواقعه وأسماءه ، فكان هنـاك الجيش (المظفر النظامي) كما سماه ، أو (الأسكي) كما سماه (محمود نديم) • وكانت مهمة هذا الجيش حماية المدن وقصور الامام وأعوانه وكبار الموظفين في أنحاء البلاد • وكان هذا لا يمنع من تنفيذ أفراد أو جماعات صغيرة منه في المدينة وخارجها لكي يحصل العساكر على دخل يعزز المرتب الضئيل !•

ومن عام ١٩٢٥ م شكل الامام مفرزة تسمى (بالعُكْفَة) وكان على رأس كل مجموعة شيخ أو عاقل أو ذو ولاء يقيني • وكانت العكفة تقوم بالحراسة لقصر الامام وقصور أولاده ، وحراسةالسجون

بالعاصمة ، كما شكل مفرزة أخرى من الخيالة تسمى بـ (السُّواريّة). وعلى كل فرد امتلاك حصانه وعلفه وتنظيفه وسرجه . وكان مرتب السواري عشرة ريالات ونحو ستة أقداح من الحبوب . وكان الامام وكبار موظفيه يرون الخيول مظهر الابهه والارهاب . فكانت أجـرة السواري أكثر من أجرة العكفي اذا نفذ ، وأجرة البتشاوش أكثر من الشاوش . أما الجنود فكانوا متساويين في أجرة التنفيذ . وهي على حسب المسافة التي يقطعها الجندي : على الست ساعات ريالان واذا بقي في القرية أكثر من يومين تزايدت الأجرة ، لكل ليلة نصف ثُمْن الريال للجندي . ثمن للشاويش ، ثمن ونصف الثمن للبتشاويش . ربع للعكفي والسواري . مع رعاية الفرس وشبعه وريّه . لان الخيول ــ كما قالت ــ أفزع مظاهر الأبهة.. لهذا شكل الامام قطاعا خاصا من العسكريين يسمى بـ (النقاية) وتدخل ميزانيتهم في ميزانية الجيش ، وكانت تقتصر اعمالهم على تربية الخيول وتنظيف اسطبلاتها وترويظها على الفروسية حتى لاتـتْـعِب راكبيها من كبار الموظفين والأمراء ، وكان للنقلية معسكرات خاصة . هي قلاع الخيول وتسمى (القشلة) ، وكان منها (قشلة) في (يريم) ، وقشلة في (ذمار) وقشلة في(عمران)، وقشلة في (الجوف) .

أما خيول العاصمة فقد كانت في مكان المدفعية التركية ، وكان يسمى مخزن علفها (باروت خانة) لأنه كان مخزناً للبارود ، والى جانب الخيول كان هناك مروضو البغال لسحب المدافع ونقل بعض الموظفين من الضباط والمدنيين بأوامر خاصة . وكل هذا كان داخل الجيش النظامي ، الذي يقابله الجيش الدفاعي ، والذي تشكل عام ١٩٣١ م عند الاستعداد لحرب تهامه ، ويعتبر هذا أول تجنيد اجباري على الشعب ، وكان دون الجيش النظامي تسليحا لانه من دواعي الطوارىء.

وكانت مدة الجيش الدفاعي في الخدمة من ستة أشهر الى سنة • ثم يسلمون ما بحوزتهم ويطلب المقام بديلا لهم ، ولا تطول المدة الا لظروف حربية كحرب الانسحاب التي كانت مدتها سنتين ، مع طلب التعزيز من المقيمين • وقد أدى هذا الى أوائل التطور الاجتماعي لحس الجندي والمتجند لاضطرار الامام اليه ، وان كان يحس كل منهما أن افتقاره الى نقود الامام أشد من افتقار الامام الى خدمته لوجود البديل البشري وندرة البديل النقدي • والى جانب الجيش الدفاعي كان الجيش (البرّاني) ويتكون من نقيب ثم عريف ثم جنود ، وكان هؤلاء محترفون غير نظاميين ، وكانت مهماتهم تحصيل بقايا الزكوات وايصال الغرماء المتمردين ،وقد تعززهم المحافظات بجنود نظاميين • وقد كان محافظو النواحي وحكامها يتشاركون الدخل مع (البرانية) لأنهم كانوا كاحتياط لتحصيل بقايا الواجبات من الضرائب أو ما يضيفه (الكاشف) على (المخمن) • وقد كان هـذا أشبه بدخل خاص للمحافظين ومدراء المال بمساعدة محاسبة العاصمة •

اذن فقد تشكلت هذه الجيوش لعدة أغراض وان كانت تلتقي في غرض واحد ، هو فرض سلطة الدولة وسيطرتها المطلقة على المناطق القريبة والبعيدة حتى مناطق البدو الرحل العصية على كل سلطة •

لقد أدى تكوين الجيش الى تطورين ، تطور عكسي هو اخضاع المواطن ، وتطور اتجاهي هو شعور الجندي والمتجند بأنه جناح الدولة ودعامتها الى جانب اكتساب الخبرة عن طريق الأسفار والاختلاط ••

ولقد شعر الامام (يحيى) من مطلع الثلاثينات ، وبعد بسط نفوذه على (تهامه) بالحاجة الى جيش أكثر تنظيما وأحدث أسلحة ، وكان قد عقد اتفاقية عام ١٩٢٦ م مع ايطاليا بتزويده بالاسلحة الحديثة

كبديل للتالف من مدافع الاتراك ، وجديد لمجابهة الانجليز والادارسة. فزودته ايطاليا بدبابتين وأربعة مدافع ضد الطائرات وعشرين الف بندقية ، كما دربت بعثة من اليمنيين على الطائرات ، سقط منهم ثلاثة في أول تجربة تحليق عند العرض العسكري بصنعاء عام ١٩٣١ م ، فتشاءم المواطنون وشاع الإرجاف من الطائرات ومكائد الاجانب لليمن وامامه، وقد نبت هذا التشاؤم على أساس مرير من قصف الطائرات الانجليزية لشمال الوطن عام ١٩٢٨ م . وكان اليمنيون في تلك الفترة في بدء التفهم السياسي ، يعتبرون الاجانب صنفاً واحداً ، مهما اشتبكت مصالحهم فلا فرق بين ايطاليا الفاشستية الاستعمارية ، وبين بريطانيا الليبرالية الاستعمارية ، وبين تركيا (الباغية) ، ما دام الاستعمار غاية كل الفرقاء فهو استعمار عن طريق قصف النار أو عن طريق الاتفاقيات المكتوبة .

لقد كانت الثلاثينات تدل على بعد نظر الحكم من ناحية تعدد القوى ، فالجيش النظامي (المظفَّر) يشبه الجيوش النظامية اليوم ، (والدفاعي) يشبه الاحتياط العام ، و (البرانية) يشبه الاستنفار الشعبي « المليشيا » . والاختلاف في الاسامي والعناوين ، أما اختلاف المضامين فمن صنع التطورات الاجتماعية وتفوق العلم في صنع الاحدث من السلاح .

ولقد أراد حكم الثلاثينات كسب المزيد من خبرة الجيش وكفاءته ، فاستوفد الضابط (حسن تحسين باشا الفقير) من سوريا لتدريب الجيش اليمني مدة أربع سنوات ، وبعد رحيله الأول استوفد الحكم (ثريا بيك) من سوريا أيضا ، الا أن كلا الضابطين فشلا في مطالبهما الى الامام ، بتحسين تغذية الجيش وتوحيد ملابسه . وكان هذا الرفض يرضي الجنود الذين يرفضون تبديل المئزر بالسروال ، والعمامة

بالطربوش • وعلى هذا الاساس استكثر الامام النفقات على التغذية والملابس الجديدة ، وبرر منع تحسين الغذاء ارتباط الجيش بتقليدية الملابس . الا ان حسن تحسين باشا نشر عن الامام يحي أطيب سمعة في الجرائد السورية فاستعاده الامام مرة أخرى ولم يستعد المطالب السابقة كما هي عادة الخبراء في تحقيق منافعهم ولو في غياب الخبرة المنتظرة منهم • لكن فكرة زيادة كفاءة الجيش كانت ملحة زمنيا وذهنيا وكانت الظروف تزيد في الالحاح •

لهذا عقد الامام اتفاقية مع حكومة العراق عام ١٩٣١ م على تدريب مجموعة من الجيش اليمني في بغداد ، فساورت الامام المخاوف من جهة واطمأن من جهة ثانية ، ساورته المخاوف من وجود عسكرية بريطانية في العراق المحتل في ذلك الحين ، وشعر بالاطمئنان الى الحكم الهاشمي هناك ، وكان الحكم الهاشمي في البلدين شديد التوجس من التيار الوهابي الذي استهدف النجف ، ومن قبله قبور الأئمة في اليمن •

ونتيجة العاملين المتناقضين تردد الامام خمس سنوات في ايصال البعثة اليمنية الى العراق • وانتهى به الامر الى التنفيذ عام ١٩٣٦ حين أرسل بعثة عسكرية برئاسة محي الدين العنسي ، وفي عام ١٩٣٧م عززها ببعثة أخرى برئاسة زيد عنان ، ومن ضباط البعثتين من اشترك في احداث الاربعينات والخمسينات والستينات كمحي الدين العنسي شهيد ٤٨ م وكأحمد الثلايا قائد حركة ٥٥ م وشهيدها ، وكعبد الله السلال رئيس الجمهورية الاولى من ٢٦ سبتمبر ٦٢ م الى نوفمبر ٦٧م وكحسن العمري نائب رئيس الجمهوريـة الاولى ، ورئيس وزراء للجمهورية الثانية مدة عامين ، وكحمود الجايفي الذي شغل عدة مناصب عليا • وكل هؤلاء وأمثالهم من ثمرات ذلك التحول النسبي في الحياة

الاجتماعية ، والسياسية محليا وعالميا • فقد توالت هذه التحولات في ظروف الحرب العالمية الثانية ، وكانت أول صدى عن العالم الى اليمن على قلة وسائل الاعلام في ذلك الحين ، إلا أن بعض اليمنيين المهتمين تابعوا مسيرة الحرب من المذياع ، وبعضهم تلقاها من المستمعين ، وبعضهم من أخبار المتلقين ، أما الغالبية الساحقة فقد لمست واقع الحرب من ارتفاع الأسعار حتى عزّ على اليمني غاز المصباح ، والضروري من الثياب ، أما السكر فقد كان استعماله غاية الترف وما أقل مترفي تلك الفترة ، غير أن الفترة من (٣٠) الى (٤٠) كانت متلاحقة الاحداث والتأثيرات • وبرغم انعزال الجيش عن العاصمة فانه ليس بمعزل كلي • صحيح انه كان للجيش سوق خاص خارج العاصمة قرب باب الحرية الآن ، (باب اليمن) سابقا ، وكان يسمى سوق (الصَميل) اشارة الى فرض هذا السوق على الجيش ومنعهم من دخول المدينة تماما إلا في استعراض يوم الجمعةثم يعودون الى ثكناتهم • لكن سوق الصَمِيل و (العُرضي) جزء من العاصمة يصل اليه من الانباء ما يتردد في المدينة وما يدور في المدائن الاخرى ، والقرى عن طريق تنقل (البلوكات) من العاصمة واليها • ولعل أول نبأ جاء من الجيش واليه : هو وصول البعثة العسكرية العراقية برئاسة العقيد اسماعيل صفوت وأربعة ضباط واحدى عشر ضابط صف ، وكان أول عمل للبعثة العراقية زيارة الثكنات ، كما كان أول مطالبها تبديل تغذية الجنود وملابسهم وبناء مطبخ ، لأن ذلك النوع من (الكِدَم) لايصلح غذاء لأنه من أردأ الحبوب،وسيء العجن والخبز، ومن المعروف أن الفلاحين كانوا يختارون للزكاة سفاسف الحبوب لأنها زكاة•وكانت هذه الرداءة تجتمع الى (قصرغمدان) والى (شِوَن) كل مركز ، وأسوأ أنواعها خبز الجيش ، وأفضل أنواعها لكبار

الموظفين • وكا نخبز (الكدم) من الذرة الحمراء ، والشعير ،والعدس، والذرة الصفراء ، والفول ، لهذا كانت تبدو قاسية أشبه بالطوب المشوي ، ومن هنا بدأ التعارض بين الامام يحيى والبعثة العراقية بسبب تبديل الأغذية ، ولكي يُبطل الامام مزاعم البعثة أكل (حبة كدم) أمام العسكر عام ٤١ م يوم افتتاح الكلية الحربية ، وسار خبر أكل الامام للكدمة مسير الامثال الهائلة ، ويقال انه تجوّع لهذه الاكلة ، ويقال انه أيضا أصيب بتخمة من جرائها ، لكنه قد ضرب المثل عمليا بصلاحية ذلك الغذاء للرجال الأقوياء ، وانتشر في الجيش وعي كبير بشظافة الجندية وتعودها على أقسى الطعام لأنها معدّة لما هو أقسى ، ومع هذه المعيشة ومحاولة تحسينها استمرت البعثة العراقية مقدار عامين • ويقال أقل ويقال أكثر • ويحددها البعض بأربع سنوات لأن جمال جميل وهو أحد أعضاء البعثة قدم التماسا عام ٤٤م ببقائه في اليمن ، كخادم للامام ، ولعل مرد هذا الى اشتراكه في انقلاب « بكر صدقي » في العراق عام ٣٦م ضد حكومة جعفر العسكري الذي أُتهم جمال جميل بقتله ، والشك في هذا الحادث أغلب من اليقين ، لأن جمال جميل بُعث من قبل الحكومة العراقية ولو كان هو قاتل لرئيس الوزراء في انقلاب فاشل لحكم عليه بالاعدام أو بالسجن ، ولايمكن أن تمر أربع سنوات لايكتشف فيها المسئولون العراقيون قاتل رئيس الوزراء ، إلا اذا كان الانقلاب مدبرا من قبل الانجليز • المهم أن الامام يحيى قبل التماس جمال جميل ، وغادرت البعثة اليمن متباينة الآراء في حكم الامام يحيى ، ووضع مجتمعه وجيشه ، أما اسماعيل صفوت فلا يرى ثكنات الجيش إلا مجموعة زرائب أغنام ، ولا يرى خبزهم اليومي إلا من طعام الحيوانات ، أما الضابط محمد حسن فقد سجل انطباعاته وآرائه في كتاب سماه (قلب اليمن) •

وقد وصف الامام يحيى بأنه رجل دولة وانه يتمتع بشعبية ساحقة لم يتمتع بها أي زعيم ، ويرى في معارضي الامام يحيى مجموعة تافهين تسيرهم دعايات أجنبية ، ولا وزن لهم في الشعب اليمني • وقد صدر هذا الكتاب عام ٤٧م • وفي الاربعينات صدر كتاب المؤلف الايطالي (سلفاتور ابوتتي) (مملكة الإمام يحيى) وفيه يصف المجتمع اليمني وخوفه من الأجانب ، ويصف شخصية الإمام يحيى بالرصانة واليقظة ، ويطيل وصف موكب الإمام يحيى يوم (جمعة القضاء) وكيف تحيط به المواكب وتزدحم اطراف الشوارع لرؤيته ، وكيف يتلقى عرائض الشاكين عندما ترمى الى عربته فيتناولها من الهواء قبل أن تسقط • وصدور هذين الكتابين في هذه الفترة الى جانب كتاب (ملوك العرب) لأمين الريحاني يستدعي التساؤل لأنها فترة الاعداد للانقلاب•• فهل كان المؤلف العراقي والايطالي يعاديان الاستعمار الانجليزي في الجنوب ويعرفان تبنيه لمعارضي الإمام ؟

أم دفع المؤلفين على اختلافهما ، إعجاب" شخصي بالإمام وانطباع فريد باليمن ؟ •

مهما يكن الأمر فقد كان الكتابان أول نافذتين على اليمن ، حتى أن أكثر الكتاب العرب عرفوا جغرافية اليمن وطبيعة مناخها وأسلوب الحياة فيها عن طريق كتاب (سلفاتور) ، لأن العرب في الاربعينات كانوا أكثر تصديقا لما هو غربي وأكثر استهانة بما هو شرقي ، كعادة الأمم إبان احساسها بالضعف • لقد كانت روسيا القيصرية أكثر إعجابا (بفولتير) من (ديستويفسكي) مناط اعجاب الفرنسيين • وكان المواطن الروسي يعتقد في الطبيب الالماني أو السويسري أكثر من زميله الروسي ولو كان في مستوى الالماني أو السويسري • وفي الثلاثينات والاربعينات كان يضطر الكاتب العربي على التدليل بحضارة الشرق

بكتابات الغربيين ك (غوستاف لوبون) و (نيتشه) صاحب كتاب (هكذا تكلم زرادتشت) • وعززت هذا النوع الثقافي كتابات (رفاعة الطهطاوي) عن باريس ، واخبار (الشيخ محمد عبده) عن أخلاق الاوروبيين ، لهذا كان كتاب (مملكة الإمام يحيى لسلفاتور) المفتاح السحري لسر اليمن ، كما كان كتاب (قلب اليمن للرئيس محمدحسن) صورة واضحة لجيش اليمن وانقياده لامامه ورضاه المطلق بتلك الحياة البسيطة ، كما كانت الفصول الخاصة باليمن من (ملوك العرب) لامين الريحاني صورا وصفية لقسوة الطرق وخضرة الجبال ، وتناقض الآراء في الإمام • فقد كان الريحاني كثير التساؤل يستقي معلوماته من أفراد الشعب ، وخاصة الجنود • كانت هذه هي الصورة في خارج اليمن وكانت مقابلها صورة مناقضة ومماثلة داخل صنعاء وتعز حيث كان الغليان بين المثقفين يتصاعد حتى وصل ذروته بانقلاب ثمانية عشر شباط ١٩٤٨ ، وهذا مثار التساؤل عن الجيش ، دوره في الحدث ، موقفه منه ، ومكانه فيه •

كان الجيش كما سبقت الاشارة ينقسم الى جيوش ثلاثة : نظامي، دفاعي ، براني •• وكان النظامي الصق بالرسمية لانه زنودها ، أما الدفاعي فقد كان كقوة إحتياطية قبلية كثيرة التنقل والتبديل ، أما البرانية فقد كانت تتواجد في عواصم الأقاليم أكثر من تواجدها في صنعاء لأنها قوة استعراضية •• إذن فما دور الجيش في العاصمة مكان الانقلاب ؟ كانت الكلية الحربية قد اخرجت ثمان دفعات الى عام ٤٨ م وكان الزعيم الروحي لهذه الدفع (جمال جميل ، العراقي) ، فكون مجموعة من ثلاثين ضابطا نقطة حراسة لقصري الإمام والمنطقة المحيطة بهما ، أما الجيش النظامي، من بينتشاوش الى جندي ، فقد استدعي من صباح يوم مصرع الإمام لحراسة الاسواق ، بحجة أن الإمام يحيى سيستقبل ولي عهده وسوف

يستعرض الجيش عند وصوله من تعز ، وعند غروب شمس ذلك اليوم وصلت جثة الإمام يحيى من(سواد حزيز) الى بيت نجله (علي) دون أن يعرف الجيشان كيف حدث هذا . إلا انه تلقى بلاغا في اليوم التالي بزيادة المرتبات الى خمسة وعشرين ريال للجندي لأن الذين نفذوا عملية القتل من شيوخ القبائل « (كالقَرْدَعي)والحسيني وهارون وأبو رأس » . ولا بد أن الجيش تلقى هذا الحدث بدهشة واستغراب، ولو لم يظهر رد فعل في حينه ، لأن مجموعة الضباط كانوا لايملكون السيطرة على الجيشين بل ولا غالبية النظام . لهذا استغل الإمام أحمد هذه النقطة فضغط عليها في رسائله الى الجيش النظامي كما يقول : (أيها الجيش المظفر أين كنتم عندما قتل البغاة ، ولي نعمتكم ، وإمام قبلتكم ، وحامي بيضة إسلامكم وهو الذي كان يسهر على سعادتكم ، ويكفيكم فخرا انه سماكم النظام وجعلكم حماة المقام) .. وقد كان صدى هذه الرسالة الانقلاب الفوري على الانقلاب . وأول من بدأت هي مدفعية نقم حيث عطل بعضهم المدافع عن الدفاع ووجه بعضهم القذائف الى مقر الإمام الجديد بقصر « غمدان » ، ونفس العمل في مراكز الارياف ، فقد خلع الجيش النظامي كل من ولاه العهد الجديد وقبضوا على كل من تعاطف مع الانقلاب ، ولم تصل الزحوف الأحمدية الى صنعاء إلا بعد أن افتتحها الجيش من الداخل وحاصر أغلب الانقلابيين وسجن البعض .. إذن فلم يكن للجيش أي دور، ولم تغره زيادة المرتبات .

أما موقفه من الانقلاب فقد أعلنه عمليا بعد ثلاثة وعشرين يوما . وكان بلا شك موقف الرفض للانقلاب ، لأنه بلا دور فيه . فهذا موقفه منه . أما مكانه فيه فقد أبدى تحفظا حتى وصلته الرسالة الأحمدية ، الداعية الى الثأر لإمام الحق ، ولأن الجيش اليمني ينتمي الى أصول

قبلية ، فقد وجه الإمام أحمد قصيدة الى القبائل والمدائن معا، وانتشرت بسرعة مذهلة وهذا مقطع منها :

نفس جـودي بِعَبرة وعـويلِ
وأشرحي كيف كان حـال القتيلِ
قتـلوا الأب والحفيـد وثنـوا
ببنيـه يا بئـس فعـل الذليـل
قتـلوهم وأنهـم تركـوهم
تحت شمس الضحى وريح الأصيل
يالثأرات ابن البتول امـام الحق
من حيّ حـاشـد وبكيـل

فقد ضرب (أحمد) على الوتر الحساس في الجيش وفي الشعب ، لأنه دعى لثأر الإمام القتيل الأعزل العاجز .. دون أن يعلن أحمـد إمامته ، كدعوى أنه صاحب ثأر وليس طالب ملك . وقد تأثر الجيش فأرسل مبايعته وقدم طاعته ، إلا أن هذا الحدث كان بعيد الأثر من ناحية ردوده البعيدة ، فقد أحس الجيش امكان التغيير ، ورفدت التحولات العالمية هذا الحس بعد وقت قصير . فبعد أربعة أعوام ثارت التساؤلات عن سر هذا الانقلاب ، وبدأت بعض التفسيرات تبرر غايته بعد انقشاع الذهول ومغالبة الخوف . وفي عـام ١٩٥٢ سمع اليمنيون بثورة عسكرية في مصر على ملك كالإمام يحيى ، مع اختلاف في المكان والأساليب . من هناك بدأ أول حـس عسكري بالوجود ، وتطور هذا الحس حتى أدى ثمرته في مارس عام ٥٥ م حيث قاد المقدم أحمد الثلايا أول انقلاب عسكري كان للضباط فيه دور القيادة والانضباط . وكان على رأس الانقلاب سياسيا (عبد الله) أخو الإمام أحمد ، فأوقف العمل العسكري عند حصار قصر الإمـام

بتعز وأبدى تخوفه من القتل ، ونتيجة التراخي والاختلاف في أهم المبادىء أسقط معسكر (قاهرة تعز) الانقلاب ببعض القذائف المدفعية وبقطع الماء عن معسكر (العرضي) ، وقـدم الجيش الثمن فادحـا وبالأخص جيش تعز • وكانت هذه أول حركة عسكرية حقيقية عن قيادة وانضباط وتنفيذ أوامر فوقية ، إلا أن التجربة كانت بدائيـة وغير مرتبطة بالقواعد الشعبية ، فكانت كسرقة إمامه ، لأن الإمـام الجديد تخوف العواقب من البداية • وكـانت أحداث ٤٨م جادة الانطباع ، لهذا انتكس الانقلاب وأراد الإمام أن يجاري التحولات كما حاول استيعاب أهداف الدستوريين ، فقد كـان الدستوريون يعيبون على الإمام يحيى •• العزلة والانقطاع عن الاشقاء والأصدقاء •• فأرسل الإمام أحمد سفراء واستقبل سفراء لكي يفند دعوى العزلة ، وبعد حركة الجيش في ١٩٥٥ أراد أن ينفي عنه وصمة الرجعية ويخرس الدعايات ، فتبنى في عام ٥٦م تحرير الشطر الجنوبي • ولكي تنجح المهمة الشاقة عقد صفقـات أسلحة مع الاتحـاد السوفيتي وتشيكوسلوفاكيا ، وافتتح الكلية الحربية من جديد ، ومدرسـة الطيران ، وكلية الشرطة لأول مرة • من هنا تأسس جيش الثورة ، ونبتت البداية الحقيقية لتحرير الشطر الجنوبي ، وتواكبت الأحداث وتزايد وعي الشعب بمقدار ما تزايد انهيار قواعد الحكم • وكانت ثورة ٢٦ سبتمبر ذروة التمخضات لأنها حقيقية ، كان الجيش فيها جواب نداء الشعب ، كما كان الشعب صدى طلقات الجيش ، فكما كانت الثـورة ميلاد الشعب فقـد كانت الميـلاد الثاني للجيش ، لأنه جـدد أسسه كما جـدد بناءه • فقـد كان الجيش النظامي والدفاعي يعانيـان التفكك ويعانيان مرارة الاهـانة ، فتوحدت القوى للثورة وللدفـاع عن الثـورة ، وبحكم تآلب الاعـداء

تجندت أفواج الشعب عن حس ثوري وعن دافـع وطني ، فلم تعد الجندية من ذلك اليوم احترافا ، وإنما أصبحت اجابة وطنية خلقتها المعركة فانضاف الى الجيش مئات الأفواج من الحرس الوطني الذين تجمعوا من كل شبر ومن كل صقع ، لغاية الدفاع عن الثورة •فكانت هذه الافواج تتدرب اسبوعا أو أياما في المعسكرات ، ثم تتم تدريبها على نار الميدان وتحت شباك الموت • وكانت هذه الأفواج الجديدة تختلف عن أجدادها ، فقد كان الأجداد عسكريين بالفطرة أوعسكريين بالفطرة والتدريب معا ، أما هذه المواكب الشابة فقد دفعها الحماس الثوري الى لهب الميدان ، قبل أن تجرب القتال كالأجداد ، لنشوء الشباب في فترة سلمية ، وقبل أن يتم تدريبها كعسكرية بالتعليم ، إلا أن نار الحماس كانت كافية لالتماس الخبرة من ثنايا الممارسة ، فقاتلت هذه القوى في عشرات الجبهات حتى أوصلت الثورة شاطىء السلام • وبعد رحيل قوات مصر العربية نتيجة العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧م أصبح الجيش والمجندون فيه جيش الوطن ، وتكونت بداية الجيش الحديث تسليحا ومواقعا • إلا أن عام ٦٧ م أغرى كل المطامع الخائبة • وكانت اعداد الجيش لاتتجاوز عشرة آلاف إلا أنها قلة مخلصة ، لهذا تكررت نفس الصورة المشرقة، فكما تجند الأفواج فيالحرس الوطني، تجند طلاب المدارس والموظفون وكل قادر على حمل البندقيــة في المقاومة الشعبية (المليشيا) ، وبفعل هذا التكتل الناري اندحرت القوات المهاجمة حتى أصبحت محاصرة ، بعد أن حاولت أن تحاصر العاصمة ، وجاءت فترة السلام المتوتر ككل سلام لم ينحسم بنصر أو هزيمة ، فكان سلاما مطويا على حرب ، تبدى هذا في عدة صور كالاقتتال على غنائم الحرب والطموح الغير مشروع لبعض الجبهات والفتوحات السلمية لاعداء الشعب ، وامتد هذا الركام من عام الى

عام فتزايدت مراكز القوى وتعددت الولاءات في جو هادىء وأمن مستتب ، حتى تفجر خليط التناقضات وانهارت أعمدة الخليط على نفسها بحركة الثالث عشر من يونيو عام ١٩٧٤ م • فحققت حركة يونيو بالممارسة كل المبادىء التي كانت شعارات ، فعززت الجيش القوي ووحدت غايته وطبقت مبدأ : الجيش للحرب والاعمار •• وتجلت هذه الممارسة البناءة في مشاركة الجيش للشعب ، في زرع الاشجار ، وفي رد السيول الكاسحة عن صنعاء عام ٧٥م وفي شق الطرقات وبناء المدارس مع المواطنين والعمال • وما تزال القوةالوحيدة الموحدة تواصل مسيرتها بأوامر الوطن والى حيث تشير الأهداف الوطنية الكبرى •

مجلة الجيش العدد (٨٥) ابريل ١٩٧٧

* * *

الثورة والاختيار الصّعب

لعل أهم ميزة للإنسان من مزاياه الكثيرة ، أنه مخلوق قلق ، ذلك لأنه على مواجهة دائمة مع المصير والقدر ، منذ شعوره بالحياة يتوقع الموت كقدر حتمي ، فيغالب هذا الشعور لكي يترك أثرا على طريق عمره ، ولو كان الإنسان كالشجرة ، أو كالريح ، لما قطع شبرا في طريق التقدم ، لأن الشجرة تنبت . وتطول وهي تجهل مصيرها على ما نعرف ، والريح ترحل وترجع دون أن نعرف لها سؤالا من أين والى أين ، أما الانسان فأول سؤاله ، الى أين أو من أين ؟ وأحيانا يقلقه من أين ؟ وأحيانا يستحوذ عليه الى أين ؟ هذا الانسان من حيث هو فرد ومن حيث هو مجموع كشعب ، ولقد أحس شعبنا قلق السؤال منذ أحس وجوده ، كمخلوق قلق يكاشف الماضي والحاضر ، لكي يكتشف المستقبل ، وقد جرب شعبنا الانتفاضات والحركات ، وامتلأ بالانطباع المرير عنها ، حتى تجددت أجياله واكتسب خبرة أكثر ، لكي يواجه بها المصير ، فصمم على الثورة ، لكي يختط سبيله الى المصير المنشود ، ولكي يمتلك زمام قدره ، لأن شعبنا في آخر الخمسينات اكتشف نفسه عن طريق معرفته بمغامرة سواه ، ولكن هل كانت الثورة عملية مجازفة . أو هل كانت اختيار للصراع لذات الصراع ؟ . إن القتال أبشع ما يفعل الانسان ، وإنما تجمله غاية القتال، وتغلب على مرارته حلاوة النصر المبدئي ، لهذا لم يطلق شعبنا المدافع

ويدك قصور الإمامة حبا لرؤية القبح في أنقاض الخرائب ، ونثير الأشلاء ، وإنما كانت الثورة اختيارا صعبا بين الموت والحياة ، أو بين الموت والموت ، وقد تفجرت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر في غمرة أصداء الثورات على الفساد المحلي ، والاستعمار العالمي ، ولكن شعبنا لم يفجر الثورة بالإهتداء بالآخرين فحسب وإنما بالالحاح العنيف من الواقع مصدر الأفكار والأفعال ، وإن كانت تجارب الناس كمصابيح السماء يهتدي بها الكل ، إذن فقد كانت الثورة هي الاختيار الصعب والمرير ، لأن المجتمع لايقدر أن يعلو على الواقع دون أن يعاركه من الداخل ومن كل طبقاته ، ولا يستطيع أن يتجاوز الصراع الى اللاصراع ، لأن مصارعة مساوء الواقع هي التي تعطي مفاتيح أسراره ، وتعطي قدرة تغييره ، وهذه سنة حياتية ، فلا يمكن أن تنبت الأرض إلا بعد أن تقذفها رشاث المطر ، وتخددها حوافر السيول ، ولا يمكن أن تنبت الأشجار أوراقا جديدة إلا بعد أن يجلدها الشتاء وهي عارية لكي يستخرج الربيع مكنونات جمالها ، وأغنيات ألوان براعمها وجدائل عبيرها الرقراق ، إذن فقد كانت الثورة حتمية ، لغياب الفارق بين الموت بالانتظار أو الموت بسيف الجلاد ، فاختار شعبنا الثورة لكي يتوج رأسه بالموت العظيم ، أو لكي يرَكُزْ على ربوة التأريخ رايات انتصاره ، ولقدثار شعبنا وانتصر ، وسميت الثورة في ذلك الحين بأكبر معجزة لأنها كانت منتظرة من أي مكان، ولم ينتظرها أحد من اليمن ، وهذا راجع الى تقصير في اليمن للتعريف بنفسه أو الى قصور الآخرين في التعرف عليه ، فلم يكن بمعزل عن الاحداث والتيارات كما يردد البعض ، وإنما كان فاعلا ومنفعلا في صميم العصر، صحيح أن الأمية تغلب علينا ، ونقص الثقافة يغلب على طلائعنا ، ولكن التمييز بين الموت والموت معروف ببديهية الحياة ، ولا يحتاج الى

ثقافة ، والتمييز بين الحياة والموت واضح لكل حي، لقد تفاعل شعبنا وحاول كما حاول سواه ، وقدم قوافلا من الشهداء كما قدم غيره ، ولعل المظاهرات الطلابية في سنة الثورة • كانت الدليل الهادر على حيوية جماهيرنا ، وعلى أن هذا الشعب متصل بالعالم منفعل بما يجري فيه ، كانت الشوارع الهادرة في صنعاء وتعز والحديدة كنفس الشوارع الهادرة في القاهرة ودمشق وبغداد ، ترفع نفس الشعارات وتردد نفس الايقاع الوطني ، من هنا أصبحت الثورة اختيارا قهريا لامفر منه كما كانت الحروب التي اشتعلت حول علم الثورة وواكبت مسيرتها ثورة الثورة ، وهذه السمة فريدة لثورة اليمن ، فقد قامت الجمهورية بمصر بمجرد نفي الملك ، وقامت الجمهورية في العراق بمجرد قصف قصر الملك ، أما ثورة اليمن فقد امتدت ثمان سنوات ترضع الدم وتمشط شعرها بالنار ، وتورّد أقدامها في كل ثانية بعصير الورد الآدمي ، لهذا نحتفل بالعيد الرابع عشر احتفالا يليق بتضحيات الشعب والجيش ، لأن ثورة سبتمبر ممتدة النـــار بالنار من يوم السادس والعشرين من سبتمبر ، فقد خاضت ثمان سنوات بحارا من الدم ، ومن السبعينات الى الآن ، تصارع التخلف الداخلي ، والتـــدخل الخارجي وتملأ الفراغ بذاتها ، فهذه الثورة المبـــاركة معركة دائمة لاتطرح سلاح ميدان إلا لكي تحمل سلاح ميادين ، فمن معركـــة الغزو الى معركة التخلف لكي تثور الثورة بناءا كما ثارت سلاحا وبذلا •

مجلة الجيش العدد (٧٨) سبتمبر ١٩٧٦

القوة بين الضرورة والوهم

عندما نسمع أخبار الطوارىء المخيفة كالزلزال في البلد الفلاني.. أو كالفيضان في البلد الفلاني .. أو كالأمطار الغزيرة في البلد الفلاني ، فسوف نسمع في آخر كل نبأ أن الدولة هذه أو تلك قد نقلت كتيبتين . أو ثلاث للانقاذ الفوري ، وتخليص الضحايا من الكوارث الطارئة . ومن هذا نستدل على أن الجيوش دروع الأوطان عند كل حدث . فلم تعد مهمة القوة العسكرية مجرد درء العدوان عن البلد وحماية استقلاله . فهذه المهمة على عظمتها أصبحت من التقاليد العسكرية .. ومن أول الواجبات العسكرية ، لكن للقوات العسكرية مهمات أخرى كإنقاذ ضحايا الغرق أو الفيضان ، أو الزلزال أو الحريق ، لأن القوى العسكرية درع الوطن عند كل حادث يمس الشعب أو يمس بعض الشعب وهذا هو الدليل على صدق كلمة « الجيوش دروع الأوطان » .

فعلى تقليدية هذه الكلمة فهي دائمة التجديد بحيوية عملها ، لان الجيوش بمغامراتها للإنقاذ وبشجاعتها في الدفاع أو الهجوم تجدد هذه الكلمة ، لأن أي كلمة مهما كانت عظيمة تموت إذا انعدم مطبقوها . والكلمة تبقى جديدة وصادقة إذا استمر تطبيقها ، فالجيوش دروع الأوطان كلمة صادقة ومتجددة بتجديد مضمونها وتطبيقها ،

القوة بين الضرورة والوهم

عندما نسمع أخبار الطوارىء المخيفة كالزلزال في البلد الفلاني •• أو كالفيضان في البلد الفلاني •• أو كالأمطار الغزيرة في البلد الفلاني ، فسوف نسمع في آخر كل نبأ أن الدولة هذه أو تلك قد نقلت كتيبتين . أو ثلاث للانقاذ الفوري ، وتخليص الضحايا من الكوارث الطارئة . ومن هذا نستدل على أن الجيوش دروع الأوطان عند كل حدث . فلم تعد مهمة القوة العسكرية مجرد درء العدوان عن البلد وحماية استقلاله . فهذه المهمة على عظمتها أصبحت من التقاليد العسكرية •• ومن أول الواجبات العسكرية ، لكن للقوات العسكرية مهمات أخرى كإنقاذ ضحايا الغرق أو الفيضان ، أو الزلزال أو الحريق ، لأن القوى العسكرية درع الوطن عند كل حادث يمس الشعب أو يمس بعض الشعب وهذا هو الدليل على صدق كلمة « الجيوش دروع الأوطان » •

فعلى تقليدية هذه الكلمة فهي دائمة التجديد بحيوية عملها ، لان الجيوش بمغامراتها للإنقاذ وبشجاعتها في الدفاع أو الهجوم تجدد هذه الكلمة ، لأن أي كلمة مهما كانت عظيمة تموت إذا انعدم مطبقوها • والكلمة تبقى جديدة وصادقة إذا استمر تطبيقها، فالجيوش دروع الأوطان كلمة صادقة ومتجددة بتجديد مضمونها وتطبيقها ،

لهذا يعدّ زيادة القوات المسلحة وحسن تدريبها وقيادتها الى كل واجب ، أول مهمة تفرضها طبيعة الدفاع أو يحتمها وقوع الكوارث الطبيعية كالفيضان والزلزال وغيرهما .

المهم أن القوات المسلحة درع الوطن لأنها تحرس أمنه .. وتحمي سيادته ، وتكوّن جواب أي نداء ، لهذا تُعنى كل الدول لإعداد الجيوش أيام الحرب ، وأيام السلام ، لأن الضرورة الحياتية تحتم اعداد القوة المسلحة لتبقى درعا ، وزنودا وهذه من الأمور البديهية ، أو من الأمور المنظورة في كل دولة .

لكن هناك بعض الدول المتخلفة تخاف من القوات المسلحة ، لئلا تصبح اداة انقلابات ، وهذا من تأثير تجربة السنوات الأخيرة .

لكن هذا مجرد وهم ، فلم تكن القوات المسلحة مجرد أدوات انقلابات فقط . بل عليها مهمات أوْلى .. وليست القوات المسلحة هي أداة الثورة أو الانقلاب فالانقلابات لاتأتي من مجرد وجود قوةمسلحة في هذا البلد أو ذاك ، وإنما تأتي الانقلابات من خلل في السياسة الحاكمة ، أو من سوء تنظيم في القوة . وتعتبر الانقلابات العسكرية أقل الحوادث .. أو أقلها أهمية ، فالثورات الكبرى التي تفجرت في العالم لم يكن أهمها ولا أكثرها من صنع الجيوش ، بل كانت الجيوش في وجه أكثر الثورات ، وفي وجه أكثر الانقلابات ، فكل الثورات الكبرى التي غيرت وجه عالمنا ، كانتمن صنع رجالالفكر والسياسة ، ولم يكن للجيوش فيها أي دور منفرد ، فعندما قطعت بريطانيا راس ملكها وأعلنت الجمهورية مدة احدى عشر عاما ، أواخر القرن السابع عشر ، لم يكن للقوات المسلحةأي تأثير على الموقفلاعند خلع الملك.. ولا عند قيام الجمهورية .. ولا عند إنهائها وارجاع الملكية .. وإنما كانت كل الأحداث من صنع القادة السياسيين في بريطانيا ،

ومثل ذلك الثورة الفرنسية أواخر القرن السابع عشر ، وهي

أعنف ثورة غيرت مجرى الحياة السياسية والاجتماعية في أورباوالعالم ولم تكن القوات المسلحة إلا آخر وسيلة في العمل وإن كانت الوسيلة الهامة في حماية الجمهورية الفرنسية .

ومن هذا القبيل ثورة اكتوبر في روسيا ، وهي الثورة التي هزت العالم ، وحولت المجتمع الروسي الى جمهوريات سوفيتية اشتراكية.. فقد كانت تلك الثورة بعنفها وتحولاتها من صنع القيادات الفكرية ، ومن تنفيذ الجماهير الشعبية بما فيها بعض الجنود . ولقد كانت غالبية ضباط القوات المسلحة الروسية في وجه الثورة والى جانب الحكومة المؤقتة ، فقد كانت الدبابات الحكومية تحمي « الكرملين » وتقصف الجماهير ، لكن الجماهير بهيجانها الثوري وحكمة قياداتها هزمت الدبابات والمدافع واقتحمت « الكرملين » حتى لقد أجمع كل المؤرخين .. أن نجاح الثورة السوفيتية لايرجع الى قوة الثوار ، وضعف الحكومة المؤقتة برغم مدافعها ودباباتها . وإنما يرجع الى عبقرية القيادة السياسية .

ومن هنا تتبين بجلاء أن الخوف من وجود قوة كدرع للوطن مجرد وهم ، لأن الانقلابات والثورات تنبثق عن فساد ، وعن احساس بهذا الفساد وعندما يصبح العمل الانقلابي أو الثوري ضرورة يتم انجازها في غياب القوات المسلحة أو في وجودها على السواء .

فوجود القوات المسلحة ضرورة لكل حكم يريد صيانة حماه وسيادة شعبه ، على أرضه .. والخوف من القوة كأداة انقلابات ، مجرد وهم كاذب ، تدل على كذبه أهم الاحداث التي فجرتها الشعوب في غياب القوة .. أو في وجود القوة مضادة للعمل .. أو موالية للعمل.

المهم أن القوة ضرورة تحتمها طبيعة الحياة وما تكمن فيها من طوارىء منتظرة وغير منتظرة .

مجلة الجيش العدد (٢٧) مايو ١٩٧٢

رسالة إلى سبتمبر

صديق الملايين من أبناء شعبنا ، سبتمبر الكريم .

أجمل تحية وألف مرحبا .

تعلم أيها الصديق العزيز إن الحكماء قالوا : « يصلح العتاب ما فسد من الود » ولو كان الزمان ذا عقل لعاتبناه ، ولو كان ذا قلب لشكونا اليه ، وعلى هذا فأنت أول زمن وجهنا اليه الرسالة ، لأن المعهود أن الحديث عن الزمن لا اليه .

صديقنا سبتمبر : لم نكن نعرفك قبل سبعة أعوام، إلا في صفحات التقاويم السنوية ، ومنذ سنوات سبع أصبحت ياسبتمبر بداية تاريخ ، فكأنما ولدت قبل سبعة اعوام ، وعلى هذا فكيف نخاطبك وأنت طفل عنيد ، لأن أولاد السبع في بداية سن الشقاوة فما زلت طفلا ، ولقد شابت على طفولتك رؤوسنا ، ولكن طفولة الزمان غير طفولة الإنسان، فالسبع السنوات من عمرك أكثر حكمة وتجربة من سبعين عاما من عمر البلداء .

فهذه السنوات السبع المباركة الأضواء قدمت أنفع الخدمات ، لأنها كشفت وجوها كانت مقنعة ، وفضحت اسرارا كانت خفية ، لأن المناصب أشد مواقف الاختبار ، والقمم بطبيعتها مكشوفة ، خطرة لاتلقي على وجوه محتليها ستارا .

لاتغضب ياصديق الملايين إن ضاحكناك قليلا ، فالمزاح أول الجد كمـا تعـلم .

صديقنا سبتمبر لقد استقبلنا ميلادك قبل سبعة أعوام بأكبر مظاهرة طلابية عرفتها صنعاء ، ورأيت بعيون شموسك مواكب الشباب وهم يفتحون صدورهم للرصاص في شوق الى الموت ، ورأيت بعيون أقمارك ونجومك مواكب الشباب وهم يساقون الى سجن (السناره ، ومُهلهِل . والقلعة والرادع) . وكان نصفك الأول ياسبتمبر يمشي في بطء « أثقل من سكرة الصيف » كما يقول الفرنسيون . وبدأ نصفك الثاني ينصت الى همسة من هنا وغضبة من هناك ، ولعلك التقطت في ذلك الحين آلاف الهمسات والنبرات ، حتى تحولت هذه الهمسات والنبرات الى طلقات مدافع يوم السادس والعشرين من عمرك السعيد، ورأيت بعيون شموسك وأقمارك أفواج الشعب يتدفقون في مرح أطفال العيد ، وكما تعلم ياسبتمبر « مصائب قوم عند قوم فوائد » . فلقد أقام يومك السادس والعشرون أعراسا ومآتما ، فبمقدار ما علت الزغاريد من بيوت تعالت المناحات من بيوت أخرى ، وهكذا سر الحياة ، ففي كل يوم يقع أكثر من ميلاد ، وأكثر من عُرس ، وأقل من موت ، ولقد كان يومك السادس والعشرون ميلادا للأغلبيـة الساحقة من جماهير هذه الأرض الطيبة ، وفي ذلك الحين الغـارق بين الزغاريد والطلقات والمناحات ، كان هلالك يزداد نحولاً ، وكنت تفسح الطريق لأخيك اكتوبر ، حتى انتهيت شوطك ، وبدأ أخوك يرفع صيحة ميلاده ، ولكن حدثك الكبير العظيم ملأ الشهور والأعوام والعيون والقلوب .

أتدري يا صديقنا سبتمبر لمـاذا ؟ .

لأننا لانحس وجود الزمن إلا إذا هزنا أعنف هزة سواء كـانت

هذه الهزة فرحا أو ترحا ، ـ المهم أننا لانحس وجود الزمان إلا إذا تفجرت ساعاته بين أيدينا وفي قلوبنا ، ولقد مضيت ياسبتمبر وحدثك الـكبير ينفجر في قـوة ويُفجِّر في عنف ويكتب لـكل صخرة ملحمـة ورديـة ، وعدت في عـامك الثـاني ومولودك العظيم يزداد نموا لأنه وليد عشرين عاما من نار الحنين ولهاث السؤال ، وفي رجعتك الثانية شاهدت جبـالنا وهي ترعد بالنـار وتنفجر بالموت ، وفي رجعتك الثالثة كان مولودك العظيم يزداد عنفا وعنفوانا ، ولكن المشاهد من حوله لم تتغير ، فما زالت المواقع والمدافع ترتجل القبور والمناحات والنصر والهزائم ، أما رجعتك الرابعة فقد شاهدت وليدك العظيم يحاول إعادة خلق الحياة ، لهذا رأيت بعيني شمسك الشوارع المبلطة ، والمدارس الجديدة ، واخضرار الحياة في كل مرأى ، وذهبت كعادتك لترجع كعادتك وكان رجوعك الخامس لايخلو من حزن ومن توجس ، مع أن الحدث الذي صنعته يطول ويتعملق حتى يكاد يتتوج بالشمس ، ويلتحف بالنجوم ، وكانت رجعتك السادسة تحمل أسرارا مغلقة كحقائب الدبلوماسيين .

هكذا ولا أزيد متكلا على فهمك الرشيد ، والآن ونحن نلاقيك في دورتك السابعة لا بد أن نحدثك في صداقة حميمة لأنك الصديق الحميم ، فـأنت الآن تجوّل عيون شموسك في كل شبر من هذه الأرض التي أنْجبتَ فيها أعظم حدث عرفته هذه الأرض .

أليس صحيحا ؟ .. أما تحولت بلادنا من ملكية مستبدة الى جمهورية شعبية ؟ : وهذا بفضل حدثك يا سبتمبر .

عفوا فنحن لانهتم بك كزمن ، وإنما نهتم بك كحدث غيَّر مجرى الحياة في هذه البلاد ، ويكفي أنه حدث فرض نفسه على كل شخص ، وعلى كل شيء ، فسيطر على عالم الأفكار ، وعلى عالم الأشخاص ، وعلى عالم الأشياء .

تصور يا سبتمبر ، أن هذه المدينة الهادئة الوادعة تحولت من أول ديسمبر الى منتصف فبراير من عامك السابع الى أعنف معسكر دحر أعنف غـــزو •

هل كنت تحلم أو كنت تتصور أن صنعـاء الهادئة الـوادعة ستتحول الى مقاتلة ؟ •

نعم لقد فَعلتْ هذا ، وطهرت عيان في خلال عشر ساعات ، وفتحت طريق الحديدة في خلال خمسين يوما • ولكن لاتضحك لقد فتحنا طريق الحديدة وطهرنا جوانبها بمقدار ألف طلقـة ، ولكننا استقبلنا النصر الجزئي بأكثر من أربعة آلاف طلقة مع أنها كانت تنفعنا في فتح طريق آخر • وأنت تدري ياسبتمبر أننا نستورد كل طلقة من الدول الأجنبية ، ومع هذا نجود على الهواء بسيول من الرصاص •

عفوا ياسبتمبر •• لاتخجل وبالأخص إذا علمت أن إخوة السلاح وصناع النصر انقسموا في أخيك اغسطس الى معسكرين متقاتلين وتوجنا السبعين اليوم بسبعين ساعة من الأسف والمرارة •

عفوا يا سبتمبر لقد تبنا ولن نعود الى مثل ذلـك لأن السبع السنوات قد علمتنا ، والآن وأنت ياسبتمبر ترمي بعينيك هنا وهناك فمـاذا ترى ؟

لعلك تلحظ مئات العمارات المنبثة والشامخة ، واذا سألت عمارة من هذه ؟ أو قصر من ذلك ؟ • فسوف تقول لك الرياح قصر فلان أو عمارة فلان ، واذا سألت من أين وكيف ؟ •

فسوف تقول لك الرياح أيضا هذا كان قائد جبهة كذا ، وهذا قائد منطقة كذا ، وسوف تقول في سخرية إن الجبهات ميادين نار وموت وليست مناجم للذهب ، وسوف تقول إن القيادات تدبير أمور

لاجمع نقود . وإن الحرب خسائر أرواح وأموال ولم تكن يوما من الأيام ربحا لغالب أو مغلوب •• وسوف تفتح ياسبتمبر صفحة مائه من تاريخ الحرب العالمية الثانية •• وتقرأ في خجل وهدوء •• « لقد أصبحت خمسة وثلاثين مائه عائلة من عائلات بريطانيا الغنية مفلسة تبحث عن القوت الضروري » لأن الحرب امتصت أموالها ورجالها ، ولقد أصبحت الفا عائلة في فرنسا بلا قوت بعد أن كانت غنية ، ــ وتمضي ياسبتمبر في تقصي أخبار آلاف العائلات التي نكبتها الحرب وتقول (متى كانت الحرب أرباحا ؟) وسوف تخرجنا من المأزق وتجيب : ــ

« للأبطال شرف الحروب والنصر ، وللمرتزقة غنائم الحروب فقط » . وسوف ترى أن أغنياء الحروب لم يكونوا من أبناء الشعوب المتحاربة وإنما مستأجرون من كل الأصقاع ، والذين أسعدتهم الحرب العالمية الثانية هم مرتزقة الشعوب لاجيوش الدول المحاربة .

وستحضرك نكتة لأحد أغنياء الحرب ، ومع الأسف أنه يمني ، « لقد تزوج من جامعية بلجيكية نكبت عائلتها في الحرب ، وعندما أنجبت له أول طفل كان أبوه يترك النقود بين يديه ، وذات يوم ابتلع قطعة من تلك النقود •• فطار صواب الأم ، واتصلت بالأب هاتفيا •• عجل يا سعيد •• فقد ابتلع الولد قطعة نقود !! ــ فيرد الأب في سخاء غبي •• ما عليه يبتلع جنيه أو جنيهين . » ولا يدري عاقبة ابتلاع النقود .

أفادك الله يا سبتمبر هكذا أغنياء الحروب في كل زمان وفي كل بلد •• لأن هناك فرقا بين المحاربين في ظل المبادىء الوطنية والانسانية •• وبين المرتزقة لذات الغنائم •• فلا أسوأ على الحياة من أغنياء

الحرب لأنهم أثْروا بلا تعب وينفقون بلا حساب ، لكي يشعلوا حرب الأسـواق •

صديقنا سبتمبر •• لا بد أنك الآن تحدّق في تساؤل أين علي عبد المغني •• وأين أحمد الكبسي •• وأين الشراعي •• وأين فلان وفلان وفلان ؟•• وتستمر في تلاوة القائمة المشرقة ، ولا بد ، أن ترد على سؤالك وتعرف بعين اليقين أن دماء هؤلاء وأمثالهم هي التي أججت شمسك ، وأضاءت كواكبك ، لأنهم سقطوا على هذه التربة ليتحولوا الى رايات على ربى التاريخ •• ولكي تعود الدورة الدموية الى نهود البن والكروم ، ولكن !! لا تيأس يا سبتمبر ••

فما يزال في العرين أسود •• صحيح أن بعض أبطالك سقطوا شهداء ، ولكن بعضهم قد ماتوا من شهور أو أعوام ولم يدفنوا بعد ، وبعضهم قد امتصتهم ليالي الهوى « فدفنوا في كثيب من الورد » كما قال : إبن المعتز •

ولكن لاتيأس فأم الليالي ولود •• وما زالت الدنيا بخير ، ولك ياسبتمبر أن تمد عينيك ، وسوف ترى شارعا خلفيا جنوبيا شرقيا شماليا الى الغرب ، تظلله مشمشة عجوز •• وكافورة خضراء ، لاتراه الشمس إلا ساعتين في اليوم •• ولا يراه القمر إلا على عجل ، ولكن هذا الشارع مبطن بملايين الشموس، لأنه أبر أبنائك ياسبتمبر •

والآن ياصديقنا سبتمبر انتهى الحيّز المحدد للرسالة وفي فهمك الخير والبركة •• فهنا تنطوي الرسالة ••

ولك أشذى تحيات صديقك المدعو

« عبد الله البردوني »

بين تهمتين

من أكبر عيوبنا أننا لانقبل من الأحكام ، إلا ما يوافق أهواءنا حتى ولو كانت هذه الأحكام أكبر منا ومن أهوائنا ، ولكن الحقائق الكبيرة ترغمنا على تقبلها ، لأن تجاهلنا لايمحوها ، وبهذا نواجه الحقائق كما هي لاكما يقال عنها .. فلم نعد نرى ما يعجبنا هو الحسَن ، وما لا يعجبنا هو السيء ، وإنما ننظر الى القضايا نظرة الموضوعية .. فالجيد جيد ولو لم يعجبنا .. والرديء رديء وإن أعجب غيرنا .. لكن لا ينطبق هذا على كل الناس ، فما تزال الكثْرة تنظر الى القضايا من زاوية الذات .. فكل ما يعجبها فهو الممتاز وإن كان رديئا .. وكل ما يخالف أهواءها فهو الشنيع ولو كان جميلا في ذاته ،

فالثورة بالنسبة الى القوى الرجعية أمر مكروه لأنه يخالف أهواءها .. والرجعية بالنسبة الى الثوار أمر مكروه لأنها تخالف أهوائهم .. وهذا نفس ما حدث في بلادنا .. إن الثورات والنبوءات وكل التغيرات ، لاتلاقي تقبلا مطلقا . لأنها تخالف مصالح فريق من الناس ، ولأنها تصدم كثيرا من الناس في مألوفاتهم التي درجوا عليها .

وعندما انفجرت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ م كان الخوف من شيء واحد .. هو صدم المحافظين في مألوفاتهم .

لكن هذا الأمر لم يكن مخيفا الى درجة خطيرة •• لأن الثورة كانت متوقعة • وإن كان الأكثر لايتوقعونها عمليا •• فقد كانت الكثرة الغالبة لا ترى في أفكار الشباب وثوريتهم إلا مجرد أحلام صبيان • لأن الواقع العام في رأيهم بعيد عن الأفكار الثورية ، لكن الأفكار الثورية ذات قوة دافعة •• فقد استطاع المفكرون الثوريون أن ينقلوا الأفكار الثورية بالطرق التالية : ــ

(١) بالتدليل على مواضع الفساد الحكومي •

(٢) تنمية الأحساس بهذا الفساد •

وإذا تقوى هذان العنصران أصبحت الثورة موجودة إمكانا • ثم موجودة عمليا •• وفي صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م تجلى الواقع الثوري في التفاف جماهير المدن حول الثورة ومفجريها •• فقد كانت الجماهير الصنعاوية تتجمع حول الدبابات في فرح طفولي •• وكانت الجماهير التعزية تتظاهر في حماس ناري رغم اعلان حظر التجول • وانتقل هذا الحماس الى عواصم الأقاليم•• فاذا بالجماهير تقبض على رجال العهد البائد في كل مركز ومدينة بمجرد إعلان قيام الثورة ، ومن ذلك الحين أمنت الثورة خطر المحافظين في الداخل •• وأمنت بالتالي من خطر المحافظين خارج الحدود •• لأن تماسك الداخل يحبط خطة الأجنبي مهما كانت قواه •• لكن التماسك الداخلي لم يدم طويلا •• إلا أنه لم يكن خطيرا على الثورة ما دامت جماهير المدينة تكوّن حاميات قوية حول الثورة والثوار ، ومن هنا تكوّن معسكران ••

(١) معسكر الثورة ويمثل الثوار وجماهير المدينة •• والكثرة المستنيرة من أبناء القرى •

(٢) معسكر ثانهو معسكر الرجعية الذييستمد أمواله وأسلحته وخططه من عدة قوى •• قوى استعمارية ورجعية ، والشيء المؤسف أن الأيادي الأجنبية استطاعت أن تعسكر وراء خططها جماعات كثيرة أغلبهم من أبناء المناطق الشمالية وأبناء المناطق الشرقية ، وبهذا انطبعت المعركة بطابع الحرب الأهلية وأطلق على الصراع بين الثورة واعدائها ـ اسم الحرب الأهلية ـ مع أنها لم تكن أهلية وإنما كانت مسيَّرة من الخـارج •

ومن هنا تألب علينا الأعداء بتهمة أننا ثوار نريد فرض الثوريـة على مجتمع يرفضها ، وكانت هذه التهمة تزين جباهنا بغار الفخار •• لأننا ثوار ، فعلنا في بلادنا كما فعلت الشعوب الحية •• ومحونا عنا تهمة الموت التي كانت تلصق بنا قبل الثورة ، أما تهمة الثورةفقد كانت أوسمة شرف يتحلى بها أبطالنا •• كما كانت راية مبدأ تقاتل تحته جماهير شعبنا المستنيرة لأن بعض التهم القاب مجد •• وعلامة تغيير ، فقد كان يلقب الأنبياء بالخارجين عن المألوف وبالمفرقين بين الأبنـاء والآباء •• وبمسفهي الأحلام ، أليست تهمة الثورية أوسمة شرف •• وصفحات بطولة وراية مبدأ ، وقد كنا تحت هذه التهمة أو الراية العظيمة نأخذ باعجاب الآخرين من الأخوة والأشقاء لأننا ثوار •• وكنا نستزيد من عداوة الفريق الآخر لأننا ثوار ، ونتيجة لازدياد العداوات والصداقات وقع الأنقسام بين المعسكرين •• فظهرت في الأخبار أسماء ومسميات لاتعهدها أربع سنوات من عمر الثورة •• فسمعنا بالجمهوري المعتدل، والجمهوري المتطرف، والرجعي المتطور، والرجعي السلفي ، وبهذا انحصرت تهمة الثورية على فريق معين ولكنه كان سعيدا بهذه التهمة ، كما كان الآخرون سعداء بالألقاب الجديدة ، أما العواقب فقد كانت بعيدة عن أنظارهم جميعا ، فقد استمر الطافر

في طفوره حتى استزاد من الصداقات والعداوات واستكثر المعتدل من اعتداله حتى استزاد من الصداقات والعداوات ايضا ــ ومن هنا ظهرت أسماء جديدة ، فقد أصبح الثوريون يتهمون باليسارية ، وأصبح المعتدلون منشقين أو شبه منشقين • فتكاثرت طرق المنشقين فمنهم من آوى الى خَمِر° •• ومنهم من لجأ الى عدن أيام الاستعمار، ومنهم من أرتمى الى حضن العدو المحارب فعاش على فتاته في عاصمته، أو عاش على فتاته في عواصم أخرى وعلى حساب سفاراته ، ومن ذلك الحين عرفت بيروت طغمة يسمون بالمنشقين ، ولا يتصفون بأية صفة ، لأنهم لايملكون راية ولا يحملون هوية ، وقد كانت حياتهم في بيروت مثار السخرية والتندر ، لأن الناس يعتادون حياة المناضلين •• وحياة اللاجئين السياسيين حياة الشظف والمعاناة لعظم همومهم وثقل مبادئهم، أما المنشقون عن الثورة اليمنية الى بيروت فقد كانت حياتهم بلا صفة ، وأقل ما توصف به أنها حياة غير شريفة ، لهذا كان أشباه المنشقين أكثر وطنية مهما كانت الشكوك في الأموال التي كانوا يصرفونها •

المهم أن الثوار تحولوا الى أصناف ، كما تحول الرجعيون الى أصناف ، لكن تهمة الثورة بقيت مضيئة على جباه أبطالنا وجبالنا ، ولا أحد يريد أن يتخلص منها ، لأنها تهمة وُصِمَ بها الأنبياء وكانت أوسمة شرف ، لكن هذا الانقسام قد أثر على الثورة أوضاعا وأرضا، وإن كان لم يؤثر عليها كحدث تاريخي • ومن هناك نشأت فكرة التصحيح الثوري وأخذت فكرة التصحيح تلوح وتختفي من حين الى حين ، ومن مكان الى مكان ، لكن الظروف كانت توقد النار تحت طبختها ، وكان تمادي الفريق الثاني في الطفور يزيد من فكرة عوامل التصحيح ، وتوالى الزمان في سيره غير آسف ولا ملتفت حتى توقف يوم الخامس من شهر نوفمبر لعام ١٩٦٧ م ليعجل بحركة التصحيح

البيضاء ، وتساءل المتسائلون هل كانت هذه الحركة ضرورية ؟ أم لاضرورة لها لزوال أسبابها ؟ ولماذا كانت بيضاء هل لأن الطرف المقاوم تخلى عن الميدان ؟ أم لأنها ولدت طبيعية ؟ •

لكن سكوت المولود لايدل على صحته •• كما يقول علماء الطب • المهم أن ذلك الحدث التصحيحي ولّد فكرتين فكرة امتداد الثورة كحدث أقوى من الموت ، وفكرة سلامة اليمنيين من الحرب الأهلية كمبدأ فوق الثورة ، ومن أهداف الثورة ، وعلى ضوء المبدأ الأخير •• أرسلت الوفود للمفاوضة مع أعداء الثورة لعلهم يهتدون ، إلا أن هذه المفاوضة كانت بعد الأوان، فقد سبقتها خطة غزو صنعاء•• واسقاط الثورة قادة وعَلما••فقطعت طبول الحرب همسات التفاوض، وأصبحت صنعاء نوفمبر أمام الغزو وجها لوجه •• فهل تلاقي عنترة « عنترة السّيوف » بالرياحين والزغاريد • كان لابد من أن تلاقيه بنفس العدة والاستعداد ، وعلى رغم عنف السبعين لم تمت فكرة سلامة اليمنيين كمبدأ فوق الثورة ، ومن أهداف الثورة ، ولم تمت فكرة إمتداد الثورة فاشتبكت النظريات بالألسنة والأقلام ، وطال اشتباكها حتى التهب يوم ثلاثة وعشرين اغسطس ١٩٦٨ م حيث أدارة المناقشة ألسنة النار ، وكتبها الدم من أبناء القضية الواحدة ، ولأول مرة يؤدي اختلاف الرأيين المتقاربين الى معركة طاحنة سرت العدو ، وأبكت الصديق لأنها احتدمت ، وعدو الفريقين على مرمى مدفع ، وقد كان لكل من الفريقين حجته لو هدأت الظروف ، لكن السفينة القوية تغرق في صخب الموج الهائج،وهنا نسجل بأمانة وحياد منطق الفريقين•• فأصحاب النزعة اليمنية بدون ثورية كانوا يرون أن الشعب بكل قطاعاته متمسك بالجمهورية ، وإنما أغضبتهم ظروف معينة قد انتهت برحيل القوات المصرية ، لكن أصحاب الفكرة الثورية كانوا يقولون أن الغزو الملكي على صنعاء حدث بعد أن انتهت

تلك الظـروف ، وأن العـدو المحـارب لا يصبـح صديقـا نصيرا ، وكان أصحاب الفكرة اليمنية يقولون إن الثورة رحمة وعدل ، وكان اصحاب الفكرة الثورية يقولون إن انتصار المبادىء بالسلاح أجدى للثورة من المهادنة •• ولكي يسلم كل الشعب لابد أن يموت بعض الشعب . وكان أصحاب فكرة السلام اليمنية يقولون لابد من استرضاء اصحاب الثقل ، وكان أصحاب الفكرة الثورية يقولون : مهما كانت للكثرة أهمية ، فان النقاوة أهم •لأن قطرات المطر أنفع إثمارا من أمواج البحر ، وكان أصحاب الفكرة اليمنية يقولون (كلنا يمن) ، وكان أصحاب الفكرة الثورية يقولون : إن اليمن هو الذي فجر سبتمبر ، وأن الثورة مطلب يمني ولا بد من الحرب حتى ينتصر الهدف اليمني في الثورة ، وكانوا يقولون إن الحرب الأهلية حدثت في كل شعب تفجرت فيه ثورة ـ فقد اشتعلت الحرب الأهلية في أمريكا سنوات ، ولم تصبح أمريكا المجزأة ولايات متحدة إلا بعد قتال خمسة عشر عاما ، ولم تصبح روسيا اتحاد الجمهوريات السوفيتية إلا بعد قتال سبعة عشر عاما ، وكان أصحاب فكرة سلامة اليمن يقولون إن طول الحرب يسكن الطامعين من التدخل في البلاد تحت ظل مساعدة الفريقين • ويقولون كلنا يمنيون مسلمون ، وكان أصحاب الفكرة الثورية يقولون : إن الوطنية الصحيحة تنشأ في ظل المبادىء ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحارب بأهل المدينـة بني عمه في مكة ، لأن قرابات المبادىء فوق قرابات النسب ، وقد عاش هذا الجدال الخصب المثمر بين القوى اليمنية مدة خمسة شهور ، حتى أطفأت بعضه أحداث اغسطس ١٩٦٨م واشعلت بعضه أحداث اغسطس ايضا ـ وبرغم هذا الانشقاق والاختلاف والجدال ، فما زالت تهمة الثورة (غار فخار) على جباهنا حتى بعد أن أصبحنا أبرياء من تلك التهمة ، وبرغم براءتنا من تهمة الثورية عمليا ، فقد أضيفت اليها تهمة

الرجعية ، ويشهد الله على براءتنا من التهمتين • ففي الفترة الأخيرة وقعنا بين تهمتين ، فبعض الجيران ومَن ورائهم يتهمونا بالثورية حتى بعد أن أصبحنا في ظل حكم المنشقين ، وأشباه المنشقين ، لكنهم لم يقفوا عن اتهامنا بالثورية مع أن براءتنا لاتحتاج الى دليل ، أما الجيران الآخرون ومن إليهم فيتهمونا بالرجعية، لأن المهادنين والمعتدلين والمنشقين والرجعيين المتلونين أصبحوا حكاما أو مُسَيَرين للحكم ، ويشهد الله أننا أبرياء من تهمة الرجعية ومن تهمة الثورية ، ولكننا سنبقى بين تهمتين ، تهمة الثورية من الرجعيين ، وتهمة الرجعية من الثوريين ، مع أننا أبرياء من كل صفة بدليل أن للرجعية مفاهيم ، وأذواقا وأساليب في الحكم ، وللثوريين مبادىء يموتون دونها ، وشجاعة أمام المغريات ، واستعدادتحت كل الظروف •

فلماذا تتهم بهذه أو بتلك ؟ ونحن كما يشهد الله أبرياء من التهمتين؟

* * *

الرشـوة من الضرورة الى الترف

الشجرات النافعة الإثمار تنمو بالتشذيب والتهذيب والتعهد ، والشجرات الشائكة الضارة تنمو بالإهمال ، ولا ينفع في اجتناب أذاها إلا اقتلاعها : لأن التهذيب لاينفعها ، والإهمال يزيدهـا ، هذه هي الآفات في عالم النبات ، والمنافع في عالم النبات أيضا . وكما في عالم النبات يوجد كذلك في عالم الحيوان ، فالحمـائم أودع الحيوانات وأشرفها ، حتى أنه يتم بين ذكورها وأناثها سلوك يشبه سلوك البشر الأخيار في علاقات الزواج ، فلا يقع ذكر من الحمام إلا على أنثى ، تم بينهما سلوك زوجي ، ومن عادات الحمائم الألفـة والشرب من أنظف المياه ، والأكل من أنقى الطعام ، ومثل ذلك النحل فلا تأكل إلا طيّبا ولا تنتج إلا طيّبا . لكن الذباب وهو يشبه النحل في الحجم وطاقة الطيران ، لايقع في الغالب إلا على أخبث الطعـام ، وأخبث الشراب ، وفي الحيوانات المتوحشة تتجلى فروق في سلوك المعايش والطباع ، فالنمور والأسود لاتفترس إلا لضرورة الدفاع ، أولضرورة الجوع ، ولا تأكل المَيتَة إلا في أقصى الضرورات ، إذن فالتمايز بين فصـائل الحيوان من طائر وسائر ، كـالتمايز بين البشر من شريف وخسيس ، ومن المعروف أن أقذر طعام هو طعام الرشوة ، وإن النزول إليها كتهافت الذباب على أي شيء يقع ، وليس من المعقول أن كل الناس يتهافتون على الرشوة ، لأن في الناس الشريف وفيهم الضعيف

الذي يسقط لأدنى المغريات، لكن الرشوة من أبرز الظواهر الاجتماعية لخطورتها ، لأنه لاينالها إلا القادر على الضر والنفع ، ولا يبذلها إلا من يريد الباطل حقا والحق باطلا ، وقد نمت الرشوة في بلادنا نموا تاريخيا عضويا وتقلبت عليها الأطوار ، فزادت نموا كالأشجار الشائكة التي ينميها الإهمال ولا ينفعها التهذيب ، وإنما يقضي عليها الإقتلاع . وعلى هذا فللرشوة أطوار تاريخية ، لأن التاريخ عرض لأعمال البشر من حميد وذميم ومحبوب ومكروه ، ومن العجيب نمو الرشوة على هذه الصفة في مجتمع مثل مجتمعنا الوافر الشهامة ، المرتبط بتقاليد الدين ، فقلما تجد كتابا من كتب الأحاديث وكتب الفقه لايندد بالرشوة والراشي والمرتشي . لكن التحريم والتحليل مجرد أوراق عليها مداد ، إذا لم تكن وراءهما قوة رادعة ، لأن سلطة الضمير تؤثر على الأنقياء ، ولقد كانت الرشوة محاربة وغير فاشية أيام كانت سلطة الدين مهيمنة على الضمير .. ولكن ليس كل الناس أصحاب ضمير ، فلم يكد يضعف سلطان الدين منتصف عصر بني العباس ومَن حولهم من الأعاجم ، حتى شاعت الرشوة كقضية لاجدال فيها .. وحتى أصبح الحرام « ما تعسر أخذه » كماقيل : ــ ولماانتهت السلطة العباسية المستعجمه حلت محلها السلطة العثمانية المستعجمة أيضا .. فزادت الرشوة شيوعا واتخذت لها ألقابا « كالبغشيش » و « مسح الشارب » و « حقوق الباب العالي » و « لوازم السلطان » ، وقد وقع اليمن كغيره تحت الاحتلال التركي ، فاستضاف كل ما جاء به الاحتلال وبالأخص الرشوة ، لما يترتب عليها من إبطال حق أو إحقاق باطل بقوة المال ، فكان الوالي التركي يرتشي ويبيح لولاته الرشوة .. المهم أن ينال منها السلطان وخادم السلطان ، ومن ذلك الحين نمت الرشوة نموا تاريخيا ، فقد بدأت بالبغشيش ، ومستلزمات السلطان تدل على المقدار الكثير (والبغشيش على القليل) ، ولقد انجلى

الأتراك مرتين عن اليمن ، ولم تنجل آثارهم السيئة ، وبالأخص الرشوة حتى في الجلاء النهائي الذي تم عام ١٩١٨ م • فمن ذلك الحين اتخذت الرشوة إسما آخر فانتقلت من عبارة بغشيش ومستلزمات السلطان الى « حق ابن هادي » وأصبحت كلمة « حق بن هادي » رمزا صارخا على الرشوة لمجيئه من حادثة • وذلك أن وفدا انجليزا ، أراد الوصول الى صنعاء عن طريق الحديدة ، ولم تسمح له قبيلة « الحواقر » بالمرور إلا عن أمر إمامي • ولم يقبل الشيخ هادي الرشوة من الوفد فدله أحدهم على رشوة ابن الشيخ هادي ، فنجح الوفد في الوصول الى صنعاء وإن فشل في مقابلة الإمام للتفاوض ، من ذلك الحين أصبح للرشوة لقب ذو دلالة على الخيانة وهو لقب (حق ابن هادي) وساعد على تفشيها انتقال بلادنا من عهد تركي شبه منظم الى عهد إمامي شبه فوضوي ، ولما استقرت الأحوال للإمام يحيى بن حميد الدين وانتهى الادريسي •• وهدأ التمرد دعت ضرورة الحكم الى زيادة الموظفين من حكام وعمال ومحاسبين ونواب ألوية ، وكانت المالية فارغة أو شبه فارغة فأبيحت الرشوة إباحة رسمية أو شبه رسمية •• لكن كيف كانت الرشوة من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٤٠ ميلادية ؟ •

كان الحاكم يرتشي من أصحاب كل قضية تقدم اليه ، وكانت تسمى هذه الرشوة « بالمواقف » •• وعند فصل القضية وكتابة هذا الفصل تعطى الرشوة باسم «حقوق الحكم» أو «إيجار كاتب المحكمة» •• وكانت من ريال الى عشرة ريالات ، كما كانت رشوة الموقف من أربع بقش الى ريال،هذا بالنسبة الىحكام القضاء الشرعي والجنائي•• أما بالنسبة الى العمال أو المحافظين حاليا ، فقد كان للرشوة مصادر أخرى • كان العامل هو الذي يعين المخمنين وقباضي الزكاة ، ومرجوعات شيوخ الضمان ، وكان على كل مخمن أو قباض أن يدفع

للعامل رشوة بمقدار حجم العمل والفائدة العائدة منه وتسمى « مرجوع الأمر » . وكذلك كان يفعل شيخ الضمان ، فقد كان كل هؤلاء يدفعون للعامل . ولكن من أين كانوا يدفعون ؟..

لقد كانوا يدفعون من عرق الفلاح والراعي والحاطب والبائع الصغير ، أما أموال الدولة ، فقد كانت تصل الى صنعاء عند كل حصاد ولا تخسر مالية صنعاء مقدارا قليلا أو كثيرا ، لأن العامل والحاكم كانا يباشران عملهما تحت شعار « واسرق لك » لكن المسروق هو المواطن الكادح .. ولكن (كيف كانوا يسرقون أولئك الحكام والعمال وهم من حملة العمائم والسُّبَح وحماة الدين) ؟..

لقد كانوا يبررون سرقاتهم أو رشواتهم بأنها ضرورة !. ولكن أي ضرورة هذه ؟!.

لقد كانوا يتقاضون مرتباً شهريا قدره ثلاثون ريالاً أو خمسون ريالاً لكل واحد . وكانوا يعتصرون الأموال ممن لا يكوّن دخله عشرين ريالاً في العام .. ومع هذا فقد كانوا يعتبرون الضرورة أكبر دوافع الرشوة،إلا أن هذه الضرورة تحولت الى ترف أو مرض. فقد جمع عمال المناطق وحكام القضاء آلاف الريالات .. وامتلكوا القصور والأودية ولم يقلعوا عن هذه الرشوة بعد أن استغنوا عنها لأنهم كانوا يرون أن لمس المدخر إخلال بالمال ، وانما يجب أن تضمن الرشوة صرف كل يوم ان لم تضف دخلا جديدا الى الدخل القديم ، ومن هنا أصبحت الرشوة (ترفاً لا ضرورة) ولا دعوى ضرورة ، لكنه ترف على إهزال الآخرين !!.

لكن .. لماذا كانت تدفع الرشوة ومن كان يدفعها ؟.

[illegible]

للرشوة هم الطامعون في أموال جيرانهم أو شركائهم في الإرث ، وعلى هذا فكيف كانت تبنى الأحكام الشرعية ، والرشوة هي المسيطرة على رأس حاكم القضاء وقلمه •• لقد كان فوق قضاة المحاكم محكمة الاستئناف ، وعلى رغم غزارة دخلها من الرشوة فقد كانت تراجع الأحكام بشيء من الدقة ، وبكثير من الاهمال ، فما أكثر ما تراكمت الأحكام في محكمة الاستئناف ، حتى أن الكثير من أصحاب القضايا ماتوا قبل أن ينظر الاستئناف في أحكامهم ، ومع هذه الشكليات كلها فقد كان حكام القضاء لبقين في تركيب صور الأحكام ، اذا أرادوا أن يحكموا لمن يعطي أكثر رجعوا الى الدعاوي والاجابات••وحذفوا عبارة من دعوى •• وأعدموا عبارة من شهادة ، وأضافوا أو أنقصوا كلمة من إجابة •• حتى يخرج الحكم صحيحا في تركيبه على الدعاوى والاجابات والشهود ، لأنها كانت تلقى في المحاكم شفاهاً ، ويقيدها •• أو يسجلها كاتب المحكمة أو قاضي الحكم كيفما أراد ، ويحذف أو يزيد على حسب دفع المبالغ ، وبهذا يسهل التصرف وتصبح الرشوة والعدالة أمرين لا غبار عليهما في الظاهر •

كان هذا تاريخ الرشوة من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٤٠ ميلادية ، وقد تسمت في هذه الفترة وما تلاها بـ « حق ابن هادي » ، أو بـ « حق القات » أو « ايجار المحكمة » أو « المواقف » أو « الهدايا » بمختلف أنواعها • وكان صفوة القول فيها : أن المواطن كان يستغل الى أقصى حد ، وتؤدى حقوق الدولة الى أقصى حد ، لا بدافع الأمانة •• وانما خوف العزل • ومن عام ١٩٤٠ م الى عام ١٩٤٨ م زاد مجال الرشوة اتساعا ووصولا الى القمة ، فقد كان أحد كتاب يحيى حميد الدين يقدر على العزل والتولية بمجرد •• كتابتهما ووضع الختم ، وكانت التولية على القضاء أو على المحافظة تكلف المتولي رشوة أولية عند تسلم الأمر من أحد كتبة الإمام ثم شهرية ثم سنوية

الى جانب الهدايا . وكان المتولي مضطراً الى الامتصاص ليؤمن بقاءه. أما المعزول فلا بد له من دفع رشوة أكثر لينال عملا أوسع ورشوة أولية ثم مرتبة . وقد كان كل كاتب من كتاب يحيى مخصصا لمنطقة معينة يملك قدرة التعيين والعزل والمناقلة ، ومنذ ذلك الحين تطور الترف في الرشوة الى أن وصل حد السرقة ، من أموال الدولة ، نتيجة ضعف الامام وكثرة أولاده وخصومات بعضهم على ولاية العهد ، حتى أصبح كتاب الامام هم الامام لاشتغال القمة بأمور عائلية وبفعل ما وضعت من أساس لإباحة الرشوة .

ولما انفجرت حادثة « حزيز » أو « انقلاب شباط عام ١٩٤٨ » الذي قضى على الامام يحيى .. أصبح الاخلاص للعهد الجديد بمثابة تأمين وترشيح وتزكية ، فمن تولى قضاءً أو عَمالةً فله أن يرتشي كيفما أراد .

المهم أن يكون مُخبراً . رئيس مخبرين ، يرفع القرارات المنظمة عن حركات الأحرار أو الأشرار على الاصطلاح الرسمي في ذلك الحين.

ومن عام ١٩٥٠ أصبحت الرشوة رسمية أو كالرسمية المعلنة ، لأن المرتشي مخلص لا شك في إخلاصه ، لأن له سوابق في محاربة الدستوريين والقبض على أتباع الدستوريين ، وكان الدليل على الاخلاص يتركز في ثلاث نقاط هي : ـ

١ ـ البراءة من عهد الدستور .

٢ ـ تقصي الأحرار .

٣ ـ قصيدة أو مقالة أو تهنئة في صحيفة (النصر) أو (سبأ) أو (الإيمان) ، تندد بأبطال شباط ، وتشيد بمن قضوا على رجال شباط . ومن اكتملت به هذه المؤهلات فهو حر في كل تصرفاته وفي

كل ما يأخذ ويترك من أموال الدولة والشعب معا ، ونمى هذا الفساد حتى عام ١٩٥٥ ، وساعد على نموه وجود ما كان يسمى بالديوان الملكي ، فمنه تصدر الأوامر واليه تبعث الأموال حتى وصلت الرشوة الى الحاشية والحظايا من أميرات وغير أميرات .

وكان إبريل عام ١٩٥٥ ، نهاية فساد وبداية فساد أشمل ، لأن بعض حكام القضاء وعمال المناطق اتهموا بمشايعة انقلاب عام ١٩٥٥ م ضد الامام (أحمد حميد الدين) ، ومنهم من أدينوا ، ومن ذلك الحين بدأت أبواب سجون ثمانية وأربعين تتثاءب فينسل منها السجناء مثنى وفرادى وجماعات ، واذا أكثر سجناء ثمانية وأربعين يصبحون عمالاً أو حكام قضاء أو أعضاء هيئة شرعية أو ديوان ملكي . واذا هم يستفيدون من السلف .. ويثأرون على جوع (حَجَّه) بالرشوة والسرقات ، لأنهم كانوا أحراراً مؤقتاً أو عندما كان التحرر طريقاً الى المناصب ، لكنهم من عام ١٩٥٥ الى عام ١٩٦٢ كغيرهم من المرتشين باسم الضرورة في أول الأمر ، وترفاً ومزيداً من الترف في آخر الأمر ، وتمادت هذه الحال حتى قطعتها مدافع السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ م ، وظن المثاليون والحالمون أن عهد الرشوة قد انتهى ، وأن تغيير المجتمع يتم بثلاثين طلقةً من مدفع وبخمسة بيانات من المذياع ، وعلى كل حال لقد هزت الثورة أعمدة العهد البائد وهزت وجدان المجتمع الى القرار ، وكان في الإمكان أن يبدأ التغيير عند آخر طلقة مدفع ، وآخر بيان .. لأن الثورة بدأت عهدها بطابع العنف الأحمر . وكان هذا عامل تغيير لو راقبه الفهم وسايرته اليقظة ، لكن العنف كان على غير بصيرة ، وعلى غير دليل نظري كافٍ ،كما كان الاعتدال فيما بعد على غير دراية . لهذا لم يكد يمر عام أو عامان حتى عادت الرشوة في وجوهها القديمة وفي وجوه جديدة أكثر

جشعاً وأكثر دراية • وفي أمن وصفاء لا تكدره حتى كلمة استنكار ولامخافة عزل لعلو مناصب المرتشين •ولقد توالت البيانات الرئاسية كما تتوالى خطب الجُمع •لكن الى الآن لم يعزل مرتشٍ •ولم تصادر أموال مستغِل بل الأمر بالعكس،فقد ينقل الوزير المستغل أو المرتشي من منصبه في وزارة الى كرسي الاستشارية بالقصر الجمهوري ، وإذن••فالقضية شطرنجية لا أقل ولا أكثر ، واذا وجوه اللاعبين هي نفسها بلا تغيير ، فكم يسمع الشعب عن وزراء أدينوا شعبياً بسرقات الألوف،وفي الوقت الذي ينتظر فيه اصدار اقرار العقوبة يسمع قرار الترقية بعد الاطلاع على الدستور ، اذا هل ما يجري الان يسمى « رشوة » ؟ •

نعم — هي رشوة صارخة يعطيها الضعفاء من الباعة الصغار والمواطنين العزل ، وهي من جهة ثانية سرقة لاموال الدولة باسم « الميزانية » للمرابطين أو باسم قادة الاسلحة أو باسم « سلفة الوزارة » و « اعتماد المكتب » ، وقد أصبح الحديث عن هذا الاستغلال ، مجرد أخبار مألوفة أو كالتحية وجوابها ، أو كأخبار الجليد في أوربا •

المهم أن السرقة والاستغلال أصبحتا في مجال التبجح والافتخار كما لو كانت أعلى طراز في البطولة أو أنصع صفحات الانتصار،وهكذا انتقلت الرشوة في بلادنا من ضرورة مزعومة الى ترف ولهو ، والى سرقة تحت شمس النهار والى خيانة وطنية ، وهذا بفعل كثرة استعمال الأوراق المتسخة عهدا بعد عهد ، ومع هذا فشعبنا لم يعدم ولن يعدم رجالا تميزوا بالنزاهة تميز الذهب على الحصى ، وتميز النحل على الذباب الا أن المصيبة العظمى في هذا المجال أن الرجال الملوثين أقدر على اعتلاء الكراسي وامتصاص الشعب كأن التلويث شهادة ترشيح وتزكية حتى في عام ٧٠ من القرن العشرين •

تلك حياة الرشوة مع ما يصاحبها من فساد وانحطاط ، فهل عام (٧٠) نهاية عمرها ؟ .

لايدري أحد لأن الخطايا طويلات الأعمار اذا لم تجد من يبترها ، ومجرد انفجار الأحداث لايغير المجتمعات مالم يكن الانفجار عن ضوء الفهم وانارة البصيرة ، وقيادة الفكر الرشيد . لقد عرفنا كيف تطورت الرشوة .. واين بلغت .. ولا ندري الى أين ستمتد بها الاشواط ؟.. لكن للشعوب مفاجئات من وراء الظنون ، ولا يخلو عام من ليلة قدر .

* * *

من سيطرة الواقع إلى السيطرة عليه

في داخل كل شخص شخصان : شخص يَقبل ، وشخص يرفض ، لأن في خارجه واقعين ••واقعا مقبولا ولو بالإرغام •• وواقعا مرفوضا ولو لمجرد الرفض •

تلك هي حياة البشرية منذ عرفت تاريخيا ، في الأزمان التي كانت فلسفتها الواقعية تجتمع في كلمة « ليس في الأمكان أبدع مما كان » • لم يتوقف الحنين لأن هذه الفلسفة لم تكن مقنعة ولا معوقة عَنْ طلب الأجود بدليل ماتعالت من أصوات التذمر من أمثال :

أمـا تحرك للأفلاك نابضة　　　أما يُغيَّر سلطان ولا ملكُ ؟

ومن أمثال :

ذَلّ من يغبط الذليلَ بعيشٍ　　　رُب عيش أخف منه الحِمامُ

أليس داخل كل شخص شخصان ؟• شخص يقبل الواقع مرغماً وشخص يرفضه ولو لمجرد الرفض ؟•• اليس في هذا دليل على أن في الامكان أبدع مما كان ؟•

لكن الواقع كان يملك كل السيطرة وكل أسباب السيطرة ، ولم يكن الانسان يملك قدرةَ تَملّك الواقع ، لأن الواقع بشـقيه المقبول والمرفوض كان الأقـدر على السيطرة •• لأن الأحلام

في التغيير تملك حرارة التمني •• ولا تملك قدرة الفعل والتغلب على امتلاك الواقع ، لهذا انصبت كل الفلسفات على الكون ••

ما أصله ؟ وما مصيره ؟ وما ماهيته ؟ وكيف يبقى في الكينونة ؟ وإلى أي مدى تُفضي هذه الديسومة ؟•

والسبب الذي أثار كل هذه الأسئلة : هي الدهشة المذهلة من جبروت الواقع وقدرته على السيطرة •• لكن من كان يدري أن هذه التساؤلات أول مفاتيح الأسرار ، وأول وسائل السيطرة على الواقع الذي دامت سيطرته ؟•

فعندما بدأت بعض الأسئلة تجد جوابها •• وبدأت بعض الأجوبة تستثير أسئلة ، بدأت صفحات الكون تسلم اسرارها أولاً فأول • وكانت فلسفة (ليس في الأمكان أبدع مما كان) مجرد تسلية في حالات العجز • لكنها لم تكن مانعة للانسان من أن يسأل ، ولا مانعة للجواب من أن يستولد سؤالاً •

المهم أن الواقع الذي كان يطحن البشرية بسيطرته أخذ يعطي بالتدريج وسائل السيطرة عليه ، حتى ولو فشلت هذه الوسائل في أغلب الأحيان ، فقد تركت تجارب للنجاح ، ومن يدري أننا استفدنا من شعر المتنبي أكثر مما استفاد سيف الدولة وكافور •• فما السبب يا ترى ؟•

السبب أن المتنبي طمح وحاول ، وفشل فعبر عن طموحه وفشله ، ولو نجح في طموحه لما استفادت الأجيال العربية من تجاربه ، لأن من يعيش الطموح عملياً لايترك لنا تجربة تتعزى بها عند الفشل وتتخذ منها ذخيرة عمل • فقد أراد المتنبي أن يسيطر على الواقع فابتلعه تياره •• لكنه خرج لنا بخبرة السابح الذي يُعلمنا مغالبة الموج •

فلو أصبح المتنبي ملكاً من عشرات ملوك عصره لشغلته الوصائف ، وأسكتته الكؤوس عن انطاق تجارب الحياة ، لكنه عاش الفشل عملياً ليسمعنا حكمة الحياة فناً •• فلخص لنا طبيعة الحياة والأحياء في بيتين :

« إنما أنفس الأنيس سباع   يتفارسن جهرة واغتيالا •
من أطاق التماس شيءٍ غلاباً   واقتداراً لم يلتمسه سؤالا • »

وعلّمنا أبلغ درس في الطموح في بيتين : ـ

« إذا غامرت في شرف مروم   فلا تقنع بما دون النجوم •
فطعم الموت في أمر حقير   كطعم الموت في أمر عظيم • »

فقد سيطر الواقع على المتنبي عملياً ، وسيطر المتنبي على الواقع ذهنياً ، وكل الناس كالمتنبي في العنصر الانساني ، الا أن ليس كل الناس قادرين على ترجمة التجارب • لكن كل الناس يعيشون واقعين، مقبولاً بقوة السيطرة ، ومرفوضاً بدافع الطموح إلى الأفضل • ودافع الطموح أثار التساؤل حتى انتقلت قافلة الفكر من مجاهل الوجود إلى تجربة العمل • فبدأت قافلة العقل تجرب منذ مأتي عام • وتلخصت تجارب الفكر في كلمة واحدة « ليس تحت الشمس مستحيل » أو في كلمة « كل شيء ممكن » وكانت هاتان العبارتان حديث كل الناس •• لكن ؟؟•

هل هذا صحيح ؟ هل انعدم المستحيل ؟ هل كل شيء ممكن ؟• هذه المسائل نسبية ، فالممكن بالنسبة الى فلان ، مستحيل بالنسبة الى فلان • والصعب على فلان أصعب على فلان •

المهم أن الأستحالة والأمكانية تتفاوت بتفاوت شعوب وأفراد ، الا أن تجارب البشر للبشر كضوء الشمس للجميع ، فيبدو أن المستحيل يصبح غير مستحيل بتوالي التجارب وفهم النجاح والفشل

للآخرين . فقبل خمسمأة سنة كان ضوء القمر مطمح أنظار البشرية جمعاً ، لكن سطح القمر أصبح اليوم تحت أقدام بعض البشرية . على حين مايزال عند آخرين مجلى العيون ومسرح الأحلام ، لكن الذين داسوا سطح القمر بأقدامهم كانوا مثلنا يتغنون بضوء القمر. ومن الممكن أن تصل أقدامنا إلى حيث وصلت اقدامهم ، لأن التجارب تمتنع على الإحتكار ، وتعبر القارات كرحلة الشمس والكواكب . المهم أن نحلم لنفكر ، ونفكر لنعمل ، وبالحلم والفكر ننتقل من سيطرة الواقع علينا إلى السيطرة عليه مادياً ، فمن الغباء أن نتعلل اليوم بكلمتنا الشائعة « هذا واقعنا » . فليس الواقع تربة الأرض التي تتحرك عليها، وإنما هو متحرك في صيرورة دائمة، والواقع الاجتماعي يمكن تغييره بمجرد تغيير نفوسنا الى أفضل، واذا كان علينا أن نعيش واقعين فعلينا أن نتبنى من أفكارنا واقعاً أفضل ليسهل اقتلاع الواقع الأول جزءاً جزءاً، وابداله بجديد جزءاً جزءاً إن لم يكن دفعة واحدة ، فقد علمتنا حياتنا المعاصرة القريبة والبعيدة .

ان تغيير الواقع بمسايرة حركته ممكن، ومن يسافر من صنعاء الى الحديدة اليوم يعرف كيف كانت هذه الطريق جبالاً وعرةً شاهقة يتكىء على جباهها القمر ، حتى أن (جبال حراز) في سموقها كانت مضرب المثل .

والآن أصبحت ذوائب الجبال ممراً سهلاً تحت الأقدام والعجلات. وكل هذا حدث بمجرد التفكير في امكان اقتلاع الجبال وتمهيد الطريق . أليس هذا دليل على أن الواقع ممكن التغيير إلى أفضل ؟. لكن لماذا نتعلل اليوم بكلمة « هذا واقعنا » فإذا سألت أي وزير أو أي رئيس وزراء ماسبب عجزهم عن تحقيق أي شيء قالوا : « هذا واقعنا » ، حتى أصبحت هذه الكلمة شعاراً ثورياً وإن كان يدل على انعدام الثورة وعلى الإستسلام للعجز .

اليس هذا تبريراً سخيفاً ؟ فكلما وجدنا عجزاً في أجهزة العمل قلنا « هذا واقعنا » وكلما تمادى الإستغلال المخجل •• قلنا : « هذا واقعنا » ، وكلما تمادى الإحتكار قلنا « هذا واقعنا » • الحقيقة أن هذا ليس واقعنا •• وإنما هذه طفيليات على الواقع وجدت العناية من العاجزين على التغيير أو الكارهين له ، ولنرجع قليلاً إلى الوراء لنعرف أن واقعنا مملوءٌ بالطفيليات التي يمكن إ ستئصالها بمجرد رفضها وابدالها بأحسن منها •

كان شعبنا قبل عشرين عاماً مثلاً يحلم بالتورة مجرد حلم ، وكان يعيش بين واقع يطحنه ، وبين واقع يحلم بميلاده ، ويعمل لتحقيق هذا الميلاد •• فلو قلت لأحد شيوخ بلادنا قبل عشرين عاماً إن بلادنا سوف تنتقل من الملكية الى الجمهورية : لاغلق أذنيه وقال (صه) بأربع شفاه • ولو أعلنت تنبؤك قبل عشرين عاماً بأن المرأة في بلادنا ستصبح عاملةً ومدرسةً وممرضةً ومذيعة •• لكان تنبؤك هذا ضرباً من هذيان المجانين ، والسبب في ذلك أن حكام العهد البائد كانوا يبررون عجزهم عن التغيير أو كراهيتهم له بواقعية الشعب ، مع أن هذا واقع مُفْترى عليه ، فعنـدما تيسرت للشعب أسباب الصحة والتعليم والعمل •• تدافع الى هذه المجالات • فبعد أن كان يخاف رجل البادية على أولاده من المدرسة •• أصبح أولاد القرى يتدافعون الى العاصمة من أقصى اليمن الى أقصاه • وأصبح أهالي المناطق جميعاً يطالبون المسئولين بالمزيد من المدارس والمستشفيات ••

أليس هذا أقوى دليل على رفض الواقع المزعوم ، واختيار الواقع الأفضل ، الذي يحظى فيه الانسان اليمني بإنسانيته ليعيش الحياة ، لا ليكابدها ؟•

والآن وقد رُفض واقع، وحل محله واقع أجدّ نسبيا•• فمن الممكن إبداله بواقع أكثر جدة وأكثر نظافة وأكثر إمكاناً لتجديد كل واقع •

فليست كلمة « هذا واقعنا » أمر" مبرر لكل عجز ولكل خيانة ، لأن الواقع السيء مرفوض ولو لمجرد الرفض ، والواقع الأجد الأنظف مطلوب ولو بمجرد الأحلام والأفكار •• لأن الحلم دليل الفكر ، والفكر دليل العمل •

فمن الممكن القضاء على الإستغلال بعقوبة أكبر المستغلين ولو مرة واحـدة ، ومن الممكن القضاء على التلاعب بعقوبة متلاعب أو متلاعِبَين،وباليقظة الدائمة علىحسن سير الأعمال•ولايمكنأن يتوب المرتشي أوالمستغل بمجردالوعظ والبيانات•لانالناس فيأصل طباعهم عبيد مصالحولا يمنعهم من الاسترسال الاسلطة تحمل المصباحفي يد، وخطة التنفيذفي اليدالأخرى•أمااذاتمادى الوصوليون فيخدمة مصالحهم بلاخوف فسوف يصبح الحارس لصا،والأمين خائنا بالعدوى•وقدتقول«هذاواقعنا» لكن هذا مجرد لصقات علىجراح •• أوطفيليات على الحياة•• لكنهليس واقعاً ثابتاً ثبات رقعة الأرض التي تتحرك عليها •• بل الأرض التي تتحرك عليها يمكن تغيير وجهها ، « وحسن الأرض حين تُغَيَّرُ » كما قال : الطائي •

فيا سيدي الواقع لست الملوم•• لانك تسيطر علينا، وفي يدنا امكان السيطرة عليك •• فقبلنا انتقلت مئات الشعوب من سيطرة الواقع الى السيطرة عليه ، ولسنا الا" شعباً من شعوب هذه الأرض العريضة •• ولا تنقصنا خصائص البشرية •• فليس على هذه الأرض انسان" يفضل المرض على الصحة ، أو يؤثر المكابدة على السعادة •• أو يختار البؤس على الرخاء ••

فالأفضل والأعم نفعاً هما مطلب البشرية منذ تصارع الحق على لسان النبي وحربة السفاح، ومنذ تلاقت (خيريّة بوذا وشرةيهوذا) • فلا بد لهذا الواقع أن يثأر على طفيلياته •• وتنتقل جماهيرنا من الواقع المفروض الى الواقع المنشود •• ولقد بدأت الطريق •

الجماهير من التبعيّة إلى فلسفة القيادة

كان يتواصى ملوك فارس بهذه الوصايا : —

« يابني ، لاتأمن غفلة اثنين : الزمان والناس ، سكون الدهر استجماع للوثوب ، هدوء الناس استعداد للخروج ، اذا سكنت الدهماء سقط الوزراء . » هذا النوع من الوصايا القديمة يدلنا على أن الجماهير الشعبية يقظة المراقبة على الحكام .. وإذا هدّأتها حالات .. هيجتها حالات أخرى .. لكنها لم تهدأ الهدوء الدائم حتى قبل أن تعرف كلمة جماهير . وإنما كانت تسمى بالناس كما في وصايا ملوك فارس .

وإذا رجعنا إلى التواريخ العربية فسوف نرى تفجرات الجماهير من حين إلى حين .. وبرغم أن التاريخ العربي تاريخ سياسي يُعنى بالملوك وفتوحاتهم وما قيل فيهم من الأماديح .. فلم يستطع التاريخ إغفال حركة الجماهير ، وان كان التاريخ لايقصد تسجيلها .. وإنما استهدف أعمال الحكام بما فيها اخماد حركة الجماهير .. فقلما تجد تاريخ ملك خالياً من انتفاضات الجماهير التي كانت تسمى بالفتن . (فإبن الأثير) مثلاً يتناول كل خليفة ويعدد كم تفجرت في أيامه من أحداث .. فيقول : « في أيام الخليفة فلان ، تمرد أهل البلد الفلاني ، وتمرد أهل المكان الفلاني ، وأخمد الخليفة فلان أصحاب حركة

مذهب كذا » وعلى هذا فقد كانت الجماهير عند كل نداء مفجرة كل حدث •• حتى وصفوا بأنهم أتباع كل ناعق • لكن هل هم أتباع كل ناعق ؟ •

إذا كان في حركة الجماهير مايسيء أو مايعيب •• فليس الذنب ذنبها •• وإنما ذنب القيادات المغررة الوصولية •• لقد كان سقراط ينوي خدمة الجماهير وكرامتهم ، في إقامة الحكم الذي يخدم مصالحهم ، وعلى رغم نيته الحسنة نحو الجماهير •• فقد شرب السم تحت تأثير الجماهير وضوضاءها •• لكن لم تكن جماهير أثينا مسئولة عن اسائتها نحو سقراط ، وإنما الذنب ذنب القيادة التي استغلت عفوية الجماهير • ومع هذا فقد شرب سقراط السم مختارا وان جحدته الجماهير ورفضت صنعه • ذلك لأن عظماء الرجال يبذلون التضحية لوجه التضحية •• لا لوجه الوصولية وشراء الهتافات الجماهيرية • والأنبياء عليهم السلام لاقوا أشد مالاقوا على أيدي الجماهير المغرر بها •• لكنهم كانوا يجهدون في خدمة هذه الجماهير ولو كابدوا عقوقها ، لأنها لم تكن تدري من يقودها إلى الهدى أو من يوجهها إلى الضلال •• لكن الجماهير تعرف بعد وقت طويل أو قصير من يستهدف نفعها ، ومن يبتغي نفع نفسه من توجيهها والتغرير بها • ولقد عرفت جماهير مكة أخيراً أن محمداً الذي كانت تُغرى بايذائه هو الذي ساوى بين (بلال الحبشي) و (ابن عمه علي) • وساوى بين (راعي غنم أم عبد) وبين (أبي سفيان سيد القوافل) • فالجماهير لم تعدم من يسعون لكرامتها ونفعها ، حتى ولو جحدت هذا السعي •• وفرشت طريقه بالصخور والهوّات ، فحركات الجماهير في كل حين حركات مباركة • وإنما يجملها أو يقبحها حسن القيادة أو سوؤها ، لأن كل قائد يستغل مافي نفوس الجماهير من حرمان وكبت ••فيُفجّر

طاقتها ويدمر بها .. وهنا يختلف القادة ، فمنهم من ينتصر بالجماهير ومع الجماهير لخدمة النفع العام ، ومنهم من يتخذ من غضبة الجماهير وصلة لأغراضه ، ثم ينسى السُلَّم الذي بلغ القمة به . فلم يعد يذكر هذا السلم الجماهيري الا حين يهتز تحت قدميه ويسقط تحت أقدام قوافله الزاحفة .. هذا هو شأن الجماهير أيام كانت أتباع كل ناعق كما قيل : لكن سنة الترقي الدائمة تعمل عملها في كل شيء .. وهي في الإنسان أكثر تأثيراً .. والجماهير هي صورة الاجتماع الانساني ومطامح الشوق البشري ، فقد تأثرت بعامل الرقي الذهني . فقد كانت تقول : اذا رأت الحاكم المطلق « هذا ولي الله ، أعطاه الله » . أما اليوم فقد تلخصت فلسفتها في كلمة « من أين لك هذا ؟ » فلم تعد تؤمن بوراثة المجد وسيادة العرق وأصطناع الأبهة وانما هي تحدد موقفها من كل عمل ومن كل صاحب عمل ، حتى تحولت من تبعية الناعقين إلى فلسفة القيادة . فكل عمل أبدعه الأبطال ، وكل ارادة نفذها الساسة كانت من وحي الجماهير ومن نار حماسها . فقبل أن يطالب سعد زغلول بمفاوضة الجلاء كانت مظاهرات الجماهير تهز الأرض تحت أقدام الإستعمار ، ومن هذه النار الجماهيرية يستمد الزعماء نار اعتقادهم ونور أعمالهم . حتى أصبحت فلسفة الحكم تتلخص في هذه الكلمة «الجماهير هي المبتدى وهي المنتهى ». لأن الجماهير لم تعد مجرد اتباع وانما أصبحت إرادة القيادة وفلسفة الحكم ، وما تنازل ملوك أوربا وأباطرتها عن حقوقهم الإلهية المزعومة الا تحت وطأة الإرادة الجماهيرية ونار الحماس الجماهيري .

ومن هناك تكونت فلسفة الحكم التي تتلخص في هذه الكلمة ، ان الشعب هو (مصدر السلطات) وسيد الأرض . لقد فرضت الجماهير فلسفة القيادة ووجهة الحكم ، ولم تعد مجرد تابع لأي ناعق

وانما مراقبة في يقظة النجوم وحركة الفلك ، وكل أرض تتعطل فيها إرادة الجماهير أو يخفت صوتها فهي أرض بلا سكان • ولكن للجماهير حالة هدوء أو حالة تعطل ، وهدوؤها أو تعطلها هو السكون الـذي يسبق العاصفة • ولقد جربت بلادُنا تعطل الجماهير وفاعلية الجماهير، فعرفت أن كل فشل أصابها يرجع الى تعطل الجماهير عن الحركة ، وكل نجاح أدركهـا يرجع الى حركة الجماهير • فمثلاً على ذلك (انقلاب ثمانية وأربعين) الذي فشل في اسبوعه الثالث ، فقد كان إخفاقه راجعاً إلى خلو الميدان من الجماهير الواسعة • ومثلاً ثانياً : (انقلاب خمسة وخمسين) الذي مات في يومه الخامس من عمره ، فقد كان موته يرجع الى تعطل الجماهير أو خلو المجال من سيولهم الهادرة ، وإلاّ من كان يتصور أن رجلاً مريضاً كالإمام أحمد يخرج في عام ١٩٥٥ راكباً جواده ، متشحاً سيفه ، وبهذا الفرس وهـذا السيف يغلب جيشاً مسلحاً بالمدافع والرشاشات والبنادق • إن غلبته وهزيمة الجيش المسلح ترجع الى خلو الميدان من الجماهير ، لأن تعطل الجماهير عن أي حركة اشعر المخلوع بخلو الشوارع من أمواج الشعب الكاسحة • لكن عندما حدث العكس في عام ١٩٦٢ م رأينا كيف انتصرت الثورة • فعندما أعلن مذياع صنعاء قيام الجمهورية •• خرجت الجماهير التعزّية في مظاهرة صاخبة ، وهناك حدث مالاينتظر ، فقد كان الأمراء والحكام يسلمون أنفسهم بمجرد رؤية المصفحات ، مع أن قصورهم محمية بالحرس المسلح ، ومصفحات الجيش لاتملك أي نوع من الذخيرة في الساعات الاولى للثورة •

فلماذا انتصر الجيش الأعزل عام ١٩٦٢ على الحكام المسلحين ؟

السبب أن هناك سلاحا أقوى من كل قوة •• ذلك السلاح هو تيار الجماهير الجـارف الذي هزّ الأرض بالركض ، واشعل الجو

بالحماس • فامتلاءُ الشوارع بالجماهير المناضلة • أفقد الحكـام كل ارادة وأفقد أسلحتهم فاعليتها • فالجماهير هي القوة الغالبة دائما ، وإرادتها هي فلسفة القيادة وقانون الحكم •• والمغرور المخذول من اغتر بغفلتها • لأنها غفلة الى أمد أو نومة الى صحو محرق •

فبعد سبتمبر ١٩٦٢ توالت حركة الجماهير الواعية من حين الى حين ، بحثا عن الحكم الأصلح وعن استعادة كرامة الشعب • وتتيجة لهذا عقد مؤتمر عمران كمطلب جماهيري • وتساءلت الجماهير عن قراراته وتنفيذها ، ولما عرفت خيبة مؤتمر عمران تجمعت من جديد وعقدت مؤتمر خمر • وكان أكثر شعبية كما كانت قراراته أكـثر جماهيرية •• والآن وقد أصبح زعماء مؤتمر خمر هم الحاكمين •• فان الجماهير تسأل هل فرضت أرادتها فلسفة القيادة ؟ وهل هي المبتدأ والمنتهى ؟ وهل الشعب سيد الأرض ومصدر السلطات • كما وعدوا ؟

لعل زعماء خمر والذين أصبحوا حكاما يأسفون اليوم اذا ذكر الشعب أو ذكرت الجماهير التي تحدثوا باسمها طويلا، والتي تجاهلوها عندما بلغوا المراد باسم الجماهير •• قد يمكن أن تنس الجماهير وتنسى نفسها ، ولكن قد تتجدد الأسئلة وربما تكون هي الجواب ، بل قد دللت الجماهير على وجودها عند كل نداء • فقد رفضت اللجنة الثلاثية•• وسجلت هذا الرفض بالدماء الزكية في ثلاثةاكتوبر ١٩٦٧م• ودللت على أنها تعرف ماذا تريد •

ففي حرب السبعين اليوم نادى الوطن جمـاهـيره •• فتلاقت أفواجها في المقاومة الشعبية التي حققت الى جانب القوات المسلحة أروع نصر عرفته صنعاء ، وكانت الجماهير بهذه التضحية تعرف ماذا تريد لولا أخطاء المنظّرين والقادة ؟ • فلقد ضحت بسخـاء منقطع

النظير وكان السلام والإستقرار ثمرة صمود الجماهير وإن كانت الأسئلة لم تهدأ .

هل تراجع العدو نتيجة صمود الجماهير ؟ .

هل السلام ثمرة التضحيات ؟ ـ إذا كان هذا وذاك : ـ

فمن الذي تصدق علينا بالإستقرار والسلام ؟ .

إن العدو الذي يدق طبول الحرب لايهدأ إلا مرغما .. وليست الحرب إلا التخلي من الشعور الانساني .

إن السلام المنبسط على بلادنا نتيجة تضحية جماهيرنا . ولكن لاينبغي أن يكون السلام أسوأ من الحرب وأسوا من انتصار العدو.. ولا ينبغي أن يضيع نضال الجماهير بلا ثمرة ، فما سقطت جماجمهم إلا لتعلو راية الشعب ، وتنتصر ارادة الأغلبية .. لاالتحكم حفنة من المشبوهين .

هذه هي مطالب الجماهير وفلسفة القيادة ؛ أو ينبغي أن تكون.. لأن مطالب الجماهير هي مصدر حياة القوانين وأصل شرعيتها . لأن نار الحماس الجماهيري تنقل العدوى والتأثير الى كل قائد .

والدليل على هذا الانتصار الثورة بصنعاء ، وانتصار العروبة في مؤتمر الخرطوم عام ٦٧ م . فلقد تلاقى قادة العرب ليتدارسوا أنصاف الحلول .. ولكن الجماهير السودانية تدفقت كالأمواج العاتية وهي تهتف :

أقسمت لامهادنة — الموت للصهاينة
من المحيط الهادر — الى الخليج الثائر
لبيك عبد الناصر

وتوالت هتافات الجماهير السودانية تتقد وتتقد حتى فرضت على قادة العرب : لا مهادنة •• لا مفاوضة •• لا استسلام ، وهكذا كونت الجماهير ارادة العمل وفلسفة القيادة •

فالجماهير المعاصرة تمتاز على أسلافها بفرض مطالبها عن وعي ، ومراقبة القادة حتى لاينحرف من أراد الإنحراف • ولا يخون كرامة الشعب •• من لاكرامة له •• فلم تعد جماهير اليوم أتباع (كل ناعق) • وإنما مصدر السلطة وسيدة الأرض •• وفلسفة القيادة •

* * *

النائمون في طريق السيل

ما أكثر الذين أصمتهم ضجة اللذة عن نداءات الجراح، ولكنهم عرفوا أخيرا أنهم نائمون في طريق السيل •

وأي سيل أعظم من سيول الله (الجماهير) إذا تدفق فهو لا يبقي ولا يَذر من كل ظاهرة سوء ومن كل معوّق لضياء الله ، وأشد ماتكون الجماهير سخطاً وانتقاماً عندما تمس في حقوق بطونها ، فقد تطعن في كرامتها فتغضي مؤقتا وقد تقيد حريتها فتصبر في انتظار ، وقد تصاب في اعراضها فتتحمل في تربص ، أما عندما تصاب في أساس عيشها فلا تنتظر ولا تتمهل ، إذ ليس هناك حافز على الأستماتة أقوى من الجوع •

سئل سليك بن السلكه « عندما تغامر في قتل الغني هل تأمن من سيفه ؟ • »

فقال : من كان مثلي في حالة الجوع وعيال •• لا يبالي وقع على الموت ، أو وقع الموت عليه ، هذا أيام الفردية والإنتقام الذاتي •• ، أما في عهد الجماعة وحقوق الجماعات ، فلا مرد لسيول الله من الجماهير الجائعة ، لقد تدفق الشعب الفرنسي أول ما تدفق مطالباً بالخبز قبل أن يطالب بالحرية ، ولما لم يجد الخبز ناضل واستمات ، ــ والأحداث يجر بعضها بعضاً ــ (حتى أدرك الخبز والحرية)

وأشد الأيام عنفاً أيام الثورة الفرنسية ، هو يوم الأيدي الناعمة •• فقد عرف الشعب الفرنسي أن على أرضه محتكرين وتجارا كانوا ينعمون ويتضور الشعب ، حتى أن الجماهير الفرنسية كانت تُخرج المحتكرين وتلمس أيديهم ورقابهم ، فتقطع كل يد ناعمة •• لأن سمنتها جاءت من نحول الشعب •

هذا بالنسبة الى الجماهير الفرنسية ، ومثلها الجماهير الروسية • عندما كانت تعود الطوابير بلا أرغفة ، والآن كادت أحوالنا تشبه أحوال أولئك •• فهل يأمن الاقتصاديون والتجار المحميين بالحكام غضبة سيول الله (الجماهير) ؟•• إذا لم يحاسبوا أنفسهم ويستيقظوا على الشعب •• فسوف يعلمون ـ حين لاينفع العلم ـ أنهم كانوا نائمين في طريق السيل •

ولقد بدأت الحكومة تتكشف هذه الحقائق المرة وتخاف عواقبها، فبدأت تنبه الضمير الوطني في المنتفعين •• ولكن هل لهؤلاء ضمير حتى يتنبه ؟ وهل يغني تنبيه الضمير كبديل عن القانون ؟ إن البراعة التجارية في بلادنا أسوأ براعة لأن المغالين والمحتكرين يعالجون المرض بالمرض •• فلكي يأمنوا من العقاب يتوددون بالرشوات الى طغمة منحلة من المسئولين •• ولكن من يدفع عنهم غضبة الشعب ؟ وهو :
أولا : يعرف الراشين والمرتشين •

ثانياً : إن هؤلاء عبيد المال والشهوات ، لايستطيعون أن يقدموا الرشوة الى كل فرد •• والخبز مطلب جماعي لكل فرد •

فهل يدري هؤلاء أنهم نائمون في طريق السيل ؟ •

سوف يعلمون ولكن حين لاينفع العلم •• وهذه عادة المستغلين والمحتكرين والراشين والمرتشين ، إن الأرباح تعميهم عن رؤية الخطر

الحقيقي ، وإن أوراق المال تصم آذانهم عن الهمسات التي ستصبح سيولا نارية•• صحيح أن المحتكرين والتجار يتظلمون من الضرائب•• ولكن ألم تُخفف الضرائب مرتين ؟ ألم يبيعوا ما اشتروه في الرخص بأسعار أيام المغالاة الشديدة • ألم يهربوا أكثر البضائع ؟ ••

لقد نبه رئيس المجلس الجمهوري وأنذر••وما أصدر هذا التنبيه والأنذار إلا بعد ما بلغ الأمر مداه •• وربما لاينفع التنبيه المتخاذل ، لأن وطنية المحتكرين تنحصر في جيوبهم ولا يردها عن أطماعها إلا القانون العنيف والعنيف جداً ، لماذا ؟ • لأن النــاس ليسوا وطنيين بالطبع •• وإنما هم عبيد منـافع بطبعهم ولا يمنع من الإستغلال والإحتكار إلا اتباه القانون وعقوبة القانون ، وسيطرة الحكومة على الضروريات اليومية لأن القانون يعلم الناس ، إن من دخل من باب الرذيلة خرج من باب العقاب ، ومن دخل من باب الشرف بلغ قمــة الشرف،إذن فالعنف المشروع هو الذي سيسكت الأطماع غير المشروعة ، وبالتالي يسكت ضجيج البطون،والآن وقد بلغت يقظة الشعب مداها لم نعد نخاف من المحتكرين والمستغلين ، وإنما نخاف عليهم لأنهم نائمون في طريق السيل • لقد بدأ التجار والمحتكرون من أول يوم لقيام الثورة يسمون ثرواتهم باسم رأس المال الوطني •• وخدّرت هذه التسمية مؤقتاً ، ولكن الجماهير العريضة الطويلة عرفت أنه لايجتمع رأس المال المستغل والوطنية • وأن رأس المال في أيدٍ قليلة يسبب جوع الملايين وبالتالي يؤدي الى طُوفان الملايين •• فهل يمكن الآن خداع الجماهير العريضة الطويلة ؟•• الحقيقة لا •• لأن الجماهير تحس المرارة في أفواهها ، وصياح الأكباد في احشائها•• والأمر الذي لايقبل الصبر والإنتظار هو الجوع • وليس هنــاك ما هو أفسد للضمائر والأخلاق وأدْعى الى العنف من زمن المجاعة •• والمجاعة لم تأت في

بلادنا بالأسباب المعروفة ـ كالآفات الزراعية وكالجفاف المتواصل ـ أو زيادة الكثافة السكانية •• وإنما جاءت من حفنة الطامعين المستغلين بلا ضوابط • ف ٥٠٪ من بلادنا مزروعة مثمرة ، والسكان في بلادنا لايزيدون على عدد سكان مدينة القاهرة ، إذن فلم تأت الأزمة من قلة الموارد وكثرة السكان •• ولم تأت من عوامل طبيعية ، وإنما من وفرة المال • الى حد السرف في أيد قليلة من أغنياء الحرب ، وقلتها الى حد الإعدام في أيدي الأغلبية ، ومن المعروف أن في المدن وبعض القرى أفراداً يصرف الواحد منهم في اليوم أكثر من ألف ريال ، ومنهم من لايقدر على صرف الريال •• وقلما يجده •

فتجار الحروب •• وتجار الحلوق هم على حقارتهم أكبر الأخطار، وليس من الحكمة أن نعظهم أو نذكرهم بأنهم بشر •• لأنهم لايملكون من البشرية إلا الشكل ، فلا ينفع في القضاء على استغلالهم إلا العنف وحده لماذا ؟

لأن الكلمة النيرة والفكرة الرشيدة تؤثران في الضمير الحي ، وتعملان عملهما في القلب الانساني ، أما هؤلاء الأوعية القذرة فلا يؤثر فيهم إلا ما يتصل بأجسادهم من ضرب الكرباج ، وحز القيد ومصادرة الأموال ، وإذا لم تفعل الحكومة هذا • ولا ينتظر منها • فسوف تقوم الجماهير بالمهمة كعادتها في مثل هذه الأزمات ، وهناك يفيق النائمون في طريق السيل •

بقي جانب واحد عن هؤلاء المحتكرين •• إنهم ينقسمون الى ثلاثة أقسام •• وهي : ـ

أولا : القسم السلفي : ـ

وهم الذين يراكمون المال على المال ليمتد الغنى بالغنى •

ثانيا : قسم أدعياء الحرية والوطنية : ـ

وهؤلاء أقذر العناصر •• لأن الأموال التي يعتصرونها من جوع الشعب يضيعونها في أجواف الكؤوس ، وفي سراويل العاهرات •

ثالثا : قسم المذبذبين بين السلفيين والمائعين : ـ

وهم مذبذبون بين الجماهير المتظلمة والمحتكرين المائعين والمحتكرين السلفيين •

وهؤلاء بمجموعهم وأصنافهم لايقلون في درجة الخطورة عن المعتدين بالمدافع والرشاشات ، لأننا أقتدرنا أن نرد السلاح بالسلاح، وسوف يتحتم علينا أن نواجه الإحتكار والمحتكرين بالسلاح وهذا أمر" بديهي •• فما تفجرت الأحداث إلا بوحي البطون وإشارتها فالوطن الذي ناضل الاستعمار ، ناضله ليأخذ من يده ما يتمتع به من رفاه والذين قضوا على الملكيات لم يتجردوا من الأحساس الشخصي كلياً ، فقد كان يطمح المواطن العادي أن تكون له دار كدار الأمير فلان ، وسيارة كسيارة الأمير فلان ، بل وزوجة كزوجة الأمير فلان ، فمجرد التفاوت بين الارزاق والمكانات يفجر الأحداث غير الهادفة ، ويؤجج الأحقاد ، فكيف إذا ارتفعت درجة التفاوت الى حد الثراء الفاحش والفقر المدقع ، والى حد أن هناك من يصرف المئات في اليوم ، وهناك من يصرف الريال أو لا يملكه !•

إن هذا أكثر الحاحاً على تفجر الأحداث الفوضوية،وستكون الضربة بمقدار الحقد وعلى مقدار الصبر ، بل أن هذه الضربة لاتكلف عسيراً لأن الجائعين الحاقدين أمرن على القتال وأكثر سلاحاً واستماتة ، أما طبقة المحتكرين والمستغلين فهم أضعف حماية وأضعف كياناً ، وأن الخوف عليهم أكثر من الخوف منهم ، والركن الوثيق الذي يركنون اليه هي الرشوة وحدها •• ولكن من يحمي الراشي والمرتشي عندما تتفجر سيول الله ويختنق النائمون في طريق السيل ؟ •

إن التجار المحتكرين في بلادنا أحط أنواع التجار والمحتكرين . فقد امتصوا الذهب من أيدي المحاربين ليصبحوا أخطر من الحرب نفسها لأنهم ينزلون أسعار الخمور الى أدنى درجة ويرفعون أسعار الضروريات الى أقصى مدى وهي المطلب اليومي ، وكان المنتظر أن يحموا مصالحهم بالحفاظ على مصـالح الشعب ، لكنهم لايعرفون العواقب ولا يدرون الأخطار التي سيجرونها على أموالهم وأولادهم من بعدهم نتيجةإمكانية انفجار الفوضىلحقد المواطنوضعف السلطة وأكبر مصيبتهم أنهم لايفهمون حتى الوعي التجـاري . لأن الحس التجاري هو حس وطني ٥٠٪ .. ولقد ساهم التجار في القـاهرة ودمشق وبغداد في الانتعاش الوطني . فقد كانت الجمعيات الخيرية تتكون من أغنياء التجار وكبار الموظفين، وكانت جمعية مكافحةالأوبئة من أغنياء التجار ، وكانت جمعية إحياء التراث العربي من أغنياء التجار في القاهرة وحلب وبغداد، ويكفي أن نعرف أنتجار القاهرة وأغنياءها بالوراثة هم الذين بنوا جامعة القاهرة عام ١٩٠٨م . وهم الذين بنوا عشر ثانويات للبنات والبنين من عام ١٩١٥ الى عام ١٩٣٥ ميلادية ، ويكفي أن دار المعلمين العليا في بغداد بنيت بأموال تجار العراق ، فمن التاجر في بلادنا الذي كون جمعية خيرية ، أو بنى مدرسة .. أو نشر كتابا على حسابه الخاص ، أو تبرع لمعركة من المعارك ؟ .

لقد كان (عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان) رضي الله عنهما يسلحان ويمولان جيش المسلمين في اكثر من غزوة بمجرد إشارة من « النبي » أو بشعور بالحاجة الى ذلك .

ولقد قالت امرأة مخزومية لرسول الله « لديّ يارسول الله مال.. وليسلدي قدرة علىحمل السيف، فهل يجزينيإنأزود المجاهدين ؟.» فقال : عليه الصلاة والسلام « من زود مجاهداً فقد جاهد » .

فأين تجارنا السلفيون من (ابن عفان وابن عوف والمخزومية ، ؟ .)

وأين تجارنا المعاصرون من تجار بغداد والقاهرة وحلب ودمشق ؟.

إن تجارنا ومحتكرينا كالقبور تبتلع ولا تدفع ، وكالرمل يمتص ولا يروي ، ولا يردهم عن إفسادهم إلا القانون النزيــه ، والعنف الاصلاحي الرقيب على غذاء الشعب ، وإلا فسوف تقوم الجماهير بالمهمة . وهناك يعلم عبيد الشهوات والمال أنهم يبنون قصورهم على سطوح البراكين . وأنهم نائمون في طريق السيل . فقد كابدت صنعاء النهب ثلاثين مرة في أثناء قرنين تتيجة المجاعة وكان يؤدي كل نهب الى حروب أهلية هدفها سد الرمق ، فلكي تصان الدماء والأموال معاً يتحتم على المسؤولين الاشراف المباشر على الخبز وسائر الضروريات وذلك أقل مايجب وهذه الاجراءات قـائمة ومتبعة في كل الدول بمختلف أنظمتها .

* * *

المواطن أولاً

من البديهيات أن الشعوب لاتنضج كلياً في وقت واحد ، وإنما يلوح أفراد وجماعات طليعية تتميز بحس أوفر ، فتستنكر النكير وتومىء الى مكامن الأسباب في الخلل الإجتماعي أو الإنهيار الاقتصادي ، وغالباً ما يكون هؤلاء الأفراد أو الجماعات من المواطنين العاديين وإن تميّزوا بحساسية خاصة .

فهمجية الجاهلية ووثنيتها كانتا موضع القبول لأنهما الواقع الذي لامفر منه ، فلم يستنكر أحد من بني هاشم أو بني مخزوم أو بني أمية سوء الأوضاع التي كانت قائمة ، ولا حاول تغييرها بل أصر كل أولئك السادة على ديمومة ذلك الوضع ، بما فيه من عاهات اجتماعية ، ودموية تقود الموت وتسبقه الى إبادة الحياة، لأن في ذلك الوضع المتردي منافعهم الاقتصادية الطبقية ، لكن أفراداً صغارا من جزيرة العرب هم الذين أنكروا ذلك الوضع الشائن وكشفوا عوراته تحت أضواء التأمل والتقصي ، وذات يوم عاد « بشامةبن قيس » من حرب (بكر وتغلب) الى أهله ، وكان من المنتظر أن يفعل كغيره من رجال ذلك الحين .. فيفخر بمضاء سيفه وقوة ساعده ، ويعدد ضحاياه من الأبطال .. لكن بشامة خالف ما كان ينتظر منه فقال في قومه : « لقد قتلنا وقتّلنا ورب الكعبة لا أدري على ما » . أليست هذه أول بادرة مشرقة تكشف عورات الأوضاع .. فقد كان الجاهلي

يقتل ويقتل دون أن يسأل لماذا ؟ وعلى ما ؟ المهم أن يُغير عندما تدق طبول الحرب .. لكن بشامة بن قيس المواطن العادي أول من سأل فيما تقاتلنا وعلى ما ؟

فالملاحظة من المواطن العادي تلوح أولا : فتسبق الهداية النبوية والزعامة السياسية ، فقبل أن يعلن رسول الله صلى الله عليه دعوة ربه الى الهدى .. نادى يغوث اليشكري قومه وهم يزدحمون على الأصنام « يا قوم فيم الزحام التمسوا لكم آلهة غير هذه الآلهة الصماء ، ورب الكعبة ما أنتم على شيء » . هذا المواطن الصغير لم يكن مخزومياً ولا هاشمياً ولا أموياً ، وإنما مواطن عادي أنكر شغل قومه بالتوافه ، وأنكر عليهم أقدس العادات لديهم ، وسبق هذا الاستنكار ، دعوة الله وإشراف النبوة كبشير بهما وكدليل تقبل للجديد ذلك لأن في المواطن العادي المتاز بالفهم .. أخطر الأسرار التي تتحول الى أقدار ، فهذه الصيحة على الزحام على الأصنام كانت كصيحة سقراط على سفسطائية الحكم ، وجدلية قضاة أثينا ، ولقد استمر سقراط في صيحته الأنكاريةحتى شرب السمومات، ولكن كلنا نعرف من هو سقراط ، ولا نعرف اسم أحد من قضاته الذين حكموا عليه ، ذلك لأن مبدأ سقراط شعلة أبدية لصدورها عن فكر تغييري بينما قضاته مجرد فضول على الحياة ماتوا وكأن لم يولدوا ، ولقد أدى استشهاد سقراط الى شروق الفكر ، والى تغيير الأوضاع الى أفضل ، ذلك لأن ملاحظات المواطن تأتي أولا .

ويأتي بعدها دور النبوة أو الزعامة السياسية فإنكار عبودية الأصنام من قبل مواطنين مغمورين كانت أول خيوط فجر النبوة ، حتى لاقت دعوة الله على لسان نبيه هوى ً في نفوس المستنيرين أولا ، ويكفي أن نعرف أن أبا بكر الصديق أول من آمن لأنه كان رجل

صدق وأمانة قبل النبوة ، ولأنه كان رجلا عاديا من قبيلة « تَيْم » التي لم تغرها السيادة ولم يفسدها الترف ، فالعامل الرئيسي في نجاح النبوة هو إنكار الأوضاع الجاهلية من قبل مواطنين صغار ، تميزوا بصفاء الحس وقوة الشخصية فأثروا على البيئة ولم تؤثر عليهم • وهكذا المواطن الممتاز يغير فساد البيئة ولا يغيره فسادها ، الى أن يتحول الى عامل تغيير أكبر ، يفرض وجود زعامة تنزل عند ارادة الشعب وتخضع لرأيه ، فلم تكن الكنيسة الأوربية والملوك المحتمون بها بسريدة أن تتنازل عن ابراجها ، وإنما أرغمتها إرادة المواطنين الذين تجلوا في صورة أفراد أحرقوا أحياء ، وفي صورة جماعات أحرقت ، أحيـاء أيضـا •

فعندما نرى اليوم ديمقراطية الحكم في أوربا ، نذكر على الفور أولئك الذين شنقوا وأحرقوا ، حتى كانت هذه الديمقراطية والحرية حصـاد رمـادهم ، وثمرات دمـائهم •• فلم تصبح بريطانيـا بلد الديمقراطية، ولا فرنسا أم الحرية، إلا بعدقافلة تلو القافلةمن الشهداء، وكان أغلب أولئك الشهداء من المواطنين العاديين ، لهم رائحة الشعب وعلى كواهلهم أوجاعه •

فالمواطن العادي يأتي أولا بملاحظاته ، وتتلوها القيـادة التي تلتقي عندها أهواء الشعب ، لأنها نزلت عند رأيه ، فما أضاءت نبوة ولا انبثقت ثورة ، إلا وكانت أفكار المواطنين العاديين أكبر بواعث اشراقها وانفجارها ، ذلك لأن القاعدة من المواطنين الممتازين تسبق ميلاد القيادة وتفرض وجودها ، وبعد آراء القاعدة يوجد الزعيم والقائد الذي يتحدث باسم هؤلاء المواطنين ، ويتحدى أعداء الوطن ، وخلفه حامية من قوة الرأي ، وحماس الوطنية ، فالوعي الوطني هو أول بشير بالقيادة الشعبية لهذا يستهدف استعمار اليوم غربة المواطن

عن نفسه ، وفي بلادنا معطيات من هذه الأمثال النموذجيةفي الوطنية . ففكرة انقلاب عام ١٩٤٨م لم تنبثق من دار عبد الله الوزير ببستان السلطان .. وإنما انبثقت من المدرسة العلمية بميدان التحرير وكان عبد اللهالوزير آخر من علم بالتذمر الشعبي ، في المدن وبفكرة التغيير الدستوري ، ولما نست فكرة التغيير وزاد امتدادها من صنعاء الى عدن .. ظهرت القيادة لتركب علىظهر الأحداث وإن غابت عنهاجماهير المدن الأخرى والأرياف ، فكانت الأحداث لها كالسلم المفضي الى العرش ، لكن هذه القيادة وهذه الأحداث كانت مبكرة ، وكـــانت أضواؤها خافتة . بين كثافة ظلام البيئة .. لكن أول كل نار شرارة ، وأول كل شجرة بذرة صغيرة .. وكل رجل يولد طفلا .

المهم أن الليل في بلادنا على طوله لم يخل دائما من نجوم مشرقة تعد باطلالة الفجر .. فكل حدث تفجر في بلادنا كان المواطن الصغير عامل انفجار ، ذلك لأن الكبار غارقون في الذهول عما هو كائن ، وما يجب أن يكون ، وهذه طبيعة الحاكمين دائما ، إنهم لاينزلون عند رأى الشعب إلا مرغمين ، لكن المسألة تختلف من بلد الى بلد .. فعندما هُزمت الارستقراطية في أوربا على يد البرجوازية ، أرادت البورجوازية بعد انتصارها أن تتمتع بمزايا الارستقراطية ، وتتخـذ اسلوبها ، لكنها عرفت في آخر الأمر أن أكفان الأموات لاتصلح ثياب حياة ، فنزلت عند رأي الشعب على أي شكل اختيارا وضرورة معاً ، ذلك لأن البورجوازية تبينت أن ثورتها ستتحول عليها ، وإنها إذا لم تنزل عند رأي الشعب ولو شكلياً بعماله وفلاحيه ، فسوف تكون الشيوعية البديل الأفضل .. لهذا بادرت حكومات أوربا الرأسمالية الى رفع أجور العمال ، والى تحسين مستوى معيشتهم نسبيا .. والى تحسين الحياة المعيشية على كل مستوى ، لتقطع الطريق على الشيوعية

ولتطول مدتها في الحكم •• وهذا اعتراف عملي برأي الشعب ، وحقوق الشعب لأن الشعب لم يعد ذلك القطيع الوديع ، بعد أن عرف أنه سيد الأرض ومصدر السلطة •• بل إن كل سلطة مدينة بوجودها للمواطن الذي أنكر سلطة سيئة ، وبحث عن سلطة أفضل ، لأن كل زعامة سياسية أو قيادة عسكرية •• لابد أن تكون وليدة ظروف •• لكن هذه الظروف من خلق المواطنين العاديين لكثرتهم وحرارة تجاربهم مع محترفي السياسة •

ومن هنا يتجلى الفرق العملي بين من يصنعون الفرص ومن يستغلونها ، وبين من يفجرون الأحداث وبين من يصعدون على دخانها •• فالذين ترفعهم أحداث •• تسقطهم أحداث • والذين تخلقهم فرص تعدمهم فرص أخرى ، والوسيلة الوحيدة في بقاء أي زعامة هو النزول عند رأي الشعب ، مفجر الأحداث وصانع الفرص ، لقد عرفنا أن فكرة انقلاب عام ١٩٤٨ م ولدت بين صفوف الطلاب في المدرسة العلمية • لكن :

أين ولدت فكرة ثورة عام ١٩٦٢م ؟ •

لقد ولدت في نفس المكان وفي أمكنة أخرى •• فقبل ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م تفجرت الثورات الطلابية في صنعاء وتعز والحديدة •• ومن هنا انتقلت عدوى الحماس الى العسكريين ، فلو لم تهز مواكب الطلاب المتظاهرين شوارع العواصم لما تحركت دبابة الى (قصر البشائر) ، ذلك لأن المواطن العادي سبق أولا ، فهيأ الأسباب وفتح العيون على عورات الأوضاع ، وكون الرأي العام الداعي الى التغيير ، ومن هنا تنفجر كل ثورة •

الوطنيّة الكاملة

يبدو أن التوسط لم يعد مناسباً ولم يعد خير الأمور ، فليس هناك إلا قوة وضعف ، أو كمال ونقص ، والوسط شيء ملغي من الحساب ، فنصف المتعلم أجهل من الجاهل ، لأنه يأبى المزيد اقتناعاً بما لديه ، والجاهل يقبل التعليم لأنه يحن الى المفقود ، وكامل التعليم يحن الى المزيد لأنه يعرف قيمة التفوق ، ويعلم أن الزمن لم يقل كلمته النهائية والوطنية لاتقبل التوسط •• فليس هناك إلا وطنية كاملة أو لا وطنية، أما من كان نصفه وطني •• فلا بد أن يكون نصفه الآخر عميلا أو خائناً ، وقد تتغلب نصف العمالة على نصف الوطنية ، لما للعمالة من أرباح مؤقتة ، وقد عرف تاريخنا المعاصر كثيراً من انصاف الوطنيين ، ومن الوطنيين الكاملين :

ومن أمثال أنصاف الوطنيين (نوري السعيد) فقد كان يرى أن مصلحة الحكم والبلد ، العمالة للغرب المستعمر ، وكان يحقق القليل من المشاريع ليبقى الحكم في ظل العمالة •• فهو نصف وطني بما قدم من خدمة •• لكن نصفه الآخر عميل لأن آراءه لم تكن آراء الشعب العراقي ، وإنما هي حيل العمالة التي تريد أن تبقى في قمة الحكم •• وهذا ضروري لأي عمالة ، فكل عميل يخلو من الوطنية نهائياً ، أو حتى دعواها ببراعة•يعجز عن تحقيق مصالحه ومصالح أسياده ، لهذا

يشترط في العميل أن يملك نصف وطنية على أي منظور أو دعوى وطنية، لأن لأن العميل مهما كان تابعا فلابد له من أتباع •• لكن النصف الوطني ينتهي عندما يوجد الوطني الكامل الوطنية ، وهذا ما تم للثوار في كل أرجاء الوطن العربي ، فكيف تكون الوطنية كاملة ؟ •

لقد ترقت الوطنية كما ترقت كل العناصر النامية ، فقد ترقت من محيط العائلة الى محيط القبيلة ، ومن محيط القبيلة الى محيط الأمة• التي تجمعها عقيدة كالأمة الاسلامية أو المسيحية ، ولما تفرقت دولة الاسلام الى دويلات ، كان للاستعمارين التركي والانجليزي مكان الصدارة والقيادة •• ولكن الشعوب كالأفراد تمرض وتصح ، وتضعف وتقوى ، فبعد وهن الاستعمارين العثماني والانجليزي •• نهضت الوطنية من غفوتها ، وكانت في بدايتها كطفولة الانسان ، فقد كانت وطنية المصري لاتتجاوز حدود مصر ، ووطنية العراقي لاتنفذ من تخوم العراق، ووطنية الشامي لاتتجاوز حدود أقطار الشام المجزأة، وهذه ليست الوطنية الناقصة ولكنها الوطنية الناشئة والنمو من طبيعة كل ناشيء •

أما النقص فلا يتحول كمالا ، ولو تدخلت المعجزات ، وقد كانت وطنية اليمن مفقودة أيام نشأة الوطنيات ، فقد كان الإمام هو الوطن والوطن هو الإمام بفعل دعاية إمامية قائمة على ثقافة وراثية ، وتتيجة لاكتمال الوطنية في دنيا العرب ، نشأت وطنية الانسان اليمني • والنمو من طبيعة كل ناشيء •

لكن النقص يبقى نقصاً ، لأنه من طبيعة التركيب ، أو من فعل انقسام الذات على نفسها ، وعلى هذا فالوطنية الناشئة •• تصبح وطنية كاملة •• لكن الوطنية النصفية تقسم الشخص الى وطني وعميل •• وقد يطغى النصف العميل •• فيبلع نصف الوطنية بالتدريج البطيء ، أو بالأغراء السريع ، ومن هنا يمكن تحديد الوطنية الكاملة بأمثالها •

فالوطنية الكاملة في الإنسان اليمني تتجلى بشمول قضايا الأمة ، على أساس وطني حتى يحس مواطن صنعاء أن احتلال الوديعة احتلال (لنقمْ أوظفار) واحتلال الجولان احتلال (لرازح أو حَجّه) ، واحتلال سيناء احتلال (لميدي أو الحديده) ، واحتلال الضفة الغربية احتلال (لتعز أو باجل) •• فمن توافر له هذا الأحساس المجيد •• فهو وطني كامل الوطنية •• بل هو الانسان الكامل الانسانية •

لماذا ؟ •

لأن الرضاء عن احتلال أي مكان يشجع العدوان على مد ذراعه الطويلة الى كل مكان •

فقضية فلسطين مثلا تعتبر قضية كل عربي أولا ، وقضية كل انسان ثانيا •• لأن العدوان الذي احتل فلسطين يمكنه احتلال صنعاء والرياض ، إذا لم يتوافر الاحساس بالنضال !! ويمتد جهد المقاومة ! وعلى هذا فالوطنية الكاملة هي الاحساس بالمسئولية عن قضايا الأمة عموماً من المحيط الى الخليج •• لأن فقدان جزء من الأمة يؤدي الى فقدان بقية الأجزاء ، والحرية لاتتجزء كقضية •

فالوطنية الكاملة هي وطنية العروبة ، تنشأ مع ميلاد كل ثورة ، وتنمو حتى تصبح وطنية كاملة •• تحقق انسانية كل قطر لتحقق انسانية الامةوتسهم بالتاليفي صنع الانسانية وحمايةحقوقها المشروعة•

تلك هي الوطنية الكاملة •• وليس هناك وسط ، بل وطنية أو لا وطنية •• لأن الوسط أصبح ملغياً من حساب الزمان •لتذبذبه بين إيهامالوطنيين وخدمة المحتلين•ونقط الضعف هي جسرعبور الإستعمار الجديد كما كانت جسر عبور الاستعمار القديم • لا وطنية إلا بنضال الاستعمار في الوطن الصغير والوطن الكبير ، وفي العالم •

وعن قبيلـة .. للشعب

دلت تجارب الشعوب أن الصالح العام هو أضمن الوسائل ، وأنجحها ، للكل من أجل الكل ، أما التفاني في المصالح الخاصة فهو يقيدها عن العموم ، ولا يضمن بقاءها للخصوص :

نأخذ على هذا مثلا : إذا كنت تملك القدرة على علاج أطفالك ، كلما أصابهم مرض .. هل هذا يضمن لاطفالك السلامة .. وأطفال الشارع والمدرسة يعانون الامراض .. ؟

بالتأكيد : لا ، لأن الوباء العام يصيب الخصوص ، بينما العلاج العام يضمن سلامة الكل ، لأنك إذا قدرت على علاج اطفالك عجزت عن حبسهم عن لداتهم وزملاء مدرستهم .

وهكذا كل المصالح العامة يستفيد منها الكل : فمتى سنكتشف أن ما يملكه مجتمعنا نملكه كلنا .. باعتبار أن المجتمع كائن حي يستعين بعضه ببعض .. ويتأثر سائره ببعضه .. ؟

والذي يبعث على التساؤل هذه الشللية البدائية المتفشية من قبل عشر سنوات .. فكل يسعى لنفسه ولشلته .. ولنفسه ومن يتصل به من أجل نفسه : « هذا من خطنا يستحق كذا .. وهذا من شلتنا له حق كذا .. وهذا من قبيلتنا يجب أن يصل الى كذا.. وهذا من قريتنا أولى بكذا .. » .

فمن يبحث عن قبيلة للشعب .. أو عن شلة للشعب .. ؟ لأن.

الشعب ليس مجرد شلة ولا قبيلة •• وإنما هو موطن كل الشلل وكل القبائل •• وعلى كرامته وصالحه العام يجب أن يهتم كل تركيز ، لأن الوطن والد الجميع تنتمي الى تربته كل الفئات •• وتنتسب الى عراقته كل فئة • وتنتفع بصحة مسيرته كل القافلة •

والشعب الذي على أرض هذا الوطن ليس شلة فلان ولا قبيلة فلان ولا قرية فلان •• وإنما هو كل الناس على هذه الأرض من (الخبازة الى المديرة) ومن (الحطاب •• الى الشيخ) ومن (الراعي الى الوزير) ومن (الكناس الى الوكيل) ومن (الجندي الى القائد العام) •

إن التفاني على المصالح الخاصة يكاد يفقدها •• فكل القرارات التي تصدر لاتنفذ تحت مبدأ التصحيح •• لماذا ؟ ••

لأن الشعب يحتاج أن يبحث عن قبيلة أو شلة ينتمي اليها •• مع أنه موطن الكل وللكل ، وكل ما يحقق تقدمه ، يقضي على كل تأخر ينبغي أن تصدر القرارات معبرة عن مصلحته • • وبهذا يتم تنفيذها لمعرفته ، انها تخدم المصلحة العليا لكل مواطن على هذا التراب ، لأن هذا التراب منبت القائد والجندي والشيخ والفلاح والمثقف والتاجر •• وتنفيذ المصالح العامة يضمن حماية المصالح الخاصة على اعتبار أن كل حركة وطنية تستهدف خدمة الشعب للشعب وبالشعب باعتباره قبيلة كل القبائل وملتقى كل الخطوط • وباعتبار الوطنية الحقيقية أصح وسائل زعامة الزعيم ، وأنصع دليل على شهامة القبلي ، وأصدق برهان على صحة رأي المثقف أو على متانة اعتقاد السياسي فلا اختلاف على الوطن وإن تنوعت الاختلافات فهو القاسم المشترك بين مختلف المذاهب •

مجلة الجيش العدد (٥٩) فبراير ١٩٧٥

جدول الخطـأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصواب
١٦	٢١	المجماميع	المجاميع
١٨	١	ومؤامرة	مؤاثره
٢٠	٨	الميك	المليك
٢١	٥	وقال	قال
٣١	١٩	معادي	معادى
٣٣	١٨	لـه	لـم
٥٩	٢٣	اللقبه	اللقيـه
٦٨	٢٢	فيصبح	فيصيح
٧١	١٢	أحدث	احداث
٧٣	٣	يبتدى	يبتدىء
٧٥	٢	قاسم مشترك	قاسماً مشتركاً
١١٤	١٦	دنرجة	درجة
١١٥	١٦	بيجان	بيحان
١٢٧	١	جنينه	جنينيه
١٢٩	٤	تلاقت	تلاحقت
٢٠٥	٣	مضمونة	مضمومة
٢٠٨	٦	وغدى	وغدا
٢١٨	٧	الحصرانى	الحضرانى
٢٢٢	١٥	المسايل	المسابل
٢٣٢	١٣	الألي	الألى

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصواب
٢٣٥	٧	المتلقى	المتلقي
٢٤٠	٤	للقوم	القوم
٢٤٠	١٩	ابنتيها	ابنيتهـا
٢٤٢	١٧	ذو الرؤية الواقعية	للرؤية الواقعية
٢٥٤	٢١	الأوبية	الأوربية
٢٥٥	٩	المستد	الممتد
٢٦٧	٢	اليمينية	اليمنية
٢٧٤	٢٠	وما سبه	وما سببه
٢٩٣	٤	ايّا	ائّن
٣٠٠	٥	وانتم	وانتم
٣٠٨	٦	النصر	النظر
٣٦٥	٣	نبعث	نبعت
٣٩٨	٦	عد	عهد
٤٣٨	١	محلوق	مخلوق
٤٧٠	٨	بالتوره	بالثورة

* * *

الفهـرس

الموضـوع	الصفحة
مقـدمـة	٣
حين يحكمون وحين لا يحكمون	١١
المسئولية والسؤال	١٩
شخصية تبحث عن مؤلف	٢٥
الفرسان الثلاثة بين المنطلق والهدف	٣٧
الحركات الوطنية وما لهـا وما عليهـا	٤٧
العظيم المتهـم	٦١
بين الثورة والمشاكل الثورية	٧٠
مجربون بـلا تجربة	٧٩
صنع التجربة ونقل التجارب	٨٨
نهاية البـين بـين	٩٦
اللغة المشتركة بين التأسيس والتصحيح	١٠٤
المؤتمرات والمؤامرات حتى التصحيح	١١١
حتميـة التقـدم	١٢١
الادراك المأسوي في شعرنا اليمني	١٣٣
سمات التحولات الوطنية على ادب الزبيري	١٥٠
الزبـيري معـارضاً	١٧٤
زاهر صلاح عطشان	١٨١
صور الاحداث في مرايا شعرية	١٩٩
ادبنا والقضايا العـالمية	٢١١
الحكيم الثالث حزام مرشد الشبثى	٢١٩

الموضـــوع	الصفحة
اليمنية وعزة الفقر عند اعشى همدان	٢٢٧
الأزمة الشعرية بين الوجه والقناع	٢٣٥
النظرية والنظر في الثقافة اليمنية	٢٤٢
الأصول الأولى لمعاصرة الفكر اليمني	٢٥٢
بدايــة المفترقات في خطنـــا الفكري	٢٦٢
الأفكار الواردة والأفكار المستوردة	٢٧١
الجسور والحفر في خطنـــا الثقافي	٢٧٦
ثقـــافة الثورة أو ثـــورة الثقـــافة	٢٨٦
الحلقات المفقودة في تاريخنا	٣٠٦
التراث بين العصرية والأصالة	٣١٥
بين التذبذب والتناقض	٣٢٤
كتاب بـــلا مؤلف	٣٢٧
تـــكاليف الســـلام	٣٢٩
بـــين الحرية والضرورة	٣٣٦
المعاصرة واليمن المعاصر	٣٤٠
الوصول قبل السفر	٣٤٦
الضجة بين الصوت والصدى	٣٥٣
من حلوق البنادق الى مقاعد اللجان	٣٥٨
بـــين غروب وشروق	٣٦٨
كتابة على باب عام جديد	٣٧٧
حتى نهزم الهزيمـــة	٣٨٥
بين الذي لا يرجع والذي لا ياتي	٣٩٠
عـــام المـــراة	٣٩٧
بعـــد عامها الدولي	٤٠٠

الموضـــوع	الصفحة
ثلاث قضايا بـين يدي العيـد	٤٠٣
تالـه الأزمـات	٤١١
من احتراف الجندية الى الاختيار الثوري	٤١٣
الثورة والاختيار الصعب	٤٣٨
القوة بين الضرورة والوهم	٤٤١
رسالة الى سبتمبر	٤٤٤
بـين تهمتين	٤٥٠
الرشوة من الضرورة الى الترف	٤٥٧
من سيطرة الواقع الى السيطرة عليه	٤٦٦
الجماهير من التبعية الى فلسفة القيادة	٤٧٢
النائمون في طريق السيل	٤٧٩
المواطن اولاً	٤٨٦
الوطنية الـكاملة	٤٩١
وعن قبيلة للشعب	٤٩٤

* * *

صدر للمؤلف :

مجموعات شعرية : ـ

١ ـ من ارض بلقيس
٢ ـ في طريق الفجـر
٣ ـ مدينـة الغـد
٤ ـ لعيني ام بلقيس
٥ ـ السفر الى الايام الخضر
٦ ـ وجوه دخانية في مرايا الليل

كتب : ـ

١ ـ رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه
٢ ـ قضايا يمنيـة

قيـد الطبـع : ـ

١ ـ الجديد والمتجدد في الادب اليمني
٢ ـ الحركات الوطنيـة
٣ ـ رجـال ومواقف
٤ ـ من اول قصيدة الى آخر رصاصة
٥ ـ زمان بلا نوعية ـ مجموعة شعرية